

مذكرات أول سفير لموسكو بالقاهرة في عهد الملك فاروق وآخر سفير لها قبل وقفة السادات مع الصديق السوفيتي

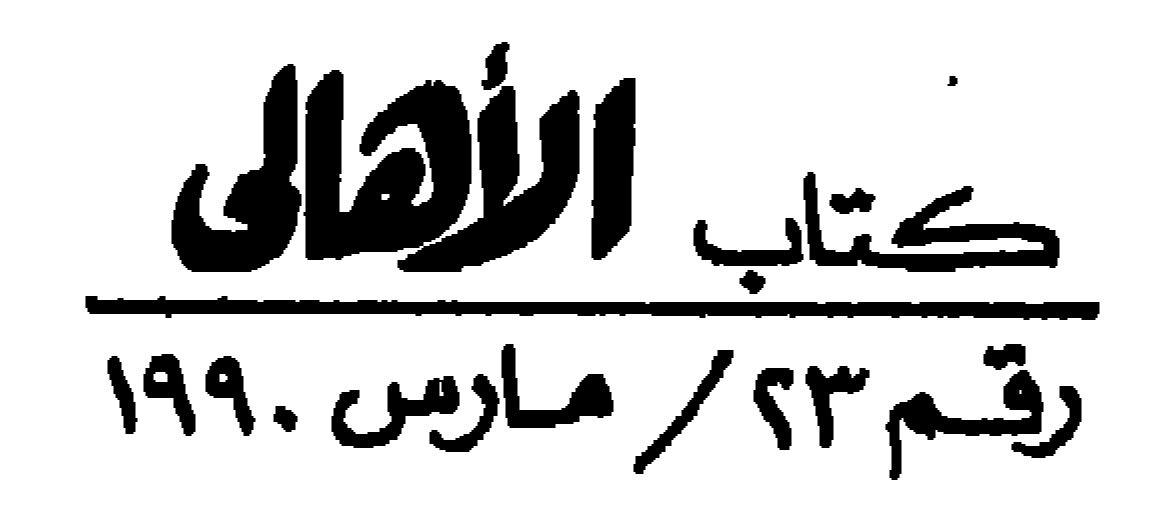
نيكولاي نوفيكوف
فلاديمير فينوجرادوف





يوميات دبلوماسي في بلاد العرب

حقبة غامضة من التاريخ المصري


كتاب الأهالي
رقم ٢٣ / مارس ١٩٩٠

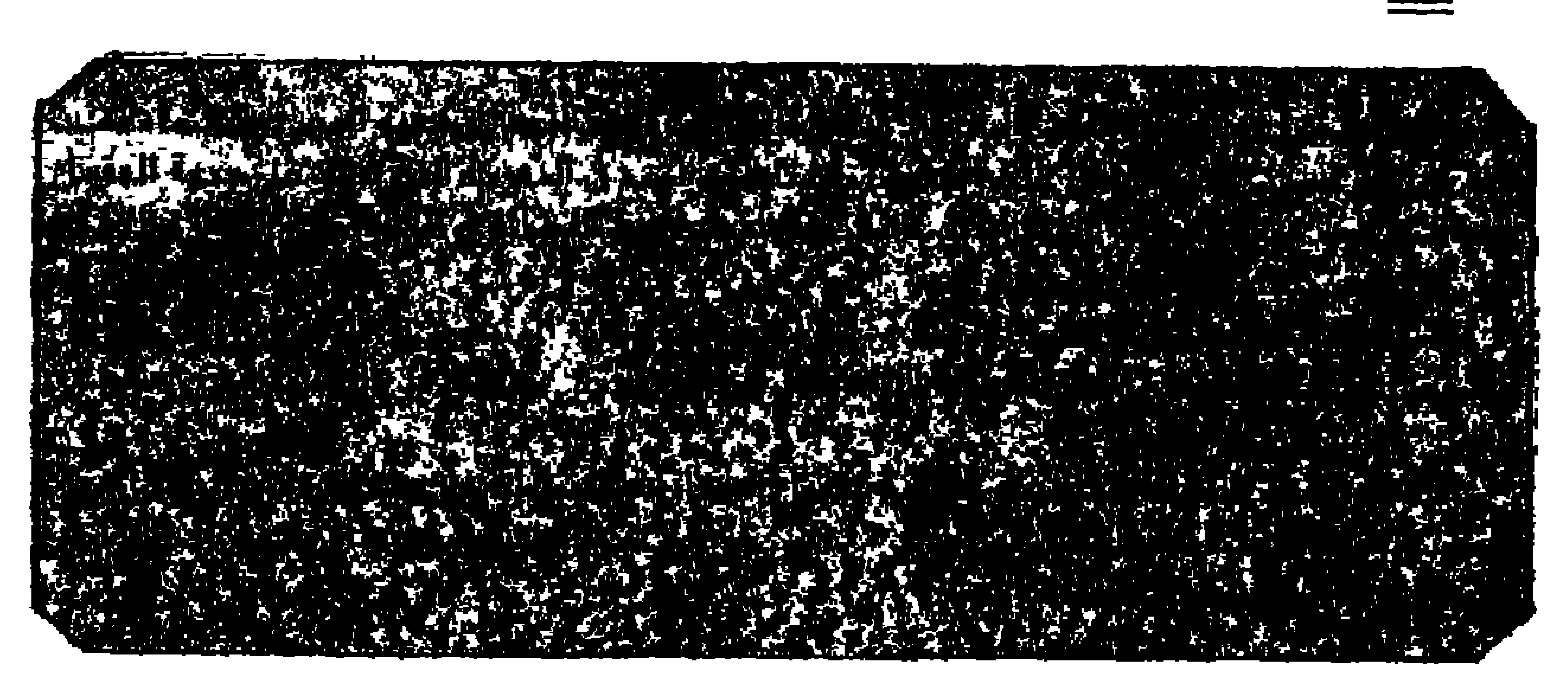
مجلس التحرير : د. ابراهيم سعد الدين / ابو سيف يوسف / حسين عبد الرازق/د . عبد العظيم انيس / عبد الغفار شكر / د . محمد احمد خلف الله

الادارة والتحرير ٢٣ شارع عبد الخالق ثروت شقة ١٨ القاهرة ج . م .
ترسل جميع المراسلات باسم رئيس التحرير

الاعلانات · يتفق بشـــأنها مع الادارة

الاعداد السابقة : توجد نسخ محدودة من الاعداد السابقة من السلسله ترسل لمن يطلبها خارج القاهرة او خارج جمهورية مصر العربية بالبريد المسجل ويحسب سعر الكتاب على اساس ان الجنيه يعادل (دولار) امريكى ويضاف جنيه مصرى داخل مصر على ثمن الكتاب نفقات البريد كما يضاف « دولار » واحد خارجها الى الثمن وتحول اثمان الكتاب بحوالة بريدية باسم الاهالى .

كتاب الاهالى سلسلة كتب شهرية تصدرها جريدة الاهالى ـ
حزب التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى ـ مصر



كتاب **الأهالى**

ثقافة الهدم والبناء

الامين العام : خالد محيى الدين

رئيس مجلس الادارة : لطفى واكد

رئيس التحرير : صلاح عيسى

الاشراف الفنى : حامد العويضى



◆ الاراء الواردة فى كتب السلسلة لا تعبر بالضرورة عن رأى التجمع ◆

يقبل كتاب الاهالى نشر جميع الكتب المؤلفة والمترجمة التى يرغب اصحابها فى نشرها طالما تخدم الهدف من اصداره ويقبل التبرعات والهبات التى يقدمها المهتمون بنشر الثقافة والراغبون فى تحمل جزء من نفقات اصداره بهدف تخفيض سعر بيعه للجماهير ويشير الى ذلك اذا طلب صاحب الشأن .

كلمة من المحرر

دفاعاً عن ذاكرة الوطن

البحث عن كل ماكتب ونُشر عن التاريخ العربى، والمصرى، باللغات غير العربية، وترجمته، ونشره، هو أحد المهام الأساسية التي يضعها كتاب الأهالى على رأس إهتماماته..

وكثيرون هم الذين كتبوا ينبهون إلى أن هناك محاولة لمسح الذاكرة الوطنية والقومية، وكثيرون هم الذين رصدوا، أن الجيل الذى سيرث المستقبل من الشباب العربى، يكاد يجهل تاريخ وطنه وأمته، وأنه يعرف عن "مارادونا" و"مايكل جاكسون" أكثر مما يعرف عن "سعد زغلول" و"ابراهيم هنانو"، و"عز الدين القسام"، و"شعبان حافظ".

لكن قليلين منهم هم الذين تنبهوا، ونبهوا، الى أن هذا الجيل معذور لأن أحداً لم يقف- كما ينبغى - إلى جواره، حين كانت عمليات مسح الذاكرة الوطنية والقومية تجرى على قدم وساق، ولأن أحداً لم يحاول أن يقدم إليه بشكل كاف، مايستطيع به أن يقاوم تلك المحاولة الشريرة، لقطع صلته بالماضى، ونزع جذوره من الأرض، وتحويله إلى مواطن "كوزمو بوليتانى"، يتعامل مع قضايا وطنه وهموم أمته، ومع الاثنين بنفس الدرجة من الحرارة التى يتعامل بها مع هموم شعب الاسكيمو الشقيق!

ومنذ صدر "كتاب الأهالى" وهو يحرص على أن يقدم لقرائه، بين الحين والآخر، كتبا فى التاريخ العربى والمصرى، الحديث والمعاصر، اخترناها بحيث تكون إطلالة تاريخيه على الحاضر، وتعليقا ماضوياً على اليوم، وفى هذا السياق، قدمنا "بنوك

وباشوات" و"السلام الضائع فى كامب ديفيد" و"السادات: الحقيقة والقناع" و"النيل فى خطر".

أما وقد ذللت الظروف التى حالت دون صدور هذه السلسلة شهرياً، فقد كانت من المنطقى، أن تكون الدراسات والشهادات والوثائق التاريخية، فرعاً أساسياً من إصداراتها، وأن تطمح إلى وقت تكون فيه الإصدارات التاريخيه، فرعاً "مستقلاً" من هذه الاصدارات.

وحتى لايلتبس الفهم على أحد، فلسنا ممن يضفون القداسة على شىء، حتى لو كان هذا الشىء هو تاريخنا الوطنى والقومى، ذلك أن هذه القداسة، تفقدنا القدرة على فهمه وتقييمه والاستفادة من مزالقه وعثراته، ثم أن ذلك يساعد على مواصلة ذلك الاسلوب الشرير، الذى انتهى بافتقاد العقل العربى، إلى "الحاسة النقدية"، وإبقائه أسيراً لكثير من المقدسات غير المقدسة.

وما يهمنا- بالدرجة الأولى - هو أن نتيح للعقل المصرى والعربى، وخاصة هذا الجيل الضائع، الذى يفتقد معظمه لأى قيمة، أو هدف، الفرصة لكى يغامر بالملاحة في البحار الصعبة، فيقرأ سبعة وجوه للحقيقة، ويقارن بينها، ويستنتج، ويرجع، ويقبل ويرفض، ويكّون عقله، عبر تلك العملية المعرفية الشاقه، التى تتمرد على التلقين، وترفض الرفض القائم على الجهل، كما ترفض القبول القائم علي الغرض..

ومن هنا فإن إصداراتنا التاريخيه سوف تجمع بين الدارسات التى تقدم التاريخ برؤى منهجية، وبين الكتب والمطبوعات، التى هى أساس التأريخ، كعلم له أصوله وقواعده، والتى تقدم للمؤرخ المادة الأولية، التى يقارنها بغيرها، ويتابع الخيوط التى تمكنه من فهمها، قبل أن ينتهى منها إلى حكم تاريخى..

ومن بين هذه الكتب المذكرات السياسية، التى كتبها المشاركون فى العمل

العام، والذين لعبوا أدواراً في تاريخ وطننا وأمتنا، وهي من أكثر أشكال الكتابة التاريخية إجتذابا، للقراء، حتى أن سوق المطبوعات قد شهدت في السنوات الأخيره حرباً شبه فعليه، أطلقت عليهامنذ سنوات وصف "حرب المذكرات السياسية"، وهي حرب تعلقت في معظمها بالاسرار المطوية، للسياسة العربية بين بداية الخمسينيات ونهاية السبعينيات، وأخذت سخونتها، من جدار السرية والتكتم الذي بنته دوائر اتخاذ القرار السياسي حول نفسها في كل انحاء الأمة وطوال سنوات العقود الثلاثة، فما كاد هذا الجدار يتحطم حتى تطايرت الأحجار الثمينه.. والأحجار الرخيصه، تحت ضربات فئوس الذين اندفعوا يحطمونه.

ومع أن كثيرين من القراء لم يتنبهوا في البداية، إلى أن كثيراً من هذه المذكرات يفتقد إلى الدقة والصدق وأيضا إلى الضمير، حتى كاد الداعون إلي وقف نشر مثل تلك الكتب يجدون صدى لدعوتهم، إلاّ أن كل شيء عاد إلى موضعه الطبيعي بعد قليل، إذ تكاثرت المذكرات السياسة، واتيحت للقراء الفرصة للمقارنة، والتفكير، واختيار ما تصدقه وما ترفض تصديقه، فاستقامت الأمور..

ومنذ عامين، قرأت في إحدى الدوريات المتخصصة في الشئون السوفيتية، إشارة إلي صدور كتاب "مذكرات دبلوماسي في بلاد العرب"، ودهشت حين عرفت أن مؤلفه، هو "نيكولاي نوفيكوف" هو أول سفير للاتحاد السوفيتي في مصر، إذ كان الشائع في معظم الكتابات العربية، أن "عبد الرحمن سلطانوف" هو أول سفراء موسكو في مصر..

وبعد بحث طويل استطعت أن أحصل على نسخه من المذكرات، التي ترجمها إلى العربية، الأستاذ جلال الماشطه، وأسعدني أنها تقدم صورة تاريخية، لفجر العلاقات العربية السوفيتية، اذ لم يكن "نوفيكوف" أول سفير لموسكو في القاهرة، فقط، بل إن تأسيس العلاقات بين "موسكو" وكل من "دمشق" وبيروت قد تم على يديه..

وقد وجدت أن من المهم أن يطلع القارىء المصرى على مضمون تلك المذكرات، فعرضتها فى سلسلة مقالات، نشرتها مجلة "المصور" فى سبتمبر عام ١٩٨٨، ولفت هذا نظر صحيفتين عربيتين أخريتين إلى أهميتها، فقامت كل من "الشرق الأوسط" و"الوطن" بتلخيصها فى يناير ١٩٨٩.

وفى مارس ١٩٨٩، أرسل لى الزميل والصديق "حمدى عبد الحافظ"، ترجمة لمقال مطول، يتضمن ذكريات "فلاديمير فينوجرادوف" السفير السوفيتى في مصر على امتداد الفترة بين وفاه عبد الناصر وحتى عام ١٩٧٤، وهو العام الذى شهد بداية التدهور السريع فى العلاقات بين موسكو فى القاهرة، وكان "فينوجرادوف" قد نشر هذا المقال فى عدد ديسمبر ١٩٨٨، من مجلة "زناميا" السوفيتية.

،هكذا نشأت فكرة الجمع بين مذكرات "نوفيكوف" و"فينوجرادوف" فى كتاب واحد، يجمع بين فجر هذه العلاقات، وبين مغربها المؤقت..

ولسنا فى حاجة إلى أن نؤكد أن هذا المذكرات هى مجرد شهادة لصاحبها وأنها تقبل الخلاف والاتفاق، والمقارنة بغيرها، بل وتقبل كذلك التحفظ على بعض ما ورد بها،

وبعد..

إن "كتاب الاهالى" يبدأ بهذا العدد مرحلة جديدة من حياته، يأمل أن يستطيع خلالها، أن يؤدى دوره كمطبوعه تحاول - بين ما تحاول - أن تدافع عن ذاكرة الوطن، وهى محاولة لن تنجح دون دعم القارىء، ومساندته، التى لولاها - لما واصلت هذه السلسلة الصدور ودون مساندة ودعم الكتاب والمؤلفين الوطنيين والديمقراطيين، الذين تفتح هذه السلسة صدرها أمامهم بلا تحفظ، لكى يساهموا معها فى تخليق تيار ثقافى جديد، شعاره: ثقافة الهدم والبناء.

صلاح عيسى



● السفير نيقولاي نوفيكوف

الأهالي

نيكولاي نوفيكوف

ترجمة: جلال الماشطة

يوميات دبلوماسي في بلاد العرب

صدرت الطبعة الأولى من هذه الترجمة
عام ١٩٨٧ عن دار التقدم بموسكو

نيكولاى نوفيكوف

- ولد فى لينتجراد عام ١٩٠٦، وتخرج فى كلية الاستشراق بجامعتها، بعد أن تخصص فى تاريخ الشرق.

- عمل فى عدد من المؤسسات السوفييتية، قبل أن يلتحق فى عام ١٩٣٨ بوزارة الخارجية السوفييتية.

- فى السنوات الخمس الأولى من عمله بوزارة الخارجية، عمل فى مجالات تتعلق ببلدان الشرق الأوسط وشبه جزيرة البلقان ووسط أوروبا. ثم أصبح مسئولا عن الدائرة الأوروبية الرابعة المكلفة بالعلاقات مع دول البلقان.

- عين وزيرا مفوضا لبلاده فى القاهرة عام ١٩٤٣، وظل فى منصبه ثمانية أشهر، تم خلالها تبادل العلاقات الدبلوماسية بين موسكو وكل من دمشق وبيروت.

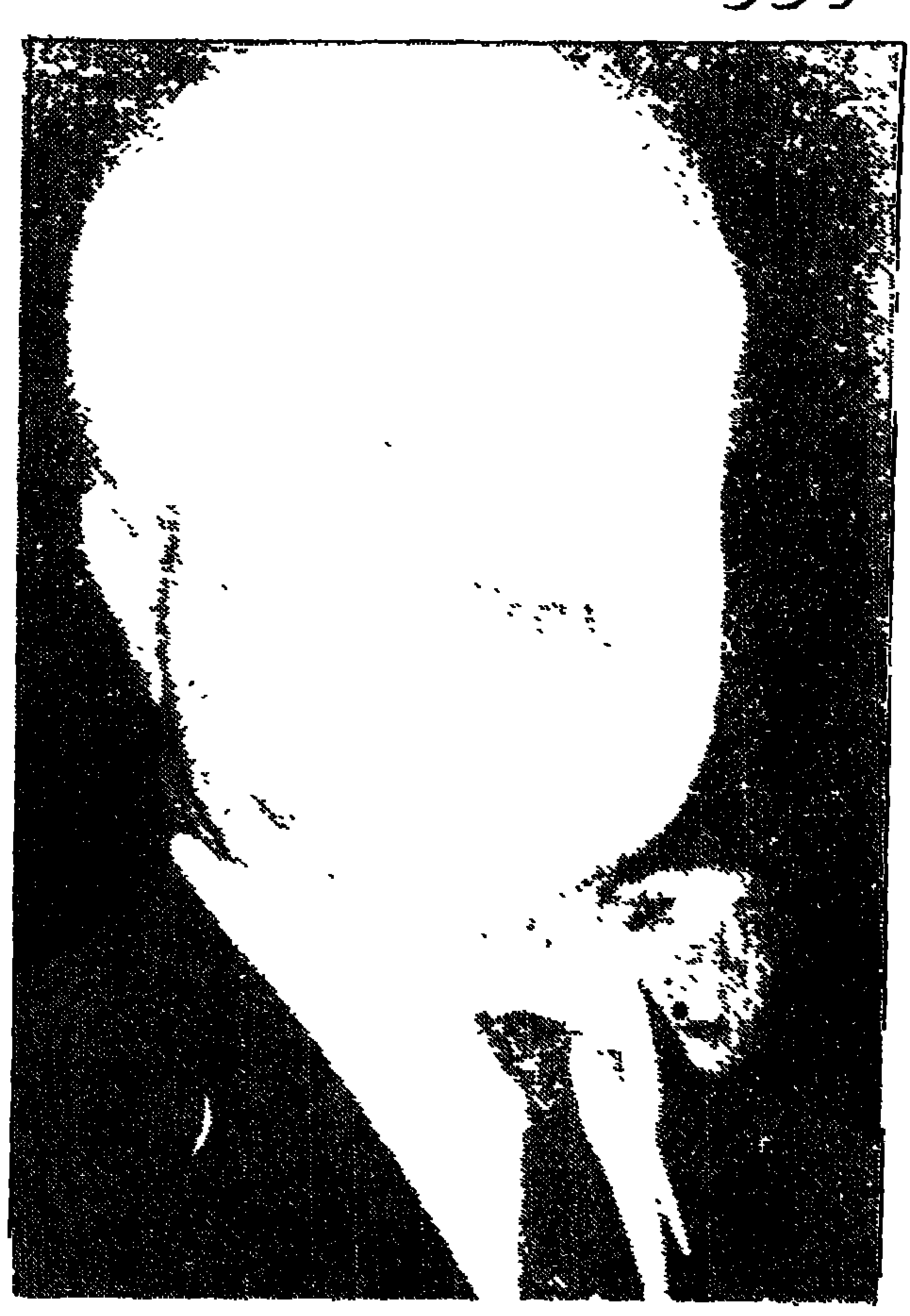
إلـى زوجـتى ، إلـى خـير صـديق ، "أوبـوف أفانسيفا" - "توفيكوفا"، أهـدى هذا الكتـاب.

نيكولاى نوفيكوف

الفصل الأول

ميلاد سفارة

مولوتوف



بعد مرور خمس سنوات ونيف على بدء عملى فى الجهاز المركزى لمفوضية الشعب للشؤون الخارجية (وزارة الخارجية)، حصل فى حياتى تغير هام، إذ عينت ممثلا للاتحاد السوفيتى فى مصر.

كانت قيادة مفوضية الشعب قد اتخذت، من حيث المبدأ، قرارا بايفادى إلى إحدى سفاراتنا فى الخارج فى حزيران (يونيو) ١٩٤٣، ولكن مكان الايفاد والمنصب الذى سيسند لى ظلا بمثابة معادلة ذات عدة مجاهيل.

خلال السنوات الخمس المنصرمة كان ضمن اختصاصى، فى فترات مختلفة، بلدان الشرق الأوسط وشبه جزيرة البلقان، ووسط أوربا جزئيا، وعندما حلت الفترة التى نحن بصدد الحديث عنها، كنت مسؤولا عن الدائرة الاوروبية الرابعة المكلفة بالعلاقات مع بلغاريا واليونان ويوغسلافيا ورومانيا و"تشيكوسلوفاكيا" و"بولونيا".

فى التاسع من نيسان (ابريل) ١٩٤٣ عدت إلى "موسكو" قادما من "كويبيشيف"، وهى المدينة التى كانت قد نقلت إليها فى تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٤١ مفوضيه الشؤون الخارجية والسلك الدبلوماسى

كله. وكانت عودتى مرتبطة، بالدرجة الرئيسية، ببلوغ العلاقات السوفيتية البولونية أقصى درجات التوتر. وعاد معى عدد من موظفى الدائرة الرابعة، ولكن الاغلبية واصلت العمل فى "كويبيشيف".

فى شهرى ايار (مايو) وحزيران (يونيو) طرأت مستجدات على الحياة الداخلية لمفوضية الشؤون الخارجية. ففى ١٨ ايار (مايو) اصدرت هيئة رئاسة السوفييت الأعلى للاتحاد السوفييتى مرسوما حول منح درجات للدبلوماسيين العاملين فى جهاز المفوضية وفى السفارات والبعثات العاملة فى الخارج، وفى ١٤ حزيران (يونيو) منحت وسائر رؤساء الاقسام رتبة سفير مفوض ومطلق الصلاحية من الدرجة الثانية، وفى الشهر ذاته طُرحت مسألة تعيينى فى الخارج.

فى ٢٩ حزيران (يونيو) استدعى رؤساء الاقسام ونوابهم (فى ذلك الوقت كان نصفه عددهم الإجمالى قد انتقل من "كويبيشيف" إلى "موسكو") إلى مكتب "فيشينسكى"، النائب الأول لمفوض الشعب، وشارك مفوض الشعب "مولوتوف" فى الاجتماع القصير، واثر انفضاضه طلب منى البقاء.

حدست عمَّ سيدور الحديث عموما، ففى الآونة الاخيرة كان نائب مفوض الشعب كورنيتشوك (رئيسى المباشر منذ آذار (مارس) ١٩٤٣) يلمح مرارا إلى احتمال تعيينى سفيرا فى مصر التى جرت آنذاك مفاوضات مع حكوماتها حول اقامة علاقات دبلوماسية. ومن جهة أخرى فإن الأمين العام لمفوضية الشعب "كوزيريف" أخذ فجاءة يؤشر على التقارير الواردة من انقرة كى اطلع عليها، رغم ابتعادى لفترة طويلة عن الشؤون التركية، وحينما سمعت كلمات مفوضى الشعب موجهة إلى

فكرت أنه سوف يتحدد الآن، أخيرا دربى انقره أو إلى القاهرة.

صمت مولوتوف ريثما غادر المجتمعون المكتب، ولم يبق فيه سواى ونواب مفوض الشعب وقال :

- حان وقت العودة إلى الموضوع القديم الذى ما برح معلقا، لقد قررنا بشكل نهائى ايفادك إلى الخارج، نريد فى المرحلة الأولى ايفادك إلى لندن مستشارا فى سفارة "بوغومولوف". وسيكون ذلك بالنسبة لك بمثابة مرحلة انتقالية، قصيرة على الأرجح. وعندما تبدأ الحكومات التى "يرعاها" "بوغومولوف" العودة إلى أوطانها سوف نعينك سفيرا لدى واحدة منها، ما رأيك فى هذا المشروع؟

ماذا كان رأيى بالمشروع؟ وقعت فى حيرة كبيرة. إلى لندن! ولفترة قصيرة انتقالية! فى سنوات الحرب كان "بوغومولوف" سفيرا معتمدا فى وقت واحد لدى عدد من حكومات المنفى المقيمة فى لندن تنتظر بفارغ الصبر تحرير أوطانها كى تعود. ولم يعد هذا الأمل بعيد المنال فى ذلك الحين.

كانت القضية حريّة بالتأمل والتفكير، وهذا ما قلته "لمولوتوف" وبعد تردد قصير اضفت، ملقيا نظرة ضاحكة صوب "كورنيتشوك":

- استنادا إلى بعض الاشاعات كنت اتوقع سماع اقتراح حول "القاهرة" وليس عن لندن، ولكن إذا اعتبرتم من الأجدى استخدامى فى "لندن"، فأنا آمل أن أكون أهلا للثقة هناك أيضا.

- الاشاعات شيء والوقائع شيء آخر، - اجاب "مولوتوف" بنبرة وعظ.

- ولكن اجاباتك تتطابق مع ما توقعت. إذن انتهينا من هذا

الموضوع. وأي بلد سيكون اختصاص المستشار "نوفيكوف"؟ - وجه تساؤله إلى نوابه ولكنه انبرى قائلا: - اعتقد الافضل أن تكون "فرنسا".

لم اعترض، وللتو حرر "مولوتوف" برقية إلى "بوغومولوف" وسلمه البرقية لإرسالها إلى "لندن" فورا.

في هذه الأثناء أبدى مفوض الشعب تخوفه من أن أنسى في "لندن" اللغة التركية، ثم سأل فجأة عن رأيي في السفر إلى "تركيا" (ليس عبثا أن كوزيريف كان يحول لي التقارير الواردة من أنقرة). اجبت إن الاختيار وقع على "فرنسا"، وبقدر ما يتعلق الأمر بي فأنا اعتبر المسألة محسومة.

هكذا انتهى اللقاء.

في الرابع من تموز (يوليو) ابلغني "كوزيريف" إن "بوغومولوف" وافق على ترشيحي، وبذا حلت فترة الاجراءات الشكلية ومرور أوراقي على مراجع عديدة بما فيها المراجع الأعلى. وفي هذه الفترة بدأت اطلع على مواد مفوضية الشعب المتعلقة بالقضايا الاساسية للعلاقات السوفيتية الفرنسية. ثم كانت عليّ تسوية عدد غير قليل من القضايا العائلية والشؤون الأخرى المرتبطة بالسفر إلى الخارج.

كان الطريق إلى لندن طويلا، يكاد يمر عبر العالم كله. ففي صيف ١٩٤٣ كان ينبغي على المرء إن يستقل القطار من موسكو إلى "ڤلاديفوستك" ومنها بالباخرة إلى سان فرنسيسكو، ثم يستقل القطار ثانية ليقطع قارة امريكا الشمالية كلها كي يصل إلى نيويورك، ثم يركب الباخرة ثانية إلى انجلترا مع احتمال المرور إلى أيسلنده لتحاشي

الغواصات الألمانية، هذا علما بأن انجلترا كان من المحتمل ألا تصبح النقطة الأخيرة في الطريق. فإن تطور الأحداث الحربية والسياسية في صيف ١٩٤٣ كان يسوّغ احتمال أن تصبح الجزائر، وليس لندن، مكان إقامة لجنة الإنقاذ الوطني الفرنسية المشكلة حديثا، والتي عُرفت فيما بعد بالحكومة الفرنسية المؤقتة.

جرت التهيئة للسفر والاستعداد للعمل الجديد في خضم الاعمال الجارية التي لم أكن قد اعفيت منها بعد. وتراكمت الأشغال إلى حد بحيث إنني كنت أعود إلى البيت في الساعة الثالثة أو الرابعة فجرا، لأنام بضع ساعات واستأنف بعدها العمل في المفوضية، واضيفت إلى أعمال الدائرة التزامات صحفية، و كانت التزمات عمل في واقع الحال. فبناء على تكليف مفوض الشعب كنت أكتب بين الحين والحين مقالات في الشؤون الدولية للصحف المركزية ولمجلة "الحرب والطبقة العاملة" المؤسسة حديثا، والتي كان "مولوتوف" يوليها اهتمام كبيرا. وعلاوة على ذلك اضيفت إلى واجباتي الكثيرة مهمات بروتوكولية وذلك ابتداء من تموز (يوليو) أي أثر عودة القسم الأكبر من السلك الدبلوماسي من "كويبيشيف"، فقد استؤنفت حفلات الاستقبال في السفارات وكان ينبغي حضورها.

في ١٦ تموز (يوليو) حضرت في هيئة رئاسة السوفييت الأعلى للاتحاد السوفييتي مراسيم تسليم اوراق اعتماد، وكنت قد شهدت عددا من المراسيم المماثلة ابتداء من عام ١٩٣٩. قام سفير "اليونان" "بوليتيس" بتسليم أوراق اعتماده إلى "كالينين". وحصل هذه المرة خروج جزئي عن التقليد المتبع، إذ لم تلتقط صورة للحاضرين، وكان السبب في

ذلك إن عملية خطيرة أجريت لعينى "كالينين" قبل فترة وجيزة مما جعلهما غير قادرتين على تحمل الأضواء الساطعة، وبدا لى رئيس الدولة السوفيتية الذى يتحمل أعباء هذا المنصب منذ ٢٥ سنة، متعبا وكليلا.

عند حلول شهر آب (اغسطس) كانت اجراءات سفرى قد تقدمت شوطا بعيدا. وعند انتصاف الشهر قُدم طلب لاستحصال سمة مرور امريكية وسمة دخول بريطانية، وسلمت الدائرة الأوربية الرابعة إلى مديرهلا الجديد "زورين" الذى كان نائبى فى كويبيشيف ثم عمل لمدة ستة أشهر تقريبا مساعدا "لكورنيتشوك". وصار بوسعى أن أكرس وقتا أكثر للشؤون الفرنسية، ولم أضيع ساعة واحدة، إذ لم يبق على موعد السفر سوى أيام معدودات ذلك لإن التأشيرات كانت تمنح للدبلوماسيين، عادة، فى آجال قصيرة.

فى ١٦ آب (اغسطس) وبعد اجتماع لدى مفوض الشعب فى مكتبه بالكرملين، سألت عما إذا كان بوسعى أن أرحل حال استلام التأشيرات؟

- أجل،

- همس مولوتوف بصوت غير واثق ثم واصل مناقضا كلامه:

- ولكن ضع فى حسابك إنك لازلت تعتبر مرشحا للقاهرة. سوف نوفدك إلى هناك من كل بد، ولكن ليس الآن بل بعد وقت قصير.

ولم يحدد حتى أجل تقريبى لهذا "الوقت القصير" وحالما قال مفوض الشعب عبارته، حتى اكتنف سفرتى إلى "لندن" ضباب لندنى حقيقى ترى من خلاله بالكاد منائر القاهرة.

لما اشأ أن أبقى فى حيرة لا أعرف شيئا عن مستقبلى القريب، فقررت أن أتحدث إلى مفوض الشعب بكل صراحة، آملا فى أن ارجع

الكفة لصالح اختيار "فرنسا" التى "انغمرت" فى شؤونها خلال الفترة المنصرمة. خاصة وإن جعبتى كانت تحتوى على ورقة اعتبرتها حجة قاطعة. قلت لمولوتوف:

– انتم تعرفون جيدا إننى مستعد للعمل حيثما يوفدنى الحزب، بصرف النظر عن ميولى الشخصية ورغباتى، وينطبق هذا، بالطبع، على "القاهرة". ولكن عند الحديث عن "القاهرة" ليس من حقى التزام الصمت حول مسألة شخصية، فحتى الوقت الحاضر كنت كلما ألقى نفسى فى مناطق حاره أمرض بالملاريا الاستوائية بصورة حادة تستنزف كل قواى. وبسبب المرض اشرفت على الموت مرتين: فى "اسطمبول" عام ١٩٢٨ وفى طاجيكستان عام ١٩٣٣. ومن البديهى أن أشعر بالقلق لاحتمال اصابتى بالملاريا مرة أخرى، وفقدان القدرة على العمل فى الغربة، واحتمال أن اصبح نزيلا فى أحد مستشفيات "القاهرة".

اصغى مفوض الشعب بصبر إلى خطابى الطويل وقال:

– آمل ألا تعاودك الملاريا فى "مصر"، وعلى أية حال لن نتركك وحيدا فى المحنة، اعتقد إنه يمكن استدعاؤك إلى الوطن فى أشهر الصيف.

خرجت واثقا من إنه بالرغم من السماح لى بالسفر، فإن "لندن" و"فرنسا" اخذتا تختفيان، ببطء ولكن بشكل أكيد، من افق حياتى، واكدت الاحداث اللاحقة صحة هذا الاستنتاج.

بعد اسبوع منحت، لى ولزوجتى، تأشيرة الدخول الأمريكية والبريطانية. وكنا على استعداد للسفر فى أية لحظة، ولكن دون أن تتضح وجهة السفر. إلى "لندن"؟ أم "الجزائر"؟ أم "القاهرة"؟ إم إلى

مكان آخر؟ وحالما سمعت باستلام السمات اتصلت هاتفيا بنائب مفوض الشعب وسألته- استنادا إلى حديثى "مولوتوف" يوم ١٦ آب (اغسطس)، عما إذا كان السماح بالسفر إلى "لندن" قائما، كان الجواب هو : ينبغى التريث، ورغم إن الحديث لم يوضح لماذا التريث وكم من الوقت ينبغى التريث. فقد أدركت كنه الأمر: ففى ٢٦ آب (اغسطس) اقيمت العلاقات الدبلوماسيجة مع "مصر"، وكان يتوقع صدور بلاغ سوفييتى مصرى مشترك بين يوم وآخر. ولم يعد هناك شك فى وجهة السفر.

عادت رحى الاجراءات الشكلية إلى الدوران، ولكن باتجاه "القاهرة" هذه المرة. وفى ٢١ ايلول (سبتمبر) اتصل بى نائب مفوض الشعب مهنئا بتعيينى مبعوثا فى مصر. وفى ١٤ تشرين الاول (اكتوبر) عينت مبعوثا مفوضا ومطلق الصلاحية للاتحاد السوفييتى فى "مصر".

اخيرا حُلت المعادلة ذات المجاهيل المتعددة.

انتهت فترة طويلة من الغموض بقيت خلالها، أنا وعائلتى، حازمين الحقائب على أهبة دائمة للسفر.

وصار من الممكن أن نركن الحقائب جانبا: فالسفر إلى "القاهرة" كان يتطلب استعدادات أكثر تعقيدا من الرحيل إلى سفارزة "يوغومولون" العاملة منذ أمر بعيد فلو سافرت إلى "لندن" لوجدت "كل شيء جاهزا" فى حين تطلب الأمر، بالنسبة "للقاهرة"، البداية من الصفر. واللبنة الأولى هى تكوين الجهاز الإدارى للسفارة الوليدة.

اضافة إلى ذلك كانت هناك مشاكل كثيرة أخرى، فقد اقتضى الأمر، ايلاء اهتمام كبير لمصر والشرق الأوسط عموما كما تطلب متابعة دقيقة

لعلاقاتنا مع "يوغسلافيا" و"اليونان"، إذ أن المراجع العليا قررت أن اكلف، علاوة على مهامى كمبعوث فى مصر، بمهمات سفير الاتحاد السوفييتى لدى حكومتى "اليونان" و"يوغسلافيا" اللتين استقرتا فى القاهرة منذ ايلول (سبتمبر) ١٩٤٣، وللحق أقول إن اليونان ويوغوسلافيا لم تكونا بالنسبة لى "لغزا محيرا" ولم يتطلب الأمر منى سوى أن أسد بعض النقص فى المعلومات خلال شهرين أو ثلاثة من أشهر الصيف ابتعدت خلالها عن شؤون البلقان.

أشير عرضا إلى أنه نظرا لكون الدبلوماسية فى القاهرة كلفت فى ذات الوقت بمهمات بعثة فى مصر وسفارتين، وكنت أنا، بوصفى رئيسا لهذه الممثلية، برتبة سفير فإن هناك كل ما يبرر تسميتها سفارة، وسوف استخدم هذا المصطلح فيما بعد.

فى النصف الثانى من تشرين الأول (اكتوبر) وصلت الموافقات على تعيينى من ملك "مصر" "فاروق الأول" وملك "اليونان" "جورج الثانى" وملك "يوغسلافيا" "بطرس الثانى"، وأثر ذلك أصدرت هيئة رئاسة السوفييت الأعلى للاتحاد السوفييتى مرسوما بتاريخ ٢٨ تشرين الأول (اكتوبر) يقضى بتعيينى سفيرا لدى حكومة "اليونان"، وفى ٣١ من الشهر ذاته صدر مرسوم آخر بتعيينى سفيرا لدى حكومة "يوغسلافيا".

ولكن إذا كان الملوك الثلاثة لم يتلكأوا فى القيام بما يلزم لجعل سفاراتنا أمرا واقعا فى حكم القانون الدولى، فإن نشوء السفارة عمليا كان يسير بخطى تشبة خطى السلحفاة. ففى مطلع شهر تشرين الثانى (نوفمبر) كان قسم الذاتية قد وقر لنا، بشق الانفس مستعربين لا خبرة لهما فى العمل الدبلوماسى، ولم يتوفر أى موظف للنهوض بالشؤون

اليونانية واليوغسلافية. ثم إننا لم نستكمل حتى نصف العدد المطلوب من الفنيين والمساعدين.

فى غمرة العمل المحموم لم ألحظ كيف اقترب موعد الذكرى السادسة والعشرين لثورة أكتوبر.

لعل بطاقة الدعوة لحضور الجلسة الاحتفالية لسوفييت موسكو واللجنة الحزبية فى المدينة يوم ٦ تشرين الثانى (نوفمبر) لم تكن تختلف بشئ عن البطاقات المماثلة التى كنت استلمها قبل الحرب، سوى بالتاريخ المذكور وبعبارة ذات وقع جلل دونت على طرفها الأيمن فى الأعلى وكانت بمثابة راية لزمن الحرب: " الموت للمحتلين الألمان! ".

قد يكون التقرير الذى ألقاه فى الجلسة "ستالين"، بوصفه رئيسا للجنة الدولة للدفاع، أقصر تقرير قدمه فى احتفالات ذكرى ثورة أكتوبر. ورسم "ستالين" صورة جلية لنجاحات الجيش الأحمر فى السنة المنصرمة (بعد الذكرى الماضية) ووصفها بأنها سنة انعطاف، وأكد على الدور العظيم لعمل المواطنين السوفييت المتفانى فى الخطوط الخلفية، والذى وفر كل ما يلزم للجبهة، وقيّم تقييما عاليا الأهمية الدولية لانتصاراتنا العسكرية. كما إنه تطرق إلى القرارات التاريخية التى اتخذها ممثلو الاتحاد السوفييتى وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية فى "مؤتمر موسكو" الذى كان قد اختتم للتو. وقال ختاما: "إن بلداننا المتحده عاقدة العزم الآن على انزال ضربات مشتركة بالعدو سوف تؤدى إلى احراز النصر النهائى عليه".

جرى الاحتفال بالذكرى السادسة والعشرين للثورة فى جو من الحماس البهيج، رغم ما أحدثته الحرب من صعاب وحرمان فى البلاد كلها.

كما ساد جو البهجة حفل الاستقبال التقليدى الذى يقام بمناسبة ذكرى الثورة فى دار الضيافة التابع لمفوضية الشعب للشؤون الخارجية. كان ذلك الحفل الافخم من بين كل احتفالات الأعياد التى تسنى لى حضورها خلال خمس سنوات ونصف سنة قضيتها فى العمل الدبلوماسى. وكان مع الدبلوماسيين الأجانب فى قاعات دار الضيافة اعضاء فى الحكومة ومارشالات وجنرالات عقدت لهم الوية المجد، وأدباء وفنانون وعلماء وشخصيات اجتماعية. وبالطبع حضر الحفل كبار العاملين فى مفوضيه الشعب للشؤون الخارجية الذين ارتدوا لأول مرة زى الحفلات.

بعد حفلة كبيرة شاركت فيها خيرة الفرق الموسيقية والمسرحية فى العاصمة، توزع الضيوف على القاعات وتحلقوا حول الموائد الحافلة بالأكل والشراب. وأخذ عدد من الدبلوماسيين الأجانب يحتسون الكونياك والفودكا بكميات كبيرة، دون أن يلتفتوا لاطايب المأكولات، مما جعلهم "يفترشون الأرض" عند الموائد وما كنت لأجرؤ على ذكر هذه الواقعة الفريدة بهذه الثقة لو لم يؤكدها شاهد عيان آخر هو الصحفى الانجليزى ا"لكسندر ويرث"، فهو يتحدث فى كتابه الشيق "روسيا فى الحرب ١٩٤١ - ١٩٤٥" عن هذه الأمسية قائلا: "كان أول من غادر الحفل الدبلوماسيونْ اليابانيون الذى استقبلوا ببرود مُتعمّد، ولكن سرعان ما أعقبهم موكب كامل من "اصحاب الفخامات" الذين حُملوا، بكل معنى الكلمة، من ايديهم وارجلهم، وانهبد السفير البريطانى على مائدة تغص بالزجاجات والكؤوس، حتى إنه خُدش".

حينما غادر دار الضيافة جميع الضيوف الأجانب وغالبية الضيوف

السوفييت استمر الحفل للمتبقين من المواطنين السوفييت، وساده جو رفعت فيه الكلفة. ولم نفترق إلا عند الفجر. وقد انحفرت ليلة العيد تلك عميقا في ذاكرتي وغالبا ما استعادتها في الغربة.

بعدالعيد بثلاثة أيام استدعاني مفوض الشعب وشرح لي باقتضاب وجهة عمل السفارة واقترح عليّ ختاما أن اتوجه جوا على عجل إلى القاهرة بصحبة الموظفين الذين اكتملت أوراقهم.

– ولكن عددهم ضئيل بحيث لا يسمح بأن تمارس السفارة نشاطها،

– قلت ذلك معترضا وشرحت مصاعب ايجاد الموظفين الفنين.

رد مفوض الشعب باسما:

– لا تتمسكن، أرجوك. سيكون لديكم هناك سفيران ومبعوث، وهذا سلك دبلوماسي كامل، ليس ذلك شيئاً كبداية. وسوف تقتفي إثرهم جماهير غفيرة من الموظفين. سوف أتابع الأمر بنفسي.

فهمت أن أيه حجج أوردها لن تحدث الأثر المطلوب، ولم يتبق لي سوى أن أحزم حقائبي من جديد.

في منتصف شهر تشرين (نوفمبر) كان النفر القليل من موظفي السفارة وعوائلهم على استعداد للسفر. ولسوء الحظ ظل الجو غير صالح للطيران طوال اسبوع تقريبا، وفي التاسع عشر من ذلك الشهر فقط انطلقت مجموعتنا من المطار المركزي قاصدة ضفاف النيل البعيدة.

كان المؤمل أن نصل باكو مساء، ولكن الريح القوية المعاكسة قللت سرعة الطيران إلى حد كبير. لذا هبطت طائرتنا القديمة من طراز "دوغلاس" قرب "ستالينغراد" في موقع لم يكن مقررا هبوطها فيه لملء خزانات الوقود. وصار في الطائرة من الوقود ما يكفي لبلوغ "باكو"،

ولكن لم يبق متسع كبير من الوقت للوصول إلى هناك قبل الغروب. لذا آثر الطيارون المبيت فى "آستراخان" تفاديا للمجازفة.

حطت طائرتنا فى "آستراخان" قبل غروب الشمس. وبناء على مشورة الطيارين احجمنا عن التوجه إلى المدينة بحثا عن فندق نقضى ليلتنا فيه: إذا لم يكن توقفنا فى "آستراخان" مخططا له ، ولم يحجز لنا أحد مكانا فى فندق، أما أمل العثور على محل بالصدفة فقد كان ضعيفا. قررنا المبيت فى أكواخ الفلاحين قرب المطار، وكان الكوخ الذى حلت فيه عائلتنا غاصا والجو فيه خانقا. ولكن النوم غلبنا فى آخر الأمر فنلنا قسطا من الراحة المنشودة.

انطلقنا صباحا ووصلنا إلى "باكو" بسلام. وكان الوقت يسمح ببلوغ "طهران" في اليوم نفسه ولكن، لسوء الحظ، ذكرت نشرة الأنواء الجوية أن سلسلة جبال "إلبروس" (فى شمال "ايران") التى كان يجب علينا التحليق فوقها، تكتنفها غيوم كثيفة تشكل حاجزا تعجز طائرة "دوغلاس" عن اختراقه بسبب انخفاض الحد الأعلى لتحليقها، وكان معنى ذلك بالنسبة لنا تمضية ليلة أخرى فى الأراضى السوفيتيية، ولكن هذه المرة فى فندق مريح على ساحل البحر.

صباح اليوم التالى انطلقت الطائرة وأخذت ترتفع بسرعة فانداحت أمامنا بانوراما واسعة. إلى الشمال بحر قزوين يرغو بزبَد أشبه بالشيب، وإلى اليمين السفوح الجنوبية لسلسلة "جبال القفقاس الكبرى". حلقنا لمدة نصف ساعة تقريبا فوق منخفض رحب أخذت الجبال تحصره تدريجيا عند البحر ثم حولته إلى شريط ضيق. فى هذه اللحظة خرج الطيار الثاني من قمرة القيادة وأعلن أننا نعبر الحدود السوفييتية

الايرانية. بعد لحظة أخذ ظل "دوغلاس" المجنح يلامس سفوح الجبال الايرانية. تابعت عيناى شريط الأرض السوفييتية المبتعد ولوحت بيدى له مودعا.

تبدت أمام نواظرنا سلسلة "جبال إلبروس" بكل شموخها بعد أن انقشعت عنها الغيوم. لم تكن تنخفض كثيرا عن جبال القفقاس، وكانت قمة دماوند وهي أعلى قمة فى السلسلة تضاهى "جبل إلبروس" فى الأراضى السوفييتية وتفوق "جبل كازبك" إلى حد كبير. وبين الفينه والفينه كانت أنظارنا تقع على قمم تغتمرها الثلوج. حلقت الطائرة على ارتفاع زهاء أربعة آلاف متر متسابة دون آية هزات، وحطت فى "طهران" فى الموعد المحدد بالضبط.

كان منظر مطار "طهران" فريدا للغاية. فلو نسينا للحظة الجغرافية التى درسناها بأم اعيننا من عنان السماء، لكان من السهل ان نتخيل أننا لم نغادر بعد حدود بلادنا. ففى كل مكان على أرض المطار كانت تجثو أو تتحرك طائرات مقاتلة وظائرات نقل وشاحنات عسكرية سوفييتية، وعند كل خطوة يشاهد المرء جنودا سوفييت ويسمع كلاما باللغتين الروسية والاوكرانية. كنت، بالطبع، اذكر جيدا أن وحدات من الجيش الاحمر دخلت إلى شمال "ايران" فى آب (اغسطس) ١٩٤١، وكان مطار "طهران" وفقا للمعاهدة السوفييتية الايرانية لعام ١٩٢١. واحدا من المطارات التى استخدمتها مجموعة القوات السوفيتيية فى ايران.

استقبلنا فى المطار ممثل عن السفارة السوفييتية ونقلنا إلى فندق امضينا فيه يومين. وكانت فترة "المكوث" فى طهران بالنسبة لى

مشحونة بالمشاغل، وبالدرجة الأولى فيما يتعلق بالاسراع فى سفر مجموعتنا إلى القاهرة. فى البداية ابلغت سفارتنا أننا سوف نستقل طائرة عسكرية بريطانية دون تحديد موعد السفر، وفيما بعد تم تحديد يوم المغادرة وهو ٢٣ تشرين الثانى (نوفمبر).

اشير عرضا إلى أن العاملين فى سفارتنا كانوا فى شغل شاغل عنا، رغم أنهم قدموا لنا العون الضرورى. ذلك أن جميع العاملين فى السفارة وعدد كبير من العاملين فى دوائر أخرى وفدوا من موسكو كانوا منشغلين جدا بأمور غامضة تحاشوا الخوض فى تفاصيل عن طبيعتها، صحيح أن عملهم لم يكن بالنسبة لى لغزا محيرا، فقد كان لى فى "موسكو" بعض الإلمام حول التحضير لمؤتمر الدول المتحالفة الثلاث فى "طهران". ولكننى لم أكن لاحدس آنذاك ان السفارة السوفييتية بالذات سوف تكون مقرا للمباحثات بين "ستالين" و"روزفلت" و"تشرشل"، وإن المبنى الرئيسى للسفارة الواقع فى منتزه ظليل سوف يصبح لحين مسكن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية.

صباح ٢٣ تشرين الثانى (نوفمبر) بدأت المرحلة الختامية لرحلتنا. وكان طاقم طائرة النقل العسكرية البريطانية بشوشا ومهذبا للغاية، مما عوض إلى حد ما عن عدم توفر أية اسباب لراحة الركاب فى الطائرة. وكان طريقنا يمر فى اتجاه الجنوب الغربى عبر "ايران" و"العراق" و"شرق الاردن" و"فلسطين"، إلى "مصر".

من "طهران" إلى الحدود العراقية حلقت الطائرة فوق سلسلتى جبال متوازيين تقريبا، ثم حلقت فوق السهول أثر عبورها الحدود العراقية. حطت الطائرة فى القاعدة الجوية البريطانية قرب بحيرة "الحبّانية"، وهى

النقطة الأولى، من نقطتى توقف فى الطريق. نزلنا إلى المدرج فلفحتنا للتو موجة خانقة من الهواء الحار. هبت رياح عاتية قادمة من صحارى "العربية السعودية"، ولفحت وجوهنا ذرات الغبار، احتمينا بمبنى مطعم الضباط الذى تكرمت قيادة القاعدة بدعوتنا إليه. قدموا لنا هناك فطورا لذيذا، ولكنا لم نقبل عليه بشهية كبيرة بسبب الجو الخانق، غير إننا احتسينا لترات من عصير البرتقال المثلج.

بعد الفطور عرض علينا مضيفونا القيام بجولة قصيرة بالسيارات فى الضواحى. اجريت استفتاء سريعا بين زملائى، واجبت أثره أن فكرة الجولة لا تروق لغالبية "السواح"، وإن رغبتنا الوحيدة الآن هى مواصلة السفر بأسرع ما يمكن.

ها اننا فى الجو ثانية. طرنا فوق صحراء ساخنة لا تقع العين فيها حتى على واحات نادرة. ولم يتيغير المنظر إلا بالقرب من "عمّان"، ولكن حتى هناك كان المنظر شبه صحراوى ليس إلا. تابعت من بعد، وبفضول كبير، "البحر الميت" المتلامع كالرصاص وملامح "القدس" غير الواضحة، وأسفت أشد الأسف لعدم تمكنى من التمعن فيها عن كثب. أنّى كان لى عند ذاك أن اعرف أننى سوف أزور فيما بعد هذه المدينة العريقة، بل واستحم فى مياه هذا البحر الميت المالحة؟

كانت المحطة الثانية فى "مطار اللّد" الفلسطينى بالقرب من ساحل البحر الأبيض المتوسط، حيث لم يستمر توقفنا لأكثر من نصف ساعة، وبعد تحليق دام أكثر من ساعة فوق صحارى جنوب فلسطين و"شبه جزيرة سيناء"، تألق تحت جناحى الطائرة شريط "قناة السويس" الفضى، وكان ذلك يعنى أننا صرنا فوق افريقيا.

"القاهرة" على "مرمى حجر" من القناة. هبطت الطائرة فى مطار عسكرى بريطانى قريب من اهرامات الجيزة الشهيرة، ولكنها لم تكن فى مجال الرؤية. وحتى لو كانت لما تسنى لنا آنذاك تأمل الآثار التاريخية إذا كان التحليق ساعات طوالا فوق هذه الصحارى الجبلية والرملية قد انهكنا، وما عادت لنا من رغبة سوى الوصول إلى الفندق بأسرع وقت.

الفصل الثانى

"مصر" فى أيام الحرب



لعل من المناسب، قبل الاستطراد فى الحديث، اعطاء صورة عامة، ولو بشكل سريع، للوضع فى البلد الذى تعين علينا ان نقطنه ونعمل فيه.

كانت مصر دوما من البؤر الكبرى للنضال التحررى الوطنى فى الامبراطوريه الاستعمارية البريطانية. وغالبا ما حمل المصريون السلاح فى مسعى لنيل الحرية والاستقلال. وكانت ثورتا ١٨٨٢ و١٩١٩ من أهم الانتفاضات المصرية. وفى مطلع عام ١٩٢٢، وأثر انتفاضة أخرى مناوئة للانجليز، اضطر المستعمرون إلى الموافقة شكليا على المناداة بمصر "مملكة مستقلة ذات سيادة"، أما فى الواقع فإن "الاستقلال" كان ورقة توت للتغطية على استمرار هيمنة المستعمرين على البلد.

فى أواسط الثلاثينات، وحينما بدأت رائحة بارود حرب كبرى تُشَمّ فى الشرق الأوسط إثر العدوان الايطالى على "أثيوبيا"، اضطرت الامبريالية البريطانية إلى اللجوء للمناورة السياسية واعطاء المزيد من التنازلات الشكلية لحركة التحرر الوطنى. وفى عام ١٩٣٦ عقدت

بريطانيا مع الحكومة المصرية معاهدة "تحالف" ألغيت بموجبها الحماية البريطانية على "مصر"، وأصبح البلد، شكليا، دولة ذات سيادة. بيد أن "التحالف" بين دولة امبريالية وبلد متخلف اقتصاديا كان من سوء حظه إنه يقع فى مركز المواصلات الامبراطورية والمواقع الاستراتيجية البريطانية، ذلك "التحالف" كان فى الواقع "حلفا" بين فارس وفرس.

ظلت مصر تابعة لندن، وكل ما فى الأمر أن السير "مايلز لامبسون" المندوب السامى البريطانى المتمتع بكامل السلطة صار يُعرف بسفير صاحب الجلالة البريطانية المطلق الصلاحية وفوق العادة. ولم يكن هذا مجرد لقب، بل إنه حقا كان مطلق الصلاحية، وفعلا فوق العادة. ولعل هذه الألقاب الدبلوماسية المفخمة لم تكن قط خلال كل تاريخ الدبلوماسية مطابقة لمغزاها المباشر كما هى بالنسبة للسفير البريطانى! وكما كان الحال فى السابق فإن "لامبسون"، الذى منح لقب "لورد كيلرن لقاء خدماته الجليه للاستعمار، ظل ذا تأثير هائل على مصائر البلد.

كان هذا التأثير يستند بالدرجة الأولى إلى حراب القوات البريطانية. فوفقا لمعاهدة ١٩٣٦ احتفظت "بريطانيا" لنفسها بحق الابقاء على قواتها البرية والجوية فى مواقع استراتيجية هامة "كالقاهرة" و"الاسكندرية" ومنطقة قناة السويس، كما احتفظت بقاعدة بحرية ممتازة فى "الاسكندرية"، وكان للنفوذ البريطانى مرتكز داخل البلد، يتمثل فى قاعدة الحزب الوطنى وحزب "الأحرار الدستوريين"، وغيرهما من الأحزاب التى اعتبرت موالية للإنجليز، وكانت هكذا بالفعل.

لم يتوقف النضال فى سبيل استقلال مصر الحقيقى، اثر تغير التسميات، بل إنه أتخذ أشكالا جديدة، أهدأ نسبيا. ولعب الدور

الأكبر فى هذا النضال "حزب الوفد" الذى كان قد تأسس عام ١٩١٨. وتميز هذا الحزب، من حيث تركيبه الاجتماعى، بتنوع كبير: إذ انتسب إليه ملاك الأراضى الصغار والمتوسطون، وممثلوا البرجوازية التجارية والصناعية الوطنية والبرجوازية الصغيرة والمثقفين، والعمال جزئيا. وأدى هذا التنوع الاجتماعى إلى خلافات جادة داخل الحزب، وانشقاقات وانقسامات أضعفته ونجم عنها عدم وضوح الخط السياسى للحزب وتذبذبه ذات الشمال وذات اليمين.

عام ١٩٢٧ انتخب "مصطفى النحاس باشا" رئيسا للحزب، وقد ترأس حكومات عديدة، وكان يقدم استقالته كلما أدت سياسة "حزب الوفد" المتذبذبة إلى تهديد شعبيته.

كانت سياسة "الوفد" وايديولوجيته تتضمنان بعض السمات التقدمية التى تعكس آمال الشعب. فعلى صعيد السياسة الداخلية، مثلا، عمل الزعماء الوفديون على اقامة نظام برجوازى ديمقراطى مستنسخ من النماذج الأوربية الغربية. وللأسف فإن مبادئ الحزب التقدمية لم تكن تطبيق بالقدر الكافى من الثبات حتى حينما كان متوقفا على الحزب ذاته.

على صعيد النضال التحررى الوطنى واجه "حزب الوفد" مقاومة ضارية ليس من قبل المستعمرين البريطانيين فحسب، بل ومن الأحزاب المصرية الموالية للانجليز. أما على صعيد السياسة الداخلية فقد جابه قوة أكثر عداء هى بطانة البلاط الرجعية المتمثلة أساسا بالارستقراطية الاقطاعية وعلى رأسها "الملك فاروق" الذى كان من أكبر ملاك الأراضى فى البلد. ففى مصر، حيث كانت قطعة الأرض الضئيلة

المصدر الأساسي لمعيشة الفلاح، كان الملك يحوز ٢٨ ألف فدان تعود عليه بدخل قدره مليونا جنيه مصري سنويا.

عارضت حاشية الملك بشدة برنامج الوفد للاصلاحات البرجوازية الديمقراطية، على اعتبار إنه ينطوي على عواقب اجتماعية بعيدة المدى. وكان بين رجال الحاشية عدد غير قليل من الاشخاص الذين استعاروا مُثلهم الاجتماعية السياسية من نظرية الفاشية وممارساتها، واعتبروا ان مهمتهم الرئيسية تتمثل في العمل على تعزيز سلطة الملك إلى أبعد الحدود، بما في ذلك تحويلها من دستورية إلى أوتوقراطية.

لذا فإن "فاروق" ورجال حاشيته كانوا، في كل مرة يترأس فيها حزب الوفد وزعيمه النحاس باشا الحكومة أثر الانتخابات النيابية، يلجأون إلى جميع الاساليب لإقالة الحكومة التي لا تروق لهم.

لعل من المستحيل أن نجد في مصر كلها آنذاك شخصا يمقته الملك الشاب الطامح إلى أن يكون قيصرا، أكثر مما كان يمقت "مصطفى النحاس باشا"، الذي بادل الملك مشاعر مماثلة. ولعبت الدبلوماسية البريطانية هذه الورقة بمهارة، فقد لجأت إلى أسلوبها القديم المجرب طوال قرون، أي اسلوب "فرق تسد".

فكانت تقدم الدعم السياسي لمختلف القوى المتصارعة بالتناوب، لكي تحول دون اتحاد كلمتها في جبهة موحدة ضد عدو مصر كلها: الامبريالية البريطانية.

مع بدء الحرب العالمية الثانية صار لتوجه "مصر" السياسي الخارجي الأهمية الأولى. وفي ايلول (سبتمبر) عام ١٩٣٩ قامت الحكومة المصرية، وفقا لأحكام معاهدة ١٩٣٦، بقطع العلاقات الدبلوماسية مع

"المانيا النازية"، ثم مع "ايطاليا" الفاشية فى حزيران (يونيو) ١٩٤٠. ولكنها أحجمت عن دخول الحرب ضدهما. كما أنها لم تقدم على هذه الخطوة حينما استولت القوات الايطالية فى بداية الأمر، ومن ثم تشكيلات الدبابات الالمانية الايطالية المهاجمة على محور الاسكندرية، على المناطق شبه الصحراوية الواقعة فى شمال غرب مصر.

ولا يعزى هذا الموقف الذى اتخذته الحكومة المصرية إلى مجرد عدم رغبتها إلقاء اليد فى أتون الحرب، بل كان ثمة عامل آخر لا يقل عن ذلك أهمية. ففى آب (اغسطس) ١٩٣٩، حينما كانت الأمور فى أوربا سائرة نحو الحرب بكل وضوح، أسند "فاروق" رئاسة الوزارة إلى "على ماهر باشا" الذى ضم إلى حكومته عددا من الوزراء المعادين "للانجليز" والمناصرين سرا "لدول المحور". وفى تلك السنوات كان يسود مصر رأى مفاده أن فاروق نفسه يتعاطف مع "دول المحور". ولكن حتى إذا كان الأمر كذلك - وهو ما يبدو شديد القرب إلى الحقيقة - فإن الملك فى تصريحاته العلنية التزم جانب الحذر وأكد باستمرار ولاءه لبريطانيا "الحليفة".

فى ظروف الحرب التى شنها المعتدون الفاشست وجد "الوفد" أن من الممكن التعاون مع بريطانيا، دون التنازل عن هدف الحزب الأساسى وهو تحرير مصر من تسلط الأجانب. وفى نيسان (ابريل) عام ١٩٤٠ عرض زعماء "الوفد" الذين كانوا معارضين لحكومة البلاط برئاسة "على ماهر"، عرضوا على الحكومة البريطانية دعمهم السياسى شريطة أن تلتزم رسميا بسحب جميع قواتها المسلحة من مصر أثر إنتهاء الحرب، وضمان أسهام مصر فى مؤتمر السلام والاعتراف بسيادتها على

"السودان". وكان المقصود عمليا إعادة النظر فى البنود الأساسية لمعاهدة عام ١٩٣٦، الأمر الذى كان يتعارض جذريا مع مجمل السياسة البريطانية فى الشرق الأوسط. ولذا رفضت بريطانيا اقتراح إعادة النظر فى المعاهدة باعتبار أن "الوقت غير مناسب"، ولكن الدبلوماسية البريطانية وجدت أن من المستساغ التعاون مع "الوفد" الذى تعاظمت شعبيته بسرعة.

بدأ هذا التعاون عام ١٩٤٢، حينما كان الوضع فى الشرق الأوسط يثير لدى الحكومة البريطانية قلقا له ما يبرره. فقد خمدت العلميات الهجومية للقوات البريطانية فى "ليبيا"، وأخذ فيلق "روميل" للدبابات يشدد استعداداته للقيام بهجوم سريع على "الاسكندرية". وفى الوقت نفسه مارس "الطابور الخامس" الفاشى نشاطه التخريبى على نطاق واسع فى مصر، فى الخطوط الخلفية للجيوش البريطانية.

علاوه على العملاء المباشرين كان لالمانيا عملاء غير مباشرين بينهم "جماعة الإخوان المسلمين" الدينية السياسية، المعروفة بعدائها الشديد للبريطانيين والموالية للفاشست. وحظى "الإخوان المسلمون" بدعم مالى من أوساط البلاط، وبحماية حكومة "على ماهر باشا"، وتعزز نشاط "الطابور الخامس" بالدعاية الإذاعية الموجهة إلى البلدان العربية والزاعمة بأن "هتلر" من سبط النبى محمد، وإنه اعتنق الإسلام، وأن هدفه المنشود هو تحرير الشعوب العربية جميعا من التسلط الأجنبى. وكان "الإخوان المسلمون" المتعصبون يعملون بنشاط على إثارة قلاقل كادت تتحول إلى عصيان. ولم يكن مثل هذا الخطر مستبعدا البتة، فقد كان حيا فى أذهان الجميع مثال "العراق"، حيث قام "رشيد عالى

الكيلانى" الموالىٰ للنازية - بانقلاب (وإن كان قد اخفق فى الواقع) قبل سنة واحدة.

لم يتحسن الوضع حتى استقالة "على ماهر باشا". فإن حكومة البلاط الجديدة برئاسة "سرّى باشا"، وإن لم تكن تشجع جهارا مكائد "الطابور الخامس"، فإنها على أية حال لم تقف في وجهه. لذا فليس من المستغرب، والحالة هذه، أن تتمكن القوى الموالية للفاشية من تنظيم مظاهرة حاشدة فى القاهرة يوم أول شباط (فبراير) ١٩٤٢، تطالب بعودة "على ماهر باشا" إلى الحكم. وكان من بين الشعارات التى رفعها المتظاهرون شعار مشؤوم يقول إلى الأمام يا "روميل".

حدا الوضع المقلق فى مصر ببريطانيا إلى اتخاذ خطوات حازمة. وطالب السفير البريطانى "اللورد كيلرن" الملك بتشكيل حكومة قادرة على تلطيف الجو السياسى، وأوصى بأسناد رئاستها إلى "النحاس باشا". بيد أن ترشيح "النحاس باشا" لم يكن يروق لـ "فاروق"، فرفضه رفضا قاطعا. أحدث ذلك أزمة بالغة الحدة بين الملك والسلطات البريطانية تعذر حلها بالطرق الدبلوماسية.

وفى ظهيرة الرابع من شباط (فبراير) ١٩٤٢ طلب "اللورد كيلرن" من الملك اصدار مرسوم بتعيين "النحاس باشا" رئيسا للوزارة فى وقت لا يتعدى الساعة السادسة من مساء اليوم ذاته، وجاء الطلب بصيغة انذار. وبعد التشاور مع رجال البلاط والحاشية وبعض الساسة الآخرين، رفض "فاروق" الانذار مما زاد الوضع حدة. ولم يتلكأ الانجليز فى اتخاذ الخطوات اللاحقة. فبايعاز من الجنرال "ستون" قائد القوات البريطانية في مصر طوقت وحدات من المشاة قصر الملك. وفى الساعة التاسعة

مساء قام "اللور كليرن" و"الجنرال ستون" بزيارة إلى الملك تخرج عن إطار الاعراف المتبعة فى البلاط، إذ أنهما وصلا إلى القصر المحاصر فى سيارة ترافقها ثلاث دبابات.

وهناك عدة روايات لمجريات هذه "الزيارة" تقول أكثرها شيوعا أن السفير البريطانى قدم إلى "فاروق" وثيقتين وقال:

– ياصاحب الجلالة، هذان مرسومان ينبغى أن توقعوا أحدهما. ينص الأول على تعيين صديقنا جميعا "النحاس باشا" رئيسا للوزراء. وبموجب المرسوم الثانى تتنازلون عن العرش. إذا آثرتم المرسوم الثانى فإن طائرة جاهزة فى المطار سوف تنقلكم إلى جنوب أفريقيا. لكم الخيار، ياصاحب الجلالة!

كان خطر فقدان العرش والنفى من البلاد واقعيا إلى حد بحيث يستحيل تجاهله. تطلع الملك عبر النافذة إلى المشاة البريطانيين المصطفين فى الميدان المقابل للقصر، وإلى مدافع الدبابات الثلاث وقال متجهما:

– ليس لدىّ خيار، لأننى لا اعتزم التنازل عن عرش أجدادى. ولكننى لن أنسى هذا اليوم أبدا.

لم يترك تهديد الملك المبطن أى أثر فى نفسى السفير والجنرال على السواء. فقد حققا هدفهما، وفى السادس من شباط (فبراير) أصبح زعيم حزب الوفد "النحاس باشا" رئيسا للوزارة. كانت شعبية "حزب الوفد" آنذاك قد بلغت الذروة: فقد حصل مرشحوه فى انتخابات آذار (مارس) ١٩٤٢ علي ٢١٨ من مجموع ٢٦٤ مقعدا فى البرلمان.

شرعت الحكومة الجديدة تعمل بحماس على استئصال شأفة "الطابور الخامس" الفاشى. ولم تتورع عن اعتقال كبار الشخصيات الموالية

للنازية، بما فى ذلك عدد من الوزراء السابقين وأمراء من العائلة المالكة والرئيس السابق لهيئة الأركان المصرية العامة "عزيز المصرى" وعدد من قادة الجيش. كما اعتقل رئيس الوزراء السابق "على ماهر باشا" بتهمة تسليم الإيطاليين خطط العمليات السرية للقيادة البريطانية فى الشرق الأوسط. وهذه الواقعة لوحدها تسلط الأضواء على المغزى الغامض لنشاط "ماهر باشا" حينما كان رئيسا للوزراء وأقرب المقربين إلى الملك.

كما اتخذت إجراءات أخرى لتحسين الجو السياسى فى البلد، ومنها احتجاز المواطنين الألمان والايطاليين وطرد اليابانيين من مصر.

لا يصعب على المرء تصور مدى نقمة "الملك فاروق" الذى حُرم من هذا العدد الكبير من مناصريه ومواليه! وقد لجأ إلى مختلف الدسائس، خفية وجهارا، للأطاحة بحكومة "النحاس باشا" الذى اضطر، مرغما، إلى تعيينه حاكما عسكريا عاما لمصر بالإضافة إلى رئاسته للحكومة.

لم يَخفّ الصراع قط بين هذين الرجلين اللذين كانا يشغلان أعلى المناصب فى البلد يوما واحدا، وغالبا ما كان يتحول إلى نزاعات تافهة على الجاه. ففى عام ١٩٤٣، مثلا، ظهرت على حيطان جوامع القاهرة، بمناسبة عيد الفطر، لافتات تحية الملك ورئيس الوزراء فى وقت واحد، ولكن "فاروق" أمر بإزالتها توا. وثأر "النحاس باشا" لنفسه ففصل الموظف الذى نفّذَ أمر الملك. وأدى ذلك إلى نشوء نزاع جديد بين الملك ورئيس الوزراء اتخذ منه "فاروق" ذريعة للمطالبة بإقالة "النحاس باشا". بيد أن الحكومة البريطانية لم توافق على طلب الملك الغاضب، واستمر "النحاس باشا" فى تطبيق النهج الذى رسمه فى السياسة الداخلية والخارجية.

كان ذلك النهج على الدوام متماشيا مع الهدف الذى يتوخاه التحالف المعادى للهتلرية. ودون الخوض فى تحليله، أقتصر هنا على الأشارة إلى أن من الإيجابيات التى حققتها حكومة "النحاس باشا" على صعيد السياسة الخارجية، خطوتها الهامة بإقامة العلاقات الدبلوماسية مع الاتحاد السوفيتى.

وحتى لحظة وصول أفراد سفارتنا إلى القاهرة ظل سائدا فى مصر تناسب القوى السياسى الذى نشأ فى شباط (فبراير) ١٩٤٢. واستمر التعايش السلمى بين ممثلى هذه القوى الذين ظلوا فى مناصبهم، ونعنى الشخصيات الثلاث الرئيسية فى حادث شباط (فبراير) المثيرة: "الملك فاروق" يتربع على العرش، و"مصطفى النحاس" يرأس الحكومة ويتولى منصب وزير الخارجية، و"اللورد كيلرن" يرأس السفارة البريطانية. وبحكم الواجب كانت سفارتنا تقيم مع الثلاثة صلات وثيقة، وترتب عليها فى الوقت ذاته أن تتابع بدقة واستمرار خيوط تطلعاتهم المتناقضة المتشعبة، لكى لا تتخبط فيها وتلحق، بشكل من الأشكال، ضررا بمصالح الاتحاد السوفيتى.

اتطرق، ختاما، بإيجاز إلى عاصمة "مصر" فى ذلك الحين.

فى مطلع القرن الحالى، وحينما بلغ نظام الاستعمار أوجه، شاعت على الألسن مقولة مستلة من "ملحمة عن الغرب والشرق" لكيبلينغ ونصها: "الغرب غرب والشرق شرق ولن يلتقيا". أما فى "القاهرة" فقد سمعت عبارة تناقض "كيبلينغ" نصها "الشرق والغرب يلتقيان فى القاهرة".

لعل هذه العبارة تعكس، من زاوية معينة، تفرد "القاهرة" فى ذلك

الحين. ففي هذه المدينة التى كان يقطنها آنذاك مليونا نسمة، التقى الشرق القديم والشرق العربى مع الغرب فى كل خطوة. ولا أقصد بذلك، طبعا "الصلات" مع الامبريالية البريطانية ممثلة بمؤسساتها الاستعمارية وجنود حاميتها التي رفدت فى زمن الحرب بوحدات من الجيش. لقد تركت الحضارة الغربية بصماتها فى أشكال أخرى، تظافرت مع السمات المميزة لحضارة الشرق، مضيفة على العاصمة المصرية طابعا كوسموبوليتيا (دوليا).

لنأخذ عمارة المدينة، مثلا. يبدو جليا للعيان التباين بين العمارة العربية التى تسودها روح "ألف ليلة وليلة" والعمارة الأوربية بمختلف مدارسها وتياراتها. وكان هذا التزاوج العمارى يلاحظ بكل جلاء فى ضواحى "القاهرة" الفخمة. ففى "مصر الجديدة" كما يذكر "شارل عيسوى" - وهو من كبار المختصين بمصر،- "توجد فى مساحة لا تقل عن نصف ميل مربع دور مشيدة وفق أساليب العمارة العربية والموريتانية والهندية واليونانية، وعمارة "فينيسيا"، و"روما"، ووفق أحدث الأساليب وعلى غرار عمارة عصر النهضة في فرنسا، فيلات ومنشآت أخرى يتعذر حصرها ووصفها".

كان التعدد السلالى للسكان يذهل المرء أيضا. فهم أساسا ينحدرون من المصريين القدماء الذين اختلطوا بالفاتحين العرب وصاروا عربا بالكامل، وإن كان عدد منهم (الأقباط) قد ظلوا منذ أقدم الأزمنة متمسكين بالديانة المسيحية ويختلفون عن العرب المحيطين بهم من حيث اللغة والثقافة. ولكن بين سكان "القاهرة" الدائمين أبناء قوميات أخرى كثيرة: يونانيون وأرمن ووافدون من بلدان أوربا الغربية، بالدرجة الأولى



السفير البريطانى وقرينته مع السيدة زينب الوكيل

فرنسيون وإيطاليون وانجليز، ونذكر أخيرا من يسمون المشرقيين وهم نتاج الزواج المختلط بين الأوربيين وسكان بلدان الشرق الأوسط المحليين. أما بالنسبة للغات، فبطبيعة الحال كانت العربية السائدة سواء على الصعيدين الرسمى والشعبى، ولكن كانت تسمع كذلك فى كل مكان - فى الشوارع والمتاجر والدوائر - لغات أجنبية فى مقدمتها الفرنسية والانجليزية، وتأتي بعدها اليونانية والايطالية، ومن ثم الروسية، ولم تكن الأخيرة نادرة، إذ قطن "القاهرة" عدد غير قليل من الروس الذين هاجروا قبل ثورة أكتوبر أو بعدها. وخلاصة القول إن عبارة "الشرق والغرب يلتقيان في القاهرة" كانت صائبة وتقوم على أرضية كوسموبوليتية محددة.

الفصل الثالث

الخطوات الأولى



عند وصولنا "القاهرة" أقمنا في فندق "شبرد" الذي قال عنه "مارك توين" في كتابه "سذج في الخارج" إنه "لا يمكن أن تجد في العالم كله فندقا أسوأ منه". لكن هذه العبارة وردت في ستينات القرن الماضي وعلى لسان كاتب ساخر يميل إلى المبالغة، وإذا لم يكن قد أفرط في المبالغة فمعنى ذلك أن الفندق خلال تلك الفترة أدخلت عليه تحسينات جذرية وأعيد تأثيثه، وعند وصولنا كان يعتبر من خيرة فنادق القاهرة. كان في قلب المدينة عند شارع "إبراهيم باشا" المزدحم.

هنا، في فندق "شبرد"، باشرت سفارتنا عملها، ولمدة أسبوع كامل تقريبا تحولت إحدى غرف الجناح الذي نزلت فيه إلى مكتب عمل يجتمع فيه موظفو السفارة، وهناك أعدت الوثائق الأولى ومن هناك أقيمت الاتصالات مع وزارات خارجية "مصر" و"يوغسلافيا" و"اليونان"، ومن هناك كانت تتجه يوميا "بعثات" بحثا عن مبنى يصلح مقرا للسفارة السوفيتية وشقق دائمة نسكنها وعوائلنا.

بعد يومين من وصولنا زرت "النحاس باشا"، وليس بوصفه رئيسا للوزراء، بل بوصفه وزيرا للخارجية إضافة إلى منصبه الأول.

أقول صراحة أننى ارتبكت كثيرا قبل الزيارة وأثنا ءها. إذ ترتب علىّ القيام بعمل كنت مهيأ له نظريا فحسب، أي تمثيل الاتحاد السوفيتى منفردا لأول مرة. بديهى أننى كنت على معرفة بكيفية التصرف فى السلوك أثناء الحديث مع وزير، ودرست مسبقا كل الاحتمالات الممكنة، ولكن ظلت احتمالات أخرى بأن أواجه ما لم أتوقع، أواجه ما كان يجب أن ارتجل الرد عليه. وبالطبع ما كنت أريد ارتكاب أية هفوة، حتى وإن كانت بروتوكولية بحتة، ناهيك عن الهفوة السياسية.

استقبلنى "النحاس باشا" فى مبنى وزارة الخارجية وليس فى مبنى مجلس الوزراء، وكانت أكياس الرمل موضوعة عند مداخل المبنى.

كان بانتظارى فى باحة الوزارة رئيس قسم التشريفات "ياسين بك" والسكرتير الشخصى للوزير "كامل السالونيكلى" وعدد من موظفى وزارة الخارجية الآخرين. دعانى "ياسين بك" إلى مكتبه أولا، حيث استفسر منى بأدب وبالتفصيل عن الرحلة وما إذا كنا قد رتبنا أمور السكن جيدا فى الفندق، ثم اطلعنى على بعض تفصيلات البروتوكول فى البلاط الملكى وقواعد الأتيكيت الدبلوماسى المحلى، ثم اصطحبنى إلى "النحاس باشا".

كان "مصطفى النحاس باشا"، الذى سبق وأن عرّفت القارئ به لماما، فى الخامسة والستين من العمر، ولكن منظره يوحى بأنه مفعم طاقة وحماسا، وينبغى الاعتراف بأن شكله كان ينم عن معدنه فعلا: فقد كان حقا وافر النشاط، كما كان وافر الشجاعة الوطنية التى غالبا ما أسعفته فى حياته السياسية الفوارة. ولم يكن درب "النحاس باشا" إلى قيادة "حزب الوفد" ورئاسة الوزارة مفروشا بالزهور، بل كثرت فيه

تخرج فى كلية الحقوق ومارس المهنة، ومنذ عام ١٩١٨ انخرط فى حركة التحرر الوطنى التى اتسع نطاقها بتأثير ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى. وتعرض "النحاس" بسبب نشاطه الفعال فى الحركة إلى شتى صنوف الملاحقة من قبل السلطات البريطانية. ففى كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢١ اعتقل وحوكم ونفى إلى "جزر سيشيل" حيث ظل حتى حزيران (يونيو) ١٩٢٣. وبعد العودة إلى الوطن كرس "النحاس" نفسه، وبذات العزيمة السابقة، للنضال السياسى، وكنا قد اطلعنا القارئ فى الفصل السابق على لمحات من هذا النضال - فى المرحلة الأخيرة، تركت الاخفاقات والنكبات الجدية التى عانى منها مرارا، تجاعيد عميقة على وجهه.

كان يرتدى ما يسمى ببدلة العمل، الرمادية الفاتحة، ويضع على رأسه الطربوش الأحمر، التقليدى لدى المصريين آنذاك. وعندما دخلت ارتسمت على محياه ابتسامة بشوش، بدت غير متلائمة مع وجهه الصارم، وتقدم لاستقبالى وصافحنى بقوة ثم قال بنبرة ودية:

- يسعدنى أن ارحب فى شخص سيادتكم بأول مبعوث رسمى للاتحاد السوفيتى فى مصر. أننى أشعر بأعمق الأرتياح لأن الحكومة التى أترأسها بادرت إلى إقامة العلاقات الدبلوماسية مع دولتكم العظمى، ولأن مبادرتنا وجدت صدى لها. وأنا أعتبر مجيئكم إلى هنا نجاحا دبلوماسيا لمصر، بل وبداية مرحلة جديدة لوجودها الوطنى.

أجبت على هذه التحية التى كان من الواضح إنها تخرج عن إطار المجاملة البروتوكولية الرسمية، بقولى:

- إنه لشرف عظيم بالنسبة لى أن أمثل الاتحاد السوفيتى فى بلد

مثل مصر له تاريخ عظيم مجيد يمتد إلى قرون عديدة، فى بلد هو فى وقت واحد عريق وفتى ينزع بكل جوارحه إلى المستقبل. لقد قدرت الحكومة السوفيتة تقديرا عاليا إرادة مصر الطيبة، وهى من جانبها لن تدخر جهدا لتطوير العلاقات الودية بين بلدينا. ومن واجبى المشرف كمبعوث أن ابذل كل الجهود لدفع هذا التطور بالتعاون الوثيق مع وزارة الخارجية المصرية.

عاهدنى "النحاس باشا" على أن مثل هذا التعاون من قبل جميع العاملين فى وزارته وحكومته مضمون عموما.

أعقب ذلك حديث استمر ثلاثة أرباع الساعة وكان بالفرنسية. وأذكر هنا أننى فى مصر كنت فى الغالب استخدم اللغة الفرنسية، ولم ألجأ عادة إلى غيرها إلا عندما كان محدثى يجهلها.

تناول حديثنا عددا من القضايا الدولية الحيوية، بدء من العمليات الحربية الجارية على الجبهة السوفيتية الالمانية. ولم يبخل "النحاس باشا" بكلمات الثناء والاعجاب عند تطرقه إلى جبروت الجيش الأحمر الذى كان يدحر العدو على جبهة هائلة الأبعاد. وفى ألوقت نفسه كان متحفظا لدرجة كبيرة فى تقييمه لعمليات القوات الأنجلو أمريكية فى حوض البحر الأبيض المتوسط.

من بين القضايا التى تناولها "النحاس" الأحداث الأخيرة فى "لبنان" حيث حاولت السلطات الفرنسية إيقاف نهوض حركة التحرر الوطنى. لم تكن معلوماتى عن تلك الأحداث تزيد عما قرأته عنها عرضا فى نشرة "وكالة تاس" قبيل مغادرتى "موسكو"، وكانت المعلومات شحيحة للغاية لا تسمح برسم صورة واضحة. لذا اغتنمت الفرصة المتاحة للحصول على

معلومات أشمل وأحدث، ولم يبخل بها الوزير عليّ. قال "النحاس باشا" بغضب مكظوم أن الفرنسيين اعتقلوا فى مطلع تشرين الثانى (نوفمبر) كل الحكومة اللبنانية تقريبا: رئيس الجمهورية "بشارة الخورى" ورئيس الوزراء "رياض الصلح" وعددا من الوزراء. وكان "ذنب" اللبنانيين هو أنهم، رغبة منهم فى تعزيز السيادة الوطنية لبلدهم، الغوا من الدستور الذى فرضته عليهم السلطات الفرنسية البنود التى تتحدث عن حقوق فرنسا بوصفها الدولة المنتدبة فى لبنان. وفى ٢١ تشرين الثانى (نوفمبر) اطلقت السلطات سراح المعتقلين وأعادتهم إلى مناصبهم السابقة. ولكن موجة الغضب والسخط التى أثارتها تصرفات الفرنسيين فى جميع البلدان العربية لم تهدأ بعد . . .

أثر تبادل الآراء حول القضايا العامة انتقلنا إلى الشوون العملية.

سلمت رئيس الوزراء الترجمة الفرنسية لأوراق اعتمادى، أو بتعبير آخر رسالة الرئيس "ميخائيل كالينين" إلى الملك "فاروق" حول تعيينى مبعوثا للاتحاد السوفيتى بغية إقامة علاقات ودية بينه وبين "مصر". وعند هذه النقطة شارك فى الحديث "صلاح الدين بك" نائب "النحاس باشا" بوصفه وزيرا للخارجية، وكان رجلا متأنقا لا يبدو عليه أنه تجاوز الأربعين. وخلافا للنحاس لم أكن اعرف شيئا عن "صلاح الدين بك". وقد عرفته فيما بعد أنه يتمتع سواء فى "حزب الوفد" أو فى الحكومة، بوزن كبير وإن "النحاس باشا" يعتز به كنصير وفىّ ومنفذ مطيع لأوامره.

سألت عن تاريخ تسليم أوراق اعتمادى إلى الملك. وكما كان متوقعا ظل هذا السؤال معلقا: إذ كنت أعرف من الصحف أن "فاروق" أصيب

خلال جولة صيد مؤخرا قرب "الاسكندرية" بكسر في رجله وأنه طريح الفراش. بل أن "النحاس باشا" أبدى خشيته من أن يُؤجَّل لقائى بالملك فترة طويلة قد تستمر ٣-٤ أسابيع.

وهكذا نرى أن النهاية المحزنة التى آلت إليها رحلة الصيد الملكية قد وضعت سفارتنا أمام موقف حرج: فقد كان عليها أن تظل فترة طويلة دون أي أساس شرعى تعتمده لأداء وظائفها ، ليس الدبلوماسية فحسب، بل حتى الاقتصادية والعملية أيضا ، مثل توقيع عقد بصدد تأجير مبنى. وقد استرعيت انتباه الوزير إلى ذلك فأجاب توا أن الوزارة تدارست هذه المعضلة وقررت أن السفارة، بصرف النظر عن الجانب القانونى الشكلى، تتمتع منذ الآن بكل امتيازات البعثة الدبلوماسية. أعربت عن الامتنان وطرحت على "النحاس باشا" قضية أخرى.

جوهر هذه القضية أن مرض الملك "فاروق" كان سوف يؤخر تلقائيا ، وإلى أمد غير محدد ، تسليم أوراق الاعتماد إلى ملك "يوغسلافيا" "بطرس" و"ملك اليونان" "جورج". فمن الناحيتين الشكلية والسياسية كان ينبغى اعتمادى أولا لدى ملك "مصر"، ومن ثم لدى الملكين اللذين يحلان ضيفين على البلد. لذا استفسرت عما إذا كانت الحكومة المصرية توافق على اعتمادى لدى ملكى "يوغسلافيا" و"اليونان" فى أقرب وقت؟ أجاب "النحاس باشا" أنه فكر في هذه المسألة ويأمل أن يجيبنى عما قريب. ومن البديهى أن هذا الموضوع كان يتطلب الحصول على موافقة الملك فاروق المذنب، دون قصد طبعا ، فى تعويق عمل السفارة.

عند هذا الحد انتهت زيارتى إلى "النحاس باشا". ولكن قبل مغادرة وزارة الخارجية دعانى "صلاح الدين بك" إلى مكتبه، وهو أمر ينص

عليه البروتوكول. ويدأ الحديث هناك أساسا من ترتيب أمور السفارة العملية. وحذرنى "صلاح الدين بك" من أن مصاعب غير قليلة تتربص بنا فى هذا المجال، ووعد بتقديم العون من جانبه.

فى طريق العودة إلى الفندق أجملت فى فكرى حصيلة اللقاءات الثلاثة فى وزارة الخارجية، وتوصلت إلى استنتاج بأن مخاوفى من تعثر فى الخطوات الأولى لم يكن لها مبرر، لحسن الحظ..

فى اليوم التالى نشرت جميع الصحف أنباء حول زيارة المبعوث السوفيتى إلى وزارة الخارجية. وفى الوقت نفسه أوردت بعض المعلومات عن سيرة حياتى استقتها من قسم التشريفات. ولكن بعض الصحف حرّفت الحقائق وأحيانا بشكل مضحك، كما يحصل لأى خبر تتناقله الألسن ويضيف له كل من عنده "توابل". وضربت الرقم القياسى فى هذا المجال صحيفة "الاصلاح" الصادرة فى "الاسكندرية". لا أعرف لماذا سمتنى "نيقولا جودينوف" وانقصت عمرى عشر سنوات تقريبا، وحرمتنى من ولدىّ ولكنها رزقتنى بفتاة عمرها سبعة أعوام أدّعت أنها ظلت فى "موسكو" "لحين انتهاء دراستها". وقدمت الصحيفة كذلك "وصفا" مفصلا لطباعى وهيأتى وملبسى، وكل ذلك بالطبع كان مخالفا للحقيقة. بيد أن ذروة "الاكتشافات" تمثلت فى نبأ يزعم أن "نيقولا جودينوف" يتقن العربية ويتكلمها مثل الفقهاء ويعرف بديعها كالدكتور طه حسين". ومهما "دغدغ" هذا النبأ مشاعرى فقد اضطررت إلى تكذيبه:

فللأسف كانت معرفتى بالعربية سطحية للغاية.

فى تلك الأيام الأولى أولت الصُحف عموما اهتماما كبيرا بسفارتنا،

علما بأن تعليقات الصحف من جميع الاتجاهات كانت ذات طابع ايجابى رغم ما تضمنته من "التوابل".

التزاما بقواعد الأتيكيت التى حدثنى عنها "ياسين بك"، زرت فى اليوم التالى قصر عابدين الملكى حيث دونت فى سجل التشريفات تمنياتى للملك بالشفاء العاجل.

كانت زيارتى الرسمية الثالثة فى "القاهرة" إلى السفير البريطانى، إذ أن "اللورد كيلرن" كان عميدا للسلك الدبلوماسى فى "القاهرة"، ويلزمنى البروتوكول بزيارته فى مستهل عملى.

من الجدير بالذكر أن اللورد كيلرن لم يصبح عميدا وفق الأعراف المتبعة فى السلك الدبلوماسى، أى بسبب درجته الدبلوماسية وتاريخ اعتماده فى هذا البلد، بل بفعل معاهدة عام ١٩٣٦ المجحفة. فقد نصت إحدى مواد المعاهدة على أن السفير البريطانى يعتبر دائما عميد السلك الدبلوماسى، فهو السفير الأجنبى الوحيد فى مصر، نظرا لأن سائر الدول يجب أن تعيّن مبعوثين فقط. وهكذا فإن المبعوث الدبلوماسى البريطانى كان فى وضع متميز عن دبلوماسيّى البلدان الأخرى. أما صلاحياته الفعلية، وكما بينا فى الفصل السابق، فلم تكن تختلف كثيرا عن صلاحيات المندوب السامى البريطانى السابق فى مصر، والتى كان السير "مايلز لامبسون" يتمتع بها فى فترة ١٩٣٤-١٩٣٦، قبل أن يصبح اسمه "اللورد كيلرن".

كان اللورد "كيلرن أوف كيلرن" من قدامى الدبلوماسيين، إذ انخرط فى الخدمة عام ١٩٠٣. وقد عمل أساسا فى بلدان الشرقين الأقصى والأوسط، وفى عام ١٩٢٠ كان فى روسيا السوفيتية، -ولكن ليس

كدبلوماسى يتمتع بالاحترام، بل بوصفه واحدا من منظمى الغزو الأجنبى واضطلع بمهمات "المندوب السامى البريطانى فى سيبيريا" وهو الأسم الفضفاض الذى أطلق على منصبه غير الخليق بالاحترام. ومن المعروف أن ذلك المنصب لم يعد عليه بأكاليل الغار، ولعله حمد الله لتمكنه من الفرار من سيبيريا.

إذن، زيارتى كانت إلى هذا الرجل المحنك فى خدمة الإمبريالية البريطانية.

كانت السفارة البريطانية تحتل حَيّاً كاملا يتاخم النيل. ورغم وفرة الأشجار الظليلة والعشب الأخضر المنسق بعناية على الطريقة الأنجليزية، فإن السفارة كانت أشبه بمعسكر حربى محصن. وشأن مقر القوات المسلحة البريطانية فى الشرق الأوسط القريب، أحيط حى السفارة بسياج عال أصم وصفوف من الأسلاك العديدة فإن ومقر القوات. ولئن كانت أكياس الرمل المحيطة بجدران وزارة الخارجية المصرية للوقاية من الغارات الجوية فقط، فإن من الواضح أن الأكياس والأسلاك الشائكة عند السفارة كلن لها، بالإضافة إلى ذلك، غرض آخر. وكانت تظهر هنا وهناك فى أراضى السفارة مدرعات وسيارات جيب عسكرية لتضع اللمسات الأخيرة التى تجعل السفارة أشبه بمعسكر محصن.

حينما رأيت هذه الصورة شبه الحربية، طرأ على خاطرى أن الدبابات الثلاث التى شاركت فى "مفاوضات" اللورد "كيلرن" مع الملك "فاروق" فى شباط (فبراير) عام ١٩٤٢، تقوم بالخفارة فى مكان ما خلف مبانى السفارة. ولكننى استدرك لأقول أنه لم تكن لها حاجة فى ذلك الوقت.

اضف إلى ذلك أن المسافة بين حيّ السفارة وثكنات القوات البريطانية تقطع مشيا في غضون خمس دقائق، وكان بوسع الدبلوماسيين الانجليز في أية لحظة أن يستدعوا من هناك امدادت عسكرية بما فيها وحدات الدبابات.

عند البوابة الحديدية العالية التي يحرسها جنود يلبسون الزّي الخاكي استقبل سكرتير السفارة السيارة التي تحمل العلم السوفيتي الأحمر. دلّ سائقي المصري (لم يكن سائقونا السوفيت قد وصلوا بعد) على المدخل الذي ينبغي التوقف عنده وخبّ إلى جوار السيارة ثم قادني عبر الدهاليز إلى مكتب السفير وهو ينحني باحترام.

استقبلني اللورد "كيلرن" وهو رجل ضخم الجثة ذو رقبة غليظة، ببشاشة تفوق بشاشة "النحاس باشا". طوّق كتفي بذراعه وكأني صديق قديم وجلس على الكنبه إلى جانبي وقال دونما ممهدات أنه سعيد للغاية لتمكنه من العمل مع زميله السوفيتي جنبا إلى جنب.

كانت لي تجربة خمس سنوات من التعامل مع الدبلوماسيين الأجانب، جعلتني أعرف حق المعرفة مدى سهولة مثل هذه البشاشة - بعد التدريب اللازم - وما هي قيمتها الحقيقية. كنت ميالا إلى التصديق بحفاوة رئيس الوزراء المصري إذ أنها لم تكن تناقض المنطق السياسي: فإن وجود ممثل للاتحاد السوفيتي - النصير الأمين لحركة التحرر الوطني - في "القاهرة" كان بالنسبة "للنحاس باشا" واحدا من عوامل تعزيز سيادة مصر الوطنية. ولكن هل ترى كان هذا مدعاة حماس سفير "بريطانيا العظمى" التي اضطررت - على مضض - إلى القبول بإقامة علاقات سوفيتية مصرية؟

بيد أن الدُّرْبَة الدبلوماسية والولاء للتحالفات ويلزمان بالكثير. لذا فإن اللورد الذى اكتسب لقبه مؤخرا لم يبخل بالمصافحات القوية والابتسامات الدمثة والكلمات الدافئة. وقد تعلمت منذ زمن أصول هذه اللعبة، لذا التزمت بها ولكنى حاولت تحاشى الافراط.

حدثنى السفير، بوصفه عميدا للسلك الدبلوماسى ومن قدامى العاملين فى القاهرة، عن قوام السلك الدبلوماسى وظروف حياته واعرب عن استيائه من ولع أعيان البلد بالمآدب التى ينجر إلى دائرتها الدبلوماسيون شاؤوا ذلك أم أبوا، وقال:

- لن تصدق، ياسيادة السفير، كم من الوقت الثمين نُهْدِره هنا لحضور الولائم والحفلات! حتى ليفكر المرء أن القاهريين ليس لهم من شغل سوى الانتقال من صالة الاستقبال إلى صالة الطعام، ومن صالة الطعام إلى صالة الاستقبال.

- ولماذا لا أصدق؟ لقد مكث "ياسين بك" يوم أمس نصف ساعة يشرح لى ألغاز البروتوكول وقواعد الأتيكيت المتبعة هنا. ورغم ذلك آمل ألا يخرج ذلك عن إطار إمكانات الدبلوماسى أو يشل حركته كليا.

- هذه القضايا تبقى بالنسبة لك مطروحة على الصعيد النظرى لذا فإنك تتحدث عنها بهذه السهولة. أراهن أنك سوف تغير رأيك بعد شهر أو اثنين.

تطرقنا إلى موضوع لا بد من تناوله، وأعنى الحرب. وكما فى مكتب "النحاس باشا" سمعت كلمات الاعجاب ببسالة الجيش الأحمر والشعب السوفيتى. وأطريت بدورى عمليات جيوش الحلفاء فى شمال أفريقيا

وايطاليا، ولم أرَ بأسا فى الأشارة إلى أن المواطنين السوفيت يعتبرون أن الحملة فى ايطاليا لا يمكن بحال من الأحوال، أن تُعَوِّض عن غياب الجبهة الثانية فى فرنسا التى كان الحلفاء قد وعدوا بفتحها منذ عام ١٩٤٢.

كانت نبرة العتاب الخفيفة التى شابت الملاحظة الأخيرة بمثابة ماء بارد يُصَبّ على رأس محدثى المتظاهر بالبشاشة. أضفى على وجهه إمارات الهم والتقطيب وقال إنه يفهم وجهه النظر السوفيتية جيداً. فحتى ذلك الوقت كان "الاتحاد السوفيتى" يتحمل العبء الرئيسى فى الحرب، وبالطبع فإن له الحق فى نيل مساعدة أكثر فعالية من حلفائه. بيد أن التسويف فى فتح الجبهة الثانية ليس مرده إلى نوايا سيئة لدى أحد ما، بل يعود إلى أسباب موضوعية جدية للغاية كانت الحكومة السوفيتية قد أبلغت عنها فى حينه. أما الآن فإن الجبهة الثانية، كما يأمل بشكل وثيق، سوف تفتح فى القريب العاجل.

كنت أشاطره هذا الأمل بإخلاص. بيد أننى حينما ألقى نظرة إلى الماضى من زمننا الحاضر، أى بعد أن صدَر الكثير من الوثائق والمذكرات حول السياسة الدولية فى زمن الحرب، أرى أن موقف "بريطانيا" حيال فتح الجبهة الثانية فى ذلك الوقت كان خلافا لقناعات السفير (إن لم يكن قد تظاهر بها) لا يعطى أية مبررات ثابتة لتفاؤله.

لحسن الحظ أن "تشرشل" ومستشاريه لم يفلحوا أثناء مؤتمر "طهران"، فى إقناع الآخرين بموقفهم، فتكلل المؤتمر بنجاح كبير لقضية الحلفاء المشتركة.

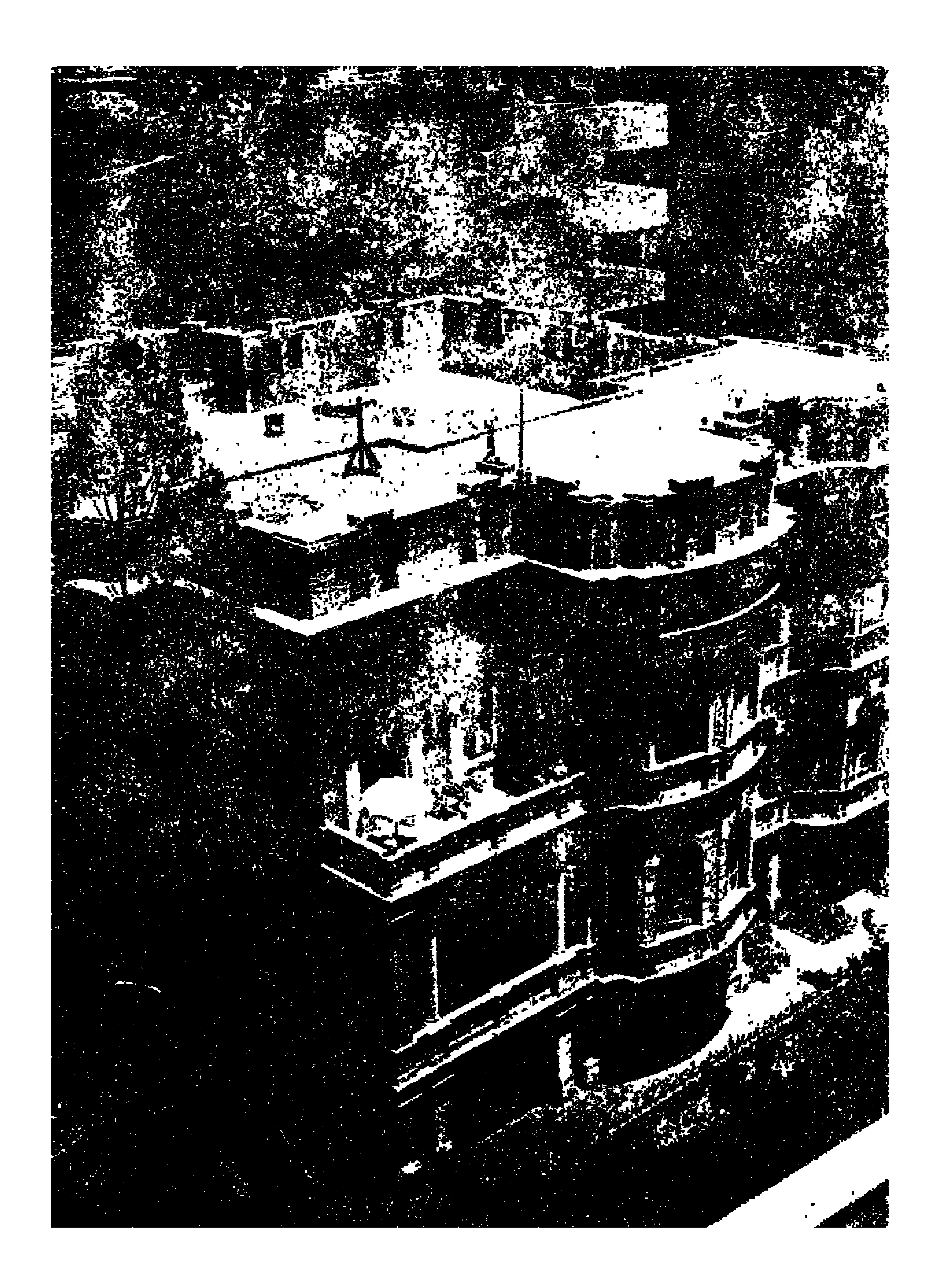
ودعنى اللورد "كيلرن" مبالغا فى إبداء مشاعر الود، وتمنى لى

التوفيق فى عملى الدبلوماسى وإقامتى فى مقرى الجديد.

كان الأمر الأخير، أى إيجاد مقر للسفارة ولسكن الموظفين، ذا أهمية فائقة بالنسبة لنا فى تلك الأيام. ذلك إن مساعدة وزارة الخارجية المصرية لم تتعدَّ تقديم المشورة حول عدد من شركات بيع وشراء وتأجير العقار، وعدد من مكاتب وسطاء تأجير الفيلات والشقق. ولم يكن بوسعنا أن ننحو عليها باللائمة لعدم تقديم العون الكافى، إذ أن الحكومة المصرية لم تكن تمتلك مساكن شاغرة. ولم يبق أمامنا من مخرج سوى الاتفاق مع الشركات والمكاتب التى نُصحنا بالتعامل معها، والتى كانت تكسب من صفقات إيجار العقار مبالغ كبيرة.

وقد كانت الظروف عونا لهذه الشركات. إذ صارت أزمة إيجاد مساكن ومكاتب عمل فى القاهرة مشكلة بالغة الحدَة. ففى العاصمة المصرية كانت توجد قيادة القوات المسلحة البريطانية فى الشرق الأوسط، مع كل ما يتبعها من هيئات الأركان ومؤسسات الخطوط الخلفية. كما كانت توجد فى المدينة القوات ذاتها على اختلاف أصنافها، بريطانية واسترالية ونيوزيلندية وأنجلوهندية وأمريكية وبولونية. واتخذت من القاهرة مقرا الدوائر الامبراطورية البريطانية التى أنيط بها تنسيق نشاطات منظمات الحلفاء العسكرية والاقتصادية. ثم، أخيرا، كانت توجد فى القاهرة حكومتا منفى وكل ما يحف بهما من الساسة والحاشية والسلك الدبلوماسى المعتمد لديهما.

الكل بحاجة إلى مكاتب عمل وفيلات وشقق لذا فإن جميع الفنادق والفيلات والمنازل المخصصة للإيجار فى العاصمة وأطرافها كانت غاصة



بالنزلاء. وبلغت قيمة بيع العقار وإيجاره أرقاما فلكية.

لم يكن مثل هذا الوضع ليَعدُنا بالخير. فإنّ مفوضية الشعب للشؤون المالية فى الاتحاد السوفيتى، البلد الذى يخوض منذ ثلاث سنوات حربا لم يعهد لنطاقها نظير، تقتصد بمنتهى الحرص فى كل نفقات الدولة باستثناء ما له صله بالحرب. وعند أول مقارنة بالواقع تبينت مدى فقر الاعتمادات التى خصصتها موسكو لبند السكن دون مراعاة لحالة المضاربة بالعقار فى سوق القاهرة. ولكننا رفضنا الاستسلام وواصلنا بعناد البحث عن مبان تؤمن لنا مقرا للسفارة دون الخروج عن الاعتماد الموضوع.

بيد أن الفشل الذريع كان نصيبنا، الأمر الذى تيقنّا منه بعد تجوال دام أياما عديدة فى القاهرة، اطلعنا خلاله على عشرات البنايات وتساومنا بعناد ولكن دونما فائدة مع الوسطاء. وقد استجابت مفوضيتا الشعب للخارجية والمالية لالحاحنا فعدل بند الإيجار فى الكشف، وعند حلول شهر كانون أول (ديسمبر) لم تعد السفارة بلا مأوى.

أستأجرنا لمدة ستة أشهر منزل أحد الباشوات على الضفة اليسرى لنهر النيل. كانت تلك هى الضاحية الغربية لمدينة القاهرة المتسعة بإطراد، وغالبية، سكانها من الأرستقراطية المصرية، ولم تكن فيها مكاتب عمل ومؤسسات حكومية (باستثناء وزارة الزراعة). كان حيا هادئا يرفل بالنباتات شبه الأستوائية.

نوافذ مبنى السفارة تطل على الطرف الجنوبى للجزيرة الممتدة لمسافة تربو على ثلاثة كيلومترات، حيث توجد منتزهات ونواد رياضية وميدان لسباق الخيل. والفيلا، بحديقتها الصغيرة المحاطة بسياج حديدى

مزخرف، محاذية لكورنيش ظليل فيه ممر معبد للسيارات، وثمة منحدر أخضر يؤدى إلى النهر. ولم يكن الموقع بعيدا عن قلب المدينة. فما أن تعبر الكوبرى الانجليزى إلى الجزيرة وتسير مسافة نصف كيلومتر فى شارع عريض تحف به أشجار النخيل، ثم تعبر كوبرى "اسماعيل باشا" عبر النهر، حتى تلقى نفسك وسط حى الأعمال المزدحم فى القاهرة، حيث توجد الوزارات والبعثات الأجنبية والمتاحف والبنوك والمطاعم والفنادق الراقية.

لم يثر الشكل الخارجى للفيلا أى اعتراض. فقد كانت بناية أنيقة من طابقين مشيدة بأسلوب أوربى - شرقى مختلط، ذات سطح أملس وقباب وشرفات ومدخل للزوار عبر شرفة يتصل بها سلم حجرى عريض تحف به أصص تحوى زهوراً جنوبية جميلة. بيد أن حجم الفيلا لم يكن يناسبنا، للأسف. فقد تمكنّا من أن نقيم فى غرف الطابق الأرضى مكاتب السفير وعدد من الموظفين الدبلوماسيين، وتوفير غرفة لاستقبال زملائنا من السلك الدبلوماسى وكبار الزوار، وغرفة للسكرتارية هى فى الوقت ذاته غرفة استقبال لعموم الزوار. ولكن الأمور كانت معقدة أكثر بالنسبة للطابق العلوى. فلو استكمل جهاز الدبلوماسيين وسائر الموظفين الأداريين فى السفارة لغدت غرف الطابق العلوى مكتظة كعلب السردين. كما كان المبنى خاليا من القاعات الكبرى، إذ لم يحتو على غرفة استقبال فسيحة للحفلات الكبرى ولا غرفة طعام لمآدب، كما لم يتبق مكان لمنزل السفير.

لم تكن الفيلا تناسبنا من نواح عديدة، ولكننا لم نقع على ما هو أفضل، فاخترناها لأنه لم يكن مناسبا التسويف فى افتتاح السفارة إلى

أمد طويل. وفى آخر تشرين الثانى (نوفمبر) ارتفع علم الدولة السوفيتية فوق سارية تعلو وسط المبنى.

وبالتدريج عثر موظفونا على مساكن كانت، فى الغالب، قريبة من السفارة. وفى أحد الأيام انتقلت وزوجتى من فندق "شبرد" للسكن فى غرفتين بالطابق العلوى فى مبنى السفارة، إلى حين العثور على مسكن دائم. وبالطبع كان ذلك حلا مؤقتا طالما أن قلة عدد الموظفين تسمح بإشغال غرفتين، وريثما تصل الموافقة على اعتماد المبالغ الإضافية التى طلبناها لحل مشاكلنا السكنية.

الفصل الرابع

ملوك فى المنفى





بعد فترة وجيزة مضت على لقائى بالنحاس باشا، أبلغت وزارة الخارجية المصرية سفارتنا بأنه لا مانع لديها من أن أسلم أوراق اعتمادى إلى ملكى "يوغسلافيا" و"اليونان" قبل أن يبرأ "الملك فاروق" من مرضه. وأثر ذلك قمت بزيارة وزير خارجية "يوغسلافيا" "بوريتش" ووزير خارجية "اليونان" "تسوديروس" اللذين كان كل منهما يشغل فى الوقت ذاته منصب رئيس الوزراء، واتفقت معهما على مواعيد المراسيم.

سلمت أوراق اعتمادى إلى ملك "اليونان" "جورج الثانى" فى التاسع من كانون الأول (ديسمبر).

كان الملك "جورج" قد تعدى الخمسين من العمر، بيد أن فترة توليه العرش - الفعلية وليس الرمزية - لم تكن تزيد عن سنوات سبع يفصل بينها انقطاع طويل. فقد اعتلى الملك العرش فى خريف ١٩٢٢، ولكنه فى أواخر عام ١٩٢٣ نفى من بلاده التى نودى بها جمهورية. وأمضى الملك السابق أثنى عشر عاما فى "لندن" دون أية صفة رسمية، منتظرا أن تعيده جهود أنصار الملكية فى "اليونان" إلى العرش. وقد توِّج

مجددا أثر حركة ١٩٣٥. وفى عام ١٩٣٦ أسند الملك رئاسة الوزراء إلى "الجنرال ميتاكساس" الذى أغرق البلد فى أهوال الدكتاتورية الفاشية، الأمر الذى جعل اسم الملك يرتبط، فى وعى أبناء الشعب، ارتباطا وثيقا باسم الدكتاتور المقيت. وليس من قبيل الصدف أن الوطنيين اليونانيين العاملين بقيادة جبهة التحرر الوطنى ضد المحتلين الالمان والايطاليين فى اليونان، كانوا يناضلون ليس ضد الغزاة الأجانب فحسب، بل وضد عودة السلطة الملكية إلى البلد فيما بعد.

بعد دخول الجيوش الألمانية أراضى "اليونان" فى ربيع ١٩٤١، انتقل الملك "جورج" إلى جزيرة "كريت"، ثم اضطر إلى البحث عن ملاذ فى "القاهرة". بيد أنه كان ينزع، بكل جوارحه، إلى "لندن" حيث طاب له المقام، لندن التى تنظر إلية بعين العطف. وظل فى العاصمة البريطانية حتى تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٣، حينما قررت وزارة الخارجية البريطانية أن "تخفف" عن لندن من عبء الملوك والحكومات الأجنبية الذين تدفقوا عليه، فاضطر "جورج" للعودة إلى "القاهرة".

كان الملك "جورج" يعتبر مقر إقامته فى "القاهرة" محطة أخيرة على طريق العودة إلى "أثينا". صحيح أنه وجه فى ٨ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٣، أى قبل يوم واحد من لقائى به، رسالة إلى رئيس الوزراء "تسوديروس" قال فيها أنه بعد تحرير "اليونان" سوف يعيد النظر بمسألة عودته إلى "اليونان" فى ضوء الظروف السياسية والحربية، مسترشدا بمصالح الأمة". بيد أن هذا الوعد الغامض المصحوب بتحفظات تحتمل تأويلات مختلفة، لم يكن إلا إشارة زائفة تهدف إلى تهدئة خصومه الكثار سواء فى "اليونان" أو فى أوساط الوحدات

العسكرية اليونانية فى الشرق الأوسط.

كان مقر الملك فى فيلاً متواضعة على الضفة اليسرى لنهر النيل أى على الضفة التى تقع عليها سفارتنا. واختيرت كقاعة للعرش غرفة استقبال اعتيادية فى تلك الفيلا البرجوازية، وهناك جرت مراسيم تسليم أوراق الاعتماد. قدمنى رئيس الوزراء "تسوديروس"، وهو كهل مجعد الوجه، إلى الملك الواقف وسط أفراد الحاشية فى تلك الغرفة.

بحكم عملى الدبلوماسى كنت قد التقيت مرارا بكبار المسؤولين الأجانب من وزراء ورؤساء وزارة، ولكن لحين ذلك اليوم لم ألتق برئيس دولة. وها أن أمامى أول ملك أقابله ليس على صفحات رواية أو كتاب مدرسى فى التاريخ، بل أنه ملك حى بلحمه ودمه. وكان لقبه، بالنسبة لمواطن سوفيتى يوحى بشيئ من القرون الوسطى، رغم أننى كنت قد عاصرت فِى بلدى "خليفة الله على الأرض" قيصر "روسيا" "نيكولاى الثانى". ففى عام ١٩١٣، وخلال الاحتفالات بمناسبة ذكرى مرور ٣٠٠ عام على تنصيب "آل رومانوف"، تسنى لى، وأنا صبى فى عامه العاشر، أن "اتبرك" برؤيته فى "بطرسبورغ" من مسافة ١٥-٢٠ مترا، وذلك حينما مرَّ بسيارته المكشوفة فى شارع موسكوفسكويه، محاطا بأفراد عائلته وحاشيته.

بديهى أن أول لقاء شخصى مع "سليل الملوك" هذا أثار اهتمامي. فقد بدا لى شيئا غريبا للغاية أن أطلق لقب "صاحب الجلالة" على هذا الأنسان النحيف، واسمعه يلقبنى "صاحب السعادة". ولكننى كنت قد أخذت اتعود تدريجيا على لقبى هذا لكثرة سماعى له فِى مصر. وكان الوقت قد حان أيضا للتعود على ألقاب "أصحاب الجلالة" إذ ما زال

عليّ أن اتعامل مع ملكين آخرين، عدا "جورج".

سلمت الملك أوراق اعتمادى (رسالة "ميخائيل كالينين") وألقيت كلمة تحية مقتضبة بالفرنسية. وبدوره تفوه الملك ببضع كلمات تليق بالمقام والمناسبة. وطبقا للعرف المتبع قدمت للملك مرافقيّ، وهما مستشار السفارة "سولود والسكرتير الثانى "سلطانوف". وعرفنى الملك، بدوره، بأفراد حاشيته.

لم تستغرق المراسيم أكثر من عشرين دقيقة، كما أن البرنامج لم يكن ينص على إجراء مقابلة شخصية مع الملك. وعوضا عن ذلك أرتأى رئيس الوزراء ومدير التشريفات الملكية أن التقى بالملك فى حفل استقبال خاص يقام فى شهر شباط (فبراير)، وسوف أتطرق إليه فيما بعد.

جرت مراسيم تسليم أوراق الاعتماد التالية يوم ١١ كانون الأول (ديسمبر) فى مقر إقامة ملك "يوغسلافيا" بطرس الثانى، فى فيلا فخمة مستأجرة من أحد الوجهاء المصريين.

كنت اعرف أننى ذاهب لتسلم أوراق الاعتماد إلى ملك كاد يفقد كل أمل فى استعادة عرش أجداده. فإن تطور الأحداث فى "يوغسلافيا" المحتلة من قبل الفاشست كان يقوض، يوما أثر يوم، هيبة السلطة الملكية المتزعزعة أصلا. وقد تمثلت الركيزة الرئيسية لهذه السلطة فى الفصائل القليلة العدد التى يقودها الجنرال "ميخايلوفيتش" (ابتداء من عام ١٩٤٢ أصبح وزيرا للحربية فى حكومة المنفى) والتى لم تكن تقوم عمليا بأية عمليات حربية تذكر ضد المحتلين. بل على العكس، كانت تشن باستمرار هجمات ضد الأنصار - الوطنيين اليوغسلافيين الغيورين

- مما جعل غالبية السكان تحجب عنها الثقة والدعم.

من جهة أخرى اتسعت حركة الأنصار وتعززت بقيام جيش التحرير الشعبى الذى بلغ عدد أفراده فى أواخر عام ١٩٤٣ ثلاثمائة ألف مقاتل. وأخذت لجان التحرير الشعبى تعمل فى المناطق التى حررها الجيش. ومن هذه اللجان شكلَ "فيتشا" (مجلس) التحرير الشعبى المعادى للفاشية الذى أصبح عمليا الهيئة التشريعية العليا فى البلد. وفى دورته الثانية المنعقدة فى أواخر تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٤٣ أسس المجلس لجنة التحرير الوطنية وأنيطت بها صلاحيات السلطة التنفيذية فى جميع المناطق المحررة وتضمن واحد من القرارت الصادرة عن المجلس رفضا قاطعا لترميم الملكية وعودة الملك "بطرس" إلى البلد.

كان هذا الفتى المتوج قد بلغ فى ذلك الحين العشرين لتوه. وقد صار ملكا بعد انقلاب ٢٧ آذار (مارس) ١٩٤١ الذى قامت به مجموعة من الضباط بقيادة الجنرال "دوشان سيموفيتش". وكانت هذه المجموعة تمثل القوى الوطنية المعارضة لانضمام حكومة "تسفيتكوفيتش" - بموافقة الوصى على العرش "الأميربولص" - إلى حلف "دول المحور" الثلاثى العدوانى. بيد أن حكومة "دوشان سيموفيتش" الجديدة لم تدم أكثر من أسبوعين. ففى فجر السادس من نيسان (ابريل) ١٩٤١ اقتحمت الجيوش الهتلرية الأراضي اليوغسلافية، وفى غضون أيام معدودات ارغمت القوات اليوغسلافية علي الاستسلام. وفر الملك "بطرس" والحكومة إلى "لندن"، ثم انتقل إلى "القاهرة" فى خريف ١٩٤٣.

وقد التفت حولهما آنذاك زمرة من محترفى السياسة الموالين للانجليز وغالبيتهم من غلاة الرجعيين، وأحدهم رئيس الوزراء حينذاك "بوجيدار

بوريتش" الذى كان يشغل فى نفس الوقت منصب وزير الخارجية.

فى الساعة المحددة وصلت إلى مقر الملك يصحبنى "سولود" و"سلطانوف"، أى كل ملاك الموظفين الدبلوماسيين فى سفارتنا آنئذ. استقبلنا فى البهو رئيس الوزراء "بوريتش"، وهو رجل طويل القامة أشيب الشعر يرتدى سترة سوداء طويلة وسروالا رماديا غامقا، رافعا رأسه بخيلاء. بعد تبادل التحيات معى ومع مرافقىّ، صاحبنا بوريتش إلى قاعة غير فسيحة فيها الملك محاطا بحاشية تتألف من ستة عسكريين ومدنيين. ولكى لا اكرر ما وصفته آنفا، لن أسهب فى تفاصيل هذا الجزء من المراسيم المشابه عموما لما جرى فى مقر اليونان. بل سأتوقف فقط عند اللقاء الشخصى مع الملك الذى أعقب المراسيم.

اصطحبونى، بمفردى، إلى المكتب حيث دعانى الملك "بطرس" للجلوس على كنبة غريبة الشكل من الطراز القديم، وجلس إلى جانبى. وكان من نصيب "بوريتش" الذى حضر اللقاء مقعد وثير قريب.

ارتدى الملك بزة عسكرية أنيقة عليها صفان من شارات الأنواط المتعددة الألوان. وقد كان رجلا متوسط القامة صموتا خجولا (إن لم أقل وَجِلاً) ليس فيه شيئ يُذكّر بهيبة الملوك، سواء فى وقفته أو حركاته أو طريقته فى التعبير. ورغم ذلك كان، شأن "جورج الثانى"، "صاحب الجلالة" و "ظل الله على الأرض".

لم يتصل حبل الحديث مع الملك. وريثما استمر تبادل الانطباعات حول معالم القاهرة شارك "بطرس" فى الحديث، وإن كان يفعل ذلك دونما رغبة تقريبا. ولكن حينما تطرق الحديث إلى القضايا السياسية، صار صموتا بشكل غريب. كان يتمهل فى الرد ويلقى نظرات ذات مغزى

على رئيس وزرائه، وكأنه يدعوه لأخذ زمام المبادرة فى الحوار. وهذا ما فعله "بوريتش". ويبدو أن رئيس الوزراء، وهو سياسى مخضرم متدله بحب السلطة إلى أبعد الحدود، كان مقتدرا على منع ملكه الضعيف الإرادة من إطلاق أحكامه الخاصة بصدد القضايا الهامة.

جرى حوار متصل بينى وبين "بوريتش" احتلت موقع الصدارة فيه القضايا المتعلقة بالمستقبل القريب لبلدان شبه جزيرة البلقان وخاصة "يوغسلافيا". وبدا هذا المستقبل، من وجهة نظر "بوريتش"، مشرقا يبعث على الأمل، فقد حقق الأسطول الأنجلو-أمريكى، فى رأيه، تفوقا فى البحر الأبيض المتوسط، الأمر الذى يكفل الوصول إلى شبه الجزيرة من ناحية الجنوب. وفى إيطاليا تواصل جيوش الحلفاء هجومها، والبلقان على مرمى حجر من "إيطاليا". قفزة قصيرة واحدة عبر بحر الأدرياتيك ويثبت الحلفاء أقدامهم على سواحل "يوغسلافيا" و"اليونان"، ومنها يزحفون إلى عمق شبه الجزيرة بمعية قوات المقاومة. المشكلة الوحيدة هى غياب الوحدة بين هذه القوات. فأنصار "تيتو" يرفضون الأمتثال لأوامر الجنرال "ميخايلوفيتش". بل ثمة أنباء حول وقوع اشتباكات دموية بين قوات الجنرال وفصائل الأنصار جرت بتحريض من قيادة الأنصار.

أبديت تحفظات شديدة على اللوحة التى رسمها "بوريتش" والتى كانت نسخة عن "البديل البلقانى" للجبهة الثانية الذى كان "تشرشل" يمنى به النفس منذ أمد بعيد، ولكنه اضطر فى مؤتمر طهران إلى التخلى عنه، قولا إن لم يكن فعلا على أقل تقدير. قلت أننى لا أملك أرقاما حول تعداد جيوش الحلفاء فى ايطاليا وقدرتها القتالية، ولكن إذا ما

أخذنا بعين الاعتبار الخُطى البطيئة لتحركها والركود التام فى بعض قطاعات الجبهة، فمن المستبعد توقع تمكنها حاليا من فرز قوات كافية للقيام بعمليات كبرى فى البلقان.

تحدثت بوضوح أكبر عن الوضع فى "يوغسلافيا". وقد كنت قد أطلعت وأنا فى "موسكو" على معلومات متنوعة من هذا البلد، ولم يتقادم عليها العهد بعد آنئذ. لذا أوردت عددا من الحقائق الدامغة وذكرت أن مسؤولية الصراع بين الأخوة تقع على عاتق الموالين لميخايلوفيتش الذين يجاهرون بعدائهم للأنصار، ويتعاونون خفية مع الجنرال اليوغسلافى العميل نيديتش. بديهى أننى تحدثت عن ذلك كله مستخدما تعابير معتدلة متحاشيا إثارة نقاش فى يوم غير مناسب، وأعنى يوم تسليم أوراق العتماد. ورغم ذلك فإن اختلافنا فى الرأى الذى يعكس موقفين متباينين من الوضع فى "يوغسلافيا"، كان جليا ومن المحتم أن يتخذ طابعا حادا فى القريب العاجل.

أما فى ذلك اليوم، ودون أن نجد لغة مشتركة، فقد قمنا. بإتفاق صامت متبادل، بتجاوز حجر العثرة ذاك وانتقلنا إلى موضوع آخر لا يثير الخلاف.

حينما نهضت مودعا دخل الغرفة، بإشارة من "بوريتش"، مصور التقط عددا من الصور.

وأثر ذلك خرجنا، نحن الثلاثة، إلى القاعة حيث كان مرافقاى وأفراد حاشية الملك يتجاذبون أطراف الحديث وهم فى انتظارنا. رافقنا الملك "بطرس" و"بوريتش" وكل أفراد الحاشية إلى أسفل السلم المؤدى إلى مدخل الضيوف، حيث كانت سيارتنا فى انتظارنا وهنا التقط المصور

عدة صور أخرى.

في مطلع شباط (فبراير) استلمت بطاقة دعوة مستطيلة مدموغة بالتاج الملكي، وقد كتب عليها بالفرنسية ما معناه: "بأمر صاحب الجلالة ملك اليونان، يتشرف مدير تشريفات البلاط بدعوة فخامة مبعوث الاتحاد السوفيتي والسيدة "ن. نوفيكوفا"، لمأدبة فطور في فيلا جلالته يوم السبت الموافق ١٢ شباط (فبراير) ١٩٤٤ في الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر". ثم ذكر عنوان الفيلا الذي نعرفه.

كانت تلك أول مأدبة ملكية أدعى إليها، ولكنها لا يمكن أبدا أن تسمى وليمة كبرى، صحيح أن أحدا لم يَعِد بأن يبهرنا بنفائس الأطباق، ولكنني دوما أعتقد، ولا أرى لماذا، أن مطبخ الملوك يجب أن يكون فريدا من حيث كثرة الأطباق والتفنن في صنعها. ولكن ما بهرنا في المأدبة كان شيئ آخر. أولا الكلفة الشديدة بين الحاضرين سواء قبل المأدبة أو أثناءها. لقد قيض لي مرارا، أداء لفروض البروتوكول، أن امضي ساعات في ولائم فطور أو غداء مملة للغاية، ولكن لماكن قد شاهدت بعد مأدبة فطور مملة وممضة كهذه.

لم يكن عدد الحاضرين حول المائدة يربو على العشرة. اذكر منهم جيدا، علاوة على الملك، سيدتين طاعنتين في السن من أقاربه، شقيقتاه أو خالتاه. على أية حال كانتا أميرتين تسري في عروقهما الدماء الملكية، لذا خاطبنا كلا منهما بلقب "صاحبة السمو". وبوصفي ضيف الشرف حظيت بشرف ومتعة أن أجلس وسطا بينهما. وكانت الأمور لتسير على ما يرام - فالدبلوماسي محكوم عليه أن يتعامل مع

مجتمعات شتى - لولا الصدود التام الذى جابهت به الأميرتان محاولاتى لوصل الحديث معهما. بدا أن أى موضوع أطرحه لا يثير أدنى اهتمام لدى صاحبتى السمو، فاقتصرتا على تعقيبات نادرة مقتضبة تحكمان بها اقفال الموضوع. أخذت أسائل نفسى: "ترى ماالذى يعقل لسانيهما ؟ أتراه القرف من مجاورة ضيف من "الدهماء"، أو (هذا هو الاتكى) وجود مبعوث "أحمر" يمثل الدولة البروليتارية الثورية؟".
مهما كان الأمر فإنهما لم تراعيا أبسط قواعد السلوك فى المجالس ناهيك عن أتيكيت البلاط أو الأتيكيت الدبلوماسى.

لم تكن الأمور أفضل فى سائر "قطاعات" المأدبة. فقد كانت الأنخاب مجاملة "جامدة" ومبتسرة إلى أقصى حد، وترفع كووس الخمر ولكنها تبقى عمليا دون مساس. وقد كان جو الضيافة بعيدا عن المأدبة، ولولا الملك لسادها صمت يكاد يشبه صمت القبور. فقد اضطلع الملك "جورج" نفسه، بوصفه صاحب البيت، بمهمة تبديد جو الكلفة وصار الخطيب الوحيد حول المائدة، وبذا حولنا جميعا إلى مستمعين على رأسهم الطير.

بدأ أولا يحدثنا عن معاناته أثناء قصف "لندن". وحينما أدرك أن هذا الموضوع ليس من أطرف المواضيع، قص علينا نكتتين من "الفولكلور" اللندني. وعندما قدمت الحلويات صعقنى بحديثه عن الصراصير. أجل عن الصراصير السوداء الضخمة التى يعج بها البيت كله، وتسمم حياة صاحب الجلالة وكل أصحاب السمو الملكى. ومازال يمر فى خاطرى بين الحين والحين هذا المشهد الغريب: الملك يشرح كيف يسحق الصراصير فيدق الأرض بقدمه ويقلد الصوت الذى يصدر عن

الصراصير عند سحقها: "كراك! كراك! كراك!" . هكذا كان الملك يهتف بنوع من الارتياح السوداوى. لم أكن أشك فى أن هذا التهريج الجلف مفتعل، ولكننى ظللت أضرب أخماسا بأسداس حول أسبابه.

بعد المأدبة، وما أن تذوقنا فى غرفة الاستقبال جرعة صغيرة من فناجين القهوة التركية، سارعنا إلى الخروج. كنا ننزع إلى الإفلات من جو الفيلا الخانق بنزلائها الغريبى الأطوار، سواء من الأصل الملكى أو الصرصورى. وحينما مرقت بنا السيارة على كورنيش النيل باتجاه السفارة، تنشقنا بملء صدورنا نسمات شباط المنعشة. ولكن صوت الملك وهو يهسهس "كراك! كراك! كراك!" ظل يتردد فى أذنىّ.

الفصل الخامس

الملك فاروق



يسهل على المرء أن يدرك السبب فى تواضع مراسيم تسليم أوراق الاعتماد للملوك فى المنفى. فهل ثمة مجال للأبهة حينما تكون لاجئا في أرض غريبة وفرص العودة إلى الوطن مشكوك فيها ؟

ولكن المراسيم كانت مغايرة تماما لدى ملك مصر. فقد كان بوسع فاروق، أن يتعامى عن التقييدات الخطيرة المفروضة على سيادة البلد (وهو ما تعلمه مع الزمن)، ويتصور نفسه حاكما مطلق الصلاحية على ١٨ مليونا من رعاياه. وقد كان حاكما بالفعل ولكن ضمن الحدود التى رسمها له الأنجليز.

كان "فاروق" مُتَدلّها بحب نفسه إلى أبعد الحدود، يحرص دوما على أن تُقَدَّم لجلالته كل فروض الاحترام التى يُحظى بها عادة ملوك أوربا، يضاف إليها الشيئ الكثير من الطقوس الشرقية الصرف. وقد كانت الأُبهة والفخفخة من المقومات الأساسية لأتيكيت البلاط المصرى، وتركتا بصماتهما على مراسيم تسليم أوراق الاعتماد.

عرفت أن موعد لقائى بفاروق قريبا من الصحف التى نشرت يوم ١٦ كانون الأول (ديسمبر) نبأ عن التحسن السريع فى الوضع الصحى

للملك. وقد صيغ النبأ بنبرة التعظيم والاستخذاء، وكأنه حدث مشهود يجب أن يستثير حماس المصريين.

وسرعان ما تلقيت إشعارا رسميا من قسم التشريفات في وزارة الخارجية ينبئنى أن الملك فى وافر الصحة وهو مستعد لاستقبالى فى يوم قريب. وقد حدد يوم ٢٥ كانون الأول (ديسمبر) موعدا للمراسيم.

أبْلغنا مُسبقا بكل تفاصيل المراسيم المعقدة. بدا لنا الكثير منها باليا أو مضحكا؛ ولكن ثمة تقليدا لم ترتح إليه نفوسنا. فقد نصت مراسيم البلاط على أن أى شخص، مهما كانت رتبته أو مركزه الاجتماعى، لا يجوز له أن يولى ظهره لصاحب الجلالة عند خروجه من حضرته، بل عليه أن يتراجع ببطء دون أن يحيد ببصره عن الملك وأن ينحنى له فى تراجعه. وكان هذا التقليد يذكر بالأزمان الغابرة، التى كان مفروضا على الرعية أثناءها السجود فى حضرة الحاكم وتقبيل أقدامه. صحيح أن مراسيم البلاط المصرى لم تصل إلى هذا الحد، ولكنها كانت مهينة أيضا. فهل يليق بمبعوث الاتحاد السوفيتى، أول دولة اشتراكية فى العالم بهرت الدنيا بجبروتها وعظمتها، أن يتصرف على هذا النحو الغريب أمام أحد، مهما كان؟

أحَطْت مفوض الشعب للشؤون الخارجية علما بما يساورنى من شكوك بهذا الخصوص. اتفق معى على أن هذا التقليد بالٍ وأخرق، ولكنه نصح بألاّ أعيره اهتماما وأن اتقيد بكل مقتضيات الأتيكيت. أذعنت مرغما لهذه المشورة التى كانت بمثابة أمر مباشر، مطيبا خاطرى بأنه قد تكون فى العالم طقوس أسوأ.

فى ٢٥ كانون الأول (ديسمبر) جرت أخيراً مراسيم تسليم أوراق

الاعتماد التى طال انتظارها.

بعد الساعة العاشرة صباحا وصل إلى السفارة مصوّر البلاط الذى كُلّف بتصوير المراسيم بكل دقائقها وفى جميع مراحلها، ابتداء من جدران السفارة إلى مدخل قصر عابدين. بدأ بطلب السماح بتصويرى فى مكتبى. والتقطت لى الصورة الأولى وأنا فى زى الاحتفالات الموشح بالذهب الذى ارتديته استعدادا للمراسيم فى القصر، وأنا جالس إلى المكتب حاملا القلم فى يدى، الأمر الذى بين الافتعال: فمن ياترى يجلس إلى مكتب العمل فى زى الاحتفالات؟ طلب المصور اللجوج أن يلتقط لى الصورة الثانية فى غرفة الاستقبال بمعية الدبلوماسيين السوفيت الذين سوف يرافقوننى إلى القصر. ونظرا لعدم توفر أزياء الاحتفالات (لم يتسن لهم الوقت لاعدادها فى موسكو) فإن المستشار "سولود" والسكرتير الثانى "سلطانوف" والسكرتير الثالث "خرلاموف" ارتدوا بدلات سموكنغ مؤجّرة. وصداريات بيضاء ووضعوا على رؤوسهم قبّعات براقة.

وبعد ذلك التُقطت سلسلة من الصور تجمعنا مع أشخاص كثيرين.

فى تمام الساعة الحادية عشرة وصل إلى السفارة ا"سماعيل تيمور بك" كبير مرافقى الملك فى عربة فخمة تجُرها أربعة جياد مُطَهّمة، وتتبعها عربة أخرى بمثابة الأخت التوأم لها. كان كبير المرافقين يرتدى سترة مُوَشّحة بالذهب ويتمنطق بحزام ذهبى وسيف، وعلى صدره تتألق سبعة أوسمة غالبتها على شكل نجوم كبيرة. اجلست ضيفى الرفيع المقام على كنبة فى غرفة لاستقبال وأخذنا نتبادل الحديث. وبعد أن قدمت لـ "تيمور بك" أركان السفارة توجهنا إلى القصر، وكانت مراسيم مقابلة

الملك ستبدأ في تمام الساعة الثانية عشرة.

ركبت مع كبير المرافقين العربة الأولى، بينما ركب العربة الثانية "سولود" و"سلطانوف" و"خرلاموف". كانت كل عربة بقيادة حوذي يجلس على مقعد عال ويرتدي زيا شرقيا، وعلى خلفية العربة يقف خادمان يرتديان الزي نفسه. وقد كان موكبنا مثيرا للفضول.

على طول الطريق من السفارة إلى القصر كانت الميادين والجسور والشوارع المعبدة أفضل تعبيد مغطاة منذ الصباح برمل ذهبي اللون، يهسهس برفق حينما تدوسه عجلات العربات وحوافر الجياد. ومن البديهي أن هذا الغطاء الغريب من مخلفات السنين القديمة، حينما كانت شوارع العواصم العربية غير معبدة، لذا فإن الرمل يجعل ضيف الخليفة أو الأمير بمنأى عن خطر السير في الوحل. ولكن الرمل لم يكن الشيئ الوحيد الذي يذكر بالماضي. فقد كان يجري بمحاذاة العربة الأمامية مناديان يرتديان جببا صفراء وسراويل بيضاء، وهما يعلنان للناس المحتشدين على الأرصفة عن اسم راكب العربة الملكية ووجهته وغايته.

حينما انطلقت العربتان من مبنى السفارة تبعتهما ثلة من حرس الشرف، من سلاح الفرسان الملكي وسيوفهم مشهرة.

بين الحين والحين كنت اتطلع من نافذة العربة فأرى في كل مكان الجموع المحتشدة على الأرصفة، وكانت تحيينا بالهتاف والتصفيق العاصفين وترمي الطرابيش إلى السماء وتلوِّح بالأيدي والمناديل. وكان الناس على علم تام بالمراسيم، دون حاجة إلى المنادين، فقد تحدثت عنها كل الصحف والأذاعة قبل بدئها.

في مثل هذا الجو الذي يمكن تسميته، دونما مبالغة، بجو العيد،

سرنا عبر أطراف القاهرة ووسطها إلى "ميدان عابدين"، حيث يقوم قصر الملك المحاط بسياج حديدى. عند عبورنا بوابة القصر المفتوحة على مصراعيها عزفت فرقة الالات الهوائية العسكرية نشيد التحية. مرت العربتان ببطء بمحاذاة حرس الشرف المؤلف من المشاة فى بزاتهم الحمراء الغامقة وطرابيشهم العقيقية اللون ولفائفهم البيضاء. ووقف أمام صف الجنود حامل الراية المرفوعة عاليا وضابطان يحملان سيفين مشرعين لكل منهما نصل مرهف يجعله أشبه بسلاح المبارزة. وحينما دنت العربتان من المدخل الرئيسى وترجّل منها الركاب عزفت الفرقة السلام الوطنى المصرى، ثم سلام الاتحاد السوفيتى، وقد كان آنذاك "نشيد الأممية".

كم من المشاعر أحسست بها وأنا استمع إلى سلامنا الوطنى!. مئات المرات قبل ذلك استمعت إليه، ومئات المرات أنشدت كلماته بحماس. ولكنه الآن يعزف تحت نوافذ القصر الملكى، قلعة واحدة من أكثر الأنظمة الملكية استبدادية فى العالم. وهو يعزف، فعلا، للمرة الأولى فى الأرض المصرية. حقا لقد كان ذلك مَعْلما من معالم الزمن، إذ أن "نشيد الأممية" لم يكن تجسيدا لمسيرة عمّال بلاد السوفيت المظفرة فحسب، بل وتعبيرا عن تقدم الكادحين الحثيث فى العالم كله.

بشعور من الفرح الغامر استمعت إلى اللحن الملهم الحبيب، وفى الوقت نفسه كنت أحاول تصور الوقع الذى يحدثه عزف سلامنا الوطنى داخل القصر. هل يعرف ساكنو القصر كلمات "نشيد الأممية"؟ لكم تجرح أسماع "فاروق" وأفراد حاشيته كلمات النداء الثورى

"هبوا، ضحايا الاضطهاد،

ضحايا جوع الاضطرار
بركان الفكر فى إتقاد
هذا آخر انفجار".

إنه نداء يستنهض العبيد والجياع فى كل مكان!. ياله من تقويض لكل ركائز الاستبداد! ولكن عليهم أن يصبروا: فكلمات النشيد لا تحذف بمرسوم. خاصة إذا كان ذلك نشيد دولة سيقوم مبعوثها بتسليم أوراق اعتماده بعد لحظات.

ها قد أتمت الفرقة عزف "نشيد الأممية"، وأصبحنا مجددا تحت رحمة المراسيم البالية والمفاهيم العتيقة، فى جو النظام المهترئ الخانق. خرج كبير المرافقين من حالة الانتباه المفتعل، وشرع يزاول مهام منصبه، بادئا بتقديم المجتمعين على سلالم المدخل إلىّ. كان البعض منهم فى سترات موشحة بالذهب ويحملون السيوف، مثل "تيمور بك" نفسه، والبعض الآخر فى زى عسكرى، ولكنهم جميعا من كبار رجلا البلاط. ادخلنا "تيمور بك"، ومعارفنا الجدد، إلى القصر حيث صعدنا إلى الطابق الثانى على سلالم رخامية مفروشة بالسجاد، ثم اجتزنا ممرا عريضا اصطف على جانبيه موظفو البلاط وعدد من والضباط. عند مدخل قاعة العرش تخلف مرافقونا ودخلنا القاعة وحدنا، نحن الدبلوماسيين السوفيت برفقة "تيمور بك".

لم تكن غرفة الضيوف برجوازية مبتذلة كما لدى الملكين المنفيين، بل قاعة عرش حقيقية ضخمة ذات ديكور فخم ومزدانة بالتحف الفنية من منحوتات وأصص وما إلى ذلك . فى آخر القاعة كرسى العرش وكان شاغرا، إذ أن الملك آثر أن يستقبلنا قربه، واقفا بين مجموعة من رجال

حاشيته. إنه رجل طويل القامة ضخم، تبدو إمارات الخيلاء على وجهه الذى تكسوه لحية صهباء أنيقة وشاربان مفتولان أصهبان. وكان فاروق يرتدى بزة الاستعراضات العسكرية بكتافيتيها الضخمتين، ويضع على رأسه طربوشا، وعلى صدره أوسمة هائلة الحجم ونياشين متألقة وثمة وشاح ملون عبر كتفه. هكذا طالعنا ملك مصر وحاكم النوبة و"السودان" و"كردفان" و"دارفور" "فاروق الأول". ونستطيع الآن أن نقول بارتياح: والأخير

عندما ادخلنا كبير المرافقين إلى القاعة انحنى وهو على العتبة، للملك الواقف فى الطرف الثانى من القاعة، وحذونا حذوه ولكن بقدر أقل من التزلف. وعند مرورنا بالقاعة انحنى "تيمور بك" زهاء ستة مرات بينما انحنى كل منا مرات ثلاثا. وعندما اقتربت من "فاروق" انحنيت إنحناءة تتماشى، إلى هذا القدر أو ذاك، مع مقتضيات إتيكيت البلاط.

قدمنى "تيمور بك" إلى الملك فتصافحنا، ثم أعقبت ذلك المراسيم الروتينية المعروفة. سلمت "فاروق" رسالة "كالينين"، ثم تبادلنا وإياه الكلمات المقتضبة، وأثر ذلك قدمت له الدبلوماسيين العاملين فى السفارة، وعرفنى الملك بالمحيطين به. وكان بينهم "النحاس باشا" الذى سبق وأن تعرفت به، ورئيس الديوان الملكى وكبير ياوران الملك وعدد من الوجهاء.

حينما تمت مراسيم تسليم الأوراق ألمح لنا "تيمور بك"، بنظرة من عينيه، بأن نغادر وفق الطريقة التى اعترضت عليها دون جدوى. ولأننا لم نكن معتادين على التراجع، فقد ألفت مجموعتنا نفسها فى موقف

محرج ومضحك فى آن. منذ دخول قاعة العرش انتبهت إلى أن الطريق إلى الملك يتجه من المدخل إلى جهة اليسار قاطعا القاعة عبر وترها تقريبا. ولم يغب ذلك عن ذهنى عند تراجعى وأنا أسير جنبا إلى جنب مع "تيمور بك" الذى كان يكرر الإنحناءات وكأنه لعبة آلية. أما زملائى فقد فاتهم أن يسيروا عبر وتر القاعة فابتعدوا عنى، ولم يكن من المناسب أن انبههم إلى ذلك. بل حتى لو أعطيتهم إشارة لما التفتوا إليها، نظراً لأنهم كانوا فى تلك اللحظة "يلتهمون" صاحب الجلالة "بنظراتهم" كما ينص الأتيكيت. ولم ينتبهوا إلى خطأهم إلا عند الجدار المقابل للقاعة، ولحسن الحظ فإنهم لم يتعثروا بشيئ. استداروا نصف استدارة نحو اليمين، ووسط ابتسامات الحاضرين تراجعوا بخجل نحو المخرج حيث كنت و"تيمور بك" فى انتظارهم. وقد ضحكنا كثيرا فيما بعد لهذه الحادثة، ولعلنا لم نكن الوحيدين الذين ضحكوا.

كانت العودة إلى السفارة محفوفة بذات المعالم الأبهة، ومن ضمنها عزف السلام الوطنى المصرى و "نشيد الأممية". بيد أن عدد الجماهير على الأرصفة، كما بدا لى، قد ازداد. ولعل السبب الأساسى لاهتمام الناس هو أن العربة الملكية أقلت، لأول مرة فى تاريخ مصر، مبعوثا سوفيتيا.

جرى لقائى الشخصى بالملك بعد بضعة أيام، فى التاسع والعشرين من كانون الأول (ديسمبر).

وفى الموعد المحدد توجهت مرة أخرى إلى قصر عابدين، ولكن دونما أية مراسيم هذه المرة. ولم استقل العربة الملكية، بل ركبت سيارة السفارة السوداء السوفيتية الصنع وعليها يرفرف العلم الأحمر. وفى القصر

اقتادنى سكرتير "فاروق" الشخصى إلى مكتب الملك الفسيح حيث كان يجلس وحيدا إلى مكتبه. وفى هذه المرة لم يكن يرتدى البزة الاستعراضية العسكرية ويحمل النياشين، بل كان يرتدى بدلة عمل رمادية غامقة. وأنا أيضا تركت بدلة الاحتفالات لكى تستريح من "عناء" الاستعمال الكثير فى شهر كانون الأول (نوفمبر)، وارتديت بدلة بنية فاتحة. وحينما أبلغنى كبير التشريفات مقدما بأن اللباس المطلوب اعتيادى، فقد أراد أن يؤكد بذلك خصوصية لقائى مع الملك.

عندما فتح السكرتير باب المكتب وأفسح لى المجال لأدلف، نهض الملك ورسم على شفتيه ابتسامة ترحيب وسار بضع خطوات فى اتجاهى. وضع السكرتير مقعدا لى قرب المكتب، وجلس الملك فى مقعده المقابل. أومأ للسكرتير بالخروج، وبدأ بيننا حديث طويل استغرق أكثر من ٥ساعة. وهى سابقة لم تعهد من قبل فى تعامل " فاروق" مع المبعوثين الدبلوماسيين الأجانب.

كان "فاروق" مازال فى ريعان الشباب، فى الرابعة والعشرين من عمره، وقد تُوِّج ملكا قبل ست سنوات. ولكن هذه السنوات الست لم تنفق فقط على سهرات الخمر والقمار والغرام، التى اشتهر بها فى البلد كله. فإن "فاروق" المغرم بالسلطة إلى أبعد الحدود والميال إلى المكائد السياسية، شرع يمارس هذه "الهوايات" بشغف منذ السنة الأولى لتوليه العرش. ولكن فى بعض الأحيان - وقد تجلى ذلك بكل وضوح فى شباط (فبراير) ١٩٤٢ - كانت طموحات الملك الشاب لممارسة الحكم الأوتوقراطى تتصادم بمصالح بريطانيا، وحينئذ يضطر الملك الذى لا يدعمه الشعب إلى تقديم تنازلات للمستعمرين.

وها هو هذا الشاب الذى اشتهر باستبداده ومكائده وفساده، يجلس أمامى الآن مرتديا مسوح حاكم رصين عركته تجربة تصريف شؤون بلد يضع مصالحه فوق كل شيئ.

حينما قصدت القصر، ظننت أن المقابلة لن تطول، وسوف تقتصر على تبادل الآراء حول اثنين أوثلاثة من المواضيع المحلية. ولكن اتضح أن لدى فاروق خطة أوسع تمليها اعتبارات لا تمت بصلة للبروتوكول.

بعد تبادل عبارات التحية، وتقديمى التهانى بمناسبة ميلاد ابنته الثالثة "فادية"، وشكر الملك على التهنئة، خرج الحديث عن إطار الشكليات وتطرق إلى السياسة. أخذ الملك زمام المبادرة بيده، فبدأ من الثناء - الذى لابد منه - على الجيش الأحمر، ثم تطرق إلى النجاح الباهر الذى حققه مؤتمر "طهران" الذى اختتم للتو، ثم تحدث عن آفاق فتح الجبهة الثانية. وبعد ذلك وجه إلىّ سيلا من الأسئلة حول "الاتحاد السوفيتى" وخاصة مختلف ميادين الحياة فى جمهورياته "الإسلامية". أجبت على أسئلته دون توان وعن دراية.

تكون لدىّ انطباع بأن اهتمام "فاروق" الفائق بالاتحاد السوفيتى وسياسته مفتعل فى الغالب، ورغم ذلك فقد تناول فى بعض الأسئلة التى وجهها قضايا كان يوليها، بالتأكيد، أهمية كبيرة. فعلى سبيل المثال، سأل عن موقف الحكومة السوفيتية من مشروع تأسيس "سورية الكبرى".

كنت على علم بفحوى هذه القضية. فقد وضعت وزارة الخارجية البريطانية خطة خبيثة لإنشاء مملكة عربية موحدة باسم "سورية الكبرى" تضم كلا من "سورية" و"لبنان" وشرق الأردن" وجزءا من فلسطين،

ويكون على رأسها أمير "شرق الأردن" "عبد الله" المعروف بولائه السافر للأمبريالية البريطانية. وإذا ما تركنا جانبا مزاعم "أيدن" الديماجوجية القائلة بأن المبادرة البريطانية تهدف إلى "توحيد العرب اقتصاديا وثقافيا وسياسيا" لبدا واضحا للعيان أن بريطانيا كانت تحاول توسيع دائرة نفوذها في الشرق الأوسط على حساب "سورية" و"لبنان" اللذين كانا تحت الانتداب الفرنسي. ومن البديهي أن المشروع جوبه بعاصفة جلية من لدن "سورية" و"لبنان" اللذين رفضا التخلي عن الاستقلال الذي نالاه منذ أمد قريب، كما رفضنا التخلي عن نظامهما الجمهوري.

أجبت "فاروق":

- لم تعلن الحكومة السوفيتية بعد عن وجهة نظرها رسميا في هذا المشروع. أما رأيي الشخصي فينحصر في أن واضعي مشروع "سورية الكبرى" لم يقيموا اعتبارا للمطامح الوطنية الفعلية للشعوب العربية المعنية. فمن شأن اخضاع "سورية" و"لبنان" للأمير "عبدالله" أن يئد استقلال البلدين، ولذا فإن لمعارضتهما المشروع كل ما يبررها. وإذا أخذت وجهة نظرهما بعين الاعتبار فإن مشروع "سورية الكبرى" لن يرى النور أبدا.

أشار "فاروق" إلى أنه موافق على آرائي، وألمح بشكل عابر إلى أنه شخصيا لا يستحسن المشروع. ولم يخض في الأسباب التي حدت به إلى هذا الموقف، ولكنها كانت واضحة دون شروح. فأولا، كان "فاروق" يخشى من أن إعلاء شأن العائلة الهاشمية المنافسة ممثلة في شخص "الأمير عبد الله" سوف ينال من هيبة أسرة "محمد علي" في "مصر".



● الملك فاروق في مكتبه الخاص

وثانيا، فإن "فاروق" الغيور نفسه - ولم يكن هذا سرا خافيا على أحد - كان يأمل جادا فى بسط سلطة مصر على "فلسطين" و"سورية" و"لبنان"، أى كما كانت الحال قبل مائة عام، إبان حكم مؤسس الأسرة "محمد على". بيد أن ذلك الزمان ولىّ. . . .

خلال الحديث ألقيت نظرة عابرة على ساعتى وذُهلت: فقد مضت قرابة ساعة من الوقت، ولم يبد "فاروق" بعد ما يوحى بنيته على إنهاء اللقاء. والمبادرة فى هذا المجال، وفق مقتضيات أتيكيت البلاط، هى للملك وحده.

لم تفت "فاروق" نظراتى العابرة إلى الساعة فابتسم ابتسامة متهكمة وقال:

- إذا لم تكن فخامتك فى عجلة من أمرك فسأكون مسرورا لمواصلة الحديث.

أكدت للملك إن اهتمامه بى مصدر سعادة كبيرة بالنسبة لى، وإننى تحت تصرفه.

من جهتى لم أقصر فى توجيه الأسئلة إليه، مركزا على القضايا المتعلقة بتأثير الحرب فى اقتصاد مصر وحياتها الاجتماعية. أجاب "فاروق" على الأسئلة الاقتصادية بإسهاب وأورد أحيانا أرقاما احصائية. أخذ يصف بُخيلاء - وكأنّ له فضلا شخصيا فى الأمر - التطور العاصف فى عدد من الصناعات خلال سنوات الحرب: الأسمنت والنسيج والمواد الغذائية وتكرير النفط. وكان من يسمع ادعاءات "فاروق" ليظن أن مصر تكاد تستعد لإغراق الأسواق الأجنبية بمنتجاتها الصناعية. ولكن واقع نمو الصناعة المصرية بحد ذاته كان حريا

بالاهتمام. فقد كان معناه أن سنوات الحرب ساعدت على تعزيز مواقع البرجوازية الصناعية التى أخذت تطمع، بمزيد من الأصرار، فى الإسهام بإدارة شوون البلد أسوة بالإقطاعيين ورجال المال.

لكن ما أن بدأ "فاروق" يتحدث عن الزراعة والتجارة الخارجية حتى تبددت إمارات الخيلاء، وشابت صوته نبرة الأسى. وقد أثار بالغ القلق لديه إن صادرات القطن، وهو المحصول الزراعى الأساسى- ومادة التصدير الأساسية، قد انخفضت كثيرا، مما ألحق ضررا بالغا بالزراعة. وأبدى "فاروق" قلقا مماثلا عند تحدثه عن الغلاء الفاحش فى أسعار الحاجيات الضرورية، التى ارتفعت إلى ٣-٤ مرات بالمقارنة مع مستوى ما قبل الحرب.

كان هذا الجانب من الواقع المصرى، أى الغلاء، بديهيا تماما بالنسبة لى وليس بحاجة إلى أسانيذ تفصيلية: فإن الغلاء كان يحدث يوميا ثغرات جديدة فى ميزانيات عائلات موظفينا.

تحدث "فاروق" باقتضاب ودونما رغبة عن الوضع السياسى فى البلد. ولم تضف إجاباته شيئا يذكر على ما كنت اعرفه من الصحف والمصادر الأخرى.

ومما له دلالته أن أيا من أفراد "المثلث الحاكم"، وأعنى الملك واللورد "كيلرن" و"النحاس" باشا، لم يتطرق أثناء الحديث معى بأى تصريح أوتلميح إلى العلاقات القائمة فيما بينهم. وكان الثلاثة يتحاشون هذا الموضوع الحساس ،كأنّ بينهم اتفاقا صامتا. بل ولعله كان اتفاقا بكل معنى الكلمة.

عندما اقترب حديثى مع فاروق من خاتمته فاجأنى بدعوتى لرحلة

صيد يعتزم القيام بها في مزارعه قرب الاسكندرية في الأيام القريبة القادمة.

ينبغي عليّ الاعتراف بأن بادرة العطف الملكي هذه وضعتني في موقف محرج للغاية. فأنا، أولا، لم أكن ميالا البتة لهذه الرياضة ولم أعتزم مزاولتها في "مصر". ولم تكن لديّ بندقية صيد أو الملابس اللازمة، أما شراؤها من أجل الحصول على "متعة" الصيد مع الملك، فإنه لم يدخل في حساباتي، ولو بسبب الغلاء الفاحش الذي تحدثنا عنه للتو مع "فاروق".

بيد أن ثمة أمرا هاما آخر حملني على التحفظ إزاء الدعوة: فإن استعدادي للتقارب مع الملك خارج إطار الرسميات كان يمكن أن يثير الالتباس لدى بعض أوساط المجتمع المصري، ويسيئ إلى سمعتي. وقد كنت مطلعا على القصص المثيرة القائلة بأن رحلات الصيد التي ينظمها "فاروق" ما هي إلا ستار للتغطية على حفلات المجون والدعارة في قصري "المنتزه" و"رأس التين" بضواحي الاسكندرية. وبديهي أنه لم يكن يليق لي، بوصفي دبلوماسيا سوفيتيا، أن استغرق في الملذات مع العابثين من ذوي الألقاب الرنانة، وإن أشارك الملك الماجن جلسات الخمر.

باختصار، كان ينبغي أن ارفض الدعوة، ولكن الصعوبة كانت تكمن في الطريقة التي تسوغ لي ذلك. فإن الرفض دون إيراد حجة مقنعة كان يعني الخروج عن أصول اللياقة. وبعد تردد قصير لجأت إلى ذريعة خيّل لي أنها كانت مقبولة ومؤدبة. أطنبت في شكر الملك على الشرف الرفيع الذي منحني إياه وواصلت مبتسما:

- ولكنكم، ياصاحب الجلالة، لا تتصورون مدى المجازفة التى تقدمون عليها بدعوتي. فأنا لم أمسك بندقية صيد فى حياتى، ثم أننى قصير النظر إلى أبعد الحدود. أخشى أن مشاركة زميل مثلى فى الصيد، سوف تحرمكم من نصف أفراد حاشيتكم، فتطلبون استدعائى فورا. لذا فإننى، لشديد الأسف، مضطر إلى رفض الشرف المعروض علىّ حفاظا على مصالح الدولة العليا.

تقبل "فاروق" برحابة صدر خطابى الساخر وأعرب عن الأسف لأننى لن أكون بمعيته، وبذا انتهت مسألة رحلة الصيد.

قال "فاروق"، وهو يودعنى، إنه مرتاح للغاية من حديثنا ويأمل أن يلتقى بى مستقبلا. واستبق أنا الأحداث قليلا لأذكر أن هذا "الأمل" قد تحقق ثلاث مرات فى الأشهر القريبة التالية.

أبرزت الصحف كخبر مثير واقع أن لقائى بـ "فاروق" استمر فترة طويلة بشكل غير معهود، ولكنها تطرقت إلى مجريات اللقاء بالتخمين، لأن الديوان الملكى لم يعط أية تفصيلات عنه. وقد حمل ذلك البعض من أعضاء السلك الدبلوماسى والأوساط السياسية على أن يضربوا أخماسا بأسداس لكى يحدسوا المغزى الكامن فى طول اللقاء.

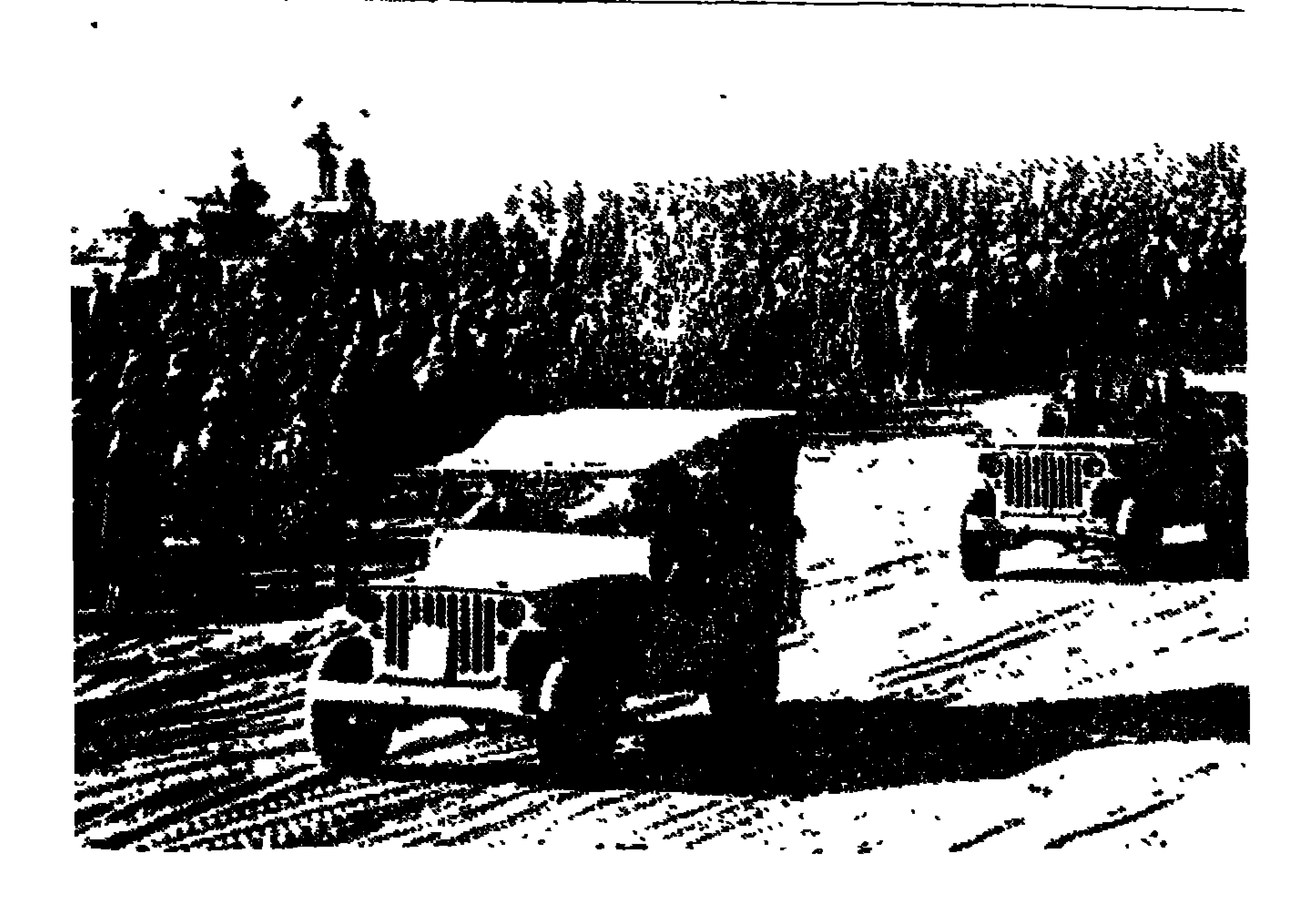
بل أننى بالذات بقيت أتأمل فى الطابع الفريد للقاء. كان ثمة أمر واحد أكيد بالنسبة لى، وهو أن "فاروق" بتعمده إطالة زمن اللقاء، توخى هدفا ما. ولكن ما هو؟. خلق انطباع بأنه اجرى معى مفاوضات هامة؟ .إذا كان الجواب بالإيجاب - ويبدو أنه هكذا فعلا - فإنه قصد خلق انطباع غير صحيح، إذا أننا لم نخُض فى أية مفاوضات بالمعنى الدبلوماسى للكلمة. فلمَ إذن لجأ إلى هذه المناورة؟

ظهرت تخمينات عديدة، وجدت أن أقربها إلى الحقيقة هي التالية: أولا، حاول "فاروق" بابدائه اهتماما خاصا بمبعوث أقوى دولة في التحالف المعادي للهتلرية، طمس تعاطفه السابق مع "هتلر"، الذي أصبح في المرحلة الراهنة من الحرب بضاعة كاسدة. وفي الوقت ذاته حاول قطع الطريق على "حزب الوفد" وزعيمه "النحاس باشا"، لكي لا يمكنهما من أن يحتكرا جني أكاليل الغار من إقامة العلاقات الدبلوماسية مع "الاتحاد السوفيتي". وأخيرا، ليس من المستبعد أن "فاروق" أراد أن يقتل عصفورا ثالثا بالحجر نفسه، ويلمح للانجليز من بعيد إلى احتمال عقد صفقة ما مع "الاتحاد السوفيتي" من وراء ظهرهم.

إن الحجر الموجه نحو "العصفور الثالث"، وإن كان خفيفا، فإنه نال من السفارة السوفيتية أيضا. فقد سرَت في "القاهرة" إشاعات عن مفاوضات سرية بين البلاط وسفارتنا. لذا فقد قمت، بكل حزم، أثناء لقاءاتي مع زملائي الدبلوماسيين الأجانب والشخصيات الاجتماعية المصرية بتفنيد أية اختلاقات تزعم بأن "موسكو" بدأت بحياكة دسائس سرية في "مصر"، وقام جميع موظفي السفارة، بإيعاز مني، بعمل مماثل في تفنيد الشائعات.

الفصل السادس

البلاط - الحكومة
السلك الدبلوماسى



منذ مطلع كانون الأول (ديسمبر) لم تعد السفارة قائمة فى جناحى بفندق "شبرد"، كما كانت فى الأسبوع الأول، بل فى فيلا تقع على أرض سوفيتية. أجل، أرض سوفيتية: فطبقا للقانون الدولى كانت قطعة الأرض التى نستأجرها، بالفيلا القائمة عليها والحديقة، تتمتع بحصانة دبلوماسية ولا يجوز للسلطات المحلية المساس بها.

ظهر عند باب السفارة كشك يحتمى فيه شرطى مسلح ببندقية، وهو إجراء لم يكن غريبا فى بلد كان الأشقياء ذوو الميول النازية من "جماعة الأخوان المسلمين" غالبا ما يلجأون إلى الأعمال الأرهابية. بيد أن الشرطى الحارس كان يؤدى مهمتة الخطيرة بشكل غريب جدا، إذ غالبا ما يخلد للنوم فى كشكه. وفى أيام الشتاء المشمسه كان ينتقل إلى حديقتنا، بعد أن يستعير من ديوان السفارة كرسيا، ويتدفأ تحت الشمس، ثم يتعالى شخيره دون أن يبالى بشئ. وقد التقط أحد هواة الصور الغريبة من موظفينا صورة له وهو مستغرق فى النوم وقد أرخى رأسه المغطى بطربوش على صدره، وبندقيته على ركبتيه. أما فى الليالى فإن يقظته، وزميله المناوب، كانت على ما يبدو فى نفس

المستوى.

فى الأيام الأولى التى أعقبت وصولنا كان كل الجهاز الدبلوماسى للسفارة يتألف منى، ومن السكرتير الثانى "عبد الرحمن سلطانوف"، خريج معهد الاستشراق فى "موسكو". وقد كان يجيد العربية اجادة تامة ويلم باللغة الانجليزية بقدر ما، ولكن مهنة الدبلوماسى جديدة عليه. وفى مطلع كانون الأول (ديسمبر) انضم إلينا "دانيال سولود" الذى كان قد عمل قبل ذلك سكرتيرا أولا فى السفارة السوفيتية بطهران، وقبل بدء الحرب عمل سكرتيرا ثانيا فى سفارتنا ببلغراد. وكان يتفاهم باللغة الفرنسية بطلاقة ويتقن اللغة العربية، وتولى فى سفارتنا منصب مستشار. ونظرا لمعرفته الجيدة بيوغسلافيا وإجادته اللغة الصربية، فقد كان من الطبيعى أن يتولى فى سفارتنا الشؤون اليوغسلافية، كما أنه كُلِّف أيضا بالشؤون اليونانية. وفى أواسط الشهر وصل من "موسكو" السكرتير الثالث "نيكولاى خرلاموف" والملحق "غيورغى يوكولوف"، ولدى الأول تجربة دبلوماسية متواضعة جدا، أما الثانى فلم يكن قد مارس الدبلوماسية قط، شأن "سلطانوف".

بديهى أن الجهاز الدبلوماسى لسفارتنا لم يكن كافيا البتة لإقامة الصلات مع الحكومات الثلاث، المصرية واليوغسلافية واليونانية، وكل السلك الدبلوماسى المتصل بها ومع أوساط الرأى العام، لذا لم أكف عن الالحاح على مفوضية الشعب للشؤون الخارجية لكى توفد المزيد من الموظفين الدبلوماسيين. وللأسف ظلت جهودى عقيمة أمدا طويلا. وبعد ثلاثة أشهر فحسب وصل السكرتير الأول "بافل دنيبروف" ليخفف بعض الشيئ من أعباء موظفى السفارة المرهقين للغاية.

كان النقص أكبر فى الجهاز الأدارى الذى واجه أكواما من الأشغال الجارية المستعجلة. وبحثا عن مخرج منَ المصاعب أقدمنا على "اسر" واستخدام مترجمتين من اللغة الفرنسية كانتا حينذاك مارّتين بالقاهرة فى طريقهما إلى "الجزائر" حيث كانت تقام سفارتنا لدى لجنة التحرير الوطنى الفرنسية. فاصدرتُ إيعازا بابقائهما فى "القاهرة" مؤقتا، ثم وصلت موافقة على ذلك وقد ساعدتا أسيرتا "القاهرة" استقبال المراجعين الكثار وتحرير الرسائل بالفرنسية، وترجمة مواد للقسم الصحفى الذى ولد عبر مخاض عسير. ولكننا اضطررنا فى كانون الثانى (يناير) إلى "اطلاق سراحهما" بناء على إيعاز من "موسكو"، كى تتوجها إلى محل عملهما فى "الجزائر".

علاوة على الأمور الجارية، شرعنا منذ الأيام الأولى بأداء المهمات الأساسية للسفارة. وقد كانت فى مقدمتها مهمة "اكتشاف "مصر" المعاصرة التى ظلت طوال عقود من السنين مغلقة فى وجه المواطنين السوفيت، باستثناء بحارة سفننا التى كانت قبل الحرب تمر عبر قناة السويس أو تشحن بالقطن فى "الاسكندرية". ولم نكن نعتبر المعلومات التى فى حوزتنا عن هذا البلد عند وصولنا إليه، سوى منطلق لدراسة متعمقة للواقع المصرى. وقد تناولنا بالمتابعة والتحليل جذور التناقضات الاجتماعية ومظاهرها الملموسة، وتغير تناسب القوى السياسية وأشكال صراعها على السلطة ومجالات النفوذ، ومدى نفوذ أفراد الحاشية وكبار رجال البلاد والساسة ورجال الثقافة وطبيعة شخصياتهم، والظواهر الجديدة فى شتى ميادين الحياة الروحية والاقتصادية. وقد كانت متابعتنا وتحليلنا لهذه الظواهر عونا لمفوضية

الشعب للشؤون الخارجية (وزارة الخارجية) لكى تحدد بمزيد من الدقة الخط السياسى فى تعامل "الاتحاد السوفيتى" مع "مصر". ولما كنت اعتبر الاختلاط الشخصى مع الناس من جميع المراتب والفئات، الوسيلة الأهم لمعرفة البلد، فقد صار الاختلاط بالناس واجبا لابد منه بالنسبة لكل من دبلوماسيينا.

ترتب علىّ، بحكم وضعى، أن أقيم اتصالات بالدرجة الأولى مع البلاط الملكى والدوائر الحكومية والوجوه الاجتماعية وزملائى من السلك الدبلوماسى. وكانت الزيارات البروتوكولية ولقاءات العمل وحضور مآدب الافطار والغداء وسائر المراسيم، هى جميعا جزء من فيض الأشكال التى جرت عبرها هذه الاتصالات. وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن الحكومات التى "تحت رعايتنا" ثلاث، وإن عدد السفارات والبعثات المعتمدة لديها زهاء الأربعين، يصبح واضحا أن تلك الاتصالات كانت مُتعبة للغاية. إذ أن كل زيارة تعقبها (وإن بعد حين) زيارة جوابية، وكل دعوة لحضور افطار أو غداء "تعادَل" بعد فترة بدعوة جوابية. ونتيجة لذلك فإن جدول تنقلاتى فى "القاهرة" كان مشحونا فى فترة كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٣ والنصف الأولى من عام ١٩٤٤.

بعد تسليم أوراق اعتمادى إلى "فاروق" تعين علىّ القيام بجملة من الزيارات البروتوكولية وبينها زيارات إلى بعض أفراد الأسرة المالكة، وفى مقدمتها زيارة ولى العهد الأمير "محمد على". وإلى جانب ذلك كان علىّ أن ازور شخصيا أو أقدم بطاقتى إلى الأميرين "عمر طوسون" و"عبد المنعم" وإلى عمه الملك "فاروق" الأميرة

"شويكار"، وعدد من كبار الشخصيات ابتداء من رئيس الديوان الملكى "حسنين باشا".

ليس ثمة مجال (أو داعٍ) للحديث عن كل اللقاءات من هذا القبيل، علما بأن البعض منها يشير نوعا من الاهتمام بهذا الشكل أو ذاك. لذا سأتناول فقط لقائى بولى العهد.

يقصد بولى العهد، عادة، ابن الملك الحاكم. ولكن "فاروق" رزق بثلاث بنات، فى حين أن القانون ينص على أن تكون ولاية العرش حكرا على الذكور. ونظرا لعدم وجود ولد ذكر فى الأسرة المالكة فإن الولاية صارت لأقرب أقارب الملك وأكبرهم سنا من الذكور.وفى تلك الآونة انطبقت هاتان الصفتان على عم "فاروق" البالغ من العمر ٦٨ عاما، وهو شقيق الملك الراحل "فؤاد". عرف عن ولى العهد أنه رجل متدين إلى أقصى الحدود، وملتزم بكل أركان الاسلام. كما قيل أنه يحيا حياة النساك ولا يرتدى إلا ملابس الاحرام وينتعل خُفاً، وهو على استعداد فى كل لحظة لأداء الصلاة فى مسجد قصره. ولا ادرى مدى صحة ذلك، ولكنه استقبلنى وهو فى بدلة أوربية أنيقة وحذاء لامع صقيل.

رغم تقدم الأمير "محمد على" فى السن فإنه لم يبدُ طاعنا. كان لقا مهذبا ويتمتع بروح نكتة فريدة، يتخذ أحيانا طابع التهكم والسخرية. وخلال اللقاء أخذ يسخر من دوره كولى للعهد فى ظل شاب معافى كالملك "فاروق"، وقال بسخرية تحتمل التأويل: "آمل إلا يمد العلىّ القدير فى عمرى لأحيا أكثر من مليكنا المفدى". وبديهى أن "محمد على" كان بعيدا عن التدله فى حب ابن أخيه المتوج. بل أن

الاشاعات زعمت أنه تلقى نبأ الحادث الذى ألمّ بفاروق بشماتة لم يبذل جهدا فى مداراتها، وأسف فى سره لأن الملك كُسرت رجله ولم يدق عنقه.

فى مستهل الحديث قال الأمير:

- فهمت من الصحف أنك مستشرق ضليع باللغة العربية.

أجبت مبتسما:

- هذا سوء فهم، ياصاحب السمو. فمن بين كل اللغات الشرقية لا ألمّ إلا بالتركية.

- رائع!

هتف الأمير بالتركية وأضاف:

- أين درستها؟ هل أقمت فى "تركيا"؟

أجبت على أسئلته بالتركية أيضا، واستمر حديثنا كله تقريبا بهذه اللغة، التى كانت بالنسبة له بمثابة لغته الأم:- ففى زمن الامبراطورية العثمانية كانت عليّة المجتمع المصرى كلها لا تتحدث إلا بالتركية، وتزدرى العربية معتبرة إياها لغة الدهماء. وعلاوة على ذلك أمضى "محمد على" بضع سنوات فى "اسطمبول".

اتخذنا من ذلك مدخلا للحديث عن "اسطمبول" التى أقام فيها كلانا، ومن ثم عن "بطرسبورغ" حيث كانا كلانا أيضا، ولو فى ظروف مغايرة.

ففى "بطرسبورغ" استُقبل الأمير "محمد على" سليل الأسرة المالكة فى بلاط القيصر، وراح يلهو ويعبث مع العابثين من أبناء الأعيان الروس، وفى المطاعم الفخمة، بينما كنت أنا فى تلك السنوات

تلميذا ابن عامل. صحيح أنني أيضا "زرت" قصور القياصرة، ولكن بعد ثورة أكتوبر وكسائح. وفي "إسطمبول" أقام "محمد علي" في مطلع القرن، وبالطبع، كان محاطا بأهل البلاط. أما أنا فقد وصلت إلى "اسطمبول" بعد اعلان الجمهورية التركية، كطالب متدرب يعكف على دراسة اللغة وعادات وتقاليد الشعب التركي. كما "زرت" قصور السلاطين هناك أيضا كسائح. بيد أن الاختلافات في أوضاعنا الاجتماعية السابقة والحالية، ناهيك عن الفروق في معتقداتنا، لم تحل دون أن يغدو حديثنا ممتعا وبدون كلفة. بل اعتقد أنها طعمته بشيئ من "التوابل".

كان ولي العهد حاصلا على قسط وافر من التعليم وله قراءات واسعة، وقد طاف أوروبا كلها وزهاء نصف آسيا، وخبر في حياته المديدة الكثير، لذا فإن مواضيع الحديث عن العموميات كانت متوفرة. وأؤكد أن الحديث عن العموميات، فالأمير خلافا لابن أخيه تحاشى المواضيع ذات الطابع السياسي، ولم ألح بدوري عليها.

كنت التقي بانتظام (بناء على مقتضيات البروتوكول أو متطلبات العمل) مع زملائي من السفراء والمبعوثين لدى الحكومات الثلاث. ولن أحاول أن احيط بما اعجز عن الاحاطة به، لذا سأبرز من بين الكثرة الكاثرة من زملائي ثلاثة دبلوماسيين كانت لقاءاتي معهم، بعد التعرف الأولي، أكثر من غيرهم.

أذكر أولا "الكسندر كيرك"، مبعوث "الولايات المتحدة الأمريكية" لدى الحكومة المصرية ولدى ملك "العربية السعودية". كان

دبلوماسيا محترفا مخضرما، تخرج فى "جامعة بيل" و"مدرسة العلوم السياسية" بباريس. عند تعرفنا كمان فى الخامسة والخمسين من العمر، وقد سلخ ٢٥ سنة منها فى العمل الدبلوماسى. وإن صفحات تاريخه الدبلوماسى حافلة، فقد شارك فى مؤتمر الصلح بفرساى عام ١٩١٩ وعمل فى وزارة الخارجية الأمريكية معاونا للوزير. وصل "كيرك" إلى "القاهرة" عام ١٩٤١ وكان على اطلاع جيد بالدوافع الخفية للأحداث السياسية. وغالبا ما اطلعنى على معلومات يتعذر الحصول عليها من مصادر أخرى. صحيح أن اللورد "كيلرن" لم يكن يتحاشى الأحاديث "المهموسة" ولكننى لم أتوقع منه الموضوعية فى تغطية الأحداث الجارية بمشاركته المباشرة أو غير المباشرة. هذا فى حين لم تكن لدى الأمريكان الدوافع التى تحرك السفير البريطانى. ولكن كان لدى السفير الأمريكى ما يدفعه إلى نقل المعلومات (أو حجبها) وفقا لمصالح السياسة الأمريكية البعيدة المدى، المتمثلة فى توسيع النفوذ الأمريكى فى "مصر" خلال فترة ما بعد الحرب. لذا فإننى اتخذت إزاء أخباره الخاصة أيضا الحذر اللازم.

تجدر الإشارة إلى أن لقاءنا الأول مع "كيرك" بيّن أننا سبق والتقينا بموسكو حينما عمل مستشارا للسفارة الأمريكية عامى ١٩٣٨ و ١٩٣٩: فى المرة الأولى أثناء حفل استقبال إقامة مفوض الشعب للشؤون الخارجية "ليتفينوف" بمناسبة الذكرى الحادية والعشرين لثورة أكتوبر، والمرة الثانية فى أمسية أقامها دبلوماسى بريطانى فى منزله. ولا مندوحة من الإقرار بأن "كيرك" كان يستميل جليسه ببساطته وتهذيبه وحفاوته، الخالية بتاتا من الافتعال الذى أبداه دوما اللورد

"كيلرن". ولم ادخر من جانبى وسعا كى تكون علاقاتنا الشخصية متناغمة مع "الوفاق القلبى" السائد آنذاك بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى وخاصة بعد مؤتمر "طهران". وحينما غادر "كيرك" "القاهرة" فى آذار (مارس) ١٩٤٤ متوجها إلى "ايطاليا" ليشغل منصب مندوب "الولايات المتحدة" فى مجلس الحلفاء الاستشارى الخاص بايطاليا، أسفت أشد الأسف لفقدانى زميلا لطيفا ونافعا.

صارت لى مع خلفه "بينكنى تاك" أيضا علاقات لا بأس بها، ولكن تشوبها مسحة من الرسميات. إذ كان شخصا عمليا جافا ومحط اهتمامه المشاكل الاقتصادية التى أحدثتها الحرب فى العالم عامة وفى "مصر". وقد كان على دراية تامة بالشؤون المصرية، إذ أنه عمل منذ عام ١٩١٣ نائبا للقنصل الأمريكى فى "الأسكندرية". وفى عام ١٩٢٢ (بعد أن عمل لمدة عام واحد مستشارا سياسيا لدى المندوب الأمريكى السامى فى "إسطمبول") عيّن قنصلا فى القاهرة. وقد ظل مبعوثا للولايات المتحدة فى "مصر" حتى عام ١٩٤٨، حيث ترك العمل الدبلوماسى مؤقتا ليصبح مديرا لشركة قناة السويس.

خرجت من أحاديثى مع "بينكنى تاك" وسلفه بانطباع مؤداه أن "الولايات المتحدة"، بتعيينها مثل هذين الدبلوماسيين المحنكين فى "مصر"، كانت منذ الحرب تهيئ التربة لتوسيع نفوذها السياسى والاقتصادى هناك. وكان رهانها على أنه إثر ضعف مواقع "بريطانيا" و"فرنسا" فى الشرق الأوسط (وهو أمر كان يمكن التكهن به) سوف تقوم الولايات المتحدة بلعب الدور الأول فى المنطقة. وكتبت الصحف الأمريكية صراحة عن مثل هذه الخطط، فعلى سبيل المثال كتبت مجله

"هاربرس ماغازين" عام ١٩٤٤ تقول صراحة أن "مد خط امريكى لأنابيب النفط فى الشرق الأوسط دون غطاء سياسى ودون توفر الاستعداد لمجابهة أى تحد بالقوة، إنما هو جنون". ومن المعروف أن محاولات لتنفيذ هذه الخطط قد جرت بالفعل فى مطلع الخمسينات، ولكنها باءت بالفشل.

كان المبعوث الإيرانى "محمود جم" البالغ من العمر ٦٣ عاما، وهو بدرجة سفير، شخصية من نمط آخر. فهو ليس من الدبلوماسيين المحترفين، إذ لم يعين مبعوثا إلا عام ١٩٤١. وقبل هذا التاريخ، فى زمن نظام "رضا شاه بلهوى" الرجعى، كان يرتقى بسرعة سلم الوظائف الحكومية: فقد عمل حاكما عسكريا لعدة ولايات واستوزر ثلاث مرات، وفى فترة ١٩٣٥-١٩٤٠ صار رئيسا للوزراء، واليد اليمنى لرضا شاه (علما بأن تلك كانت حقبة تعزز إبانها تسرب العملاء النازيين إلى "إيران"، الأمر الذى كان من المستبعد أن يتم لولا ممالأة السلطات لهم). وفى الواقع صارت "مصر" بالنسبة لـ "جَمّ" بمثابة منفى بعد طرد "رضا شاه" من "إيران". ولعله لهذا السبب كان على الدوام مقطبا مكفهرا يتكلف بصعوبة الإبتسامة التى لابد منها للدبلوماسى.

لم أكنّ أى عواطف إزاء مبعوث الدولة الصديقة والحليفة هذا، بيد أن عواطف الدبلوماسى، سواء كانت سلبية أم ايجابية، كما لا يخفى، ليست لها أهمية حاسمة فى عمله. وقد جرت لقاءاتنا مع "محمود جم" سواء وفقا لمقتضيات البروتوكول أو لمناسبات أخرى، ولا يسعنى من الناحية العملية إلا الأقرار بأنه كان محدثا لبقا نافعا لصلاته الوثيقة بالبلاط المصرى.

بديهى أن اللقاءات مع الزملاء لم تكن جميعا غنية المضمون. ولكن حتى مجرد الزيارات البروتوكولية كانت، عادة، تثمر عن عدد من المعلومات الجديدة التى تساعد على الأهتداء بين متاهات القضايا المختلفة، والاطلاع على أمزجة السلك الدبلوماسى. وحينما نجد أن لهذه المعلومات فائدة لموسكو أيضا، كنا نرسلها إلى هناك.

شيئا فشيئا جرنى إتيكيت البلاط والبروتوكول الدبلوماسى إلى حومة مآدب الغداء والافطار والحفلات الفخمة. وكان أولها حفل ضخم أقامه الملك "فاروق"- مساء ٢٩ كانون الأول (ديسمبر) - للسلك الدبلوماسى بمناسبة شفائه. وفى الثالث من كانون الثانى (يناير) حضرت مع موظفى السفارة الدبلوماسيين وزوجاتنا مأدبة افطار أقامها "النحاس باشا".

دعانى وزير الزراعة "مصطفى نُصْرَت" مرتين - فى نيسان وحزيران - ولم تحمل بطاقات الدعوة، لسبب ما، لقب الباشا أو البك، وهى ظاهرة نادرة جدا بين الوزراء وعموما كبار الموظفين فى مصر. كما أن الوزير لم يعمد إلى إخفاء أسباب اهتمامه الفائق بشخصى، بل كان يبرزها بكل وسيلة: فقد كان يجد فىّ مبعوثا عن جهة يمكن أن تشترى كميات كبيرة من القطن المصرى.

وقد عززت فى نفسه هذه القناعة، معربا عن الأمل بأن وقت الخطوات العملية فى هذا الميدان سوف يحين عما قريب. ورغم أن "الاتحاد السوفيتى" نفسه بلد منتج للقطن، فإنه سوف يحتاج إلى القطن المصرى النفيس الطويل التيلة. وفى المقابل سيكون بوسع الصناعة السوفيتية، بعد انتقالها من الإنتاج الحربى إلى السلمى، تزويد "مصر"

بالماكينات والمواد الكيميائية وغير ذلك من السلع اللازمة لها. وفى أحاديثى مع وزير الزراعة استفدت كثيرا من المعلومات التى تجمعت لدىّ عند عملى فى مؤسسة "قطن تركمانيا" عام ١٩٢٩، ومكوثى عموما فى "تركمانيا" و"طاجيكستان" لمدة ثلاث سنوات.

فى ١١ شباط (فبراير) حضرت حفلا بقصر الزعفران الملكى فى شمال شرقى القاهرة أقامه رئيس الوزراء بمناسبة يوم ميلاد "الملك فاروق"، الذى كان يُعتبر عيدا وطنيا فى مصر. وفى ٢٤ من الشهر نفسه جرى لقاء جديد، مفاجئ، مع الملك "فاروق"، وهو اللقاء الرابع، علما بأنه تم فى جو غير رسمى بمطعم "استراحة الهرم" حيث نظم صندوق "محمد على" الكبير أمسية خيرية كبرى.

وقد كانت الأمسية لمساعدة الفلاحين المنكوبين فى الوجه القبلى. ففى عام ١٩٤٣ ألمت بهم كارثة كبيرة تمثلت فى قحط لم يسبق له مثيل مما أدى إلى انتشار الجوع فى المنطقة كلها، وبالتالى تفشى وباء الملاريا لأن جسم الإنسان، بعد أن يضعفه سوء التغذية المزمن، يصبح فريسة سهلة للمرض الخبيث. وكثرت الوفيات الناجمة عن أول نوبة من نوبات الملاريا، وبلغت نسبتها فى القرى أرقاما غير معتادة. فخلال عام ١٩٤٣ وحده أدى الجوع والملاريا إلى وفاة أكثر من مائة ألف نسمة فى الوجه القبلى. كما أن الموت أودى بأرواح كثيرة هناك فى مطلع عام ١٩٤٤.

بديهى أن الأمسية الخيرية ما كانت قادرة على إسداء عون محسوس للجياع والمرضى. ففى أحسن الأحوال كان ريعها سيؤمن لبضعة آلاف من الفلاحين جرعة الكينين اللازمة للعلاج (علما بأنهم

كانوا، لجهلهم وبسبب الجوع، يبيعونها مقابل لقمة خبز). وفى الواقع لم تكن الأمسية سوى تزلف للرأى العام الذى هزته سعة نطاق النكبة الفظيعة. وجرى التطبيل والتزمير لمبادرة الصندوق وشملها "فاروق بـ رعايته السامية". وكان من المتوقع أن تشارك السفارات الأخرى فى تلك الأمسية. وفى تلك الظروف لم تبق سفارتنا بمنأى عن الأحداث، فحجزنا مائدة فى الهواء الطلق.

كان الجو فى الأستراحة صاخبا والناس كثيرين، وثمة فرقتان موسيقيتان تعزفان فى جانبى المطعم. واحتشد غالبية "فاعلى الخير" فى قاعات الميسر حيث الروليت والقمار. وعلى حين غرة اقترب من مائدتنا ضابط وطق كعبيه وقال إنه من مرافقى الملك وخاطبنى قائلا:

- ياصاحب السعادة، يشرفنى بأمر من صاحب الجلالة أن ادعوكم إلى البار حيث سيكون جلالته سعيدا بالترحيب بكم.

كانت هذه الرغبة الملكية، بالنسبة لأتيكيت البلاط، تعنى أن الملك شملنى ب"عطف" خاص. ولم تكن لدىّ أية دوافع، سواء شخصية أو عملية، لنيله. ولكن من جهة أخرى كان تجاهل الدعوة هفوة لا تغتفر. لذا شكرت المرافق وصحبته إلى بار فُصل عن غيره بستارة مخملية، وصار بمثابة خُلوة للصفوة من حضور الأمسية. تهيأت ذهنيا فى الطريق لأعرب للملك، بوصفه "أبا وحاميا" لرعاياه، عن مشاعر الأسى للمحن القاسية التى ابتلى بها الوجه القبلى. ولكن لم تتوفر لى فرصة مناسبة لذلك: إذ أن جو المرح السائد فى البار المنزوى ما كان ليذكر بالأحداث المأساوية التى صارت الدافع لإقامة الأمسية الخيرية.

تحدث الملك بصوت عال وبلهجة خالية من الهموم وكان "على

سجيته" فخمنت أنه احتسى فى تلك الأمسية أكثر من كأس. جرى كل حديثه معى بنبرة ودية ساخرة ولم يتطرق، لا من بعيد ولا من قريب، إلى أى موضوع جدى، ولم يحاول أن يبدو، كما فى المرات السابقة، حاكما حكيما. وصوحب حديثنا بتعليقات مقتضبة من بعض الحاضرين. وعلى حين غرة عرض علىّ الملك الانتقال إلى القاعة المجاورة وملاعبته الباكارا. ابتسمت وأجبت:

- لا افقه شيئا فى هذه اللعبة، وفى لعب الورق عموما.

- عجيب، ألا تستهويك أية لعبة؟

- كلا، يا صحاب الجلالة. أنا من هواة الشطرنج وعلى استعداد دائم لاختبار قوتى. لعلكم أيضا لا تعزفون عن هذه اللعبة الرائعة؟

قهقة "فاروق" وقال:

- آه، لقد أدركت مقصدك. أرجوك، ياسعادة السفير، ألا تجرنى إلى هذه المغامرة الخطيرة. الروس كلهم لاعبو شطرنج مهرة، وأراهن أنك ستغلبنى بكل سهولة.

- لست إلا هاويا فحسب.

كنت العب بمستوى التصنيف الثانى، وفى بلدنا من حملة هذه الدرجة الآلاف، إن لم أقل عشرات الآلاف. ولكن هذا المستوى قد يعتبر راقيا فى العديد من البلدان. لذا فكرت أن "فاروق" إذا قبل التحدى المبطن، فسأضطر إلى منازلته بشكل "دبلوماسى" وليس رياضيا.

اتفق لى مرة أن لعبت بهذه الصورة. كان ذلك فى ايلول (سبتمبر) ١٩٣٩ حينما وصل وزير الخارجية التركى "شكرى سرج

اوغلو" فى زيارة رسمية إلى "الاتحاد السوفيتى". وبوصفى رئيسا لقسم الشرق الأوسط، استقبلته فى ميناء "أوديسا" ورافقته فى القطار إلى "موسكو". واتضح أن "سرج اوغلو" متيّم بالشطرنج، فجرت بيننا نزالات حامية الوطيس فى العربة طوال الطريق. خسرت بحذاقة عددا من الأدوار مما بعث الغبطة فى نفس "سرج اوغلو". ولكن فى طريق الإياب (إلى "سباستوبول" هذه المرة) غيرت تكتيكى تغييرا جذريا، وعلى ما اذكر بسبب الانطباعات التى تخلفت لدىّ عن اخفاق المفاوضات السوفيتية التركية. وجدت متنفسا لحنقى فى الروح الهجومية وراء رقعة الشطرنج. ضربت عرض الحائط ب "الدبلوماسية الشطرنجية" فكسبت خمسة أدوار على التوالى، وعندها أبعد الوزير الرقعة بحركة عصبية وقال بغضب:

- "كافية".

ولم نعد بعدها إلى اللعب.

قررت أن يكون التعادل نتيجة لعبى مع "فاروق" - بقدر ما يتعلق الأمر بى بالطبع. ولكنه تملص من اللعب قائلا:

- كلا، كلا، لا تحاول اقناعى. الآن على أية حال لن أقدم على هذه المجازفة أبدا.

ثم وجه كلامه إلى بطانته وقال:

- أيها السادة، اعتقد أننا أردنا أن نجرب حظنا فى مجال آخر. أما تحدى السيد السفير فعلينا أن ندرسه بجد.

شعرت أن اللحظة مناسبة جدا للاستئذان، فتمنيت للملك واصحابه التوفيق فى الباكارا وعدت إلى مائدتى.

أشرت آنفا إلى أن كل دعوة لحضور مأدبة يجب أن "تعادلها" دعوة جوابية عاجلا أم آجلا. لذا شرعنا، بعد مرور فترة من الزمن، نقيم حفلات لزملائنا من السلك الدبلوماسي ولرجال الدولة المصريين. وقد أقمنا الحفلات في منزلي نظرا لعدم توفر قاعات مناسبة في مبنى السفارة.

أقمنا من هذه الحفلات عددا كبيرا، وسأقتصر هنا على ذكر المأدبة التي أقمتها في ٢٠ آيار (مايو) والتي كانت "شرقية" بحتة من حيث تركيبة الحاضرين. استقبلنا في ذلك اليوم "النحاس باشا" و"صلاح الدين بك" والسفير الايراني "جم" والمبعوث العراقي "العسكري" والأفغاني "مجدّدي" والصيني "تسين نيان تسرين" والقائم بالأعمال الأثيوبي "تيسفاي تيغين". ولم اضم من الأوربيين إلى هذه المجموعة الآسيوية الأفريقية أحدا سوى اللورد "كليرن"، "صديق" شعوب الشرق القديم والمجرّب.

ليس ثمة داع للبرهنة على مسلمّة أكيدة وهي أن الدبلوماسي يجب أن يكون ملما بواحدة من أوسع اللغات الأوربية انتشارا. فالدبلوماسي الذي لا يعرف لغة أجنبية يعجز عن محادثة جليسه مباشرة، أما التفاهم بواسطة مترجم فهو لا يفي بالغرض. ولكن في الحفل الذي نحن بصدده، وسرعان ما أدركت ذلك، لم يكن الإلمام بعدة لغات أوربية كافيا. فإن جارتيّ حول المائدة، عقيلة السفير "جم" وعقيلة المبعوث "العسكري"، لم تكونا على دراية بأي من تلك اللغات. لذا تبادلت الحديث مع عقيلة "العسكري" بالتركية ومع عقيلة "جم" بالفارسية التي لم أكن أجيدها، واتكلمها بلكنة طاجيكية تعلمتها أثناء مكوثي

فى "طاجيكستان".

ساد المأدبه جو مرح. وخلافا لقواعد الأتيكيت القاضية بعدم الخوض فى شؤون العمل حول المائدة، فإن شغلنا الشاغل جميعا كان الحديث عن السياسة وهى مهمة الدبلوماسى الأولى. ومما ساعد على تعزيز جو المرح أن جميع الضيوف، ومن ضمنهم المسلمون الخمسة، ضربوا عرض الحائط بتحريم الخمر، وانكبوا على المشروبات الكحولية، ابتداء من الفودكا وإنتهاء بالشمبانيا. ولم يرفض الشمبانيا سوى الأفغانى "مجددى"، ولعل معدته هى السبب. وعند انتهاء الحفلة همس اللورد "كلين" فى أذنى:

- أهنئك، ياسعادة السفير، على النجاح الباهر! لقد حققت ما لم يتسن تحقيقه لأى دبلوماسى، بل أى شخص على الإطلاق: إذ أن "النحاس باشا" شرب اليوم أول كأس فى حياته!

ليكن، إذا توفقت ضيافتنا فى جعل رئيس الوزراء المصرى منشرحا إلى حد جعله يحيد عن زهده، فإنه من حق السفارة أن تسجل هذه الواقعة فى رصيد إيجابياتها.

الفصل السابع

أيام عمل السفارة



في مستهل الفصل السابق ذكرت أن إحدى المهمات الأساسية للسفارة تتمثل في دراسة الواقع المصري بعمق ومن كل جوانبه، بغية "اكتشاف" "مصر" من قبل "الاتحاد السوفيتي". ولكن ثمة أمرا لا يقل عن ذلك أهمية، وهو جعل المصريين على معرفة بالإتحاد السوفيتي. فقد ترتب علينا العمل بمثابرة لتبديد ضباب الكذب والافتراء والتضليل الذي ظل سنوات طويلة يلف تصورات المصريين عن بلدنا، وإزالة جدار الريبة إزاءه، والتبشير بمبادئ السياسة السوفيتية حيال بلدان الشرق المضطهدة. وكان ينبغي أن نبين بصورة كاملة الدور الفريد الذي لعبه الشعب السوفيتي وجيشه الأحمر في سحق الفاشية، ألد عدو للبشرية، واكتشاف أصدقائنا واجتذابهم نحونا وتكوين أصدقاء جدد، وهذا أهم.

نفذت هذه المهمات جزئيا من خلال الصلات مع وجوه المجتمع أي الفئات الاجتماعية العليا في مصر، كما بينت سلفا. ولكن ذلك تم جزئيا فقط وضمن نطاق محدود للغاية. في حين كان علينا أن نحمل الحقيقة عن الاتحاد السوفيتي إلى أوسع فئات المجتمع بالقدر الذي يسمح به نشاط السفارة.

وكان من بين الامكانات المتوفرة أمامنا فى هذا الاتجاه، إقامة صلات شخصية سريعة مع ممثلي أوساط الرأى العام وتنظيم معارض وثائقية وعرض افلام سينمائية بمواد اعلامية تغطي بصدق الأوضاع داخل بلادنا وعلى جبهات الحرب. وكان ينبغي لكل نشاط نقوم به وكل كلمة نتفوه بها أن تسخَّرا لخدمة هدف نبيل، ألا وهو إرساء أساس الصداقة بين الشعبين السوفيتي والمصرى. فنحن في عملنا لم نكن نسترشد باعتبارات سياسية مؤقتة، بل بقناعة راسخة من أن مصر سوف تنال استقلالها الناجز، إن عاجلا أو آجلا وعندها سوف يشيَّد على ذلك الأساس صرح العلاقات السياسية والاقتصادية الوثيقة بين بلدينا.

مما سهل من عملنا أن أصدقاء الاتحاد السوفيتى عاضدوا بحماس كل مبادراتنا. وأكثر من ذلك، فإنهم فى الفترة الصعبة التى اكتنفت نشوة السفارة، قاموا بالخطوة الأولى للتقارب معنا. ولكن قبل التطرق إلى ذلك، اسمح لنفسى باستطراد صغير إلى الماضى بموسكو.

فى دفتر يومياتى ملاحظة بتاريخ ٢٨ آيار (مايو) ١٩٤٣ تسجل لمحة من حياة موظفى الخارجية السوفيتية، وتشير إلى أننى حضرت عشية هذا التاريخ عرضا سينمائيا مغلقا بدأ فى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل وانتهى فى الخامسة صباحا، إذ لم يكن هناك متسع لمشاهدة العروض نهارا. وقد شاهدنا فيلما سوفيتيا بعنوان "فتاة تدافع عن الوطن" وأفلاما حربية وثائقية، وأخيرا جاءت "واسطة العقد" وتمثلت فى الفيلم الأمريكى باسم "مهمة فى موسكو" المقتبس عن كتاب بنفس الاسم هو عبارة عن مذكرات السفير الأمريكى السابق فى موسكو "جوزيف ديفيس". وعن هذا الفيلم كتبتُ باقتضاب: "إنه مضحك جدا،

ولو أن دوافعه جدية ونبيلة". فقد صور الحياة السوفيتية بشيئ فيه الكثير من التشويه، وإن لم يكن مسيئا. ولم يتحرج صانعو الفيلم من أن الشخصيات لا تشبه الأبطال الحقيقين، فإن أحد نواب مفوض الشعب للشؤون الخارجية، صارت له فى الفيلم لحية سوداء مشذبة، فى حين أنه حليق. وقد حفل الفيلم بترهات كثيرة جعلتنا، نحن المشاهدين الليلين المتعبين. ننفجر ضاحكين بين الفينة والأخرى. بيد أن الفيلم كان له جانب قوى، فهو تعرية لاسطورة "الخطر الأحمر" الشائعة فى الغرب.

وفى "القاهرة" تعيَّن علىَّ أن اشاهد الفيلم ثانية، ولكن ليس بدافع الفضول الذى اشبعته ربيعا فى "موسكو"، بل لأسباب أخرى. فإن أصدقاء "الاتحاد السوفيتى" فى "مصر" الذين تجمعوا من حول "الفرع المصرى لصندوق مساعدة روسيا" المؤسس فى" بريطانيا" من قبل عقيلة "تشرشل"، قرروا القيام بموسم نشتطهم وربطه بوصول السفارة السوفيتية إلى "القاهرة". وقبل وصولنا كانوا قد اعتزموا عرض "مهمة فى موسكو" فى سينما "أوبرا" وهى أحسن دار سينما فى "القاهرة". وتقرر أن يخصص كل ربع العرض الذى بيعت تذاكر مشاهدته باسعار أعلى من المعتاد، لشراء مواد طبية لمنكوبى الحرب من المدنيين فى "الاتحاد السوفيتى". على أن منظمى العرض قرروا الآن، فى شهر كانون الأول (ديسمبر) أن يجعلوا منه تحية وترحيبا بالسفارة السوفيتية. فأعلنوا بالصياغات المفخمة المعتمدة هنا أنه سيكون "برعاية صاحب الفخامة السيد "نيكولاى نوفيكوف"، الوزير المفوض السوفيتى فى مصر"(١). وتقدموا باقتراحهم هذا إلى السفارة.

رغم أن اختيار فيلم ضعيف وشموله ب"الرعاية السامية" بديا لنا من

الأمور الغريبة بل والمضحكة، فإن هدف النشاط كان حريا بكل تشجيع. وقد أوجز هذا الهدف فى "نداء" اصدره الصندوق ونشرته الصحف والمجلات كما نشر فى برنامج العرض الأنيق للطباعة. حمل غلاف البرنامج أعلاما كبيرة للدول الثلاث الرئيسية فى التحالف المعادى للهتلرية، علما بأن علم الدولة السوفيتية الأحمر احتل مكان الصدارة.

وقد جاء فى "النداء":

بعد مؤتمر "طهران" ترسخ بشكل كامل تضامن جميع الأمم المتحدة. ويعانى الاتحاد السوفيتى، أكثر من أى بلد آخر، أهوال الحرب العالمية التى يعجز عن وصفها قلم. وقد دحر الجيش الأحمر الجحافل النازية وجعلها تتراجع من ضفاف نهر "الفولجا" إلى ما وراء نهر "الدنبير"، فحرر مئات الآلاف من الرجال والنساء الذين قاسوا الأمرين بين الرماد وخرائب المدن والقرى التى دمرها العدو المتقهقر. إن عواطفنا معهم. ومن أجلهم نهيب بكل من لا يعانى من ويلات الحرب شخصيا أن يقدم باستمرار وسخاء تبرعات لصندوق مساعدة "روسيا" لكى يخفف، ولو بقدر ضئيل، من الآلام البشرية. . .

طبيعى أنه كان من المناسب استبدال "مهمة فى موسكو" بواحدة من الروائع السينمائية المنتجة فى بلادنا قبل الحرب، أو بفيلم جيد من زمن الحرب. ولكن فى كانون الأول (ديسمبر) لم تكن مؤسسة التصدير السينمائى السوفيتية قد دخلت بعد السوق المصرية، لذا لم يتوفر لنا بديل. واتفقنا على أن عرض "المهمة" سيعطى فى خاتمة المطاف مردودا ايجابيا معينا، ومن شأن دعمنا للنشاط أن يعززه. اضف إلى ذلك آن مشاركة السفارة فى تنظيم العرض هى فرصة جيدة لعقد صلات مع

ممثلى أوساط الرأى العام المصرى. وبعد تفكير وتمحيص قبلنا أن "ترعى" العرض.

عرض الفيلم يوم ٢٠ كانون الأول (ديسمبر). وقد استقبلنا، نحن ممثلى السفارة، فى البهو منظمو البرنامج. وعند ظهورنا فى المقصورة المركزية تعالى التصفيق فى القاعة. ونهض العديد من الحاضرين ليتمعنوا دبلوماسى البلد الذى كان مجده العسكرى مدويا فى العالم كله. وتقاطر علينا من المقصورات المجاورة موظفو الخارجية المصرية والدبلوماسيون الأجانب الذين تسنى لنا عقد صلات معهم.

عُرضت أثناء الفقرة الأولى أفلام تسجيلية سوفيتية وأمريكية، وفيلم يصور رقصات وأغانى قوزاق الدون. وصارت الاستراحة بمثابة إيذان لاندفاع الناس إلى مقصورتنا. وأخذ منظمو العرض يقدمون لنا الأشخاص الذين رغبوا فى مصافحتنا وتبادل عبارات المجاملة، إذ لم يكن هناك متسع لأكثر من ذلك. ولم ينقطع هذا السيل العرمرم، ولكن ما أن دوى صوت الجرس حتى سارع الجميع إلى مقاعدهم، وبدأ عرض "مهمة فى موسكو".

بديهى أن المشاهدين القاهريين لم يلتفتوا إلى هفوات الفيلم التى أثارت ضحك المشاهدين السوفيت، فى حين أن التحيز الإيجابى للفيلم فعل فعله بالتأكيد، وكانت القاعة تغص بالمشاهدين أثناء العرض الأول والعروض التالية للفيلم.

فى كانون الثانى (يناير) أقامت السفارة حفل استقبال للصحفيين. حتى ذلك الحين كانت الصحافة المحلية تنشر عن الحياة فى الاتحاد

السوفيتي النزر اليسير، وفي الغالب اعتمادا على وكالات الأنباء الغربية، أي معلومات غالبا ما تكون بعيدة عن الدقة، وأحيانا ذات مسحة غير ودية. وفي محاولة لتحسين الوضع، قررنا إقامة صلات عملية مباشرة مع هيئات تحرير الصحف والمجلات، لكي نتمكن من مدها بمواد من مصادر سوفيتية، ونؤثر إلى حد ما في توجيهاتها. ومن جهة أخرى فإن الصلات بين موظفينا والصحفيين، ومن المعروف أنهم من المطلعين، كان يمكن أن تغدو مصدرا لمعلومات حول الشؤون المحلية. وكخطوة أولى في هذا المجال دعونا صحفيي "القاهرة" إلى سفارتنا.

في الموعد المحدد تجمع الصحفيون في غرفة الاستقبال في السفارة، وكان في استقبالهم كل موظفينا الذين يعرفون ولو واحدة من ثلاث لغات: العربية والفرنسية والانجليزية. وقدمت للضيوف المشروبات والمأكولات الوطنية السوفيتية وعقدت معهم الأحاديث.

عندما أخبروني أن كل المدعوين قد حضروا خرجت من مكتبي لأدخل غرفة الاستقبال التي كانت تعج كخلية نحل، وللتوّ طوقني الصحفيون. رحّبت بهم ترحيبا رقيقا، وألقيت كلمة تمهيدية مقتضبة عن مهمات السفارة في مجال تطوير وتعزيز العلاقات الودية مع "مصر"، وأعربت أخيراً عن الأمل بأن الصحافة المصرية ستقدم لنا ما يمكن من عون، وقد قوبلت كلماتي بالتصفيق. ثم عرضت على الضيوف الانتقال إلى الحديث عن المواضيع التي تهمهم. وعمليا كان ذلك بمثابة مؤتمر صحفي، ولكنه غير اعتيادي، إذ جرى في جو غير رسمي وبدون أطر محددة للمواضيع.

انهال عليّ سيل من الأسئلة. لم يترك الصحفيون موضوعا إلا وطرقوه! ومن قصاصات الصحف المحفوظة في أرشيفي يتضح أن حب

المعرفة لديهم كان دون حدود: من المسائل التافهة، مثل نوعية القلم الذى أوقع به الوثائق، إلى القضايا العالمية. ماهو تنظيم السفارة، وأقسامها العاملة، متى يستأنف "الاتحاد السوفيتى" التعامل التجارى مع "مصر".؟ وهل سيشترى القطن؟، ماذا يُنتظر قريبا فى مجال العلاقات الثقافية بين البلدين، ما هو الدور الذى يضطلع به فى الحرب المسلمون السوفيت، متى ستنتهى الحرب فى اعتقادى - هذه وعشرات غيرها من الأسئلة وجهت إلىّ خلال ساعة وربع الساعة. عن بعض هذه الأسئلة - حسب أهميتها - أجبت باسهاب، فى حين أجبت عن غيرها باقتضاب، أما الأسئلة ذات المغزى المبطن فقد تملصت منها بتعليقات ساخرة.

أخذتنى أحد الأسئلة على حين غرة. فقد سأل مندوب صحيفة "جورنال دإيجيبت":

- أليس بوسع سعادة الوزير أن يشرح لنا الحادثة الغريبة المتعلقة بالنبأ الذى بعثه مراسل "برافدا" فى القاهرة؟

حقا كانت تلك الحادثة غريبة، وفى تلك الأيام رددتها كل الألسن. فقبل فترة قصيرة نشرت جريدة "برافدا" خبرا لمراسلها فى "القاهرة" جاء فيه أن مسؤولين بريطانيين التقيا فى احدى المدن بشبه جزيرة البيرينى مع "روبنتروب" (وزير خارجية "المانيا" آنذاك) لمناقشة شروط عقد صلح منفصل مع "المانيا". وبالطبع أحدث الخبر ضجة كبيرة، وردت وزارة الخارجية البريطانية على الفور بنشرها تكذيبا غاضبا(٢).

لم أكن أعرف أساس هذا الخبر، ولم اسمع به إلا من إذاعة موسكو.

، لذا لم يبق أمامي إلا الاعتراف بجهلي لواقع الأمر.

بعد مرور ساعة أخذت أشعر بالتعب من ضغوط الصحفيين المستمرة، إذ أن ذلك كان أول مؤتمر صحفي في حياتي. أضف إلى ذلك أنني اضطررت إلى صياغة الأجوبة، وهي غالبا ذات أهمية سياسية كبيرة، بلغة غير لغتي الأصلية. لذا رأيت أن الوقت قد حان لإنهاء "الحديث" وارتقبت توقفا قصيرا في الأسئلة لاعلن عن نهاية الحديث. وقد أعطاني المبرر واحد من الصحفيين بقوله:

- سمعنا أن البالية الروسي الشهير قدم مؤخرا عروضا في "طهران". هل يمكن أن نأمل بقدومه إلى "القاهرة" في يوم سعيد؟

أجبت بالعربية "إن شاء الله" فضحك الجميع وهنا اغتنمت السانحة فشكرت الضيوف على اهتمامهم بشؤون السفارة وودعتهم.

لم نكن، بالطبع، نأمل في أن هذه الخطوة المتواضعة سوف تحدث انقلابا في الصحافة المصرية، الرجعية والنفعية في الأساس، لتجعلها موالية للسوفيت. ورغم ذلك أحدث اللقاء صدى ايجابيا. ففي اليوم التالي نشرت جميع الصحف تقريبا ريبورتاجات موضوعية عن المؤتمر الصحفي، وفيما بعد نشرت، بروح ودية إلى هذا الحد أو ذاك، أنباء عن مختلف أنشطة السفارة. وعلاوة على ذلك تسنى للقسم الصحفي في السفارة أن ينشر في الصحف والمجلات بين الحين والحين مواد نستلمها من "موسكو".

في مطلع شهر شباط (فبراير) استلمنا من "موسكو" معروضات لإقامة أول معرض عن جرائم المحتلين الفاشست الالمان على الأرض

السوفيتية. وقد ثبتت مجموعة كبيرة من الصور الوثائقية على مساند كرتونية وتحتها شروح ضافية، فكانت إدانة دامغة "للنظام الجديد" الهتلرى. وكان نصف الصور تقريبا عما ارتكبه الفاشست من أعمال وحشية وتعذيب وإهانات لكرامة المواطنين السوفيت. أما النصف الثانى فقد كُرّس للأضرار الهائلة التى الحقها المغتصبون بالاقتصاد السوفيتى والرصيد السكنى فى المدن والقرى. ومن حيث العموم اعطى المعرض تصورا واضحا عن الويلات التى نُكب بها شعبنا بسبب الحرب، ورسم صورة سافرة للوجه الوحشى "للسوبرمان" النازى. وقد أثار المعرض مشاعر التعاطف الخالصة مع بلاد السوفيت المكافحة والحقد المشروع على المعتدين.

كان ينبغى إيجاد مكان للمعرض. وبناء على نصيحة أصدقائنا الجدد فى "القاهرة"، طلبنا العون من رابطة الدفاع عن حقوق الإنسان. وقد استجاب رئيسها "جان رابنوى" بسرور لطلب السفارة، وقال إن هذا المعرض يتجاوب على الوجه الأفضل مع المبادئ الإنسانية للرابطة، وأكد أنه يعتبر بذل قصارى الجهود لتنظيمه واجبا مشرفا له.

لم يكن وعده كلمات فارغة. فقد اتصل مسؤولو الرابطة بلجنة التحرير الوطنى الفرنسية فى "القاهرة" وبناء على ذلك وضعت اللجنة تحت تصرفنا لمدة عشر أيام بضع غرف فسيحة فى المبنى الذى تشغله. وتم افتتاح المعرض فى ١٣ فبراير (شباط). بفضل المساعدة الودية التى قدمتها الرابطة واللجنة. نُظم المعرض تنظيما جيدا. وزاره عدد كبير من الناس. وفى اليوم الذى أعقب افتتاح المعرض - وتوافق مع الذكرى السادسة والعشرين لتأسيس الجيش الأحمر - زار السفارة وفد

مشترك عن اللجنة برئاسة رئيسها "بيير جوفيه" وعن الرابطة برئاسة "جان رابنوى" وسلمانى "الدفتر الذهبى" وفيه تسجيلات لانطباعات زوار المعرض. وفى الوقت ذاته هنأ الوفد السفارة بمناسبة ذكرى تأسيس الجيش الأحمر وتمنى له المزيد من الانتصارات الحاسمة.

يمكن تقسيم الملاحظات فى "الدفتر الذهبى" إلى صنفين: الأول، وهو الأقل، يعرب عن التعاطف مع المواطنين السوفيت وينضح غضبا على الغزاه الفاشست. والثانى، وهوالأكبر، يضع فى مقام الصدارة مشاعر الاعجاب ببسالة الشعب السوفيتى الذى يسحق المعتدين برغم كل المحن العسيرة، كما يعرب عن الثقة فى أنه سيحرر عما قريب البلدان المستعبدة فى أوربا.

وقد أقيم معرض آخر، صار بمثابة تتمة للأول، بعنوان "الاتحاد السوفيتى فى أيام الحرب"، وضم صورا عن مقارعة الشعب للعدو. وشاهد الزوار أدلة ساطعة على المعارك الكبرى على مشارف "موسكو" "لينجراد" و"وستالينجراد" وفى قوس كورسك، وشواهد على العمل البطولى للعمال فى المؤسسات الدفاعية وللفلاحين الكولخوزيين فى الحقول. كما عكس المعرض الحياة الثقافية فى البلد، وبخاصة النشاط المتفانى للفرق المسرحية وفرق المنوعات التى قدمت عروضها فى الخطوط الأمامية والمؤخرة، لتعزيز الروح الوطنية لدى أبناء الشعب السوفيتى. ودون الخوض فى وصف تبين أنقاض "ستالينغراد" وتحتها عبارة مقتضبة ولكنها بالغة الدلالة: "ها هنا قبرت نوايا العدو".

افتتح المعرض يوم ٣ حزيران (يونيو) فى مبنى جمعية المهندسين الملكية المصرية. وحضر حفل الافتتاح الرسمى ممثلون عن الملك ووزارة

الخارجية المصرية وأفراد السلك الدبلوماسى والوزير المقيم البريطانى فى الشرق الأوسط "اللورد موين" ووجوه اجتماعية مصرية. ولكن عند توجيهنا الدعوات لهؤلاء، الأمر الذى يحتمه علينا التمسك بالبروتوكول الدبلوماسى، لم يغرب عن بالنا أن معرضنا لم يُقَم للمسؤولين الذين تلقوا دعوات شخصية، بقدر ما أقيم لاطلاع أوسع فئات السكان، وتيقنّا من نجاحه الكبير لأن آلافا مؤلفة من بسطاء المصريين كانوا يتقاطرون يوميا على القاعات وينظرون مليا إلى الوثائق الدامغة، ثم يُدوِّنون ملاحظات الاعجاب.

لا اعتزم متابعة نشاطات السفارة فى مجال الدعاية الجماهيرية خطوة فخطوة. ولكن أود التطرق إلى نشاط بروتوكولي أخر اعطى بدوره مردوداً دعائيا كبيرا وإن كان غير مباشر.

أعنى بذلك الحفل الدبلوماسي الكبير الذى أقامته السفارة يوم ٢٣ شباط (فبراير) بمناسبة الذكرى السادسة والعشرين لتأسيس الجيش الأحمر، وبالطبع لم يُقَم الحفل فى فيلا سفارتنا المتواضعة. فى هذه المرة خفّ لمساعدتنا المركز اليونانى، وهو بمثابة ناد ثقافى تنويرى لليونانيين القاطنين فى "القاهرة": فقد وضع تحت تصرفنا قاعات الاستقبال الفخمة فى النادى. وجهنا دعوات إلى زهاء ثلاثمائة ضيف، بينهم عدد كبير من العسكريين وذلك لطبيعة المناسبة. وقد حضر شخصيا لتهنئتنا بمناسبة عيد الجيش الأحمر المظفر كل من رئيس الوزراء اليونانى "تسوديروس" (الذى حضر نيابة عن "الملك جورج" أيضا) والوزير المقيم البريطانى اللورد "موين" ورئيس الديوان الملكى "حسنين باشا" وسكرتير وزارة

الخارجية المصرية "صلاح الدين بك" وأفراد السلك الدبلوماسى والقائد العام للقوات المسلحة البريطانية فى الشرق الأوسط الجنرال "برنارد بيجيت" ومارشال الجو البريطانى "كيز بارك" وغيرهم من كبار الضباط المصريين والبريطانيين واليونانيين واليوغسلافيين. وهنأنا نيابة عن الملك "فاروق" كبير المرافقين "تيمور بك"، ونيابة عن الملك "بطرس" وزير بلاطه. ولم يتخلف عن الحضور سوى "النحاس باشا" الذى شغلته أمور عاجلة فاعتذر مسبقا لغيابه، ورئيس الوزراء اليوغسلافى "بوجيدار بوريتش" بسبب الحساسيات الدبلوماسية التى ظهرت بيننا. وحضر الحفل عدد كبير من الصحفيين والشخصيات الاجتماعية.

من بين أبرز المثقفين الذين حضروا الحفل الأديب والعالم المصرى المعروف "طه حسين" الذى لم يتسنَّ لى فى تلك الأمسية التحدث إليه طويلا فاقتصرنا على عبارات التحية. وقد تعرفنا عن قرب إلى بعضنا بعد شهرين، حينما شاءت لنا الصدف أن نكون زميلين فى لجنة الصندوق المصرى لمساعدة المدنيين فى الاتحاد السوفيتى. لقد كان "طه حسين" شخصية فذة. فعندما ابتلى فى طفولته بمرض افقده نعمة البصر، لم يرضخ لمشيئة القدر المنحوس فواصل تعليما مستعينا بذاكرته الجبارة. لقد كان أول مصرى يحصل على الدكتوراه من جامعة القاهرة. ومن ثم حصل على دكتوراه ثانية من السوربون، وصار أستاذا فى جامعة القاهرة. وفى الوقت ذاته كتب "طه حسين" مؤلفات أدبية رائعة ترجمت إلى العديد من اللغات الأجنبية، ومنها الروسية. وكان "طه حسين"، الديموقراطى النزعة، يعلن عن مقته للمعتدين الفاشست وقرفه منهم، ويتحدث بحرارة عن عواطفه إزاء "الاتحاد السوفيتى" الذى يخوض

حرب تحرير مظفرة. وبدافع من هذه المشاعر بالذات، ولس لاعتبارات شكلية انتمى إلى "لجنة الصندوق المصرى"، حيث كانت لاسمه قوة جذب كبيرة بالنسبة للمثقفين المصريين. لقد كان آنذاك فى الخامسة والخمسين، وفى ذروة مجده الأدبى والعلمى.

جازتنا الصحافة خير جزاء على دعوة ممثليها. ولم تقتصر المواد الصحفية على تعداد كبار الضيوف، كما هى العادة المتبعة بالنسبة للحفلات الدبلوماسية، بل شملت تعليقات بالمناسبة. ونورد المقطع التالى الذى هو مثال للصدى الايجابى فى الصحف:

"يمكن القول بثقة أن "روسيا" تمر منذ عام بأمجد أيام تاريخها، وإن ما حظيت به يوم أمس من تكريم فى جميع أرجاء العالم - ولم يكن التكريم فى "القاهرة" أدنى منه فى غير مكان - ليدل على أن انتصارات جيوشها حققت لها المكان المنشود فى قلوب الأمم المناضلة من أجل الحرية". وتطرقت الصحيفة إلى أن "روسيا" القيصرية كانت طوال القرن التاسع عشر وفى مطلع القرن العشرين تمتلك جبروتا عسكريا هائلا وقال: "لكن القوة بحد ذاتها لا تصنع شيئا. فهى ليست سوى قوة مدمرة، إذا لم تسخر لخدمة الخير والعدل. إن الشعوب تهاب القوة وتحب المساواة. وهى حينما تكرم الجيش السوفيتى، إنما تعبر عن اعجابها به لكونه حطم الماكنة العسكرية للطاغية الألمانى، وتبدى اعجابا خاصا لأن الجيش السوفيتى لمعين حلفائه يمهد للمستقبل السلمى والأمن للجميع".

إن هذه الأقوال هى تأكيد آخر على حقيقة أن الجيش الأحمر كان

حينذاك خير داعية سوفيتى، ومارس تأثيرا ايجابيا على الرأى العام فى العالم كله.

سوف استشهد أيضا بأسطر من جريدة أخرى بمثابة رتوش غير قليلة الأهمية لتكمل صورة الحفل المذكور: "تضيف أن نبأ الحفل انتشر فى جميع أنحاء المدينة وكانت الشوارع المؤدية إلى المركز اليونانى تعج بالسواد - بل بالبياض - من الناس المدفوعين بجب الاستطلاع والمشاعر الطيبة، للأعراب بطريقتهم الخاصة عن الأحاسيس التى يولدها لديهم الحفل. وقد استأثر باهتمام الجميع العلم الأحمر المرفرف فوق سيارة صاحب السعادة الوزير السوفيتى". فى هذه الأسطر مغزى عميق جدا، حين يقول الكاتب أن الشوارع كانت تعج "بالبياض"، إذ يعنى ذلك أن المحتشدين كانوا من المصريين "المدفوعين بحب استطلاع والمشاعر الطيبه" المنتمين إلى فئات المجتمع الفقيرة، فهم الوحيدون فى القاهرة الذين لم يكونوا يلبسون الزى الأوربى، بل الجلابية البيضاء التقليدية.

فى سياق إقامة العلاقات الثقافية، التقينا بشخصيات اجتماعية وأدباء وأعضاء اتحادات الفنانين. وقد يفيد التحدث بالتفصيل عن أحد هذه اللقاءات، وقد جرى فى "اتحاد الفنانين الأرمن"، الذى دعانا يوم ٦ تموز (يوليو) إلى أمسية موسيقية على شرف السفارة السوفيتية.

ازدانت جدران القاعة التى أقيمت فيها الأمسية بأعلام سوفيتية ومصرية كبيرة. وفى بداية الحفل عزف السلامان الوطنيان السوفيتى والمصرى، ثم ألقى رئيس اتحاد الفنانين "بابازيان" خطابا حفل بالكلمات الودية الصميمية عن "الاتحاد السوفيتى" والجمهورية المتحدة المتكافئة

الحقوق، "ارمينيا السوفيتية".

كانت غالبية فقرات البرنامج تتألف من مقطوعات كلاسيكية روسية ومقطوعات لملحنين أرمن. قام ثلاثة من عازفى البيانو ورباعى وترى بأداء مقطوعات "لاليابيف" و"غريتشانينوف" و"ريمسكى"-"كورساكوف" "وتشايكوفسكى" و"برخودوريان". وخلال الحفل أدت فرقة "كوميتاس" (وهى تحمل نفس الاسم الذى يحمله رباعى ارمنى سوفيتي) أغانى شعبية أرمنية من اعداد الموسيقار الشهير "كوميتاس". كما أدت فرقة الرقص عددا من الرقصات القومية الأرمنية. وتجدر الأشارة إلى أن القسم الموسيقى من البرنامج لم يكن على مستوى الهواة اطلاقا: فقد اضطلع به موسيقيون محترفون من "القاهرة".

وفى الختام عرض مشهد حى باسم "ارمينيا السوفيتية" وفى هذه الأثناء تعالت من كل الحناجر أغنية "هاياستان" ("أرمينيا") . . .

فى ختام الحفل القى أحد مسؤولى الاتحاد وهو "ساروخيان" كلمة ختامية ودية، ثم ألقيت كلمة جوابية شكرت فيها جميع أعضاء اتحاد الفنانين على الحفل الرائع، وأشرت بارتياح كبير إلى روح الود إزاء "الاتحاد السوفيتى" وشعبه، التى كانت تنضح بها الأمسية من أولها إلى آخرها وعندما طُلب منى تدوين انطباعاتى فى سجل الزوار كتبت هذه الكلمات بالذات. وللحال تُليت على الحاضرين فقوبلت بعاصفة من التصفيق.

كانت تلك الأمسية تجسيدا ممتازا لميول الأرمن المضطرين إلى العيش فى الغربة. فقد كان غالبيتهم نازحين من الولايات الشرقية لتركيا التى هجروها فى سنتى ١٩١٩ و ١٩٢٠ هربا من بطش السلطات التركية.

ولكنهم كانوا يعتبرون أن وطنهم هو البلد الذى لم يروه قط: "ارمينيا السوفيتية"، الجمهورية الحرة المزدهرة والمتكافئة الحقوق فى أسرة الجمهوريات السوفيتية.

بعث أحد هؤلاء المهاجرين، الشاعر "واهان تيكيان" قصائد وطنية تمس شغاف القلب، إلى سفارتنا (مترجمة إلى الفرنسية). وتطرق فى قصيدة (أرمينيا-روسيا) إلى أخوّة الشعبين الأرمنى والروسى ونضالهما سويا ضد العدو المشترك، وإلى أن الأرمن ، بمساعدتهم الأشقاء الروس، إنما يساعدون أنفسهم ووطنهم. وكرست للموضوع ذاته قصيدة "ارمينيا الجديدة" ويصعب على الحديث عن المزايا الشعرية للأصل، بيد أن القصيدتين كانتا من خيث قوة المشاعر الوطنية وسطوعها، صنوا لما كان سيخطه يراع شاعر ارمنى سوفيتى.

عموما كان بريد السفارة يحتوى على الكثير من الرسائل الشعرية الودية. وغالبا ما كانت تلك مدبجات تفتقر إلى الصنعة، ولكنها مفعمة بالمشاعر الطيبة.

واستلمنا قدرا أكبر من الرسائل النثرية بمناسبات وصول سفارتنا، وأعياد رأس السنة والأعياد الوطنية السوفيتية، بالإضافة إلى رسائل يتمنى كاتبوها النصر فى ساحة الوغي، وتبريكات ذات طابع دينى وما إلى ذلك. وإليكم مقتطفا من واحدة من هذه الرسائل وقعتها عائلة المرسل بكاملها (مترجمة عن الفرنسية):

"ياصاحب السعادة"!

بفيض من البهجة والحبور الذى لا يوصف، تسرنا مخاطبتكم لكى نعرب من خلالكم ومن خلال قادة جميع شعوب "الاتحاد السوفيتى"

العظيمة، عن اعجابنا وتعاطفنا العميق مع الجيش الأحمر الباسل الجبار بمناسبة ذكراه السادسة والعشرين.

ومما يزيد من بهجتنا أن بوسعنا، هنا فى مصر، وللمرة الأولى أن نخاطبكم مباشرة بهذه المناسبة السعيدة، ومن خلالكم نعرب عن احترامنا للجيش الأحمر المقدام - بارك الله فيه - الذى سار من نصر إلى نصر وتمكن بمعجزة من إنقاذ العالم من العدوان الوحشى الاثيم وتحريره من العبودية البشعة ليسدد العلى القدير خطى الجيش الأحمر نحو النصر النهائى. . . ".

وصلت رسائل مثل هذه من رعايا مصريين عرب ويونانيين وأرمن وروس ويهود، من ممثلى مختلف الفئات الاجتماعية، ولكن فى الغالب من المثقفين والطلبة. وكان غالبية مراسلينا من المثقفين المنحدرين من أصل برجوازى صغير، وذوى الميول الديمقراطية الذين كانوا فى مصر المتخلفة اجتماعيا حملة الأفكار الثورية والوطنية. وليس غريبا أنهم نزعوا بكل جوارحهم إلى سفارتنا، واعتبروها رمزا لقوة هائلة تسعى إلى تغيير العالم على أساس اجتماعى عادل جديد. ورغم أن الظروف السياسية لتلك الفترة لم تسمح لنا على الدوام بإقامة اتصال مباشر معهم، فإننا كنا نتحسس تعاطفهم الحار ودعمهم النشيط لكل مبادراتنا.

فى مطلع علم ١٩٤٤ تفضل الفلكى القاهرى "محمد على الحسينى" بتهنئتى بمناسبة عيد رأس السنة. وقد أرفق برسالته تخميناته لعام ١٩٤٤ لكى نستفيد منها فى عمل السفارة. ولا اعرف مدى اهتمام الفلكى بمتابعة النجوم، ولكن من المؤكد أنه تابع باهتمام الأحداث

السياسية فى كوكب الأرض، وحللها تحليلا ليس سيئا. ومن هنا جاء الجانب الواقعى للعديد من "تنبؤاته"، رغم أن الصواب جانبه فى بعضها، ولعل السبب فى ذلك افراطه فى التفاول. ولكن مَنْ الذى لم يكن متفائلا آنذاك؟

سأورد، كمثال، بعض نقاط تلك "التنجيمات" المتعلقة بالمانيا:

١- سوف تتدهور الحالة المعنوية للقوات الالمانية المسلحة كليا، وسرعان ما تنهار تحت ضربات الأمم المتحدة. (اخطأ فى ذلك لمدة سنة كاملة.)

٢- ستظهر تناقضات حادة بين النازيين وقيادة الجيش. (يمكن القول أنه أصاب هنا "كبد الحقيقة".)

٣- سيقتل "هتلر" خلال "حادث مروع". (لم يخطئ المنجم حول "الحادث" - فإن محاولة اغتيال "هتلر" صيف ١٩٤٤ يمكن أن تندرج بالكامل فى هذا العداد. ولكن "هتلر"، كما هو معروف، نجا من الموت بالصدفة.)

لم ينفعنا تعب المنجم فى شئ، إذ أننا كنا فى عملنا نسترشد لا بالنجوم، بل بسير الأحداث الفعلى.

إن الحديث عن علاقاتنا مع المجتمع المصرى المتعدد الوجوه لن يكون كاملا، إذا لم اكرس بضع صفحات لروابط من نوع خاص لم ترد فى خطط السفارة بأى شكل، ورغم ذلك طرحت فى جدول الأعمال. أعنى بذلك لقاءاتى مع كبار رجال الكنائس الأرثوذكسية الشرقية فى مصر وسائر بلدان الشرق الأوسط. وباستثناء البعض منهم، كانوا يبحثون

بمثابرة عن سبل للاتصال بسفارتنا. ويبدو أنه كان وراء هذه المساعى النشاط الملحوظ الذى دب خلال سنوات الحرب فى الكنيسة الأرثوذكسية الروسية التى اتخذت موقفا وطنيا واضح المعالم. وقد ولّد ذلك لدى البعض وهما بأن "روسيا الأم" أخذت تعود إلى "الصراط المستقيم" للأرثوذكسية. وكانت السفارة السوفيتية بالنسبة للأرثوذكسيين فى "مصر" - من أقباط ويونانيين وروس - ليست سوفيتية بقدر ما هى روسية، وكانوا يعتبرونها إلى حد ما بمثابة ممثل الكنيسة الأرثوذكسية الروسية. لم نعزز هذا الوهم بشئ، ولكننا لم نتهرب من مقابلة القيّمين على شئون الكنائس المحلية، لاعتقادنا أن إقامة مثل هذه الصلات لن يخلو من فائدة لعلم السفارة.

أرست الكنيسة القبطية بداية للصلات. ففى النصف الأول من شباط (فبراير) تلقيت من "المجمع الكنسى" و"المجلس القبطى الأرثوذكسى الوطنى" دعوة لحضور مراسيم تنصيب "مكاريوس" بطريركا للكنيسة القبطية، وكان من المقرر أن تجرى المراسيم فى "كاتدرائية القديس مرقص".

وانطلاقا من تكتيكى فى الأحجام عن تعزيز الأوهام الدينية، اعتذرت عن المشاركة شخصيا فى المراسيم الدينية، واقتصرت على ارسال خطاب شكر إلى المجمع والمجلس ضمنته تهنئة بالحدث الهام للكنيسة القبطية، وتمنيت للبطريرك الجديد كل التوفيق.

فى أواسط شباط (فبراير) زارنى فى السفارة الأمير "ميشيل لطف الله" وهو عملاق ضخم الجثة. وقد كان "لطف الله" من كبار ملاك الأراضى، عربيا أرثوذكسيا، وعضوا فى المجلس القبطى الأرثوذكسى

الوطني. ابلغني أن البطريرك مكاريوس وكذلك بطريرك انطاكية "الكسندر" الموجود في "القاهرة" آنذاك - يرغبان رغبة شديدة في الالتقاء بي. وعرض على أن يتم اللقاء في منزله بالجزيره الذي سماه "قصر الجزيرة". رحبت بالموافقة فحدد "لطف الله" يوم التاسع عشر من شباط (فبراير) موعدا لتناول الفطور عنده. وعشية اللقاء بلغني هاتفيا أنه علاوة على البطريركين سيحضر اللقاء بطريرك الأسكندرية "كريستوفور"، كما رجاني، بناء على طلب البطريرك "الكسندر"، الحضور إلى القصر قبل الموعد المحدد للفطور ببعض الوقت للقاء خاص معه. وافقت على ذلك أيضا. ولا أخفي أنني كنت مهتما باللقاء بجلساء غير معتادين بالنسبة لدبلوماسي سوفيتي، يحملون لقب البطريركية. علما بأنه لم يكن بوسعي إلا أن أحدس الشكل الذي سيتخذه اللقاء وما سوف يسفر عنه.

بدأ بطريرك انطاكية "الكسندر"، الذي كانت صلاحياته الدينية تشمل الأرثوذكس في لبنان وسورية والعراق، بدا شيخا طاعنا في السن. وقد تكون لحيته الشيباء المشذبة تجعله كذلك. كان يرتدي زي الرهبان الأسود وقلبقا، وزينته الوحيدة ايقونة ذهبية متدلية على صدره ومُرَصَّعة بالأحجار الكريمة، وعليها تاج الأسقفية. وكان الرمز الثاني لمركزه عصا طويلة تكاد تكون بطوله، من الخشب الأسود ومقبضها من العاج.

كان البطريرك يحسن الروسية ولكنه ينطقها بنبرة أجنبية خفيفة، وقد تعلمها في الأكاديمية الدينية ببطسبورغ في شبابه. ومن هنا فإن الجانب الأكبر من حديثنا، كما أثناء لقائي مع ولي العهد محمد علي، كُرِّس

للذكريات الماضي البعيد. وفي ختام الحديث وجه لي البطريرك، بحفاوة خالصة، دعوة لكي احل ضيفا عليه في لبنان. شكرته ووعدت بتلبية الدعوة إذا سنحت لي الفرصة: وقد شاء القدر أن تسنح حقا.

في الموعد المحدد وصل إلى القصر البطريرك "مكاريوس" والبطريرك "كريستوفور" بصحبة كبير الأساقفة "دميتريوس". وكان البطريركان في زي يكاد يطابق زي "الكسندر". بيد أن "مكاريوس" كان أصغر بكثير من زملائه ولم ينل الشيب كثيرا لحيته السوداء الكثة. حيّاني "كريستوفور" ذو العينين الباهتتين الباردتين تحية متحفظة بدت نقيضا لتحيات سائر ضيوف "لطف الله".

ساد المأدبة جو خاص، فقد رفعت صلوات الحمد قبلها وبعدها، وكانت الأطباق متواضعة، وأن لم تكن رهبانية البتة، وثمة نبيذ أحمر احتُسيَ باعتدال، وسرت الأحاديث برصانة وكانت تحمل أحيانا طابع جسّ النبض حول "النسمات الجديدة" في سياسة الحكومة السوفيتية حيال قضايا الدين والكنيسة. بيد أن كبار رجال الكنيسة لم يتحاشوا الأمور الدينية وكانوا على دراية بدواخل السياسة على المسرحين المصري والعالمي.

على العموم لم يكن اللقاء مع رجال الدين هؤلاء خاليا من الفائدة بالنسبة للسفارة: أولا، تعرفنا بإناس من بيئة جديدة تماما علينا في الحياة الاجتماعية. ثانيا: تيقنت شخصيا مما كنت قد عرفته سابقا بالسماع: أي تحفظ البطريرك "كريستوفور" على كل ما هو سوفيتي، وقد كان هذا التحفظ متماشيا تماما مع ميول البلاط الملكي اليوناني الذي كان على صلة وثيقة به. وتوجب علينا أخذ ذلك بعين الاعتبار

نظرا لما يتمتع به "كريستوفور" من هيبة بين الرعايا اليونانيين الكثار في "مصر".

استمرت مستقبلا، بين الحين والحين، الصلات مع كبار رجال الدين. ومن حيث العموم اعتقد أن هذه الصفحة من صفحات نشاط السفارة تركت أثرها، وصارت بمثابة اسهام في إرساء صرح الصداقة الذى اقمناه آنذاك في مصر وسائر بلدان الشرق الأوسط.

كانت القاهرة في فترة ١٩٤٣-١٩٤٤ نقطة مرور بالنسبة للسوفيت والأجانب المسافرين من "موسكو" إلى "الجزائر" و"الولايات المتحدة الأمريكية" و"لندن"، وإلى المناطق المحررة في "يوغسلافيا" و"ايطاليا"، ومن منتصف عام ١٩٤٤ إلى المناطق المحررة في "فرنسا" كذلك. وبالطبع كان طريق الإياب يمر عبر "القاهرة" أيضا. ولم يفوت أى مواطن سوفيتى مر "بالقاهرة" فرصة زيارة السفارة لقضاء شأن ما، أو بدون أشغال بالمرة، وكنا دوما سعداء لرؤيتهم. وقد كانوا بالنسبة لنا مصدرا هاما جدا للمعلومات، بما فيها المعلومات التى لا يحصل المرء عليها من الصحافة أو الأذاعة. لذا لم يكن بوسعنا التبرم بإننا مقطوعون عن العالم، رغن كوننا بعيدين عن مركز الأحداث التى هزت جميع القارات.

مر بالقاهرة عدة مرات - إلى "الجزائر" أولا، ثم إلى "ايطاليا" - نائب مفوض الشعب للشؤون الخارجية "فيشينسكى" الذى عين ممثلا للاتحاد السوفيتى في المجلس الاستشارى لشؤون "ايطاليا". وقد استفدنا كثيرا من اطلاعه الواسع على الشوون الموسكوفية والعالمية. وسمعنا أخبارا كثيرة من "سوبوليف" الأمين العام السابق لمفوضية

الشعب للشؤون الخارجية الذى عين وزيرا مفوضا للسفارة السوفيتية فى "لندن" وكان فى طريقه إلى هناك. كما أدى لنا "الضريبة المعلوماتية" موظفو السفارة السوفيتية فى "الجزائر" عند مرورهم من "موسكو" إلى محل عملهم. وقد وصل عدد منهم فيما بعد بطريق الجو إلى "القاهرة" للحصول على المؤونة - فقد عانت "الجزائر" آنذاك من شحة المواد الغذائية - وكنا فى هذه المرة أيضا "محبى الضريبة"، حاصلين على معلومات حول "الجزائر".

فى النصف الأول من تموز (يوليو) أسعد سفارتنا الحظ، فاستضفنا الجنرال "كورنييف" الذى حمل آخر الأنباء من "يوغسلافيا"، حيث كان رئيسا للبعثة العسكرية السوفيتية لدى قيادة جيش التحرير الشعبى اليرغسلافى ابتداء من ٢٣ شباط (فبراير)، وهو الآن عائد إلى "موسكو" ليرفع تقريرا. حدثنى عن الوضع السياسى العسكرى فى "يوغسلافيا"، وأحاطنى علما ببعض اللمحات الدراماتيكية عن فترة مكوثه فى مقر قيادة المارشال "تيتو"، إذ امضى الأشهر الأربعة ونيف معه، متعرضا إلى مخاطر واختبارات قاسية، وخاصة فى شهرى آيار - حزيران (مايو - يونيه) حينما حاولت القيادة الالمانية الفاشية القيام بعملية واسعة لتطويق مقر قيادة جيش التحرير الشعبى والاستيلاء عليه.

وقد احبطت العملية بفضل حذاقة وشجاعة قادة الانصار ومهارة الطيارين السوفييت الذين أخرجوا من طوق الحصار فى أعقد الظروف هيئة أركان "المارشال" "تيتو" والبعثتين العسكريتين السوفيتين والبريطانية اللتين كانتا معتمدتين لديها.

أتاح لى مكوثى فى "تقاطع الطرق" بالقاهرة فرصة اللقاء بعدد من كبار الشخصيات الأجنبية.

ففى الثامن من كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٤٣ توقف فى "القاهرة" لمدة ٢٤ ساعة رئيس جمهورية "تشيكوسلوفاكيا" "ادوارد بينيش" الذى كان فى طريقه من "لندن" إلى موسكو لتوقيع معاهدة سوفيتية - تشيكوسلوفاكية حول الصداقة والمساعدة المتبادلة والتعاون فيما بعد الحرب. وقد رافقه السفير السوفيتى المعتمد لدى الحكومة التشيكوسلوفاكية "ليبيديف"، وهو الذى رتب لى لقاء مع الرئيس التشيكوسلوفاكى فى فندقه. من الناحية الشكلية كانت تلك مجرد زيارة مجاملة، بيد أن ما دفعنى إليها هو اهتمامى العملى، الذى ظل فى نفسى منذ فترة اشتغالى فى القضايا التشيكوسلوفاكية، التى كانت آخر صلة لى بها فى تشرين الأول (اكتوبر) من العام الماضى.

ومن بين القضايا المعاهدة السوفيتية - التشيكوسلوفاكمية التي وضعت وزارة الخارجية البريطانية عقبات أمامها حينذاك. هنأت الرئيس على نجاح التحضير لعقد المعاهدة، ولكننى لم الحظ من جانبه حماسا عند تناول هذا الموضوع. قد يكون الطريق الطويل أثر فى مزاجه، وقد يكون استحضر فى خاطره فى تلك اللحظة صورة "إيدن" المقطب المكفهر الذى وصف الحكومة التشيكوسلوفاكية بالجنون لاتخاذها قرار بعقد معاهدة مع "الاتحاد السوفيتى".

فى آذار (مارس) تسنى لى التعرف بـ "الميرو تولياتى". وحتى ذلك الحين لم اكن اعرفه إلا من خلال الصحف السوفيتية، بوصفه أحد قادة

الأممية الشيوعية (الكومنترن) وباسمه السرى "ايركولى". وها أنه الآن فى طريق عودته إلى الوطن كقائد للشيوعيين الايطاليين، لكى يشترك فى نيسان (ابريل) فى حكومة المارشال "بادوليو" الأئتلافية كوزير بلا وزارة.

انحفر فى ذاكرتى لقاء جرى فى مطلع شهر نيسان (ابريل) مع البعثة العسكرية للجنة التحرير الوطنية اليوغسلافية برئاسة الجنرال "تيرزيتش" التى كانت متجهة إلى "موسكو". استقبلنا أفراد البعثة بحفاوة، إذ أنهم جاؤوا من بلد بلغت فيه المقاومة الشعبية للمحتلين والنجاحات التى احرزتها، مدى لا يضارعه ما جرى فى أى بلد محتل آخر بأوربا. وقد أقامت سفارتنا على شرف البعثة حفل استقبال غير رسمى حضره جميع أفراد البعثة والعديد من موظفى السفارة، وأثناء الحفل أنشدنا جميعا أغنيات سوفيتية ابتداء من "كاتيوشا" الشهيرة التى كانت آنذاك شائعة على الألسنة فى جميع القارات، كأغنية للنصر. وإلى هزيع متأخر من الليل ظل يسمع خليط طريف من اللغات الروسية والصربية والكرواتية. وحينما يعجز لسان أحد عن التعبير يخف لمساعدته "سولود" الملم باللغة الصربية.

كانت كل خطوات سفارتنا تتابع باهتمام وتعاطف من قبل أصدقاء الاتحاد السوفيتى، وبنفور مبطن من لدن خصومه. بل إن النفور كان ظاهريا أحيانا. فقد حصل أن فسرت بعض خطوات السفارة تفسيرا مشوها أو صارت السفارة ذاتها هدفا للشماتة والافتراء.

ولم تبخل الدعاية الفاشية على سفارتنا باهتمامها ففى عدد آيار (مايو) من النشرة الإعلامية للسفارة البريطانية التى كانت ترسل إلينا

على أساس التعاون بين الحلفاء، قرأت تقييما لنشاطنا ورد على شكل نبأ من "مدريد" نقلته إذاعة "المانيا"، وجاء فيه:

"ذكرت مصادر حسنة الاطلاع أن الشغل الشاغل للسفير السوفيتى فى القاهرة "نوفيكوف" هو خلق مجالات نفوذ بلشفية والقيام بالدعاية البلشفية عموما. وعلاوة على ذلك يوجد مركز آخر للديماغوجيا البلشفية تحت لافتة فرع وكالة تاسّ الذى يرأسه جنرال شيوعى. ويفيد المصدر أن هذين الشخصين ينفقان أموالا طائلة لشراء الضمائر".

استغربت لهذه "المعلومات" عنى وعن مراسل تاسّ "كوروستوفتسيف" (وهو حاليا عضو فى الأكاديمية ومن مشاهير علماء المصريات) وعن "شراء الضمائر" من قبلنا، وضحكت قليلا ثم استغرقت فى التأمل. بديهى أنه كان يمكن للمرء توقع كل شيئ من الدعاية الأذاعية الفاشية، بما فى ذلك الأكاذيب الخرقاء الهادفة إلى تخويف حلفاءنا البريطانيين والأوساط الحاكمة فى البلدان العربية على حد سواء ببعبع "الخطر السوفيتى" فى الشرق الأوسط. ولكننى لم أكن على ثقة تامة من أن مصدر هذه الاختلافات هو "أسبانيا"، وأن الاذاعة الالمانية قد بثتها. من يدرى، لعلها نُسجت من قبل البعض فى احدى الدوائر البريطانية بالقاهرة لنا خصيصا، كأشارة وتحذير ينطويان على معان عديدة؟ وحتى إذا كان الخبر الأذاعى من مصدر المانى، ألم يكن دسها بخباثة دبلوماسية فى النشرة التى نقرأها يهدف إلى الأغراض ذاتها، أى إعاقة تنامى هيبة "الاتحاد السوفيتى" فى "مصر"؟

فكرت: وليكن، فلن نتخلى عن مهماتنا الدبلوماسية الأساسية لمجرد أن أعصاب المستعمرين البريطانيين بدأت تضطرب!

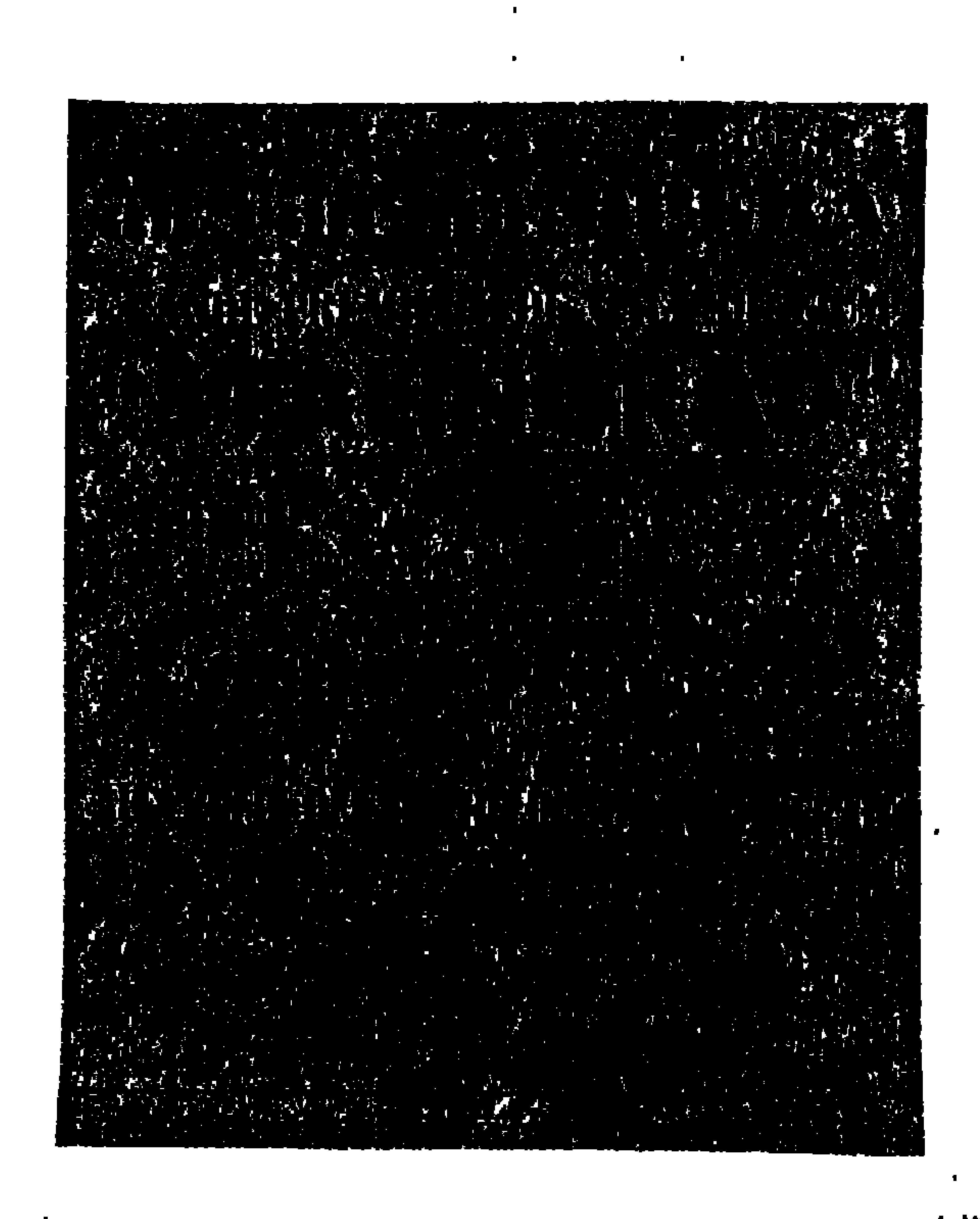
هـوامش

احتج ولستون تشرشل على هذا الخبر فى رسالـــه بعث بها الى ستالين . واجاب الاخير : «فيمـــا يتعلـــق بالخبر المنشور فى جريدة «برافدا» فلا ينبغـــى ابلاؤه اهتماما زائدا ، ومن جهة اخرى فان للصحيفة الحق فى نشر انباء عن شائعات مستلمة من محررى الصحيفة المعتمدين . ونحن الروس ، على اقل تقدير ، لم نحاول ابدا التدخل فى شؤون الصحافة البريطانية رغم ان المبررات المتوفرة لدينا فى السابق والحاضر اكبر بكثير» (مراسلات رئيس مجلس وزراء الاتحاد السوفيتى مع رؤساء الولايات المتحـــدة الامريكية ورؤساء الوزارة فى بريطانيـــا . المجلد الاول ، موسكو ، ١٩٥٧ ، ص ١٨٩–١٩٢) .

طبقا لاتفاقية فينا عام ١٨١٥ كان المبعوث يسمى فى سائر البلدان الاجنبية «مبعوثا مطلق الصلاحيـــة ووزيرا مفوضا» . وفى مصر استغنيت عن هذا اللقب الطويل بنصفه الثانى فقط . فكنت القب «وزيرا» مرة وسفيرا مرة اخرى ، لانى بدرجة سفير ، وكذلك لاعتمادى سفيرا لدى الحكومتين اليوغسلافية واليونانية .

الفصل الثامن

الأميــرة "إيرينـا" والأميــر "بطـرس"



هذا الفصل، شأن سائر الفصول، له صلة بعمل السفارة، ولكننى أود أن أتطرق فيه عرضا إلى قصة امرأة روسية فريدة تعرفت عليها فى "القاهرة"، ثم التقيت بها فى سائر اصقاع الدنيا.

فى لحظة سماعى لأول مرة باسمها كانت تحمل لقبين رنانين: "صاحبة السمو الملكى أميرة اليونان وأميرة الدنمارك". كانت متزوجة من الأمير "بطرس"، ابن عم الملك "جورج الثانى" ، وبعد احتلال اليونان هاجرت، وفى سنوات الحرب قاسمت العائلة المالكة مصيرها، وحلت معها فى "القاهرة".

كانت تلك الهجرة الثانية "ايرينا الكسندروفنا أوفتشينيكوفا"، ابنة واحد من كبار التجار الروس. فقد هاجرت للمرة الأول بعد ثورة اكتوبر، ولما تزل صبية، مع والديها إلى الخارج، وشاءت لها الأقدار أن تظل خارج الوطن حتى آخر أيامها. لكم عانت الفتاة المهاجرة ولكم عرفت وخبرت، قبل أن يرتقى بها الحظ سلم العرش اليونانى. بيد أن "ايرينا الكسندروفنا" ظلت روسية حتى بعد أن اصبحت أميرة اليونان. وها هنا كان الأساس الذى قامت عليه علاقتنا.

منذ الأسابيع الأولى لنشوء سفارتنا فى القاهرة أبدت ايرينا الكسندروفنا حيالها اهتماما فائقا: فمن خلال سكرتيرها الشخصى اتصلت بديوان السفارة واعربت عن رغبتها فى مقابلتى لسبب لم تفصح عنه. تريثت فى الأجابة، لأننى آنذاك لم اكن أملك أى تصور عنها، ولم استطع أن اجزم بمدى جدوى مثل هذا اللقاء خارج اطار الأجواء المعتادة. وريثما كنت استجلى الأمر، دأبت الأميرة نفسها على الاتصال تليفونيا بالسفارة والتحدث إلى موظفينا فترات طويلة. وقد أسرّتنى فيما بعد أنها عمدت إلى ذلك ليس للتعجيل فى الحصول على جواب، بقدر ما كان غرضها "التسرية عن نفسها" بالتحدث إلى أبناء جلدتها الروس وباللغة الروسية. ليس التحدث مع روس فحسب - فقد كان فى القاهرة آنذاك عدد غير قليل من المهاجرين البيض - بل مع روس "من أهل البيت" من الاتحاد السوفيتى.

فى تلك الأثناء جمعت بعض المعلومات عن "الأميرة ايرينا" كما سماها موظفونا. فى سنوات الهجرة الأولى عملت كعارضة أزياء فى "باريس"، حيث اسرت ماركيزا فرنسيا بجمالها وتزوجت منه. ويبدو أن سحرها الأنثوى في تلك السنوات كان عظيما، ومن أدلة ذلك أن "فيرتينسكى" الشاعر والملحن والمغنى الذى عاش فى المهجر، تغنى بها فى واحدة من أغانية الشهيرة" بانى ايرين". وقد تغنى بها على طريقته فى البهرجة اللفظية، فضمن الأغنية تعابير مثل "الشَعر العسلى الثعبانى سحر ذهبى"و "شحوب الوجه الذى كوته أغنيتى حد الاعجاب والألم. . ." وما إلى ذلك. وفى خاتمة الأغنية سماها "الأميرة ايرين"، وصارت هذه الكلمات نبؤة بحق، بعد أن اعتبرت ابتذالا رخيصا. فقد

وجت للمرة الثانية من "الأمير بطرس" المنتمي إلى "آل غلوكسبورغ"
ل "بونابرت" (كان أبوه عم جورج الثاني وأمه الأميرة ماريا
نابرت)، وبذا صارت "الماركيزة ايرين" احدى أميرات الأسرة المالكة.

كانت تتمتع بخصال أخرى، إضافة إلى فتنتها: فهي ذكية ومثقفة
تعرف بطلاقة الانجليزية والفرنسية والايطالية، وتجيد اليونانية. هذه
عوامل مجتمعة بالإضافة إلى مقامها الرفيع في البلاط اليوناني،
علتها موضع حسد شديد (إن لم نقل موضع كره) من لدن الأميرات
الكريمات المحتد" (اللواتي "اسعدني الحظ" برؤيتهن عند "الملك جورج
لثاني") وسيدات البلاط. وعلاوة على ذلك اعتبرها الارستقراطيون
لمتعجرفون وصولية لجأت إلى مختلف الأحابيل لأغواء "الأمير بطرس"
كي يتزوج منها. وكان مجرد الاعتراف رسميا بزواج الأمير من أمرأة لا
تسري في عروقها الدماء الملكية، انتهاكا صارخا للتقاليد السلالية.
لهذه الأسباب مجتمعة لم تحظ "ايرينا الكسندروفنا" برعاية كبيرة فى
البلاط اليونانى، بيد أن حظوتها كانت أكيدة فى البلاط المصرى
وأوساط المجتمع الراقية بمصر.

كما عرفت أن "ايرينا الكسندروفنا" متدينة جدا، علما بأن تدينها لم
يكن زيفا، وإنها وطنية روسية متحمسة رغم انتمائها إلى العائلة
المالكة اليونانية، وإن وطنيتها التى لم تعمد إلى اخفائها كانت تتجسد
فى استعدادها لتقديم ما فى وسعها من عون لسكان الاتحاد السوفيتى
المتضررين من الغزو الفاشى، وإنها قبل وصولنا إلى "القاهرة" كانت
المبادرة إلى تنظيم أنشطة خيرية لهذا الغرض.

باختصار، جعلتنى المعلومات المتجمعة لدىّ اميل إلى اللقاء بها.

ولكن لم يغب عن بالي أنها من المهاجرين البيض، وإن كانت تحمل لقبا يونانيا رفيعا، لذا اعتبرت أن من غير المستحب الالتقاء بها رسميا كأميرة من العائلة المالكة، بما يترتب على ذلك من أداء مراسيم الاحترام لها. لذا اخبرتها عن طريق السكرتير أنني على استعداد لاستقبالها في السفارة، ولم أحدد بأية صفة ولكن كان مفهوما أنها سوف تُستقبل بصفتها الشخصية. هنا ظهرت عقبة غير متوقعة، ذلك أن أتيكيت البلاط اليوناني كان يحظر على أفراد الأسرة المالكة تخطي عتبة السفارات والبعثات الأجنبية.

وجدت "ايرينا الكسندروفنا" بنفسها المخرج من هذا المأزق. فقد اتصلت بالسفارة مرة أخرى وأصرت على مكالمتي شخصيا. تناولت السماعة وقلت بنبرة مجاملة وانتظار، كما يتحدث المرء لأول مرة مع شخص لا يعرفه كي يضيع في يده زمام المبادرة:

- تفضلي

ساد صمت لعدة ثوان. يبدو أن "ايرينا الكسندروفنا" صعقت لأنني لم أستخدم أية صيغة للمخاطبة أو لقبا. وقد يكون اضطرابها هو السبب. وبالفعل، حينما شرعت الأميرة تتحدث أخيرا، كانت نبرات الأضطراب واضحة على صوتها:

- مرحبا، ياصاحب السعادة. أنا شاكرة جدا لاتاحتكم لي الفرصة لمخاطبتكم مباشرة.

- مرحبا، "ايرينا الكسندروفنا"!

عند اعتمادي هذا الأسلوب الروسي في المخاطبة بالاسم واسم الأب ألمحت لها بأنني اريد الاستغناء عن لقبي "السعادة" و "السمو".

حلت فترة قصيرة أخرى قالت بعدها:

- أنا سعيدة حقا، ياسيادة السفير، لأنك سميتنى هكذا. أنها ... طريقة روسية أصيلة ومبعث بهجة عميقة. آمل ألا تعارض أنت الآخر أن اسميك على طريقتنا الروسية الأصيلة.

- هذا هو الأفضل، يا"ايرينا الكسندروفنا"!

- شكرا، "نيكولاى فاسيليفيتش". أنا احدثك بشأن موضوع عملى هام.

هكذا تحطم الجليد الفاصل بيننا. فبعد التخلى عن عناء الأتيكيت وجدنا لغة مشتركة دون صعوبة. اقترحت "ايرينا الكسندروفنا" أن نلتقى في منزلها دون أية مراسيم، بصفتنا الشخصية. فقد كانت تود من كل بد محادثتى على انفراد، وقالت بحمية: "أنا بحاجة إلى هذا الحديث حاجتى إلى الهواء". وقد كان اقتراح عقد اللقاء فى مكان غير رسمى متماشيا مع التكتيك الذى رسمته مسبقا، لذا أجبت بالموافقة.

فى اليوم المحدد والساعة المتفق عليها قصدت المنزل الذى تسكنه "ايرينا" وزوجها "الأمير بطرس". ولم يقتض الأمر سوى أن أمشى دقيقتين من بيتنا الواقع فى شارع رفعت لاصل إلى بوابة فيلا فخمة عند ملتقى شارعى رفعت وعبد المنعم.

اقتادنى خادم إلى داخل البيت، فرأيت في ركن بعيد من القاعة يعزله جدار وكنبات ومقاعد، أمرأة فى الأربعين تقريبا ما أن لمحتنى حتى نهضت لتستقبلنى. لم يكن لدىّ وقت كثير لاتملى ربة البيت، بيد أن نظرة واحدة كانت كافية لأفهم أن من تغنى بجمالها الفتان لم يكن مرائيا. بديهى أن سنوات مرت منذ ذلك الحين وتركت بصماتها على

ملامحها. غير أنها ما برحت هيفاء رشيقة: رقبة نحيفة يعلوها رأس كلاسيكى اشم يغطيه شعر ذهبي باذخ يشع بلون العسل، وكان كل قوامها يوحى بأنها على معرفة بقيمة سحرها الأنثوى وقد اعتادت هيام الرجال بها.

حينما حيتنى "ايرينا الكسندروفنا" احسست فيها بنوع من الحراجة غير المعتادة بالنسبة لسيدة من المجتمع الراقى حيث تعتبر السيطرة على النفس من أهم الصفات. مدت لى يدها كمن يريد أن تقبّل يده، ولكننى اكتفيت بمصافحتها ورسمت ابتسامة مجاملة اداري بها عزوفى عن هذه الطقوس، وينبغى هنا القول أننى لم اتمسك بها أبدا. لم تبد "ايرينا الكسندروفنا" ما يوحى بتبرمها واقتادتنى إلى ركنها وعرضت علىّ الجلوس. قالت:

- دعوتك لبحث قضية جدية. ولكن بدءا أريد أن أقول كل ما في نفسى حول موضوع شخصى، أجل أن أقول كل شيئ دون أن استبقى. هل تسمح، يا نيكولاى فاسيليفتش؟

- تفضلى، أرجوك.

تمتمت بأدب وأنا احدس ما تريد أن تقوله.

للتو شرعت "ايرينا الكسندروفنا" تتحدث متلعثمة تقاطع نفسها وتكرر أقوالها، حول موضوع سرمدى، موضوع الحنين إلى الوطن. حول الشوق الذى يستبد بالإنسان الروسى حينما يكون بعيدا عن أرض الوطن، وحول اضطراره المفجع للتحدث دوما بلغة غير لغته الأصلية، وعن مدى نزوعها إلي الماضى، إلى "روسيا، رغم ادراكها أن الطريق إلى هناك مسدود لأسباب عدة. كان ذلك بمثابة تمهيد اعقبه حديث عن

إلى الأرض الروسية" الذى قامت به مؤخرا، وقد استعملت هذا التعبير بالذات دون تهكم أو سخرية. ومضت تقول بانفعال شديد:

- لعل من الصعب عليك ادراك ذلك. فقد قدمت للتو من هناك، ولم يمض سوى زهاء شهر ونصف، أما أنا فقد كنت فى الوطن قبل ربع قرن، لا بل قبل ست وعشرين سنة. رباه، أنه دهر كامل! كنت انزع بكل جوارحى إلى مشاهدة تراب الوطن ولو من بعيد. وقد سافرت إلى "إيران" خصيصا لهذا الغرض. وفى طهران تفضلت بعثتكم العسكرية بالسماح لى أن أتوجه إلى الحدود. حينما دنوت من مخفر الحدود أخذت ارتعد من فرط الانفعال. وها أنا علي الحدود من الجانب الايرانى. أننى واقفة والتهم الأرض بعينين راحت الدموع تتساقط منهما كالمطر! انفعلت إلي حد انعقد معه لسانى. واحتار الضابط المسكين المرافق لى فى أمره. سيطرت على مشاعرى وشجعت نفسى وطلبت السماح بالعبور إلى الجانب الآخر، الروسى. قلت أننى سأخطو خطوتين لا غير على الأرض الروسية واعود. سمحوا لى.

توقفت "ايرينا الكسندروفنا" عن الكلام بغتة. غصت بريقها بضع غصات عصبية ثم واصلت:

- جثوت هناك ولثمت الأرض ورويتها بدموعى. لكم شعرت بالفرح والمرارة فى وقت واحد! ثم نبشت بأظافرى وجمعت حفنة تراب وأخذتها معى. ها هو التراب الروسى المقدس! - هتفت ايرينا الكسندروفنا بغتة بصوت مرتعش وهي تخرج من محزمها مبخرة صغيرة موشحة بالمخمل وتقبلها كما يقبل المتعبد الصليب. ثم أجهشت فى البكاء. أحنت رأسها والصقت المبخرة بخدها وصارت تنحب وترتعش. أصبحت محرجا للغاية

وأنا احس بمشاعر متناقضة، وجلت بوجهى باحثا عن دورق ماء فلم أجد، وأخذت أتمتم بكلمات اهدئ بها من روعها. يبدو أننى لم أجد الكلمات المناسبة لأن "ايرينا الكسندروفنا" واصلت البكاء. مرت زهاء عشر دقائق علي هذا الوضع، وأخيرا عادت إلى هدوئها وجففت دموعها بمنديلها وقالت وهى تنشج بصوت ضعيف ودون أن ترفع رأسها:

– اغفر لى انسياقى الغبي وراء العواطف. ما أن اتطرق إلي هذا الموضوع حتى افقد السيطرة على نفسى. لكم هو سعيد الروسى الذى لا يتوجب عليه أن يحمل مبخرة تضم تراب الوطن، مادام بوسعه العودة فى أي وقت إليه والتطواف فيه من أقصاه إلى أقصاه.

شهقت بعمق وأضافت:

– حينما تكون المبخرة معى أشعر بنوع من الاطمئنان.

عادت تدريجيا إلى هدوئها. رن فى الغرفة المجاورة جرس التليفون، ولاحت علي العتبة خادمة تحمل سماعة التليفون وتجر وراءها أسلاكه الطويلة، وألقت نظرة متسائلة علي سيدة البيت. أشاحت هذه بيدها صامتة، فعادت الخادمة أدراجها.

أكملنا حديثنا فى نبرات أخرى. فقد اطلعتنى "ايرينا الكسندروفنا" على مشروعها لتأسيس صندوق لمساعدة المدنيين السوفيت يقام فى "مصر" ويكون هيئة تتولى جمع الأموال وشراء المواد الطبية والملابس والطعام ووضعها تحت تصرف الجهات السوفيتية المختصة. وكانت قد قامت بحملة مثل هذه عام ١٩٤٣ فى "سورية" و"لبنان"، لذا فإن اقتراحها لم يبد مشروعا طوباويا. وبغية إضفاء وزن اجتماعى ومالى على الصندوق قررت أن تستميل للمشاركة فيه عددا من رجال الدولة

والمجتمع والمال والتجارة، من المصريين وممثلى الحلفاء. وأعربت عن رأى مفاده أن من الضرورى شمول الصندوق بـ "رعاية الملك فاروق"، وهو أمر يكاد يكون ضروريا لنجاح المشروع فى ظروف مصر آنذاك. وقد تشاورت مع بعض الشخصيات التى قدرت أنها ستتولى تأسيس المنظمة وأخذت منهم وعودا بالمساعدة، وهى تنتوى مفاتحة آخرين فى الأيام والأسابيع المقبلة. لم تكن تشك فى أن "الملك فاروق" سوف يتخذ موقفا ايجابيا من مبادرتها، بل تكوّن لدىّ انطباع بأنها قد جست بالفعل نبضه إزاء المشروع. وإذا لم يجانبنى الصواب فإن معنى ذلك: أولا أن النجاح سوف يحالف الصندوف بالفعل، وثانيا أن أوساط البلاط المصرى ما كانت لتدع أية فرصة سانحة لاثبات مشاعرها "التحالفية" إزاءنا. وقد نوهت فى فصول سابقة بمواقف من هذا القبيل.

اقترحت علىّ "ايرينا الكسندروفنا" الانضمام إلى لجنة رئاسة الصندوق إذا توافرت لدىّ الرغبة والوقت الكافى لذلك. وأضافت مبتسمة أن الصندوق لن يأخذ من وقتى الكثير، إذ أن مساهمتى ستكون فخرية ورمزية أكثر منها عملية، إذ أن سائر أعضاء اللجنة سيتولون العمل اليومى كله.

اصغيت بانتباه كبير إلى هذا المشروع المدروس بتفاصيله. وكسائر الصناديق الخيرية، ما كان يفترض أن نتوقع من الصندوق المصرى عونا ماديا ملموسا، ولكن ما كان ينبغى التقليل من أهميته السياسية، إذ كان يمكن أن يصبح حلقة جديدة فى سلسلة فعاليات متنوعة، على اختلاف مصادرها، تساعد على تعزيز تعاطف المجتمع المصرى مع "الاتحاد السوفيتى". لذا أيدت بحرارة المشروع، ووافقت على الانتماء

للجنة الرئاسة المقترحة، ووعدت بتأييد كامل من لدن السفارة.

بعد زهاء أسبوعين كانت بين ضيوف السفارة فى الحفل الذى أقيم فى المركز اليونانى بمناسبة الذكرى السادسة والعشرين لتأسيس الجيش الأحمر. فى الثالث من آذار (مارس) زرت وزوجتى فيلا "الأمير بطرس"، حيث أقام هو و"الأميرة ايرينا" مأدبة فطور على شرفنا. وهناك التقيت لأول مرة بالأمير، وكان فى الخامسة والثلاثين ويرتدى زى ضابط يونانى. وخلافا لابن عمه المتوج كان "بطرس" مضيافا كريما وحلو المعشر، وبفضل ذلك انعقدت بيننا بسرعة علاقات بعيدة عن الرسميات.

فى تلك الأثناء أخذ مشروع تأسيس الصندوق المصرى يطبق خطوة فخطوة. وفى أواخر شهر آذار (مارس)، وبفضل جهود "ايرينا الكسندروفنا" ومناصرى مبادرتها، شكلت لجنة رئاسة كبيرة تضم اكثر من ثلاثين عضوا، وترأسها "شريف صبرى باشا" وهو رئيس وزراء سابق. وانتسب إلى اللجنة، نيابة عن الحكومة وزير المالية "أمين عثمان باشا" واحد زعماء حزب الوفد. كما ضمت اللجنة عددا غير قليل من الأشخاص المقربين إلى الملك، مثل رئيس الوزراء السابق "حسين سرى باشا" و"حافظ عفيفى باشا" (صار بعد الحرب رئيسا للديوان الملكى) ومحافظ القاهرة "سعيد محمد شاهين باشا" وغيرهم.

ولكن لا يجوز القول أن انصار "فاروق" هيمنوا على اللجنة. فقد كانت غالبية أعضائها تتألف من رجال الأعمال والمثقفين الذين كان القسم الأكبر منهم مواليا لحزب الوفد. وتبوأ الأديب "طه حسين" منصب الرئيس الفخرى للمكتب الصحفى الذى ضم رؤساء تحرير زهاء عشر من

المجلات. وهكذا فإن تركيب اللجنة ومكتبها الصحفى كان، إلى هذا الحد أو ذاك، نسخة طبق الأصل من تناسب القوى الفعلى على مسرح السياسة بمصر.

ضمت اللجنة من الأجانب كلا منى ومن ممثلى الحلفاء: قائد القوات البريطانية فى مصر "اللواء ستون" والمبعوث البلجيكى "البارون لوى دى بيتّوا". ورغم أن "ايرينا الكسندروفنا" لم تكن ضمن أعضاء اللجنة شكليا، إلا أنها ظلت الداينمو المحرك لها. وكما كان مؤملا منذ البداية فإن الملك "فاروق شمل برعايته الملكية" الصندوق.

وضعت اللجنة خلال الاجتماعات الأولى التى عقدتها فى نيسان (ابريل) برنامجا لأنشطتها، وتقرر القيام بالقسم الأكبر منها فى الخريف، أي بعد مرور موسم الصيف، فترة الحر والعطل والأجازات. وتقرر البدء بحملة جمع التبرعات فى آيار (مايو) بعرض الفيلم الوثائقى السوفيتى "ستالينغراد". وقبل عرض الفيلم علي الجمهور نظمت "ايرينا الكسندروفنا" عرضا خاصا فى منزلها لأعضاء اللجنة والصحفيين وضيوف آخرين. وقد نشرت الصحف تقريرا تفصيليا عن "اجتماع" اللجنة الفريد هذا، فصار أول بلاغ رسمى عن مشروع الصندوق المصرى بأعماله.

القت "ايرينا الكسندروفنا" كلمة من إذاعة القاهرة فى ٢٦ نيسان (ابريل) قدمت فيها توضيحات عن أهداف الصندوق وأهابت بالجمهور للمساعدة علي تحقيقها. ورسمت صورة موضوعية عن أهمية المعارك على الجبهة السوفيتية - الالمانية، ثم ذكرت بالتضحيات الجسام "للبشعب الروسى الذى يتحمل أقسى أعباء الحرب" وتحدثت عن ضرورة

التخفيف من هذه الأعباء. وقالت ختاما: "إن الهدف الماثل أمامنا عظيم جدا، وقد يعن على البال أحيانا تساؤل: ألن تكون المبالغ التى نجمعها قطرات تضيع فى بحر الفاقة؟ مثل هذا التساؤل برز أمامى وقيّد حركتى فترة طويلة حينما اعتزمت التقدم بمشروع مماثل فى "سورية" و"لبنان". ولكن بعد أن اتخذت، أخيرا، القرار أدركت بكل فرح أن الكثيرين من الناس، فقراء وأغنياء، يتجاوبون مع ندائى بحماس. وإنها لمكافأة عظيمة تلك الرسالة التى استلمتها من صاحب الغبطة بطريرك سائر روسيا الذى أكد استلام المواد الطبية والأمصال والملابس والطعام والسجائر، وابلغنى أن كل الطرود قد وزعت على جنود الجنرال "روكوسّوفسكى" الاشاوس. ويعرف هؤلاء المقاتلون الشجعان اليوم أننا، نحن القاطنين بعيدا عنهم، نفكر بهم بكل حب وعرفان. وأنا على ثقة من أن "مصر" الزاهرة ذات القلب الكبير، سوف تستجيب لندائى، وأنا اشكر من أعماق فؤادى المتبرعين الأسخياء".

لا شك أن النداء كان نافعا للمشروع. ولكن لم يتطلب الأمر عناء لكى يلاحظ المرء أن "ايرينا الكسندروفنا" استغلته لإبراز دورها التنظيمى. ما الذى دفع بها إلى ذلك؟ الرغبة فى التأكيد مرة أخرى على أنها وطنيه روسية غيور؟ أو إنه حب الظهور الأنثوى الذى دفعها للحصول على شعبية؟ قررت أن الدافعين كليهما صحيحان. ولكن في هذه الحالة لم تكن الحوافز الشخصية الصرف تنطوى على« ضرر، لذا لم أعرها الكثير من الاهتمام. وفيما بعد عرفت ان سعى "ايرينا الكسندروفنا" إلى الحصول على شعبية كان يمكن تفسيره بسبب آخر.

تقرر عرض فيلم "ستالينغراد" فى ١٥ آيار (مايو)، على أن

يخصص كل دخله للأيتام فى ستالينغراد. ومن خلال المشاركة فى التحضير للعرض حاولت السفارة أن تجعل منه تظاهرة للصداقة السوفيتية المصرية.

علقت فى الشوارع ملصقات باللونين الأحمر والأخضر كتب عليها: "ستالينغراد". فيلم وثائقى رسمى عن النصر الروسى قرب ستالينغراد. المعركة التى أنقذت روسيا وأوربا، وربما العالم كله".

فى بهو سينما "الأوبرا" وزع على المتفرجين برنامج للذكرى مقابل تبرعات متباينة فى سخائها. وكان البرنامج عبارة عن كُراس أنيق الطباعة يضم صورا كثيرة هى لقطات من الفيلم وصورا كبيرة لابطال معركة ستالينغراد - المارشالين "جوكوف" و"فورونوف" والجنرالات "يريومينكو" و"روكوسّوفسكى" و"تشويكوف" و"روديمتسيف". كما كانت هناك؛ صور للجنرالات الالمان الذين أسروا فى المعركة وعلى رأسهم الفيلدمارشال باولس أثناء استجوابه من قبل فورنوف و"روكوسّوفسكى".

تضمن الكراس سردا مقتضبا لتاريخ معركة "ستالينغراد" والدمار الهائل الذى لحق بالمدينة والويلات التى أحاقت بسكانها المدنيين. ومن هنا كان طبيعيا الانتقال إلى نداء يدعو إلى مساعدة أيتام "ستالينغراد". وكانت السطور الواردة فى خاتمة الجزء الأول من الكراس مفعمة بالإعجاب الخالص بمأثرة "ستالينغراد": "ستمر الأعوام وتداوى "ستالينغراد" جراحها. بيد أن مجدها وبطولات حماتها وبسالتهم وشجاعتهم ستظل أبدا فى ذاكرة شعوب العالم. وعلى مر القرون سوف يُذكر المقاتلون فى "ستالينغراد" كأبطال الشعب الروسى، فقد أظهروا

بقدوتهم كيف ينبغى الذود عن الوطن السوفيتى، عن كرامة البلد وحريته واستقلاله".

تصدرت غلاف الكراس صورة للملك "فاروق" بزيه العسكرى وكل نياشينه، إذ أنه حينما "شمل برعايته الملكية" الصندوق المصرى واعرب عن "إرادته السامية" لحضور عرض فيلم "ستالينغراد" إنما أراد أيضا أن "يكون له نصيب" فى أمجاد "ستالينغراد".

إزدانت قاعة السينما بالأعلام السوفيتية والمصرية. وفى يوم العرض الأول، فى تمام الساعة التاسعة والنصف مساء، امتلأت مقصورات الطابق العلوى بالوزراء وأفراد السلك الدبلوماسى وكبار الشخصيات المصرية وكبار الظباط المصرين والبريطانيين. وحجزت مقصورة لموظفى سفارتنا وزوجاتهم.

فى بداية العرض ظلت المقصورة المركزية المسماة "الملكية" شاغرة: فقد قرر "فاروق" أن يحضر النصف الثانى من البرنامج السينمائى، أى عرض الفيلم الأساسى. وجلس فى المقصورة المجاورة للمقصورة الملكية أعضاء لجنة رئاسة الصندوق المصرى، وكنت بينهم وإلى جانبى "ايرينا الكسندروفنا". جرى العرض فى جو احتفالى مهيب، وقبل بدئه عُزف السلام المصرى والسلام الجديد للاتحاد السوفيتى.

تضمن النصف الأول من البرنامج أفلاما تسجيلية بريطانية وكوميديا أمريكية من مشهدين. وقبيل العاشرة مساء غادر أعضاء لجنة الرئاسة المقصورة وتزلوا إلى البهو لاستقبال الملك.

وصل الملك وحيا أعضاء اللجنة ثم سار برفقتهم إلى مقصورته، بينما كان القسم الأول من البرنامج السينمائى مستمرا. وبإشارة من

"مايسترو" مستتر أنيرت القاعة، وما أن شاهد الجمهور "فاروق" في المقصورة، حتى التهبت الأكف بالتصفيق. لوح "فاروق" للمتفرجين بيده. وإلى هنا انتهى الأعراب عن مشاعر الولاء واستمر العرض.

أثناء الاستراحة، وبينما كانت الفرقة الموسيقية تعزف مقطوعة سريعة، استدعاني الملك إلى مقصورته. هنأني على النصر الجديد للجيش الأحمر الذى طهر القرم كليا من الغزاة بحلول يوم ١٢ آيار (مايو)، ثم انتقل فجأة إلى "ستالينغراد" وقال:

– إننى واثق من أننى سوف أرى على الشاشة اليوم الكثير من الأمور الهامة والمذهلة. ولكن أى فيلم عاجز عن أن يبهرنى أكثر من المعلومات التى عرفتها عن انتصاراتكم فى ستالينغراد. هزيمة جيش مثل الجيش الالمانى السادس! شيئ مذهل! بل هزيمة جيشين – أضاف ولعله كان يقصد، إلى جانب الجيش الميدانى السادس، جيش الدبابات الرابع الذى وقع أيضا فى كماشة "ستالينغراد". – لم يعرف التاريخ مثل هذه الانتصارات من قبل. لن أكف أبدا عن الاعجاب بفن قادتكم العسكريين وبطولة جنودكم.

شكرت "فاروق" على مشاعره الطيبة إزاء الجيش الأحمر. وجال فى خاطرى إنه ربما قبل ثلاث أو أربع سنوات، وحينما كان "فاروق" متعاطفا مع الفاشست ويميل إلى "المانيا" فى سياسته الخارجية، قد أبدى ذات الاعجاب بالجيش السادس إياه، الذى ظهر الآن ذهوله لهزيمته. فهو الجيش الذى اقتحم، بقيادة الجنرال فيلدمارشال "فون ريهناو بلجيكا" فى آيار (مايو) ١٩٤٠، ثم "فرنسا"، والذى غزا فى نيسان (ابريل) ١٩٤١ يوغسلافيا و"اليونان"، وبعد ذلك ظل فترة

طويلة يراوح فى مكانه على الأرض السوفيتية. فلكم هزت العالم انتصارات الجيش الأحمر، إذا كنت أسمع عنه الآن - وليس للمرة الأولى - كلمات الثناء والأطراء من لسان أحد المعجبين بهتلر سابقا.

أثناء عرض فيلم "ستالينغراد" لم أكن أتابع ما يجرى على الشاشة، بقدر مراقبتى لردود فعل المتفرجين. فإن اهتمامهم المشدود كان بين الحين والحين تقطعه عاصفة من التصفيق، ليس بسبب مقتضيات الأتيكيت، بل لهيجان العواطف تماما. فإن ملحمة الدفاع العظمى عن ستالينغراد وسحق الجحافل الفاشية، قد تركت أثرا لا يمّحى فى وعى المصريين، وها أن الفيلم الوثائقى جعلهم.الآن بمثابة شهود عيان علي هذه الملحمة. وليس ثمة غرابة فى أن تصفيقا متواصلا وهتافات تحية قد أعقبت العرض. وقد كانت موجهة نحو مقصورة السفارة حيث يجلس أناس يمثلون فى تلك اللحظة "الاتحاد السوفيتى" الجبار. وقواته المسلحة المظفرة.

اجمالا لحصيلة المرحلة الأولى من مراحل الصندوق المصرى، يمكن دون مبالغة القول أنها كانت النجاح الأول، نجاحا متواضعا نسبيا من حيث النتائج المالية، ولكنه بالغ الأهمية من حيث صداه الاجتماعى والسياسى الايجابى. ورغم أن هذا النجاح كان ثمرة عمل كثيرين، بمن فيهم موظفو سفارتنا، فإن من غير الانصاف أن ننكر الاسهام الكبير "لايرينا الكسندروفنا" التى أبدت طاقة فوارة في هذا العمل.

ولكن عند الاقرار بالدوافع الوطنية لنشاطها، لم أكن غافلا عن أن حسابات سياسية من طابع آخر كانت تصاحبها. فلئن كانت المرأة الروسية "ايرينا ألكسندروفنا" تشاطر روسيا أفراحها واتراحها، فإن

صاحبة السمو الملكى أميرة اليونان أبدت بالتأكيد اهتماما بالغا بالشؤون اليونانية ومستقبلها. وقد ارتبطت الحسابات السياسية المذكورة بهذه الشؤون.

قلنا آنفا أن حظ "الملك جورج" فى العودة إلى اليونان كان ضئيلا. وقد راعت ذلك الحكومة البريطانية التى أستأثرت لنفسها بمهمة الوصى على اليونان. وفى سعى للحيلولة دون استلام القوى الديمقراطية الراديكالية السلطة فى البلد بعد تحريره، لم تكن الحكومة البريطانية للتورع عن التضحية "بالملك جورج" فى حالة الضرورة القصوى. وفى هذه "الحالة" كان لديها "لاعبون احتياطيون" مثل "الأمير قسطنطين" ابن "الملك جورج"، و"الأمير بولص" أخى الملك، و"الأمير بطرس" ابن عمه. وإذا ما سقطت الشخصيتان الأولى والثانية، لسبب من الأسباب، فإن مكان الصدارة على المسرح سيفرد "للأمير بطرس" زوج ايرينا الكسندروفنا.

لم يكن الأمير بطرس يمتلك فى هذه اللعبة السياسية أوراقا رابحة كبيرة، ولكنه خلافا لسائر المرشحين من آل غلوكسبورغ، لم يكن قد تلطخت سمعته بتعاونه مع نظام "ميتاكساس" الفاشى. ففى فترة ١٩٤٠-١٩٤١ حارب المحتلين الايطاليين والالمان الذين غزوا "اليونان"، وفى المنفى خدم فى الوحدات اليونانية فى الشرق الأوسط وشارك في معركة العلمين وعمليات حربية أخرى.

كما كانت لديه "ورقة رابحة" أخرى، هى زوجته الروسية التي تجاهر بتعاطفها مع روسيا. وعلى أية حال بدت تلك "ورقة رابحة" لبعض موظفى الخارجية البريطانية الذين ظلوا أسرى الأساليب الدبلوماسية

التي تمتد جذورها إلى القرن التاسع عشر. فلو دخل الجيش الأحمر البلقان قبل قوات الحلفاء الغربيين، لصار بالإمكان توظيف هذه "الورقة". فلعلها سوف تؤدى دورا ما فى اللحظة التى تشرع إبانها شعوب البلقان المتحررة، ومن ضمنها الشعب اليونانى، بتغيير مصائر بلدانها وفقا لمشيئتها! بديهى أن هذه الخطط كانت قائمة علي رمال، ولكن أسفار التاريخ تحفظ عددا غير قليل من هذه "الأبنية" ذات الأساس الهزيل.

استنادا إلى ذلك كله ظلت علاقتى بايرينا الكسندروفنا طيبة، دون أن اعلل النفس بأوهام، وفى الوقت ذاته دون تحفظ فى كل صغيرة وكبيرة، واستمرت العلاقة لحين سفرى إلى "سورية" فى تموز (يوليو). فى آب (اغسطس) التقيت بها فى "القدس"، وسأتحدث عن ذلك فى فصل آخر، وفى ايلول (سبتمبر) التقينا مرة أخرى فى "القاهرة" قبل سفرى إلى "واشنطن". ظننت آنذاك أننا لن نلتقى أبدا. ولكن ظنى لم يكن فى محله، فإن اللقاءات غير المتوقعة كثيرة عند ملتقى الطرق العالمية.

سوف أخرج قليلا عن إطار فترة ١٩٤٣-١٩٤٤ التى أنا بصددها، لاكمل حديثى عن "أيرينا الكسندروفنا".

صيف عام ١٩٤٥ كنت فى واشنطن وعرفت من الصحف أن "ايرينا الكسندروفنا" وصلت "نيويورك" فى زيارة مفاجئة. وسرعان ما اتصلت من هناك تلفونيا بى فى السفارة، وبعد أسئلة سريعة عن العائلة والصحة والأحوال، أخذت تتحدث بانفعال عن الآثام البشعة التى ترتكبها القوات البريطانية فى "اليونان"، ووعدت أن تتحدث عن كل

ذلك بالتفصيل إذا تسنى لها القدوم إلي "واشنطن".

تابعت ما تكتبه الصحف عن المأساة الجديدة التى حلت باليونان. فمنذ خريف ١٩٤٤ جرت هناك أحداث دموية لعلها لا تقل، من حيث القسوة والمدى، عن تلك التى حصلت أثناء الاحتلال الإيطالى - الألمانى. فإن القوات البريطانية التى دخلت البلد أخذت تنكل، دون رأفة، بالوطنيين اليونانيين الرافضين للسياسة الرجعية التى مارستها الحكومة اليونانية بعد عودتها من المنفى، والتى عادن معها أسرة غلوكسبورغ الممقوتة من قبل الشعب. وبعد العمليات الحربية التى قامت بها القوات البريطانية ضد فصائل جيش التحرير الشعبى الوطنى، اجتاحت البلد موجة إرهابية نظمتها العصابات الملكية. وبذا تأكدت التنبؤات المتشائمة والواقعية فى آن واحد، حول المصير المأساوى لليونان فيما بعد الحرب، التنبؤات التى كانت منذ سنوات الحرب جلية لعيان كل من يحلل سياسة "لندن" وعملائها اليونانيين فى "القاهرة".

حدثتنى "ايرينا إلكسندروفنا" عن ذلك باقتضاب فى مكالمة تليفونية. واسهبت فى الحديث عن ذلك أثناء مؤتمر صحفى عقدته فى "نيويورك". وحدستُ من خلاله جوانب جديدة فى ميول هذ المرأة. فقد شجبت بحزم عسف القوات البريطانية وانتقدت بشدة السياسة الرجعية للحكومة اليونانية، ودافعت صراحة عن الوطنيين المناضلين.

حينما قرأتُ تصريحاتها الراديكالية، أخذت أتساءل حائرا عن دوافعها. هل حصل تغير فى قناعاتها السياسية خلال السنة الأخيرة؟ أم ربما الشعور بالخيبة؟ ولنقل بسبب أن "لندن" وضعت ثقلها بشكل نهائى إلى جانب "الملك جورج"، وبذا حرمت "الأمير بطرس" وعقيلته من

مستقبل بهيج. لحين اللقاء مع "ايرينا الكسندروفنا" ما كان بوسعى إلا أن احدس وأخمن.

فى مكالمة تليفونية أخرى معها اعربت عن إعجابى بتصرفها الحازم، فشكرتنى ولكن بنبرة حزينة. دعوتها إلى "واشنطن" لنتحادث عن كل التفاصيل، ولكنها غادرت في اليوم التالى إلى أوربا جوا.

"المستجدات تحملنى على السفر فورا"

ردت على دعوتى دون أن تشرح ماهية هذه المستجدات.

وتشير كل القرائن إلى أن لسفر "ايرينا الكسندروفنا" علاقة بمؤتمرها الصحفى فى "نيويورك" والذى أحدث ضجة كبيرة. فقد رددت الصحف البرجوازية الأمريكية والأوربية تصريحاتها، على أنها فضيحة سياسية من الدرجة الأولى. أو ليست فضيحة عالمية أن توجه "صاحبة السمو الملكى"، الأميرة المنتمية إلى العائلة المالكة نقدا شديد اللهجة لبريطانيا وحكومة اليونان؟ بيد أن الأصداء الصاخبة فى الصحف لم تكن سوى النتيجة الأولى للمؤتمر الصحفى، وأعقبتها نتائج أخرى ظلت طى الكتمان في كواليس البلاط الملكى اليونانى.

لم اعرف بذلك إلا صيف عام ١٩٤٦ فى "باريس"، التى وصلتها للمشاركة في اعمال مؤتمر السلام. ذات مرة، أثناء استراحة بين جلستين قال لى سفيرنا فى "فرنسا" "بوغومولوف"، وهو الآخر كان عضوا فى الوفد السوفيتى، إن ثمة أميرة يونانية فى باريس، وهى تصر على مقابلتى. ادركت للتو أنها "ايرينا الكسندروفنا". ورغم أن الجلسات والاجتماعات المتوالية والحفلات الدبلوماسية وغيرها من المشاغل

الكثيرة، لم تكن تترك متسعا للقاءات لا علاقة لها بالمؤتمر، فلم يكن بوسعي أن ارد طلبا لايرينا الكسندروفنا، وهى من معارفى القدماء، لذا افردت لها فى خاتمة المطاف نصف ساعة.

جرى لقاؤنا القصير فى مبنى السفارة بشارع غرينيلّ. حينما ادخلها "بوغومولوف" إلى غرفة الاستقبال، حيث كنت اقلب على عجل صحف الصباح، انشجت بغتة فى البكاء دون أن نتبادل التحية. استغرب "بوغومولوف" أشد الاستغراب فتمتم بخجل كلمات اعتذار، وتوارى ليتركا وحيدين. واعترف أننى الاخر استغربت، رغم أن وضعا مماثلا اكتنف لقاءنا الأول فى "القاهرة". تمكنت بالكاد من تهدئة المرأة المنفعلة، واقتدتها إلى مقعد اجلستها عليه. ولحسن الحظ وجدت هذه المرة دورق ماء. شربت "ايرينا الكسندروفنا" قدحا كاملا بجرعات كبيرة، وظلت أثر ذلك تنشج وتتأوه، ثم اطلعتنى على قصتها المؤسية.

بدأت من المؤتمر الصحفى في "نيويورك" الذى سبق وأن أشرت إليه. فما أن سمع الملك "جورج" بطابع المؤتمر حتى استبد به الغضب، ووقع دون إبطاء مرسوما يقضى بحرمان "ايرينا الكسندروفنا" من لقبى أميرة ملكية و "صاحبة السمو الملكى". الأمر الذى ترتب عليه فقدان عدد من الامتيازات. ولم يكتف الملك بذلك، بل حرمها أيضا من حق الإقامة فى اليونان. وبذا هاجرت ايرينا الكسندروفنا للمرة الثالثة، علما بأن تلك كانت هجرتها الثانية من "اليونان".

طفقت أتأمل محدثتى خلسة. تبدو حزينة ضامرة، وثمة تجاعيد تحت عينيها وفي طيات شفتيها تفضح عمرها. غريب أن تخبو فتنتها إلى هذا الحد خلال سنتين فحسب! وكان مظهر هذه المرأة الكسيرة مناقضا

للصورة المنحفرة فى ذاكرتى عن الأميرة إيرينا، الفاتنة والأبية والشخصية السياسية المتنفذة. أسفت لحالها أشد الأسف. قالت وهى تنشج:

- لا تفكر، يا"نيكولاى فاسيليفيتش"، أننى طلبت مقابلتك لإندب أمامك حظى، كما فى القاهرة. كلا، بل أن لدىّ طلبا عمليا: أريد أن اسافر إلى "موسكو"، إلى الديار الحبيبة. وآمل التعرف بالبطريرك الجديد وزيارة العتبات المقدسة الأرثوذكسية. ولكن سمة الدخول السوفيتية تأخرت جدا بسبب لا اعرفه. لم أعد أصدق أنها ستمنح لى فى يوم من الأيام. ابتهل إليك أن تعرف السبب وتساعدنى قدر الإمكان.

وعدتها أن أسأل فى السفارة عن سبب التأخير، ولكننى حذرتها إن امكانية تأثيرى على سير الأمور مستبعدة، لأن القضية خارج دائرة اختصاصى. ورغم ذلك فإن ايرينا الكسندروفنا ألحت علىّ أن اهتم بموضوع حصولها على سمة الدخول.

ادركنا الوقت، إذ كان علىّ الاسراع لحضور جلسة لا يجوز التخلف عنها. توادعنا دونما تعقيدات، رغم أن "إيرينا الكسندروفنا" وجدت مشقة فى مدارة دموعها.

كان ذلك لقاءنا الأخير. ابلغتنى السفارة أنها أنجزت كل الشكليات المطلوبة، فأبلغت "ايرينا الكسندروفنا" تلفونيا بهذا الجواب المبهم. وبعد بضعة أيام غادرت جوا إلى "واشنطن" للعمل فى السفارة والتحضير لدورة الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة فى ايلول (سبتمبر).

مرة أخرى توارت "إيرينا الكسندروفنا". إلى الأبد هذه المرة.



الفصل التاسع

فى السفارة وفى البيت



مع مرور الزمن أخذت حياة مجموعتنا السوفيتية الصغيرة تميل إلى الاستقرار. ولكن في الوقت ذاته أخذ الحنين بالوطن يستبد بالكثيرين من موظفي السفارة وافراد عوائلهم، مكظوما في البدء ومعلنا فيما بعد. ولم يخمد ذلك الحنين الانشغال بشؤون الوظيفة ولا المشاغل المعيشية اليومية، التي كانت بالغة التعقيد وتتطلب جهدا كبيرا عند ترتيب الاقامة في المكان الجديد. وكنت بين أولئك الذين عانوا من مرض الحنين. كانت أفكارنا تنزع دوما الى الديار البعيدة، حيث لم تتوقف مقارعة العدو يوما واحدا أو حتى ساعة واحدة، حيث كان المواطنون السوفيت في الخطوط الخلفية يهبون كل قواهم لمساعدة الجبهة، متكبدين صنوف الحرمان.

لم يكن مبعث الحنين احساس بانعزالنا عن القضية الوطنية المشتركة. لم نحس بالانعزال لأننا واصلنا، في الغربة، أداء واجبنا باستقامة ودون أن نبخل بجهد. بديهي أن الحنين الى الوطن كان تعبيرا عن شعور متأصل في المرء مع حليب أمه، كما يقال، ولكنه من جهة أخرى كان انعكاسا لحياة طويلة تمتد لعقود في ظروف اجتماعية معتادة، يقبلها

العقل والفؤاد، انعكاسا لنسق حياتي معتاد تشعر في ظله كل لحظة انك بين أهلك.

الأحساس بأنك بين أهلك وفي وطنك، هو احساس عظيم لا يمكن إيفاؤه حقه من التقييم إلا حينما نحرم منه، ولو لوقت قصير. فهناك، في الوطن، كل شئ أليف، حتى وإن كان ثمة ما لا يرضى العين والعقل والروح. أما هنا فكل شئ غريب، علاوة على أنه، في الغالب، مبهم. ولئن كان هناك من الناحية المادية، آنذاك، ما يحسد عليه، ففي نمط الحياة الكثير مما يثير القرف لدى الإنسان السوفيتي. وفي كل لحظة كان مفهوما "الأليف" و "الغريب" يتقابلان ويتقاطعان وتعقد بينهما مقارنة فتكون الغلبة "للأليف" من كل بد. ولم يكن من النادر ظهور رغبة حادة للاحتجاج والتغيير، رغبة توجب أن نقمعها، واضعين في حسابنا دوما أننا لسنا في بلدنا، وأنك هنا مطلوب ومرغوب ضمن شروط محددة بصرامة. غريب! أنت هنا غريب! لعل هذا هو الشعور الأساسي الذي يتولد عنه النزوع إلى الوطن، وهو في البدء شعور مكبوت غير واع، لا يلبث أن يتجلى بقوة متزايدة. بل أن البعض من أفراد جاليتنا فقد، لهذا السبب، قدرا كبيرا من روح المبادرة والقدرة على العمل، بل اضطررنا إلى أعادة قسم منهم إلى الوطن.

بغية التصدي لهذه الظواهر كان ينبغي بالدرجة الأولى جعل مجموعتنا متراصة متكاتفة، إذ أنها تكونت من أشخاص لم يكن غالبيتهم على معرفة ببعضهم البعض في الأمس القريب. بديهي أن العمل المشترك آلف فيما بينهم تدريجيا. وقد دعمنا هذه العملية الطبيعية بأنشطة اجتماعية مختلفة. ففي ٣١ كانون الأول (ديسمبر)

احتفلنا جميعا سوية بحلول العالم الجديد، عام ١٩٤٤، وذلك فى فيلا استأجرناها قبل أيام لتكون منزلا لعائلتى ومقرا لاستقبال ضيوف السفارة. كما عقدنا اجتماعات احتفالية تقليدية بمناسبات الأعياد السوفيتية، مثل ذكرى تأسيس الجيش الأحمر وعيد العمال العالمى فى ١ آيار (مايو). وبالإضافة إلى ذلك نظمنا جولات سياحية مشتركة سوف آتى على ذكر بعضها فيما بعد.

كنا نستمد العزم والحماس من الأنباء السارة الواردة من الجبهات، فى أوامر القيادة العليا وبلاغات مكتب المعلومات السوفيتى، التى كانت تبثها الأذاعة، ونعمل نحن على تدوينها بانتظام وإحاطة كل أسرة علما بها. ومن البلاغ الصادر بمناسبة عيد تأسيس الجيش الأحمر فى ٢٣ شباط (فبراير) علمنا بسرور أن"المانيا الهتلرية تسير نحو الكارثة المحتومة" وإنه "قد دنت ساعة القصاص النهائى عن كل الآثام التى اقترفها الهتلريون فى الأرض السوفيتية وفى بلدان أوربا المحتلة". وتحدث بلاغ أول آيار (مايو) بمزيد من التفاؤل عن حلول مرحلة جديدة مبدئيا فى الحرب، وأن الجيش الأحمر وصل إلى حدود بلادنا مع رومانيا وتشيكوسلوفاكيا، وهو يواصل مطاردة وسحق القوات المعادية فى أراضى رومانيا. وصارت مسألة الملحمة تتمثل فى تطهير كل أراضينا من الغزاة الفاشست، واستعادة حدود الدولة السوفيتية من البحر الأسود إلى بحر بارنتس.

كانت الصحف السوفيتية تصلنا متأخرة جدا وباكداس ضخمة متجمعة عن أسبوعين أو ثلاثة دفعة واحدة. ولم يكن ثمة مجال لقراءة

هذه الأكداس، فلم يتبق إلا أن نمر بها مرور الكرام باحثين عن الأساسى والرئيسى. وبغية مساعدة الذين لم تتسنّ لهم مواكبة الأحداث من خلال الصحف المحلية، فى أن يكونوا على بينة منها، كنت بين الحين والحين أعد تقارير عن الوضع الراهن تَشمل طائفة واسعة من البلاغات الدولية، لتكون استكمالا لما يرد فى البلاغات الرسمية.

بفضل هذه وغيرها من الإجراءات، وبفضل الوعى السياسى الرفيع لدى كل فرد، فإن العاملين فى سلك السفارة كانوا حتى فى الغربة يحيون حياة سوفيتية موارة، الأمر الذى كان ليتعذر بدونه أداء السفارة لواجباتها بنجاح.

كما سبق وأن ذكرت، استأجرت السفارة فى أواخر شهر كانون الأول (ديسمبر) فيلا فى الجيزة تصلح للسكن ولإقامة الحفلات. وبالإضافة إلى عائلاتنا، سكنت الفيلا عائلة "كريلوف" (كان الزوج والزوجة من العاملين فى السفارة) مع ابنهما.

اذكر، عَرَضا، أن الفيلا كانت ملكا لرئيس الوزراء السابق "على ماهر باشا"، المعتقل منذ عام ١٩٤٢، لذا فقد تفاوضنا حول الإيجار مع عقيلته، ولكم كانت تلك مهمة شاقة.

بعد أشهر الأنتظار الطويلة التى قضيناها فى موسكو وحقائبنا محزومة، وبعد كل متاعب حياة الترحال فى فنادق "طهران" و"القاهرة"، وبعد ظروف السكن الصعبة فى غرف العمل بالسفارة، حططنا أخيرا رحالنا وأخذنا نعيش حياة منزلية تقريبا. أقول "تقريبا" عن قصد، إذ أن الفيلا لم تكن مجرد مسكن لنا، بل ضمت قاعات الضيافة التى نادرا

كانت تظل شاغرة.

في الأشهر الأولى التي أعقبت وصولنا إلى "القاهرة" تمتعنا بجو "شتوي" رائق: أيام مشمسة دافئة. ولكن فترة النصف الثاني من آذار (مارس) وشهر إبريل (نيسان) كله، كانت مزعجة للغاية. أسابيع تعقب أسابيع، ورياح الخمسين المقرفة تهب، باصرار عجيب، من الصحراء حاملة سحبا من حبات الرمل الدقيق الملتهب. غدا التنفس صعبا، والرمل يغشى العيون ويملأ الفم ويصرّ على الأسنان. ولم يكن ثمة خلاص منه حتى في المباني المغلقة: فإن زجاج النوافذ والستائر المعدنية لم تعقه عن التسرب إلى الداخل وتغطية الأثاث والمأكولات بطبقة كثيفة، والأستقرار في قاع صحون الحساء وأقداح الشاي. بيد أن الرمل لم يكن "هبة" الصحراء الوحيدة. فقد رافقه قيظ لاهب لم نعتده نحن الشماليين. ففي الأسبوع الأخير من شهر نيسان (إبريل) بلغت درجة الحرارة العظمى نهارا ٤١ درجة مئوية في الظل، ووصلت إلى السبعين تحت الشمس.

تنفس الجميع الصعداء بعد زوال هذه الطامة الموسمية. وفي آيار (مايو) لم أعد أحس بأنني أسبح في عرقي الممزوج بالرمل، ثم أن وطأة الحرارة خفت بعض الشيء. وكان معارفي المصريون يتندرون قائلين أننا، الروس، جلبنا معنا برد الشمال. علما بأن "البرد" كان نسبيا جدا فدرجة الحرارة تصل إلى ٣٠-٣٥ درجة مئوية في الظل.

صيف مصر القائظ يدق الأبواب. "الملك فاروق" والحكومة والدبلوماسيون المعتمدون لديها يستعدون للانتقال، خلال الفترة الممتدة من حزيران (يونيو) إلى تشرين الأول (أكتوبر)، إلى عاصمة مصر

الصيفية مدينة "الأسكندرية"، بمناخها المعتدل نسبيا وبلاجاتها الفخمة، حيث يمكن الجمع بين تصريف أمور الدولة والأستحمام في البحر. وأثناء حفل استقبال اقيم يوم ٢٠ آيار (مايو) أبلغني "النحاس باشا" أن الحكومة ستغادر "القاهرة" قبل انتصاف شهر حزيران (يونيو).

ونظر لذلك طرحت السفارة على مفوضية الشعب للشؤون الخارجية مسألة استئجار فيلا في "الأسكندرية" لمدة ٣-٤ أشهر، كي انتقل إليها أنا وعدد من الموظفين والأداريين، على أن يستمر الباقون بتسيير الأعمال التجارية في "القاهرة". ودونما تسويف خصصت لنا المفوضية الاعتمادات الأضافية اللازمة.

استأجرنا فيلا في سيدي بشر، وهي ضاحية تقع شرقي "الأسكندرية"، بالقرب من القصر الملكي الصيفي المسمى "المنتزه". وكانت الفيلا متاخمة للبحر تماما، وتشبه باخرة صغيرة ذات سطحين، وأعني الشرفتين المحيطتين بالفيلا والمحاطتين بمقابض، كما كان ثمة مبنى يشبه قمرة القبطان. ولو توفرت ماسورة كبيرة يتصاعد منها الدخان لاكتملت صورة الباخرة.

كانت "الباخرة" ملكا لـ "مكرم عبيد باشا"، الذي ظل حتى عام ١٩٤٢ من أقرب أنصار "النحاس باشا"، ثم صار ألدّ أعدائه السياسيين. وفي آيار (مايو) ١٩٤٤ ابحر "عبيد باشا في رحلة مضنية ليس على متن "باخرته" بل في سيارة السجن، إذ اعتقل لممارسته نشاطا معاديا للحكومة. لذا فقد تفاوضنا على استئجار الفيلا مع وكيله. وإذا ما سرح الخيال بالمرء، تصور أن اعتقال "مكرم عبيد" و"علي ماهر" من قبله، كان ضربة شاءتها الأقدار لتخدمنا، وتوفر لنا المساكن النادرة

آنذاك. ولكن إذا تركنا الهزل فإن تلك الواقعتين كانتا دليلا آخر على تكهرب الجو الداخلى فى مصر الذى كان يهدد بالانفجار كل لحظة، ولم يحد من تفاقم التوتر وقتيا إلا العامل الخارجى المتمثل بمئات آلاف الجنود الأجانب.

فى أواخر آيار (مايو) أرسلت إلى "الأسكندرية" عائلتى وعوائل عدد من موظفى السفارة. أما أنا شخصيا، فإن سفرى تأجل مرة أخرى بسبب مشاغل بالغة الأهمية. واستبق الأحداث فأقول أنه لم يتسنَّ لى أبدا أن اتخذ من "الأسكندرية" مقرا صيفيا، كما فعل غالبية زملائى الدبلوماسيين.

عند الحديث عن أوقات الراحة لدى موظفى السفارة تجب الأشارة إلى أننا كنا نعتبر الجولات السياحية فى "القاهرة" وضواحيها أفضل راحة. فإن "مصر"، بالنسبة لكل إنسان محب للمعرفة، هى حقا أرض الميعاد. إذ لا يوجد فى العالم عدد كبير من البلدان التى تحتفظ حتى اليوم بما يمكن تسميته مجازا، وسائل ايضاح فى تاريخ الحضارة، أو بالأحرى الحضارات، على امتداد آلاف السنين: أربعة آلاف سنة قبل الميلاد وقرابة ألفى سنة بعد الميلاد، تلكم هى الحدود الزمنية لتاريخ مصر. وهذا البلد الذى سماه "هيرودوت" "هبة النيل" كان موطن حضارة راقية فى فترة ما قبل التاريخ التى كان الغرب إبانها منسيا مجهولا، وسكانه القلائل الذين يكسوا أجسادهم شعر كالصوف، لا يكادون يجرأون على مغادرة كهوفهم المعتمة. تعاقبت فى تاريخ مصر أزمان: الزمن القديم، ثم الهيلينى والرومانى والبيزنطى وعصر الخلافة العربية،

ثم المماليك والأمبراطورية التركية وأسرة محمد على، والإستعمار البريطانى.

وترك كل من هذه الحقب أثره فى وادى النيل، من آثار العمارة والفنون التشكيلية والأبجديات ومستلزمات الطقوس الدينية والأدوات المنزلية. وكان الكثير من هذه الآثار معروضا فى متاحف "القاهرة" و"الأسكندرية"، وفى شوارع المدن وميادينها، وبين انقاض مراكز الحضارة التاريخية.

لعل السياحة الأجنبية كانت قبل الحرب "الصناعة" التى تدر على مصر الربح الأكبر، وكانت عوائدها تتدفق أساسا على الشركات السياحية الأوربية. وشيدت فى القاهرة والأسكندرية والأقصر فنادق فخمة لخدمة السواح الأثرياء الذين كان أكثرهم يشعر بسأم المُتْرف الذى لا عمل له. وبعد الجولات السياحية كان المترفون يقضون أوقاتهم فى الكازينوهات والكباريهات الراقية، وفى أماكن الدعارة البعيدة عن الرصانه.

ورغم أن الحرب عطلت السياحة بعض الوقت، فإنّ أيا من المنشآت المخصصة لراحة الوافدين من أوربا وأمريكا لم يتوقف عن العمل. إذ اكتظت الفنادق بالضباط والموظفين الأنجليز والأمريكان والأستراليين واليونانيين والبولونيين. وبهؤلاء أيضا كانت تعج أوكار التسلية غير البريئة، حيث أنضم إليهم أعيان المجتمع المصرى المولعون بالترفية عن أنفسهم، والمضاربون بالعقار ورجال الأعمال الذين صارت الحرب بالنسبة لهم معين ثراء لا ينضب.

ولئن كانت "صناعة" السياحة لم تضمر كليا فى سنوات الحرب، فهذا

يفضل سواح طارئين من محبي الاستطلاع الذين اتفق لهم أن يكونوا في مصر لقضاء أعمال. وإلى هذه الفئة كنا ننتمي نحن، أفراد الجالية السوفيتية. ومن بعض النواحي كنا، نحن السواح "الهواة" في وضع أفضل من "المحترفين". فليس ثمة ما يحملنا على الركض من موقع تاريخي إلى آخر لكي تكون لدينا بعد أسبوع أو أسبوعين من اللهاث كتلة من الأنطباعات يصعب هضمها واستيعابها. وكانت "سياحة الويك أند" التي نقوم بها تجرى بهدوء وثمة فترات طويلة تتخلل الجولات. لذا كان لدينا متسع لكي نتلذذ متمهلين بما شاهدنا وسمعنا، ثم نشرع بجولات جديدة بعد أستعادة "شهيتنا".

سوف أذكر أهم المواقع التي زرناها: أعظم الأهرامات المصرية طرا، وهما هرما خوفو وخفرع، وأبو الهول المجاور لهما وهو يحتضن معبدا صغيرا بين قائمتيه، وأقدم الأهرامات، وهو هرم سقارة المدرج القريب من "ممفيس" عاصمة مصر القديمة، والكنوز الخيالية لمتحف الآثار المصرية وأضرحة أسرة المماليك وجامعة الأزهر وغيرها من آثار العمارة العربية، وسوق الموسكي الشرقي الصاخب وقلعة صلاح الدين على جبل المقطم والسد المقام عند موقع جميل يتفرع فيه النيل إلى فرعي رشيد ودمياط.

ويضاف إلى هذه القائمة التي لم ادرج فيها مواقع أخرى كثيرة، الجولة التي نظمها قسم الصحافة لدى وزارة الخارجية المصرية للدبلوماسيين الأجانب في ١١ نيسان (إبريل). ويبدو أن اعتقاد ساد في وزارة الخارجية مفاده أن اهتمام الدبلوماسيين المشروع بمصر القديمة لا يترك لديهم متسعا للتعرف على "القاهرة" العربية الإسلامية، لذا نظمت الوزارة جولة رائعة في الأحياء التي ما برحت محافظة على

طابعها القديم الذى اتخذته فى القرون الوسطى. تسلقنا جدران المدينة الشامخة التى شيدها الخلفاء الفاطميون، وارتقينا السلالم الدائرية لنصعد إلى أعالى أبراج باب الفتوح وباب النصر وشاهدنا مسجدى قلاوون وبرقوق، واختتمت الجولة باحتساء الشاى فى قصر السحيمى.

لقد كتب عن معالم مصر الشئ الكثير بحيث أن أى محاولة للتحدث عنها تغدوا تكرارا. لذا سأقتصر على الحديث عن واحدة من جولاتنا، وهى الآولى.

كانت تلك زيارة جماعية إلى أهرام الجيزة فى شهر كانون الأول (ديسمبر). وتجدر الأشارة إلى أن الأهرام ليست فى الجيزة، وهى الضاحية الغربية للقاهرة، بل قرب قرية "نزلة السمان" على بعد تسعة كيلو مترات من النيل. وقد وصلت مجموعتنا المؤلفة من موظفيالسفارة وأفراد عوائلهم إلى هناك فى ترام سار عبر منطقه شبه صحراوية. أما الطريق من محطة الترام الأخيرة إلى الأهرام فقد قطعه كل على طريقته: فثمة من سار راجلا على الأرض الحجرية الرملية، وثمة من اعتلى ظهور الحمير، وهناك من كان يتهادى على ظهر الجمال "سفن الصحراء". وقد اختار الأطفال الطريقة الأخيرة بالذات، وكانت الأمهات يتطلعن إليهم بإشفاق وحنو، خوفا من سقوطهم، ولكن كل شئ سار على ما يرام.

فى مسيرة مهيبة طفنا حول مقبرة خوفو، ثم قمنا بذات الطقوس حول هرم خفرع وأبى الهول. وعند العودة إلى هرم خوفو تحولنا من التأمل والتبجيل إلى عملية الصعود إلى القمة. واتضح أن تلك مهمة شاقة.

وقد حاول القيام بها كل الكبار تقريبا، ولكن الغالبية سرعان ما تخلت عن مواصلة الرحلة، في بدايتها أو منتصفها. ولم يبلغ القمة - وهي على ارتفاع عمارة من ٤٥ طابقا - سوى خمسة أشخاص.

لم يكن الصعود يشبه ارتقاء سلالم، بل يذكر بحركات متسلقي الجبال. فقد كانت كل "درجة" عبارة عن جلمود أصفر ارتفاعه متر أو يزيد، ويتطلب صعودها استخدام كل عضلات الجسم. في البداية وجدنا في الأمر تسلية ولكن فيما بعد. . . فيما بعد أخذ الارتفاع يؤثر فينا والتعب يهدنا. وفي العادة كان السواح "المحترفون" يصعدون بمساعدة اثنين أو حتى ثلاثة من الأدلاء العرب: اثنان يأخذان بيدي السائح من الأعلى والثالث يدفعه من الأسفل. وقد عرضت علينا خدمات مماثلة ولكننا رفضنا بإباء. ولما بلغنا القمة كان العرق يسيل منا مدرارا. وقمصاننا مبتلة كقطعة اسفنج. ومما زاد الطين بلة أن ريحا عاتية كانت تهب في الأعلى فصرنا عرضة للأصابة بنزلة برد حقيقية. ولكن من كان في تلك اللحظة، في نشوة الأنتصار، ليفكر بهذه التوافه؟

الفسحة على قمة الهرم أشبه بموقع رصد ممتاز. إلى الشرق ينداح سهل عريض تجري فيه الهوينا مياه النيل الذي تحف به خضرة الجيزة والجزيرة، وفيما وراء النهر القاهرة بمآذنها الألف، ومن خلفها جبل المقطم الذي تعقبه الصحراء. وإلى الشمال تشاهد من خلال سعف النخيل بيوت الدلتا الواطئة، وتتاخمها كثبان الصحراء الليبية التي يخترقها شريط معبد، هو الطريق الموصل بين القاهرة والأسكندرية. وإلى الغرب والجنوب لا يشاهد المرء سوى الصحراء المقفرة ذات الكثبان. وإلى الجنوب الشرقي فحسب يرى المشاهد قرب أهرام أبو صير وسقّارة قرى

تحيط بها قنوات النيل.

وكان كل سنتيمتر على جلاميد القمة يحمل أسماء السواح الذين أرادوا بهذه الطريقة السهلة أن يكون لهم صلة ب"مجد" خوفو التليد. ولا يصعب تصور خيبة الأمل التي يصاب بها من صعد فوجد أن هذا الطريق إلى المجد مغلوق أمامه. ولكن البعض كان يجد حلا: يأخذ سكينا أو أية أداة حادة أخرى ويمحو اسما ثم يحفر اسما جديدا، أجدر من سابقه بالخلود.

اختتمت جولتنا بجولة في "السراديب" الداخلية لمقبرة خوفو.

للأسف وجدنا قرب الأهرام رفقاء طريق مزعجين. وأعني مجموعة من جنود إحدى وحدات جيش الجنرال "أنديرس" البولوني المرابطه في ضواحي "القاهرة". وقد وصلوا إلى المنطقة في وقت واحد معنا، وكان بعضهم يسير باستمرار قرب مواطنينا. تصرف الجنود بوقاحة، كانوا بين الحين والحين يطلقون العنان للسانهم البذئ، مما عكر صفو جولة ممتعة ومفيدة عموما.

في الربيع قمت، وأسرتي، بجولة أخرى لا تنسى. ففي أيام العطلات التي كانت السفارة لا تنظم خلالها لسبب ما، جولات جماعية، اعتدت أن استقل وأسرتي السيارة للتجوال في ضواحي "القاهرة". وقد طفنا "مصر الجديدة" – هليوبوليس (مدينة الشمس) وهي من أجمل ضواحي العاصمة ويقطنها الأثرياء الذين تشمخ قصورهم وفيلاتهم ذات المعمار الشرقي أو الأوربي، في شوارع عريضة وظليلة. كما زرنا "حلوان" الشهيرة بمصادرها المعدنية، و"المعادي" وهما أيضا من الأحياء الفخمة، كما اطلعنا على الأحياء العمالية الفقيرة في شبرا والقاهرة القديمة.

ذات مرة، فى شهر آيار (مايو)، اعتزمت أن أطوف وأسرتى فى الأرياف لأشاهد، ولو من نافذة السيارة، حياة الفلاحين. غادرنا "القاهرة" فى الصباح الباكر مهتدين بالخارطة، وخرجنا من الجيزة إلى طريق ترابى محاذ لقناة الزُمر. سرنا ببطء، لكيلا نصطدم بالحمير والجمال المحملة، عبر شوارع بلدة بولاق الدكرور المتربة الوعرة ذات البيوت الفقيرة المشيدة من الطوب الطينى غير المحترق والمظللة بالنخيل، وترى فوقها أبراج الحمام البيضاء، ولعلها من أبرز معالم الريف. مررنا عبر حقول خضراء وبلغنا دربا يؤدى إلى الغرب، فقررنا أن نسلكه لنصل إلى طريق القاهرة - الأسكندرية ونتبعه فى إيابنا إلى المدينة. وعرفنا من الخارطة أننا على مبعدة عشرة كيلو مترات عن الطريق، وهى مسافة تقطعها السيارة بسرعة.

منطقة كفر حكيم مقفرة! لم نعد نشاهد قرى أو حقولا مستزرعة أو قنوات رى. ليس حولنا شئ سوى الرمال والحجارة. ومع كل كيلو متر تتزايد وعورة الطريق، ولم تعد السيارة تنطلق إلى الأمام بل تتمايل من جانب إلى جانب أو تختفى كقشة فى مهب الريح، على أكوام من الحجارة لا علم لأحد من أين جاءت.

وفجأة قامت أمامنا من وسط الصحراء بلدة كبيرة، تدل معالمها أنها مخيم عسكرى: تخشيبات قميئة وأحياء كاملة من الخيام، وعلى الأطراف صفوف طويلة من المستودعات وبالقرب منها أكشاك حراسة. ولكن لا أثر لبشر، لا أثر لأى حياة، لا شئ سوى صمت القبور. . . سرعان ما حدسنا أنه كانت هنا قبل سنة ونصف أو سنتين أحدى القواعد

الخلفية الضخمة للجيش البريطاني الذى كان يحارب فيلق الدبابات الألماني بقيادة "روملّ". والآن، بعد ابتعاد جبهات الحرب عن سواحل افريقيا، اخليت القاعدة لانتفاء الحاجة إليها. وها نحن ازاء مخيم - لا تسكنه سوى الأشباح.

توقفنا عند المدخل حائرين في امرنا، لا يمكن أن نبلغ الطريق إلا إذا مررنا عبر المخيم، ولكن هل من المناسب المرور بأراضيه؟ إنه، مهما كان الأمر، موقع عسكرى، والمواقع العسكرية يجب أن تحترم، خاصة في زمن الحرب. ولكن بما أنه لم يكن مَنْ وما يعيق المرور، فقد قررنا في النهاية تجاوز القاعدة ودخلنا المنطقة المحرمة.

ولكن الدروب داخل المخيم كثيرة، فأيها نسلك؟ لا وجود لأى أشارات أو معالم نهتدى بها. جربنا أن نحدد على وجه التقريب دربنا مهتدين بالشمس التى صارت في كبد السماء، وسرنا ببطء، وبعد عشر دقائق ألفينا أنفسنا عند طرف المخيم، حيث ينقطع الطريق المعبد لتبدأ صحراء فيها كثبان الرمال. عدنا أدراجنا واخترنا، كيفما أتفق، دربا آخر ولكن مساعينا فشلت هذه المرة أيضا. ليس هناك غير فرق واحد: وجدنا هذه المرة صخورا وأحجارا بدلا من الرمال.

في البدء وجدنا في الأمر نوعا من التسلية. كيف لا، ونحن إزاء متاهه فريدة تدور فيها قليلا! سيكون لدينا موضوع للتندر في البيت. ولكن ها أن محاولتين أو ثلاثا قام بها السائق قد باءت بالفشل. انحسرت مشاعر الأسترخاء والطمأنينة بسرعة لتقف عند الصفر تقريبا. درجة الحرارة في ارتفاع مستمر، وأشعة الشمس سخنت صفيح السيارة إلى حد لم يعد معه لمسها ممكنا. التنفس داخل السيارة صعب، وقد

أتينا على آخر قنينة من المرطبات. فقد الأطفال حيويتهم بعد أن أمضّ بهم القيظ والعطش. ساورني شعور بدنو الخطر: فقد سكبنا كل بقايا الماء الذي كان في صفيحة احتياطية في مبردة السيارة. سألت السائق عما إذا كان من الأجدى صرف النظر عن خطتنا والعودة إلى "القاهرة" بسلوك الطريق الذي جئنا به. أذهلني حينما أجاب بأن البنزين على وشك النفاد، علما بأننا لم نشاهد أي محطة تعبئة في طريقنا. ومن أين تأتي محطات التعبئة إذا كانت سيارتنا، على الأرجح، أول سيارة يشهدها هذا الطريق طوال قرون من وجوده؟

أصبح الوضع حرجا. إذا مكثنا في مكان ما في الصحراء فإن القيظ سوف يشوينا. وحتى إذا ما بلغنا القرى القريبة فلن نجد بنزينا. بلوغ الطريق الرئيسي هو السبيل الوحيد للخلاص من متاعب كبيرة. والمأساة أننا لم نجد سبيلا للخروج من المتاهة. واصلنا السير في دروب المخيم على غير هدى، وكلما بلغنا كشك حراسة انتعشت في نفوسنا الآمال، ولكنها كانت تنحسر حينما نجده خاليا من البشر.

اتضح في خاتمة المطاف أن المخيم - الشبح ليس مهجورا تماما. فقد وجدنا إنسانا حيا، واحدا في المخيم كله! لكم كانت فرحتنا كبيرة حينما لمحنا جنديا مصريا نائما في ظل مستودع، متكئا على بندقيته وشخيره يتعالى! ها هو المنقذ الذي سيدلنا على المخرج من المتاهة.

استجاب الجندي متبرما لندائي الذي قطع عليه نومته واسترخاءه، ودنا من السيارة، وفهم بصعوبة سؤالي الذي كررته بالأنجليزية ثلاث مرات، وأخذ يشرح كيفية الوصول إلى الطريق الرئيسي. كانت شروحه بالعربية وبكلمات متتابعة وبالتالي غير مفهومة البتة. بيد أن إشاراته

كانت أبلغ من كلماته. فهمنا الأتجاه العام ودققناه مهتدين بالشمس، وبعد زهاء ربع ساعة لمحنا في البعيد سيارات تمرق على الطريق. وهكذا وصلنا "بر الأمان".

صادفتنا أول محطة تعبئة قرب فندق "مينا هاوس" عند أهرام الجيزة. وحينما شرع السائق بتعبئة الخزان كان "احتياطي" البنزين يعد بالقطرات وليس بالألتار.

عند عودتنا إلى المنزل لم نتندر البتة على مغامراتنا المسلية في المخيم - الشبح. لم نحس بما يبعث على الضحك والتسلية.

في السادس من حزيران (يونيو) ١٩٤٤ بدأت جيوش الحلفاء أنزالها في "نورماندي". وفي مساء ذلك اليوم سجلت يومياتي: "وأخيرا افتتحت الجبهة الثانية التي طال انتظارها! مشاعر الريبة والتشاؤم والقنوط التي لم تكن أمرا نادرا بين الحلفاء، تراجعت ليحل محلها التفاؤل المبرر الذي يتعذر بدونه أحراز النصر النهائي. لم يتبق الآن سوى أن يقلع متشائمو الأمس الذين سوفوا طويلا في فتح الجبهة الثانية ، عن افتعال العراقيل وإعاقة تطور الأحداث. لديّ ثقة عميقة بأن كل "السواتر الأطلسية" ستغدو عقبات تافهة إذا ما أستخدمت القوات والمعدات التي حشدها الحلفاء استخداما حاذقا وفعالا . . ."

وفي اليوم ذاته دونت في يومياتي الكلمات التالية عن الجبهة السوفيتية الألمانية:

"اعتقد أن فترة الهدوء لن تطول كثيرا على جبهتنا أيضا. ولسوف يقرأ العالم مرارا وبإعجاب البلاغات العسكرية من جبهتنا. وبوصفي

مبعوثا للأتحاد السوفيتي يقيض لي الأستماع إلى كلمات إطراء واعجاب مفرط بانتصاراتنا إلى حد، بحيث أنني اعتبرها أحيانا، عن دون وعي، مجرد مجاملات مبتذلة. ولكن هذا، بالطبع، ليس صحيحا، أو على الأقل ليس صحيحا في أكثر الأحوال".

تأكدت توقعاتي حول قرب أنتهاء فترة الصمت على جبهتنا. ففي العاشر من تموز (يوليو) دونت في يومياتي ما يلي:

"منذ أكثر من شهر لم أسجل شيئا في دفتر اليوميات. ولو أردت الأقتصار على تعداد الأحداث الهامة التي جرت خلال هذه الفترة لما كفت صفحات الدفتر.

وفيما يخص الأحداث الحربية، فإن الأساسية منها تجري ليس في الغرب، حيث استولى الحلفاء يوم أمس على مدينة "كان" وهي أول مدينة لها شئ من الأهمية بعد "شربورغ". ما يجري عندنا أهم بكثير. فخلال هذه الفترة طُهر بالكامل شبه جزيرة "كاريليا"، وتكلل ذلك بالأستيلاء على "فيبورغ"، وحررت بالكامل تقريبا الجمهورية الكاريلية الفنلندية وعاصمتها "بتروزافودسك"، بالإضافة إلى جزء كبير من "بيلوروسيا" بما في ذلك العاصمة "مينسك"، وبدأ تحرير "ليتوانيا"، علما بأن المعارك جارية منذ يومين في شوارع عاصمتها "فيلنوس"، وتم عبور حدود "لاتفيا" باتجاه "داوغافبيلس"، وصار الجيش الأحمر قرب الحدود البولونية السوفيتية، وأهم من ذلك، قرب بروسيا الشرقية التي أصبح يهددها من عدة محاور مرة واحدة. قد تقع الجيوش الألمانية في منطقة البلطيق في طوق حديدي تحكم أطباقه القوات السوفيتية. الهدوء مازال قائما على الجبهة بين "كوفيل" والبحر الأسود. وحينما سيبدأ

الهجوم على هذه المناطق من الجبهة، سوف يطرأ تحسن أكبر على وجهة الحرب".

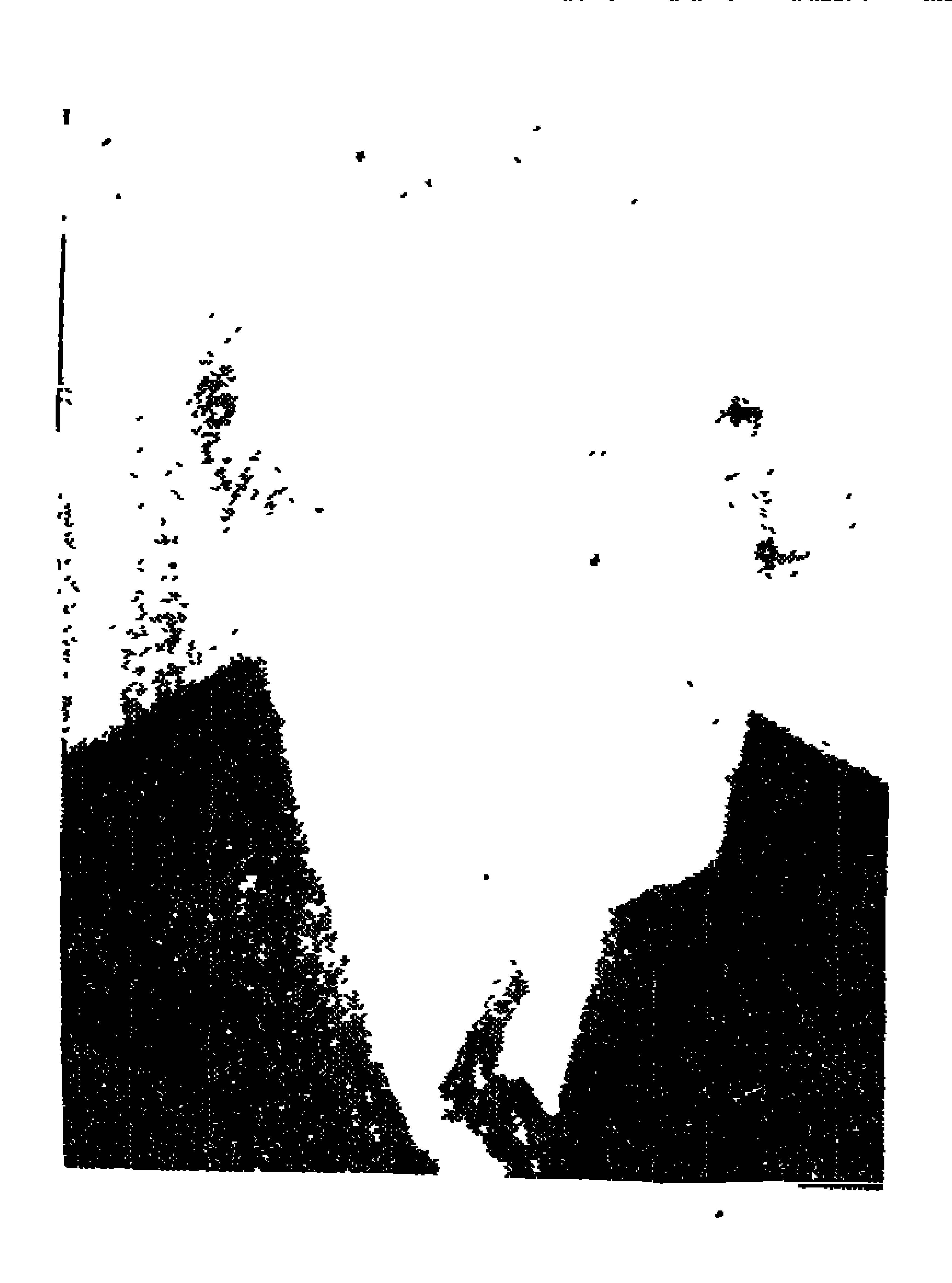
لا أستبعد أن تتضمن هذه الصورة العامة للموقف الحربى نوعا من عدم الدقة فى بعض الأماكن. فهى لا تعدو أن تكوَن ملاحظات فى يوميات رجل مدنى كل اهتمامه بالأحداث الحربية نابع من مشاعره كوطنى سوفيتى. وقد دونت اليوميات على عجل، بل يمكن القول أننى سجلتها على حقائب السفر، فبعد ساعة كان علىّ أن استقل القطار الليلى فى سفرة طويلة إلى سورية.

ها قد حان الوقت لسفارتنا كى تنتقل إلى الهجوم الدبلوماسى اللاحق، على جبهات جديدة لم تختبر بعد.



الفصـــل العاشـــر

فى سوريـــة متخفيـــا



ثمة أسطورة صغيرة تحف بالمهمة الدبلوماسية التى قمت بها فى "سورية" و"لبنان". وقد لفقت تلك الأسطورة فى بيروت ونشرتها صحف "القاهرة". وسأعرضها من خلال ما نشرته صحيفة "البورص إيجيبسيان" المسائية بتاريخ ٢٦ نيسان (إبريل) ١٩٤٤.

"جاء فى برقية وصلت من "بيروت" صباح اليوم أن الجمهورية الأرمنية الداخلة فى عداد "اتحاد الجمهوريات السوفيتية الأشتراكية"، قررت إقامة علاقات دبلوماسية مع "سورية" و"لبنان". ومن المعروف أن الأتحاد السوفيتى قرر مؤخرا أن كل جمهورية سوفيتية اشتراكية تتمتع، من الآن فصاعدا، بحكم ذاتى وصلاحيات سياسية خارجية وبحق التمثيل المباشر فى الخارج..... وفى هذا الصدد ذكر أن السيد نوفيكوف، الوزير المفوض السوفيتى فى مصر، سيتوجه عما قريب إلى "سورية" و"لبنان" لدراسة مسألة التمثيل الدبلوماسى".

لا يطابق الحقيقة فى هذه البرقية الواردة من "بيروت" سوى الإشارة إلى القانون الذى أقرته الدورة العاشرة للسوفييت الأعلى فى "الأتحاد

السوفيتى" بتاريخ ١ شباط (فبراير)، وهو القانون المتعلق بمنح الجمهوريات المتحدة صلاحيات فى مجال العلاقات الخارجية. فقد أدخلت على المادة ١٨ من الدستور السوفيتى الإضافة التالية: "يحق لكل جمهورية متحدة أن تقيم علاقات مباشرة مع الدول الأجنبية، وتعقد معها المعاهدات وتتبادل وإياها الممثلين الدبلوماسيين والقنصليين".

صحيح أن القانون أقر، بيد أن أى حديث لم يجر آنذاك حول إقامة علاقات دبلوماسية مع "سورية" و"لبنان" لا على نطاق "إرمينيا"، ولا على صعيد "الأتحاد السوفيتى" عموما.

ولعل تفسير مهمتى بالشكل المذكور جاء من أوساط المهاجرين الأرمن فى "سورية" و"لبنان"، والذين بلغ عددهم زهاء مائتى ألف، ويبدو أن ميولهم السياسية وعواطفهم التى سبق لى التنويه بها، اتخذت أساسا للتخمينات المذكورة.

كانت حقيقة الأمر كما يلى: فى يوم قائظ، فى ١٥ حزيران (يونيو)، وحينما كانت أفكار كل سكان القاهرة الذين سامهم الحر مشدودة إلى بلاجات "الأسكندرية" البديعة، أو على الأقل بترطيب البدن بحمام بارد، وصل إلى السفارة وافد من "سورية" أنيق المظهر. حينما استقبله المستشار "سولود" قال أنه "نعيم أنطاكى"، النائب فى البرلمان السورى عن "دمشق"، ووزير خارجية "سورية" سابقا. وذكر "انطاكى" أنه وصل "القاهرة" فى مهمة سرية كلفته بها الحكومة السورية ولا يسعه الحديث فى هذا الموضوع إلا مع السفير.

استقبلت "نعيم انطاكى"، فسلمنى رسالة توصية من وزير الخارجية السورى "جميل مردم" بك، يبلغنى فيها أن صديقه "نعيم انطاكى"

موضع ثقة تامة من لدن الحكومة، ومخول بتقديم عرض سرى هام باسمها.

وقد اتضح أن العرض، الذى قدمه "انطاكى" شفويا، هام فعلا. فقد أعربت الحكومة السورية عن نيتها إقامة علاقات دبلوماسية مع "الأتحاد السوفيتى"، ورغبتها فى إجراء مفاوضات تمهيدية لهذا الغرض.

وارتأت الحكومة السورية أن المكان الملائم للمفاوضات هو "دمشق"، حيث سيستقبل المبعوث السوفيتى المخوّل بالحفاوة والتكريم وتكفل له الحصانة الدبلوماسية. وإذا أعربت الحكومة السورية عن أملها فى موافقة الحكومة السوفيتية على إجراء المفاوضات، فإنها فى الوقت ذاته رجت إبقاء المبادرة طى الكتمان. وقدم انطاكى رجاء بعدم الأعلان عن رحلة المبعوث السوفيتى إلى "دمشق" لحين إنجاز المفاوضات، بطبيعة الحال. وأراد "نعيم انطاكى" انتظار رد "موسكو" فى القاهرة، حيث كان يقوم باستمرار بعمليات تجارية، وبالتالى فإن وجوده فيها لن يكون، على حد قوله، مبعث شكوك وأقاويل.

ولكن الأمور لم تسر على هذا النحو. فإن سفر "نعيم انطاكى" إلى "القاهرة" ولقاءاته، قبيل ذلك، بوزير الخارجية ورئيس الجمهورية السورية، لم تبق بمنأى عن أنظار الصحفيين. وأخذت الصحف تضرب أخماسا بأسداس حول أهداف الرحلة. وطرحت تخمينات لجوجة تقول أن الغرض من السفرة هو إجراء مفاوضات مع السفارة السوفيتية فى "القاهرة". بيد أن وزارة الخارجية السورية نفت هذه الإشاعات نفيا باتا، وأعلنت أن "انطاكى" سافر لشؤون شخصية. وحينذاك فقط خمدت الضجة الأعلامية.

لم استغرب كثيرا للتحوطات التى اتخذها "جميل مردم بك".

فقبل الحرب كانت "سورية" و"لبنان" تحت الأنتداب الفرنسى، وما الأنتداب إلا غطاء مهلهل للاستعمار. ومن الناحية الشكلية كانت فى كل منهما إدارة وطنية وبرلمان وحكومة، ولكن كل السلطة الفعلية فى يد المندوب السامى الفرنسى. وبعد هزيمة "فرنسا" عام ١٩٤٤ ظلت "سورية" و"لبنان"، لبعض الوقت، تحت سلطة حكومة "فيشى" العميلة. هذا من الناحية الرسمية، ولكن من الناحية العملية كانت الكلمة الفصل هناك للجنة الرقابة الالمانية الايطالية.

واضطرت "لندن" إلى القيام بخطوات حاسمة بعد استيلاء الفاشست على "اليونان" و"كريت" وجزر بحر إيجه المتاخمة "لسورية" و"لبنان". وفى حزيران (يونيو) ١٩٤١ الحقت القوات البريطانية، تساندها وحدات "فرنسا المقاتلة"، الهزيمة بالقوات المسلحة الفاشية واحتلت "سوريا" و"لبنان". وبدأت مرحلة "وسيطة" لم يعد فى ظلها للأنتداب الفرنسى مفعول عملى، وبانت أمام شعبى "سورية" و"لبنان" آفاق الاستقلال.

ولكنها ظلت مجرد آفاق إلى حين. إذ أن وضع حكومتى البلدين كان هشا للغاية. وحتى بعد اعلان "سورية" و"لبنان" جمهوريتين تتمتعان بالسيادة فى خريف ١٩٤١، ظل زمام الحكم الفعلى بالبلدين فى يد قائد قوات الاحتلال البريطانية الذى حاول مندوب الجنرال "ديغول" أن ينازعه على السلطة. وقد عسكرت فى مدن "سورية" ولبنانية وحدات جيش "فيغان" السابق التى عُمدت على وجه السرعة باسم "فرنسا المقاتلة" وظلت خطرا يهدد استقلال البلدين.

كنت ادرك كل تعقيد الوضع فى سورية. فإن قادة "حزب الكتلة الوطنية" الحاكم قد وهبوا جل حياتهم لمقارعة الاضطهاد الأجنبى، التركى أولا ثم الفرنسى. وقد خبروا سجون المستعمرين والمنفى وحتى واجهوا خطر الاغتيال. كانوا يسعون إلى تحرير بلادهم، ولكم دون تغيير نظامها الاجتماعى الاقتصادى. وبوصفهم ممثلين لكبار ملاك الأراضى شبه الاقطاعيين والبرجوازية الوطنية الكبيرة، كانوا يعتبرون صيانة امتيازات هاتين الطبيقتين إحدى مهماتهم. غير أن نضال الشعب السورى التحررى بقيادة "حزب الكتلة الوطنية" المحافظ كان يقوض أسس النظام الاستعمارى الامبريالى، وبالتالى يساعد موضوعيا العملية الثورية العالمية.

وفى تلك الظروف كان من شأن اعتراف "الاتحاد السوفيتى" بسورية دولة ذات سيادة، أن يغدو دعما جديا لشعبها فى نضاله من أجل الاستقلال الحقيقى. ولكن لو جرى الاعلان عن إجراء المفاوضات حول الاعتراف قبل الوقت المناسب، لأتاح لاعداء الدولة الفتية امكانية العلم للحيلولة دون إنجازها بنجاح. ومن هنا كان اصرار الحكومة السورية على السرية. ولكن مثل هذا الخبر كان يمكن اخفاؤه لفترة قصيرة فقط، وعن بعض الناس والجهات. فمن الطبيعى أنه كان "سرا مهتوكا" بالنسبة للسلطات البريطانية، مثلا، التى كان عملاؤها يغرقون عواصم بلدان الشرق الأوسط. ولكن كان يمكن أن تفلح لبعض الوقت محاولة إخفاء الخبر عن جهاز المعلومات الديغولى فى الشرق الأوسط الذى كان فى مستوى أدنى من قرينه البريطانى. ولعل الحكومة السورية كانت تخشى السلطات الفرنسية بالذات قبل غيرها. وحينما استفسرت من

"نعيم انطاكى" عن ذلك أكد أن دسائس الفرنسيين هى أكثر ما يثير قلق "سورية"، وأضاف وهو يبتسم:

– ولكننى اعتقد أن لدى صديقى "مردم بك" سببا آخر يدفعه إلى التكتم. وسأكون صريحا معك: ليست لدينا أية ضمانات بأن الحكومة السوفيتية سوف تستجيب لمبادرتنا، رغم أننى شخصيا متفائل تماما. وإذا ما حدث تلكؤ وذاع الخبر، فإن ذلك سيقوض سمعة الحكومة. وبديهى أن رئيس الوزراء لا يريد للأحداث أن تتطور بهذا الشكل.

قلت إننى لا أرى مبررا للتخوف، رغم أن هذا هو مجرد رأى شخصى. ففى اعتقادى أن المبادرة الودية من لدن الحكومة السورية سوف تجد صدى ايجابيا تماما لدى الحكومة السوفيتية. ووعدت "نعيم انطاكى" بالاتصال بموسكو، ومن ثم اعلامه بالجواب.

فى ذات اليوم أبلغت مفوضية الشؤون الخارجية بالعرض السورى، وحبذت القبول به. وصل الجواب بعد يومين، خُوِّلتُ بابلاغ انطاكى أن الحكومة السوفيتية مستعدة مبدئيا لإقامة علاقات دبلوماسية مع "سورية"، وتوافق على اتخاذ "دمشق" مكانا للمفاوضات وتكلفنى باجرائها.

دعوت "انطاكى" إلى السفارة وابلغته برد "موسكو"، ففرح له وقال أنه سيغادر توا إلى "دمشق" للاتفاق مع "مردم بك "على موعد رحلتى وسائر تفاصيلها. وفى السابع من تموز (يوليو) عاد إلى القاهرة لينبئنى أنهم ينتظروننى فى "دمشق" فى الأيام القريبة القادمة إذا كان ذلك يلائمنى. اتفقنا على أن أتوجه إلى هناك يوم الأثنين المصادف ١٠ تموز.

امضيت مساء السبت ونهار الأحد مع أفراد أسرتى فى بيت السفارة بالاسكندرية. وفى صباح الأثنين عدت إلى "القاهرة" وأمضيت النهار فى أشغال السفارة الجارية، وأعطيت توجيهات إلى المستشار "سولود" الذى كلفته أن يصبح القائم بالأعمال فى فترة غيابى، وفى المساء ركبت القطار المتجه إلى "حيفا". وكان من المقرر أن يكون "انطاكى" بانتظارى فى "حيفا" لينقلنى إلى "دمشق" بالسيارة. وقد رافقنى السكرتير الأول للسفارة "بافل دنيبروف" والملحق "غيورغى ماتفييف".

اتخذت "إجراءات الكتمان" على النحو التالى: اوصيت موظفى السفارة أن يبلغوا كل من يستفسر عن السفير بأنه مسافر دون الخوض فى تفاصيل حول وجهة سفره.

هذا بالنسبة لأفراد السلك الدبلوماسى والصحفيين والمعارف القاهريين. أما بالنسبة للخارجية المصرية فقد اتصلت بوكيلها "صلاح الدين بك" تليفونيا وابلغته أننى مسافر إلى "سورية" لبضعة أيام، دون أن أوضح، طبعا، غرض السفرة. إذ أن المبعوث الدبلوماسى لا يمكن أن يغادر بلد إقامته سرا وكأنه مهرب. كما عرفت السفارة البريطانية بنبأ رحلتى، إذ من خلالها حصلت على سماح من السلطات العسكرية البريطانية بالمرور عبر "فلسطين". وهكذا فإن "السر" الوحيد بالنسبة لهاتين الجهتين كان غرض رحلتى. ولكن من المثير أن أى من هاتين الجهتين المطلعتين لم تسرب إلى الصحافة، المتعطشة لمثل هذه الأنباء، أى خبر عن رحلتى. ونتيجة لذلك فإن البلاغ الرسمى الذى نشر فيما بعد حول مفاوضات "دمشق" وقع على الصحافة وقع الصاعقة.

عبر القطار قناة السويس وشبه جزيرة سيناء وأراضى "فلسطين" حتى

"طولكرم" ليلا، حينما كان ركابه مستغرقين في نوم قلق في العربات المغبرة ذات الجو الخانق. وفي الصباح أخذنا نمتع انظارنا بالحقول الخضراء المنبسطة.

بعد "طولكرم" تنعطف سكة الحديد انعطافا حادا باتجاه البحر الأبيض المتوسط، وعند بلوغه تسير بمحاذاة الساحل. وقرب "حيفا" لف القطار حول جبل الكرمل الشامخ بإباء وحيدا وسط البحر، ثم انداحت أمامنا فجأة بانوراما المدينة والميناء. شاهدنا هناك عددا كبيرا من السفن الحربية، الكبيرة منها والصغيرة، والتي ذكرتنا بأن "حيفا" هي إحدى قواعد الأسطول البريطاني في شرق البحر الأبيض المتوسط. وقبل الحرب كان للميناء دور هام في التجارة الخارجية لفلسطين، أما الآن فإن التجارة في كساد. وكان ذلك يغدو واضحا لمجرد إلقاء نظرة عابرة على أرصفة الميناء حيث السفن التجارية تعد بالأصابع، علما بأن من المحتمل أنها الأخرى كانت تستخدم لنقل معدات حربية.

ما أن توقف القطار عند رصيف المحطة في "حيفا" حتى دخل مقصورتنا "نعيم انطاكي" وعلى شفتيه ابتسامة ترحيب. نقلت امتعتنا إلى ساحة المحطة ووضعت في سيارة ضخمة ولكنها "معمرة". استبدت بي رغبة شديدة للتجوال في "حيفا". ولكن الأشغال كانت تستحثنا للسفر إلى "دمشق". ومع ذلك فقد القينا نظرة سريعة على المدينة: في الطريق إلى المطعم الذي افطرنا فيه، ثم عند الخروج إلى الطريق الرئيسي المؤدي إلى الحدود السورية.

بعد أن سرنا بضع دقائق على هذا الطريق شاهدنا خزانات نفط ضخمة ومباني كونكريتية صناعية تجاور صهاريج تكرير النفط. شرح

لنا انطاكى أن هذه هى نقطة خط أنابيب النفط كركوك - حيفا، البالغ طوله ١٨٧٥ كيلو مترا والذى يمر عبر الصحارى. بعد ذلك سرنا حوالى تسعين كيلومترا فى مواقع شبه صحراوية احرقتها الشمس، مصعدين تدريجيا فى تلال صارت قرب "صفد" فى ارتفاع الجبال (زهاء ١٢٠٠ متر). ومن صفد بدأنا الانحدار وسرعان ما وصلنا وادى الأردن الذى يقل ارتفاعه عن مستوى سطح البحر. وها هنا تمر الحدود الفلسطينية السورية.

فى نقطة الحدود تولى دليلنا الرفيع المقام كل الإجراءات الشكلية، وأنجزها قبل أن يتسنى لى ولزملائى أن نريح أرجلنا بعد خروجنا من السيارة. مازال أمامنا تسعون كيلو مترا حتى نصل "دمشق".

بعد وادى الأردن عادت السيارة إلى الصعود فى الجبال حتى بلغت "مرتفعات الجولان"، وبعد ذلك سرنا فى طريق صحراوى. إلى اليسار كانت تمتد حتى دمشق تقريبا السلسة الشرقية ويشمخ بينها "جبل الشيخ" المغطى بالثلج والبالغ ارتفاعه ٢٨٠٠ متر. وكانت سفوحه الجرداء تترك انطباعا بالوحشة، فالعين تمل هذه المنحدرات والمرتفعات. وإلى اليمين سهل رملى عليه أحجار وتظهر أشواك هنا وهناك.

المنظر يبعث على الكآبة يزيد من حدتها التعب من طول المسير تحت أشعة الشمس اللاهبة. من يريد التخفى يتحمل المشقات. فلو ركبنا الطائرة لقطعنا المسافة بين القاهرة ودمشق فى غضون ساعة ونصف، ولكن فى تلك الحالة كان الصحفيون المناوبون فى المطارين سوف يلمحوننا. أما الطريق شبه الصحراوى الذى لا يسلكه الأعيان. فلم يكن فيه أحد بانتظارنا طبعا.

حوالى الساعة الخامسة مساء دنت السيارة من الفندق "الاموى" فى دمشق،، وهو فندق عصرى مريح. ودعنا "انطاكى" بعد أن عهد بنا إلى موظف فى قسم التشريفات بوزارة الخارجية السورية، وهو شاب اسمه "حسين مراش". اقتادنا "حسين"، دون المرور بالاستعلامات، إلى الغرف المحجوزة لنا، واعتذر بخجل لعدم استقبالنا وفق المراسيم المتبعة عند وصول مبعوثى دولة أجنبية. الالتزام بالتكتم شديد. شغلنا اثنين من الأجنحة الثلاثة المخصصة لنا. وقد نزل فى أحدهما "دنيبروف" و"ماتفييف"، وذلك لتأمين قدر أكبر من السلامة ل"قسم الشفرة"، وشغلت أنا الجناح الآخر المكون من غرفتين. تمنى لنا "حسين مراش" طيب الإقامة وقال أننى سألتقى صباح غد بجميل مردم بك، وودعنا. بعد مغادرته غسلنا عن أجسادنا طبقة الغبار التى خلفها الطريق، واستبدلنا ملابسنا ثم تناولنا، نحن الثلاثة، طعام الغداء فى جناحى.

فى المساء استبدت بنا رغبة طبيعية للتنزه فى المدينة، ولكننا احجمنا عن ذلك نزولا عند رجاء "مراش" حول التكتم والتخفى. اكتفينا بالتطلع إلى مركز المدينة، ذى الأضواء الخابية، من شرفة جناحى.

صباح اليوم التالى تصفحت الجرائد الصادرة بالفرنسية فى "دمشق" و"بيروت" ولم أجد فيها سطرا واحدا عن وصولنا، لا فى الأخبار السياسية ولا فى ركن الاجتماعيات، وهذا دليل على أن حرص الحكومة على التخفى كان موفقا.

لم يتم لقائى بجميل مردم بك فى مبنى وزارة الخارجية كما توقعت، بل فى فيلا فخمة ذات عمارة أوربية. ولم أعرف ما إذا كانت الفيلا

مسكونة أم أنها مخصصة لأغراض أخرى. كاللقاءات البروتوكولية مثلا. وعلى أية حال لم أشاهد هناك سوى حاجب فتح بوابة المدخل الضخمة عندما وصلت و"حسين مراش". وفى الداخل وجدت "جميل مردم بك" ينتظرنى فى صالة الاستقبال.

كان وزير الخارجية السورى، وهو أحد قادة حزب الكتلة الوطنية، فى الخمسين من عمره، ولكنه بدا شابا. تبادلنا التحيات والمجاملات حيث سألنى مردم بك عن الرحلة وعما كانت اقامتنا طيبة فى الفندق، وبعد يلك تركنا حسين مراش وحيدين، فبدأ الحديث العملى.

بناء على طلب الوزير عرضت موقف الحكومة السوفيتية الإيجابى حيال إقامة العلاقات الدبلوماسية بين "الاتحاد السوفيتى" و"سورية". وأكدت بشكل خاص على النية فى إقامة العلاقات على أساس القانون الدولى المتعارف عليه، مع الاعتراف بالتكافؤ التام للطرفين. وكانت الغاية من هذا التصريح الذى قد يبدو نافلا وبديهيا، هى إزالة الشكوك المحتملة لدى "مردم بك". فلم أكن استبعد أنه وزملاؤه، بعد أن خبروا مرارا عبر تجربتهم الشخصية كل غدر سياسة الدول "العظمى" الامبريالية، يشعرون بنوع من عدم الثقة بالشريك الدولى الجديد على "سورية"، أى "الاتحاد السوفيتى"، الذى كانت الأوساط المعادية لنا غالبا ما تفترئ على سياسته.

بعد أن قدمت مطالعتى قال الوزير أن موافقة الحكومة السوفيتية هى عامل بالغ الأهمية لوجود "سورية" المستقل، وإن الاشعار الأولى الذى رفعه "نعيم انطاكى" آثار قدرا كبيرا من الحماس لدى قادة البلد.

ولم يبق الآن إلا تثبيت الشكل الرسمى للعلاقات بين بلدينا. وقال

الوزير:

- هذه رسالة منى إلى السيد "مولوتوف". أرجو أن تطلع عليها وتبدى رأيك فيها.

قرأت باهتمام هذه الوثيقة المحررة باللغة الفرنسية. وإليكم بعض ما جاء فيها:

"انطلاقا من اعجابها بالشعب السوفيتى الذى صارت جهوده ونجاحاته فى كفاح الديمقراطية العظيم ضد روح الغزو والتسلط، أساسا لآمال مشروعة فى مستقبل يكفل الحرية والمساواة لجميع الأمم، الكبيرة والصغيرة، وبتحفيز من السياسة الخارجية لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية الذى نادى منذ لحظة قيامه بالغاء جميع الأفضليات والاستسلامات والإمتيازات التى كانت تتمتع بها "روسيا القيصرية"، والتى أقرت الحكومة السوفيتية بأنها تتنافى مع المساواة بين الأمم، انطلاقا من ذلك فإن "سورية" التى شهدت لتوها، بعد جهود كثيرة وتضحيات جسيمة، الاعتراف على رؤوس الاشهاد بوجودها العالمى كدولة مستقلة ذات سيادة. . . ليسرها أن تقيم، بصفتها هذه، علاقات دبلوماسية ودية مع "اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية. . .". وطلب "مردم بك" فى ختام رسالته موافقة الحكومة السوفيتية على تبادل المثلين الدبلوماسيين بدرجة مبعوث.

قرأت الرسالة وقلت إنها تتجاوب تماما مع الهدف الأساسى للمفاوضات، وقد أعجبت جدا بروح الود الذى تنضح به الرسالة من أول سطر إلى أخر سطر فيها. واعربت عن قناعتى بأن الحكومة السوفيتية سوف تدرس الرسالة بأقصى قدر من المودة ولن تسوف فى اعطاء رد

ايجابى.

واصلنا حديثنا، وتطرقنا إلى عدد من الجوانب الحيوية لتلك المرحلة، والتى كان من أهمها الوضع على جبهات القتال فى أوربا، والوضع فى الشرق الأوسط. وفى الختام قال الوزير:

– أنا افهم، ياسيادة السفير، إن انتظار الرد من "موسكو" قد يتطلب بعض الوقت. وقد يستغرق بضعة أيام. لذا، – وهنا ابتسم، – ادعوك ورفيقك، بوصفكم ضيوفا على الحكومة، إلى الإنتقال من "دمشق" الخانقة إلى "بلودان". إنه مصيف جبلى لا يبعد عن العاصمة سوى ستين كيلو مترا. سوف تتهيأ لكم هناك كل أسباب الراحة، وستكون فى هواء الجبال منفعة لكم. ثم انكم هناك، – وغمز بعينه بخبث، – سوف تكونون بمنأى عن صحافتنا التى تدس أنفها فى كل مكان.

لم تكن بى رغبة شديدة لمغادرة "دمشق" دون أن أمتع نظرى بمعالمها. ولكن ضيافة "مزدم" بك الذكية كانت متماشية تماما مع اتفاق التكتم، لذا لم يبق مجال للاعتراض. ولم يسعنى إلا أن أعرب عن الشكر للرعاية والموافقة على الانتقال إلى "بلودان" فى النصف الثانى من النهار، وبعد أن تخف وطأة الحر.

رافقنى إلى الفندق "حسين مراش"، الذى كان طوال فترة مكوثى فى "سورية" يلازمنى كظلى. وعندما ابلغت رفيقىّ بنبأ الانتقال إلى المصيف الجبلى لم يخفيا بهجتهما. فحرّ تموز (يوليو) فى "دمشق" لم يكن أخف من حر "القاهرة"، لذا فإن تمضية بضعة أيام فى الجبال كانت بالنسبة لهما أمرا مغريا إلى حد كبير. وبالنسبة لى أيضا، إذ أقنعت نفسى

بهذه الفكرة.

في جناحي أعدت قراءة الرسالة بانتباه. وكانت من حيث نصها وروحها متجاوبة حقا مع غرض المفاوضات، كما قلت لمردم بك. ولكن الأكثر من ذلك - وهذه سمة طاغية على الرسالة - أن الحكومة السورية بتذكيرها فى بعض المقاطع بالعلاقات المتكافئة وتنازل الاتحاد السوفيتى عن امتيازات "روسيا" القيصرية وما شابه، إنما كانت كمن يدعو الحكومة السوفيتية إلى أن تنادى فى جوابها رسميا، مرة أخرى، بالمبادئ المعروفة للسياسة الخارجية السوفيتية. ومن البديهى أن ذلك كان من باب التحوط، ولا ضرورة له فى اعتقادى. ولكن "موسكو" هى المسؤولة عن البت فى مضمون ردنا. ترجمت الرسالة إلى الروسية وكتبت مطالعة حول حديثى مع مردم بك وسلمتهما لغرض إرسالهما إلى مفوضية الشؤون الخارجية.

قبيل حلول المساء انطلقنا فى سفرة جديدة، ولكنها قصيرة هذه المرة. كان دربنا إلى بلودان يمر أولا على طريق "دمشق" - بيروت المحاذى لنهر بردى الدافق، المصدر الرئيسى للمياه التى تروى منطقة "دمشق". وكان طريق السيارات منصاعا للنهر، يلف معه ويستدير فى الوادى بين جبل الشيخ والسلسلة الشرقية. وبعد ١٥ كيلو مترا حدنا عن طريق السيارات الرئيسى وبدأنا نصعد على السفح الجنوبى للجبل الشرقى. ولم يكن هذا الدرب ممتازا ولكنه مقبول. أخذ "حسين مراش" يحدثنا عن القرى والمصايف التى نمر بها وعما تشتهر به. فبالقرب من قرية "عين فيجه" أشار إلى بقايا معبد رومانى، وفى "وادى الزبدانى" المزهر

بيساتينه وكرومه الكثيرة قص لنا حكاية مفادها أن هذه هى جنة الله فى الأرض، ومنها طرد آدم، حواء بسبب التفاحة المنحوسة إياها. وختم حكايته ساخرا:

- لا أريد أن أجادل فى صحة الرواية. ولكن للاسطورة أساسا. فتفاح هذه المنطقة مشهور فى سورية كلها. وثمة مثل عندنا يقول أن من يمر بالزبدانى تضوع منه رائحة التفاح المحلية.

فى أعالى الوادى مررنا عبر "مدينة الزبدانى"، وبعد عشر دقائق توقفت السيارة عند مدخل "الفندق الكبير" وهو فندق فخم فى "بلودان" التى تعد أفضل مصيف فى ضواحى العاصمة السورية.

بدا الفندق ذو الـ ١٥٠ غرفة موحشا تقريبا. فهو فى الخريف والربيع يغص بملاك الأراضى والتجار السوريين. ولكنهم فى فصل الصيف يؤثرون بلاجات "بيروت". ولم يكن فى الفندق سوانا، إلا بضع عشرات من الأشخاص، ويبدو أنهم من المرضى. ظلت مجموعتنا منعزلة عنهم، ولم يبادر أى منا إلى التعارف بأحد، أما إذا أراد أحد من النزلاء أن يبادر إلى التعرف، فإن "حسين مراش" كان له بالمرصاد. وفى حالة واحدة شذ "مراش" عن القاعدة، فعرّفنا بالنائب "أحمد شرباتى" وعقيلته اللذين لم يكونا من نزلاء الفندق، بل مقيمين فى ضيعتهما القريبة. وقد دفعنى هذا الاستثناء إلى افتراض أن شرباتى "ملحق" بجماعتنا، شأن "حسين مراش"، من قبل "مردم بك" الذى يحتاط لكل شئ.

فى الأيام الأولى اعتبرنا اقامتنا فى بلودان أجازة قصيرة اهدتنا إياها الأقدار لكى نستريح من عناء سبعة أشهر من العمل فى "القاهرة". وقد لازم "ماتفييف" غرفته طوال الوقت تقريبا، أما أنا

ودنيبروف فقد دأبنا على القيام بجولات فى الضواحى بالسيارة، رافقنا فيها "حسين مراش" باستمرار، وكنا خلالها نطلع على آثار أغريقية ورومانية، أو نرقب حياة الريف السورى المعاصر. وبعد الاطلاع على الضواحى - علما بأننا لم نقدم على سفرات بعيدة لانتظارنا أنباء من دمشق - أخذت اتردد على ملعب التنس فى الفندق. ولم يكن لدىّ فى "القاهرة" متسع من الوقت للتنس، رغم أن نوافذ السفارة كانت تطل على ملاعب نادى "سبورتنغ" الانجليزى فى الجزيرة الذى انتمى إلى عضويته. وها أننى قررت فى "سورية" أن اعوض عما فات. لم يكن رفيقاى يمارسان لعبة التنس، ولكن لحسن حظى كان "حسين" رياضيا ممتازا وعلى استعداد لمنازلتى دوما.

فى الأماسى كان الملل سيد الفندق. فى ساحة المطعم المكشوفة ثلاثة موسيقيين يعزفون، ولكن نادرا ما يتسنى لهم استمالة الحاضرين للرقص. ولم تتوفر أية وسائل لهو أخرى فى الفندق أو المنطقة. وفى الأمسية الأولى مكثنا بعد العشاء لمدة ساعة تقريبا، وحينما صرنا نداري بصعوبة التثاؤب الذى غلبنا، صعدنا إلى مخادعنا فى وقت مبكر، كالأطفال المهذبين. غير أننى أمضيت الأمسية الثانية حتى وقت متأخر وراء رقعة الشطرنج أنازل "أحمد شرباتى". لم يكن خصما قويا، ولكنه زميل جيد لتمضية الوقت. ومنذ ذلك الحين أمضينا ساعات طوالا فى لعب الشطرنج ، ولم أعد أحس بالملل فى المساء.

يوم السبت الموافق ١٥ تموز (يوليو)، وصل إلى بلودان ظهرا "جميل مردم بك". وكان مرافقنا "حسين" قد أنبأنى منذ الصباح بوصوله، واحاطنى علما بأن الوزير يعتزم تقديمى إلى رئيس الجمهورية "شكرى

القوتلى"، وكنت، بالطبع، مسرورا لذلك.

كان الرئيس يسكن فى ضيعته القريبة من الفندق، فى وادي الزبدانى الشهير بتفاحه. لم يكن مقر إقامته يشبه قصر رئيس دولة. فقد كانت تلك ضيعة لا تختلف عن غيرها من الضياع التى شاهدتها قرب بلودان. وكانت غرف الاستقبال المفروشة على الطريقتين الأوربية والعربية تدل على أن صاحبها ميسور وليس ثريا.

كان رئيس الجمهورية السورية وزعيم حزب الكتلة الوطنية الحاكم كهلا يميل إلى البدانه شاحبا. ولم يفتنى أنه كان طوال فترة لقائنا يدارى بصعوبة ضعفه البدنى، بل لعله كان يعانى من آلام مبرحة.

استقبلنى ببشاشة وترحاب كبيرين، ولكن دون فخفخة، ولم يحضر للقاء سوى "مردم بك"، فالالتزام بالتكتم كان صارما. حدست أن دعوة المبعوث السوفيتى إلى الفطور لم تكن التزاما بالبروتوكول، بل مبعثها الرغبة فى التأكد مرة أخرى، عبر الصلة الشخصية، من صحة الخطوة التى اتخذتها الحكومة السورية. وقد أكدت طبيعة الحديث الذى جرى بعد الفطور حدسى. وفى هذه الضيعة جرت، عمليا، الجولة الثانية من المباحثات التى بدأت بدمشق فى ١٢ تموز (يوليو).

أثنى "شكرى القوتلى" كثيرا على موقف الحكومة السوفيتية الودى المتمثل بموافقتها على إقامة علاقات دبلوماسية مع "سورية"، واعرب عن استحسانه لما تمخض عنه لقائى بوزير الخارجية، ثم أضاف:

– ثمة مسألة تهمنى جدا، ولعلها تبدو لكم قضية عفا عليها الزمن، ولكنها لم تفقد حيويتها بالنسبة لنا، نحن السوريين. أعنى الاستسلامات وسائر الامتيازات الخاصة التى كانت الدول العظمى،

ومنها "روسيا" القيصرية، تتمتع بها فى بلدان الشرق. وأنا اعرف حق المعرفة أن "روسيا السوفيتية" تخلت عنها على رؤوس الاشهاد، وذلك منذ لحظة قيامها. ولكن يسعدنى جدا أن اسمع منكم أن هذا المبدأ ما برح معمولا به لحد الآن، أى بعد مرور ثلاثة عقود.

وهكذا عدنا إلى الوساوس حول الاجحاف. أى أننى خلال لقائى مع "مردم بك" لم اقنعه بشكل تام. وإن كنت قد اقنعته، فإن الوساوس ما برحت تراود سائر زعماء الحكومة السورية.

بد لأول وهلة أن "القوتلى" و"مردم بك" ورفاقهما أشخاص تتلبسهم الوساس، لا يريدون التسليم بصداقية مبادئ سياستنا. ولكننى لم اتسرع فى اتخاذ موقف الدبلوماسى المنزعج من التشكك فى سياسة بلده. وكما كان الحال أثناء حديثى مع "مردم بك"، أخذت اذكر نفسى بأن كل التجربة الحياتية للزعماء الوطنيين السوريين حملتهم على أن يعتبروا أى ادعاء تتقدم به الدول الامبريالية، ومهما كان معسولا، نوعا من الرياء والمداهنة وخداعا يستره حجاب مهلهل.

علاوة على ذلك وضعت فى حسابى أن الكثير من مفاهيم السياسة العالمية والقانون الدولى كانت فى ذلك الحين قد فقدت قيمتها ووزنها فى العالم الرأسمالى. ولم تبق السياسة الخارجية السوفيتية بمنأى عن مراجعة القيم، رغم أن هذه العملية لم تكن مبررة دائما. فإن أحداثا هامة مثل اعادة توحيد "بيلوروسيا الغربية" و"اوكرانيا الغربية" مع "الاتحاد السوفيتى" فى خريف ١٩٣٩، واستعادة "بيسارابيا" فى ربيع ١٩٤٠، وانضمام "استونيا" و"لاتفيا" و"لتوانيا" إلى "الاتحاد السوفيتى" صيف ١٩٤٠، تلك الأحداث ظلت طوال سنين تفسر من قبل

الدعاية الفاشية الحاقدة - وليس من قبلها فقط! - وكأنها دليل على انتقال "الاتحاد السوفيتى" إلى سياسة الاغتصاب التى كانت تمارسها القيصرية الروسية. وأعطيت تفسيرات مماثلة لدخول الجيش الأحمر أراضى "إيران" صيف ١٩٤١. وكانت هذه الواقعة تستأثر باهتمام خاص في الشرق الأوسط، وانساق البعض لتأثير الدعاية المعادية لنا. وإزاء ذلك لم أجد فى رغبة الرئيس شيئا غريبا، بل عالجتها بالاهتمام اللازم.

قدمت لشكرى القوتلى جوابا مسهبا ووضعت كل النقاط على الحروف. وكما أثناء حديثى مع "جميل مردم بك"، عرضت المبادئ اللينينية للسياسة الخارجية السوفيتية، وتحدثت باسهاب عن سياستنا حيال بلدان الشرق. ذكّرت بالمعاهدات المتكافئة التى عقدت بعد ثورة اكتوبر مع "أفغانستان" و"تركيا" و"إيران" و"منغوليا" و"الصين". وأكدت أن ثمة أدلة جديدة على مصداقية المبادئ اللينينية فى الوقت الحاضر، ومنها مثلا إقامة العلاقات الدبلوماسية مع "مصر" على أساس التكافؤ التام. شكرنى الرئيس على ما قدمت من توضيحات ولم يتطرق فيما بعد إلى هذا الموضوع.

دار حديث حول الوضع على الجبهتين الشرقية والغربية، حيث كانت الجيوش الالمانية تتكبد هزيمة أثر أخرى، ثم عدنا إلى قضايا الشرق الأوسط. كان مشروع "سورية الكبرى" السيئ الصيت مطروحا للنقاش. وأكد رئيس الجمهورية ووزير الخارجية أن المشروع موجه ضد العرب وأن رائحة العفن الاستعمارى المنبعثة منه تزكم الأنوف.

سكبت الزيت على النار بملاحظة عابرة حين قلت:

- ولكن المشروع يحظى بتأييد تام من قبل "عبد الله" أمير شرق الأردن ورئيس الوزراء العراقى "نورى السعيد".

فهتف "القوتلى" باستياء:

- "عبد الله" و"نورى السعيد" يكرران كالببغاء ما تقوله "لندن". وكل ما يدور فى أروقة الخارجية البريطانية تجده على لسانهما.

وأضاف "مردم بك":

- إن لدى الاثنين طموحات خاصة من وراء المشروع. فنورى السعيد يريد أن تكون للعراق الكلمة الفصل فى "سورية الكبرى" لأنه يطمح أن يكون دكتاتورا على الشرق الأوسط كله. ويرمى "عبد الله" إلى الغرض ذاته.

ووافقه "القوتلى" قائلا:

- هذا صحيح. ولكن ثمة مسألة فاتتهما. فحتى لو افترضنا أن المشروع سوف يرى النور - لا سامح الله - فلن ينصبا دكتاتورين أبدا. أية دكتاتورية هذه إذا كان يشاركهما الكرسى المندوب السامى البريطانى المتمتع بحق النقض (الفيتو).

تابعت بانتباه هذا التحليل السديد، وتكون لدىّ انطباع بأن "الجمهورية السورية" لن تنضم طوعا إلى مشروع "سورية الكبرى" كائنا من كان الشخص الذى ينصبه على رأسها: سواء "الأمير عبد الله" الطاعن فى السن أو ملك العراق "فيصل الثانى" البالغ من العمر تسعة أعوام. أما ارغام "الجمهورية السورية" على الانضمام إلى المشروع فهو أمر أصبح مستبعدا الآن.

فى ختام الحديث أعرب رئيس الجمهورية ووزير الخارجية عن الأمل

بأن العلاقات بين بلدينا ستدخل طورا جديدا عما قريب. أعربت عن أمل مماثل وإن كنت قد أخذت أشعر بالقلق لتأخر جواب مفوضية الشعب للشؤون الخارجية.

استمرت "اقامتنا المزمنة" في بلودان. بدأ الأسبوع الثاني بعد مغادرتنا القاهرة، ولكن جواب "موسكو" لم يصل. أخذ الضيق ونفاد الصبر يتملكانني. فهل من المعقول أن يصل المرء للتفاوض في أمر بالغ الأهمية ويمضي كل أوقاته عمليا في مصيف جبلي! لم أعد أطيق الكسل والركود، وأشعر أحيانا وكأنني اجلس على جمر.

لعبت نسمات عذبة لتخفف من رتابة أماسينا: فقد صار النائب "شرياتي" يصطحب معه إلى نزالات الشطرنج عقيلته التي ترهلت رغم شبابها. لم تكن "السيدة شرياتي" تطيق الشطرنج وكانت تجلس إلى جانبنا بهدوء حتى اللحظة التي تبدأ فيها الفرقة الموسيقية بعزف مقطوعة تانغو أو فوكستروت. وحينذاك تقطب وتعرب عن تبرمها لأن الرجال نسوا كيف يسلون النساء. وكانت شكواها تجعل "دنيبروف" - الذي لم يكن يلعب الشطرنج بل يراقب فقط - ينهض من مكانه ويدعوها للرقص.

خلال فترة مكوثنا في بلودان تسنى لي أن اتجاذب معها أطراف الحديث مرارا. وبالتدريج تكونت لديّ فكرة عن سيرة حياة هذه المرأة الشابة. اتضح أنها لاتفية، وأبوها أستاذ في جامعة ريغا. هاجرت مع والدها في خريف ١٩٣٩، أثر توقيع "لاتفيا" معاهدة المساعدة المتبادلة مع الاتحاد السوفيتي، ودخول وحدات الجيش الأحمر إلى أراضيها. وقد ذكرت: "كان والدي رجعيا بمفهومكم، ولم يتوقع أي خير من السلطة

السوفيتية". وتحدثت عن حلها وترحالها فى المهجر، فى "السويد" أولا ثم فى "ألمانيا" و"تركيا"، دونما مرارة ولكن بنوع من السخرية بالنفس. ذات مرة اعترفت ضاحكة:

– هل تعرفون أننى حرمت، بسببكم، من فرصة أن أصبح رأسمالية كبيرة؟ فقد كنت الوريث الوحيد لعمى الطاعن فى السن، وكان مصنعه ومنازله فى "ريغا" وضيعته قرب فينتسبيلس، ستؤول إلىّ بعد وفاته. وعندما أممت السلطات السوفيتية المصنع، فإن افلاس عمى طهر روحى من كل الطموحات الدنيئة، ولكم ألا تصدقوا ما أقول. فقبل ذلك كنت فى أعماق نفسى، دون شعور أو وعى، افكر طوال الوقت بقرب وفاة عمى. واخجل أن اتذكر الآن أننى كنت اتمنى وفاته! واليوم بوسعى أن أقول بضمير مرتاح: ليبقَ حيا مادامت صحته تساعده على ذلك.

بادرت إلى سؤالها:

– وأين عمك الآن؟

– فى "ريغا" من جديد. فقد أعاد إليه الالمان المصنع وكل ممتلكاته.

– ورغم ذلك لم تعد فكرة الأرث تشغل بالك؟

– سألت وأنا ابتسم بخبث.

– لا تسئ الظن بى. فلم أعد تلك الفتاة الأنانية المتحجرة القلب كما فى الماضى. ولست من الغباء بحيث لا افهم أن الالمان سوف يطردون من لاتفيا بعد أسبوع أو آخر، وإن المعمل سيؤمم ثانية، أن تبقى منه شئ.

يجدر الأقرار بأن عقلية "شرباتى" كانت تحلل الأوضاع الجارية تحليلا صائبا. وفيما يخص "تطهرها الروحى" أثر تأميم الصناعة فى لاتفيا،

فإن هذه المسألة متروكة لضميرها. وعلى أية حال فإن حلمها القديم بالثراء قد تحقق، وإن كان بصورة أخرى: فـ "احمد شرباتى" رأسمالى، ويمتلك فى دمشق مصنعاً، ثم أنه يتاجر بالسيارات المستعملة.

فى النصف الثانى من نهار ١٨ تموز (يوليو) وصل "جميل مردم بك" إلى بلودان ودعانى إلى جناحه. لم يكن لوحده: فقد جلس على الكنبه إلى جانب رجل لا أعرفه، فى حوالى الخمسين من العمر، وعلى عينيه نظارة ضخمة، وقد بدأ الصلع يعلو جبهته. كانت مفاجأة كبيرة أعدها لى "جميل مردم بك"، حينما قال أن الرجل هو "سليم تقلا" وزير خارجية "الجمهورية اللبنانية".

دونما لف أو دوران اطلعنى "سليم تقلا" على الغرض من زيارته. فقد ذكر أن الحكومة اللبنانية محاطة علما بمفاوضات الحكومة السورية مع "الاتحاد السوفيتى" وهى تتابعها بتعاطف واهتمام، وتعتزم من جانبها أن تطلب من "الاتحاد السوفيتى" إقامة علاقات دبلوماسية. واختتم "تقلا" كلمته المقتضبة قائلا:

– سأكون ممتنا لكم غاية الامتنان، إذا ما استمزجتم رأى حكومتكم بهذا الخصوص. وفى حالة الموافقة، فإنى مخول بدعوتكم رسميا للتفاوض فى "لبنان"، حالما تسمح لكم بذلك مشاغلكم فى "سورية".

أجبت أننى أرحب من صميم القلب بالنوايا الودية للحكومة اللبنانية، وسوف استفسر من موسكو فورا.

واضفت أننى واثق تماما من موافقة الحكومة السوفيتية، ولكننى هذه المرة أمسكت عن اعطاء وعود فإن رد "موسكو" سيكون سريعا.

افترقنا بعد حديث قصير حول الشؤون السياسية الراهنة. فقد كان

كل من "مردم بك" و"سليم تقلا" يروم العودة بسرعة إلى عاصمة بلده. أما أنا فقد عدت إلى رفيقيّ لنعد بلاغا إلى "موسكو" حول اقتراح الحكومة اللبنانية. وبعد ذلك عدنا إلى تمضية الوقت بالطريقة المعتادة المملة.

أخيرا، وصلت مساء ٢٣ تموز (يوليو) برقية من مفوض الشعب إلى "جميل مردم بك". ولئن كان أحد من القادة السوريين يأمل حقا في أن الحكومة السوفيتية سوف تدلي بتصريحات رنانة حول قضايا حسمتها الحياة من أمد بعيد، فإن آماله لم تتحقق. إذ أن البرقية كانت ودية، ولكنها عملية ومقتضبة وواضحة لا لبس فيها. وساوردها بالنص:

"إن حكومة "اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية" تقدر عاليا المشاعر التي اعربتم عنها حيال النضال العظيم الذي يخوضه الشعب السوفيتي ضد "المانيا الهتلرية" وأعوانها.

إن الحكومة السوفيتية توافق بارتياح على اقتراح الحكومة السورية حول إقامة علاقات دبلوماسية بين "الاتحاد السوفيتي" و"سورية". والحكومة السوفيتية مستعدة لكي تعتمد في أقرب فرصة ممكنة مبعوثا مفوضا ومطلق الصلاحية عن الاتحاد السوفيتي لدى رئيس الجمهورية السورية، وإن تستقبل مبعوثا فوق العادة وزيرا مفوضا عن سورية، يعتمد لدى هيئة رئاسة السوفييت الأعلى "لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية".

وهكذا أقيمت العلاقات الدبلوماسية بين "الاتحاد السوفيتي" و"سورية". ومعها انتهت عزلتنا الطويلة في "بلودان". ومن الآن فصاعدا صار بوسعنا أن نخرج من السر إلى العلانية.



الفصل الحادى عشر

فى سورية علانية



بعد الاطلاع على البرقية طلبت من "حسين مراش" أن يقوم فورا بابلاغ وزير الخارجية باستلام جواب "موسكو"، وبكونه إيجابيا، كما كنا نتوقع، وأن بوسعى تسليمه البرقية صباح الغد.

صباح ٢٤ تموز (يوليو) وصلت مجموعتنا باكملها إلى "دمشق". وقد توجهت إلى وزارة الخارجية قبل أن أعرج على الفندق، واستقبلنى "مردم بك" على الفور.

هنأت الوزير على نجاح المفاوضات وسلمته نص البرقية بعد أن ترجمته بنفسى إلى الفرنسية، مشفوعا بمذكرة حررتها، وطبع "حسين مراش" الوثيقتين على الالة الكاتبة. قرأهما "مردم بك" بسرعة وقال:

- سوف أفخر دائما بمساهمتى فى عمل تاريخى، وأعنى إقامة العلاقات الدبلوماسية بين بلدينا. وهذه صفحة هامة فى تاريخ الجمهورية السورية، إذ أنها تعنى اعتراف أقوى دولة فى العالم بدولتنا الفتية.

- وأنا بدورى أهنئكم وأشكركم من صميم القلب لاسهامكم فى هذا العمل.

شد على يدى بقوة وأضاف:

- لسوف نعلن منذ اليوم عن الحدث العظيم. ليعرف به السوريون كافة والعالم أجمع.

نوهت بمذكرتى التى تضمنت اقتراح مفوضية الشعب للشؤون الخارجية حول نشر نصى الرسالتين المتبادلتين فى وقت واحد يوم ٢٦ تموز (يوليو)، فرد الوزير:

- موافق. ولكن يمكن منذ اليوم نشر بلاغ أولى مقتضب. فمن غير المعقول إبقاء مثل هذا النبأ الهام طى الكتمان يومين كاملين! أليس لديك اعتراض؟

لم اعترض ولكنى اشترطت أن يكون البلاغ مقتضبا فعلا ولا يتضمن مقاطع من الوثيقتين الرسميتين، إذ بخلاف ذلك يمكن أن ينشأ تعارض غير مبرر فى تاريخى نشرهما. قبل الوزير بالشرط.

وصل حديثنا إلى ختامه فتوادعنا على أمل اللقاء مساء فى حفل استقبال طارئ تقيمه وزارة الخارجية.

منذ يوم تسليمى "مردم بك" البرقية الواردة من "موسكو"، طرأ تغير جذرى على طراز حياة وفدنا. فقد صرنا على مرأى من الجميع، محاطين بالحفاوة والتكريم، ننتقل من مأدبة إلى أخرى، ترصدنا فى كل خطوة عيون الصحفيين الذين كانوا يحيطون القراء علما باخبارنا ويبرزونها كأحداث هامة. ولئن كانت رتابة الحياة فى "بلودان" تبرح بنا، فإن الأنهاك الذى تسببه كثرة الانطباعات صار يتربص الآن وقد إزدادت الانطباعات لأن الأمكانية أتيحت لنا، أخيرا للاطلاع عن كثب على العاصمة السورية، ومن ثم على مدن أخرى.

بدأنا تجوالنا أثر انتهاء زيارتى لمردم بك. فحفل الاستقبال فى وزارة

الخارجية يبدأ بعد خمس ساعات، وقد كرسناها للسياحة. كان "مراش" إياه دليلنا فى "دمشق". وقد كان حاذقا فى وضع برنامج الجولة المرتجلة بحيث أننا تمكنّا خلال نهار واحد - أول نهار لا تقيده اغلال "التخفى" - من تكوين انطباع واضح عن هذه المدينة العريقة.

لا تقل دمشق عن القاهرة تراء من حيث المعالم التاريخية المتبقية من العصور الخوالى. وليس من السهل دائما أن تميز القديم عن الجديد فى هذه المدينة. فباستثناء بضعة أحياء فيها مبان فخمة ومركز التجارة والصيرفة، وحى دوائر السلطات الفرنسية السابقة، لم تكن العاصمة السورية لتختلف بشئ عما كانت عليه أثناء الحملات الصليبية. وكانت أحياء العمال والحرفيين وسائر الكادحين تبدو متاهة لا نهاية لها من الأزقة والشوارع الضيقة المكتظة ببيوت الطين والخشب.

وكان من بين أبرز الآثار التاريخية فى "دمشق" الجامع الأموى. وكان "الخليفة الوليد" قد شيده عام ٧٠٥ فوق معبد رومانى وكنيسة مسيحية. لذا فليس من المستغرب أن يشاهد فى عمارة الجامع كنيسة مسيحية صغيرة قديمة مشيدة فوق مقبرة يقال أن "يوحنا المعمدان" مدفون فيها. والجامع عبارة عن حى كامل من المبانى والأفنية المربعة التى تتوسطها النافورات والأعمدة والكنائس والمآذن.

كما زرنا قبر "صلاح الدين" الذى هزم الصليبين، و"قصر آل العظم" و"خان أسعد باشا".

بصورة مغايرة يتشابك القديم مع الجديد فى أسواق دمشق. ففى الدكاكين الصغيرة نشاهد المنتجات الدمشقية الشهيرة منذ القدم،

كالسجاد والدمقس والأوانى النحاسية والبرونزية والأدوات المطعمة بالعاج والصدف، وإلى جانبها الكماليات والصابون وسائر السلع الاستهلاكية المصنّعة في المعامل السورية. وخلال سنوات الحرب، عندما توقف عمليا استيراد البضائع الأجنبية، طرأ تطور كبير على الصناعة شبه اليدوية فى "سورية".

اشباعا لفضولنا أورد "مراش" - ولكن دون حماس يذكر - بعض المعلومات حول أوضاع العمال السوريين. كانوا يعملون ١٠-١٢ بل وحتى ١٤ ساعة يوميا مقابل أجر تافه لا يكاد يسد رمق العامل وأسرته. ولم تكن النقابات قد خرجت بعد من طور النشوء، والقوانين تضع تقييدات شديدة على نشاطها، لذا لم يكن لها تأثير كبير على نضال الطبقة العاملة فى سبيل تحسين ظروف العمل.

عند اقتراب الساعة من الخامسة مساء عدنا إلى الفندق لنتهيأ للحفل. اشتريت فى البهو جريدة مسائية باللغة الفرنسية وقرأت خبرا بارزا كان أول إشعار صحفى عن زيارتنا إلى "سورية". وقد استهل الخبر بالعبارة الطنانة التالية: "سوف يخلد هذا اليوم فى تاريخنا الوطنى، إذ أن عاصمتنا تستقبل لأول مرة وزيرا مفوضا سوفيتيا . . .". وتلا ذلك عرض موجز لسيرة حياتى مقتبس عن الصحف المصرية الصادرة فى العام الماضى، ثم نبأ عن الحفل الذى تقيمه وزارة الخارجية مساء اليوم على شرفى. ولم تكن لدى الصحف معلومات أخرى، إذ أنها لم تنشر كلمة واحدة عن وقت وصول وفدنا والغرض من الزيارة، ناهيك عن النتائج الهامة التى تمخضت عنها المفاوضات السوفيتية السورية. ولا شك أن سبب ذلك يكمن في أن رئيس التحرير لم يكن قد

استلم بعد، أي والجريدة ماثلة للطبع كما يقال، بطاقة الدعوة لحضور حفل الاستقبال، والتى وزعت على الصحف فى النصف الثانى من النهار.

وقد أعطانى "حسين مراش" نسخة من البطاقة للذكرى، وجاء فيها:

"يتشرف معالى "جميل مردم بك" وزير الخارجية بدعوة. . . إلى حفل الاستقبال الذى يقام تكريما لسفير الاتحاد السوفيتى بمناسبة إقامة العلاقات الدبلوماسية بين "الجمهورية السورية" و"اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية". يقام الحفل فى مبنى وزارة الخارجية مساء اليوم، الرابع من شعبان ١٣٦٣هـ. الموافق ٢٤ تموز ١٩٤٤م. البدلة اعتيادية".

وقد أضيفت عبارة "البدلة اعتيادية" بناء على طلبى. فحينما توجهنا إلى سورية لم نحمل معنا إلا الضروريات، وبالطبع لم تكن بينها البدلة الرسمية أو أية بدلات مناسبة لمثل هذا الحفل المهيب.

قبيل الساعة السادسة دخلت مكتب "مردم بك"، فوجدته حائرا مرتبكا. فإن تنظيم حفل الاستقبال الطارئ اليوم انهك وزارة الخارجية كلها، ابتداء من الوزير وانتهاء بصغار موظفى قسم التشريفات. فقد وجهت الدعوات إلى أشخاص كثيرين: كل الوزراء ونواب البرلمان، وأعضاء السلك الدبلوماسى والقناصل وممثلى السلطات العسكرية البريطانية والفرنسية، والصحفيين وغيرهم. وكان ينتظر قدومهم من "دمشق" وضواحيها، ومن سائر المدن السورية، وكذلك من "بيروت"، وهى المقر الدائم لاقامة رؤوساء البعثات الدبلوماسية المعتمدين لدى الحكومتين السورية واللبنانية فى وقت واحد. وكانت الدعوة مفاجأة تامة

للغالبية الساحقة من الضيوف. وانهمك موظفو الوزارة فى مشاغل لا حصر لها. وحصلت ارتباكات واحراجات. وما كان لذلك كله إلا أن ينرفز الوزير. سلمنى ورقة حرر عليه نص بالفرنسية وقال:

- أرجوك، ياسيادة السفير، أن تطلع على البلاغ الذى سأتلوه الآن فى الحفل، ثم يتولى قسم الصحافة توزيعه على هيئات تحرير الجرائد والأذاعة. لعل صياغته ليست سلسة تماما، ولكنه يتضمن كل ما ينبغى قوله.

بالفعل كان البلاغ بحاجة إلى إعادة صياغة، ولو توفرت ١٠-١٥ دقيقة لأمكن إزالة كل ما فيه من مواطن الضعف وإعادة طبعه من جديد، وقد نصحت الوزير بذلك. بيد أن تلك الدقائق لم تكن متوفرة. فقد جاء رئيس التشريفات واستحث الوزير لبدء الحفل. لوح مردم بك بيده يائسا واقتادنى، بوجه مهموم، إلى قاعة المؤتمرات الفسيحة التى اخليت من الكراسى وكانت تعج بلغط الحاضرين.

مر بى "مردم بك" عبر جمهرة الضيوف الذين افسحوا لنا الطريق وصفقوا، ثم توقف فى طرف القاعة الذى كان خاليا نسبيا، وتريث حتى ساد الصمت، فقدمنى إلى الحاضرين وتحدث باقتضاب عن المفاوضات، وتلا البلاغ الأولى مرتين، بالعربية والفرنسية. وقد رافقت تلاوة كل من النصين عاصفة من التصفيق بدا أنها لن تنتهى.

باغتنى "مردم بك" حين أعطانى الكلمة. أقول أنه "باغتنى" لأن الوزير أو أى شخص سواه، لم يبلغنى بأن علىّ إلقاء كلمة. ويبدو أن تلك كانت بادرة مرتجلة من الوزير، فكل شئ فى الوزارة اليوم موسوم بطابع الارتجال. على أية حال لم يكن الصمت جائزا، فألقيت كلمة

اعربت فيها عن بالغ الارتياح بنجاح المفاوضات، واطريت حنكة "مردم بك "الدبلوماسية، واعربت عن الثقة بأن العلاقات الودية بين "الاتحاد السوفيتي" و"سورية" ستكون فى صالح البلدين، واختتمت الكلمة بالثناء على الحفاوة السورية، وروعة معالم "دمشق" التى تسنى لى الاطلاع عليها اليوم. وقد قوبلت كلمتى المرتجلة المتواضعة بما لا تستحقه من اعجاب.

بدأت أثر ذلك مراسيم تقديم الضيوف. اصطفوا واحدا بعد الآخر، وأخذوا يقتربون ويقدمون أنفسهم ويصافحوننى. وقام "مردم بك" نفسه بتقديم أبرز الحاضرين. وكان الصحفيون آخر حبات المسبحة، وقرأت على وجوههم الرغبة العارمة فى توجيه ألف سؤال وسؤال لى ولمردم بك. ولكن المراسيم جرت بشكل لم يسمح لهم بتوجيه أسئلتهم. ولم يفتهم فى ريبورتاجاتهم عن حفل الاستقبال أن يشيروا بنوع من الخبث إلى هذه الواقعة التى استاؤوا منها.

كان بين الضيوف الأجانب العقيد "ماكغارت" الممثل الشخصى للمبعوث البريطانى الجنرال "سيبرس". ويبدو أنه تناسى التحفظ البريطانى فظل يشد على يدى طويلا ويعرب بصوت يشبه الابتهال، عن تهانيه الشخصية وتهانى الجنرال على النجاح الدبلوماسى. ومن جهه أخرى أبدى مندوب الحكومة الفرنسية "شاتينيو" ونائبه العقيد "أوليفا روجيه" نوعا من الجفاء، رغم أنهما أيضا صافحانى وقدما لى التهانى بالنجاح.

ما أن انتهت مراسيم التعريف حتى فُتحت الأبواب الجانبية لقاعة المؤتمرات المطلة على حديقة الوزارة الظليلة. وقرب النافورات صفت على

الحشائش موائد طويلة متلألئة تحت أشعة شمس الأصيل، وقد غُصت بالأكل والشراب. اندفع الضيوف إلى الحديقة، وبدأ القسم الثانى، غير الرسمى، من الحفل. تذوقت الأطايب التى قدمتها وزارة الخارجية، وكنت برفقة رئيس الوزراء "سعد الله الجابرى" و"مردم بك" ووزير الخارجية اللبنانى "سليم تقلا". وبين الحين والحين كان الصحفيون يحاولون الاقتراب منا، ولكن رئيس التشريفات و"حسين مراش" تصديا بيقظة لكل هجماتهم. وسرعان ما انتقلنا، نحن الأربعة، إلى مكتب "مردم بك" لنتبادل الحديث دون ازعاجات. وبعد هذا اليوم الدبلوماسى الحافل كان الجميع فى مزاج ممتاز، يتبادلون النكات الودية بكثرة.

أراد "سليم تقلا" أن يسمع منى أنباء من "موسكو"، فلم يفد من "بيروت" لحضور حفل الاستقبال، بل لعقد لقاء عمل معى. أسعدنى ابلاغه أنه تم استلام رد على اقتراح الحكومة اللبنانية، فقد وافقت الحكومة السوفيتية على التفاوض مع "لبنان"، وتخولنى باجراء المفاوضات.

– عظيم – هتف سليم تقلا. – "موسكو" معين لا ينضب للأخبار السارة. لسورية أولا ثم لنا. متى سنشرع فى المفاوضات؟ أو بالأحرى علىّ أن أسأل فخامتكم، متى سوف يتسنى لكم زياراتنا أخيرا؟

– فى واحد من الأيام القريبة.

أجبت دون تحديد، لأن وزارة الخارجية السورية، كما أبلغنى "مردم بك"، كانت تعد لى جولة فى البلد.

– حالما اطلع على معالم دمشق بتفصيل أكثر من الآن.

ضحك الجابرى وقال:

- كلا، ياصاحب الفخامة، لن ندعك تغادرنا بهذه السرعة. فبعد محبس "بلودان" يجب أن تعيد إلى رأسك صفاءه في أرجاء سورية. أدعوك لمرافقتى فى جولة إلى الشمال، إلى "حلب".

- بكل امتنان اقبل دعوتكم.

- وبعد ذلك تقلك الطائرة إلى "تدمر"، - قال "مردم بك". - إذا لم تتعبك الرحلة إلى "حلب"، طبعا.

بدا أن "سليم تقلا" على علم بمشاريع وزارة الخارجية السورية حول زيارتى، ولكنه قال باحتجاج ضاحك:

- مهلكم، أيها السادة. بهذه الصورة ستفشلون مفاوضاتنا.

فقال "مردم بك"

- لا تبتئس، أيها الزميل المحترم، فلن يستغرق برنامج زيارات السيد "توفيكوف" أكثر من أربعة أيام. وفى التاسع والعشرين من الشهر سيكون بوسعكم أن تعدوا ثلة من حرس الشرف لاستقباله.

- سوف نستقبله بكل تكريم - رد "سليم تقلا" ضاحكا. - ولن نخفيه عن عيون الناس فى ملاجئ سرية.

- أحسن مصيف فى "سورية" تعتبره ملجأ سريا؟

عارض مردم بك متبرما.

- لا ادرى إن كان فى "لبنان" كله فندق أفخم من فندق بلودان.

قال رئيس الوزراء:

- لنكف عن الجدل، أيها السادة. وليحكم السيد "توفيكوف" نفسه فيما بعد أين كان استقباله أفضل، عندنا أم فى "لبنان".

أجبت بنبرة مصالحة:

– أنا واثق، أيها السادة، من أن الضيافة اللبنانية لن تقل عن الكرم السورى.

اختتم "سليم تقلا" الحديث بقوله:

– ابتداء من يوم ٢٩ سيكون لديكم أساس موضوعى للمقارنة.

– أما غدا، – قال مردم بك، – فإن السيد السفير ضيفا شخصيا علىّ. وسوف أريه غوطة دمشق الشهيرة.

شكرته وودعت الحاضرين وغادرت مبنى وزارة الخارجية. خفت اللغط فى الحديقة، ويبدو أن الضيوف بدأوا يتفرقون.

رغم أن عقارب الساعة لم تكن قد تجاوزت التاسعة إلا بقليل، فإننى شعرت بتعب شديد. فبعد يوم حافل بالانطباعات وجو قائظ يخنق الأنفاس، كنت راغبا فى أخذ قسط من الراحة. ولكن كان علىّ أولا أن ابرق إلى "موسكو" بلاغا حول أحداث اليوم، واشعارا حول جولتى المقبلة فى "سورية" وموعد سفرى إلى "لبنان".

وقد انكب على العمل فى ذلك المساء صحفيو "دمشق" و"بيروت" الذين حضروا حفل الاستقبال. وقد قرأت صباح اليوم التالى ما كتبوا بالفرنسية من ريبورتاجات ومقالات، كانت جميعا بلغة مثيرة. أما الصحف العربية فقد أطلعت على عرض لها أعده "حسين مراش".

أكدت الصحف جميعا على الأهمية القصوى لاقامة العلاقات الدبلوماسية بين "الاتحاد السوفيتى" و"سورية"، ولكنها اعتبرت ذلك، بالدرجة الأولى، دليلا على اعتراف "الاتحاد السوفيتى" باستقلال

"الجمهورية السورية"، وهو رأى أكده أيضا البلاغ الأولى الصادر عن وزارة الخارجية.

وأورد نموذجا من أقوال الصحف، مقتبسا عن صحيفة "صوت الشعب" التى قالت: "ليس ثمة شك فى أن لهذا الحدث أهمية كبرى لبلادنا ومستقبلها. ولعله أكبر حدث دبلوماسى فى تاريخ سورية المعاصر. ولسوف يساعد على تعزيز وجودنا الدولى، ويتيح لنا منذ الآن أن نتصدى بمزيد من القوة لشتى الاطماع الامبريالية ودسائس الأوساط الفاشية الأجنبية على اختلاف ألوانها".

لكن لا يجوز القول بأن الصحافة العربية كانت تعرب - فى ذلك اليوم والأيام التالية - عن مشاعر الارتياح فقط. فبين الفينة والفينة كانت تظهر فيها نبرات تدل على نوع من الاستياء. وسأتحدث فيما بعد عن ذلك تفصيلا. أما الآن فأريد الأشارة إلى أنه إلى جانب التعليقات التى أبرزت الاعتراف باستقلال سورية، كانت ثمة صحف تغمز من قناة مردم بك. ولعله شعر مرارا بالحرج حينما كان الصحفيون الذين لا يسكتون على إساءة يذكرونه بالتكذيب الذى أصدرته وزارة الخارجية بصدد سفرة "نعيم انطاكى" إلى "القاهرة".

وفى ضوء أحداث ذلك الحين كان التكذيب يحتمل أكثر من تفسير على أقل تقدير، بل إن بعض النقاد اعتبروه تضليلا. كما كان هناك غمز كثير للوزارة بسبب السرية التى أحيط بها الوفد السوفيتى والمفاوضات السوفيتية السورية. واعتبر الصحفيون أن فى ذلك تجاوزا لهم وإساءة إليهم. ولهم فى ذلك شيئ من الحق، فقد ظلوا حتى اللحظة الأخيرة جاهلين بحدث كبير مثل هذا.

كانت جريدة "بيروت" أكثر اعتدالا فى تغطية مرحلة "التخفى" التى عاشها وفدنا فى سورية. ولعل السبب فى أنها كانت تصدر ببيروت، وبالتالى لا يحق لها أن تبدى تبرمها من وزارة الخارجية السورية. وقد كتبت تقول: "قبل أسبوعين حل فى بلودان باسم مستعار شخص استأثر باهتمام الموجودين. وقد شاهدوه يلعب التنس مع شاب سورى، أو ينازل سوريا آخر وراء رقعة الشطرنج. وقد حامت حول هذا الشخص اشاعات مختلفة كانت اغربها إشاعة تقول أنه وزير بولونى. ودأبت إدارة الفندق على احاطته بالرعاية. وغالبا ما كان يزوره وزير الخارجية "جميل مردم بك"، ويبدى إزاءه تعاطفا شديدا. وقبل أسبوع زاره السيد "سليم تقلا" وزير خارجية "لبنان"، وأمضى بعض الوقت معه ومع "جميل مردم بك".

لم يكن أحد يعرف من هو "الوزير البولونى" فى الواقع. وفى الأمس فقط. أثناء الحفل الذى أقيم على شرفه، قدمه "جميل مردم بك "بوصفه سفيرا للحكومة السوفيتية فى "القاهرة". وقد قوبل السيد "نوفيكوف" بعاصفة من التصفيق والهتاف، وأعلن رسميا عن اعتراف الحكومة السوفيتية باستقلال سورية".

لم استطع أن افهم لماذا اعتبرنى نزلاء "الفندق الكبير" فى بلودان "وزيرا بولونيا". كيف لفقت هذه الاسطورة الخرقاء؟ زعمت صحيفة "النهار" أننى سجلت اسمى فى الفندق بوصفى "وزيرا بولونيا سابقا". ولكننى، شأن زميلىّ، لم نسجل اسماءنا فى الفندق، بل قام بذلك عوضا عنا "الوصى علينا" "حسين مراش". غير أننى لا اعتقد أنه سمح لنفسه عند تسجيلنا بارتكاب هذه الهفوة السياسية، التى ما كنت

لاوافق عليها بأى حال من الأحوال. والأرجح أن أحدا ما أطلق هذه الأشاعة، وكانت زيارات "مردم بك" و"سليم تقلا" بمثابة تأكيد مباشر لها. وذكرت "النهار" أن نزلاء الفندق اعتبروا تلك الزيارات "مجاملة دبلوماسية لوزير سابق".

فى تلك الأيام كتبت الصحف الشيئ الكثير عنى شخصيا. وفى غالبية الأحوال كانت الكتابات ودية، بل وفيها مبالغة فى الاطراء. ولكن نشرت أحيانا مواد تفوح منها رائحة النفور. وهاكم مثالا على ذلك:

"بوسع "دمشق" أن تفخر لأنها شاهدت واستضافت وزيرا مفوضا سوفيتيا، اتضح أنه ليس أحمر ولا قرمزيا. بل أنه يراعى الأتيكيت وليس فى تصرفاته ما يوحى بأنه "رفيق". ثم أنه انطوائى ومتعجرف. ولا شك فى أنه يدرك كونه يمثل أقوى جمهورية فى العالم الحقت لتوها الهزيمة بالمانيا". ولا يستطيع المرء أن يميز فورا فى هذه العبارات المدح من القدح. ولكن رائحة النفور بادية فيها منذ الوهلة الأولى.

. . . دنت عقارب الساعة من الحادية عشرة. حان وقت الاستراحة. فمازال هناك الكثير لنشاهده فى "دمشق"، ومن ثم نتوجه في اليوم التالى إلى الشمال. وها أننا عدنا من جديد سواحا نجوب المدينة من أقصاها إلى أقصاها. تجولنا حتى الساعة الثانية، ثم تناولنا الطعام فى الفندق"الأموى" وبعد ذلك اطلعنا على الصحف المتبقية، وشددنا الرحال من جديد. وهذه المرة إلى الغوطة.

الغوطة ضاحية خضراء واسعة ترويها مياه بردى. حينما تمر أراضيها

يخيل إليك أن كل سنتيمتر فيها مستثمر زراعيا. الكروم وبساتين الفواكه وأحراش الزيتون وحقول القمح كلها تتجاور هناك! المشمش والتفاح والكمثرى والدراق والعنب والزيتون، كلها من هبات الغوطة وقد ضاهاناها متدلية من أعراشها.

بناء على طلبى لم نسلك الطريق المستقيم إلى ضيعة "جميل مردم بك"، بل مررنا عبر ضواحى دمشق الجنوبية والشرقية. إنها منطقة صغار المزارعين. ولكن مع تقدمنا باتجاه الشمال الشرقى، أخذنا نشاهد الكثير من ضياع كبار الملاك. وأصبحنا قاب قوسين من ضيعة وزير الخارجية.

أشار "حسين" إلى بداية أملاك الوزير وأطرافها، واتضح أن مساحتها الاجمالية تناهز مائة هكتار، وهى مساحة كبيرة بالنسبة لسورية عموما، وخاصة فى منطقة الزراعة الكثيفة. كم عدد الفلاحين الاجراء العاملين لديه؟ لم يكن حسين يعرف ذلك، أو لعله لم يشأ أن يخبرنا. ولكن من الواضح أن عددهم لا يقل عن المائة.

قدم لنا "جميل مردم بك" عصير المشمش المثلج، ثم طاف بنا فى أملاكه، وكنا نشاهد فى كل مكان فلاحين يرتدون جلابيات متسخة أو اسمالا مهلهلة. كانوا أجراء دائمين أو فلاحين معملون باليومية فى القرى المجاورة. وكانوا يعملون جماعات أو أفرادا فى بساتين المشمش أو الكمثرى أو الكروم. وحالما يشاهدون "مردم بك" ينحنون له باستخذاء. وشعرت بحرج شديد وأنا أسير إلى جانبه: فإن تلك الإنحناءات كانت لى أيضا، بوصفى ضيف سيدهم.

حتى تلك اللحظة كنت اعرف "مردم بك" كرجل دولة وواحد من قادة

حركة التحرر الوطنى فى "سورية"، وعلى علم بأنه ذو فكر سياسى محافظ. ولكن من الناحية الاجتماعية كنت اتصوره شخصا آخر. وها أننى أشاهد بأم العين أنه ملاك كبير شبه اقطاعى، يستغل بلا رأفة مئات الأجراء، سيد بلا منازع. وتقدمت صفات "مردم بك" الجديدة هذه إلى مقام الصدارة لتحجب كل الصفات الأخرى. . .

نهضت فى صباح ٢٦ تموز (يوليو) قبل الساعة السادسة. سمعت طرقا خفيفا على الباب. جلب النادل الفطور الذى طلبته منذ المساء: بيضة مسلوقة على النصف وقدحا من القهوة بدون حليب وخبزا محمصا. ولم تكن معدتى لتتحمل أكلا ادسم فى مثل هذا الوقت المبكر.

سمعت طرقا على الباب ثانية. دخل "حسين مراش" وحيانى وأخبرنى أن فخامة رئيس الوزراء ينتظرنى فى السيارة عند مدخل الفندق. أخذت حقيبة الطريق الصغيرة ونزلت. شاهدت عند السيارة السوداء الفارهة "سعد الدين الجابرى" وهو فى بدلة بيضاء وطربوش. ركبنا، رئيس الوزراء و"حسين" وأنا، السيارة وانطلقنا فى شوارع العاصمة السورية التى استيقظت لتوها.

تركنا المدينة وراءنا ومررنا عبر الجزء الشمالى الشرقى من الغوطة، ثم تحولت الواحة الخضراء إلى مراع، وبعد ذلك منطقة صحراوية. إلى يسارنا السلسلة الشرقية، وإلى اليمين تلال حجرية. الطريق ممتاز: فقد كان الشريان الأساسى الذى تستخدمه سلطات الاحتلال الفرنسية، وهو يمتد من الحدود الجنوبية لسورية إلى الحدود التركية شمالا. وكان يمكن على مثل هذا الطريق الانطلاق بسرعة مائة كيلومتر فى الساعة، ولكن

"الجابرى" كان حذرا للغاية. أمر السائق بألا يتجاوز الثمانين كيلومترا وقال مبتسما:

-لست متعجلا للمغادرة إلى العالم الآخر، وإن كان مقامى فى هذا العالم قد طال. أما بالنسبة لك، يا سيادة السفير، فلا يوجد أى مبرر للتعجل إلى هناك".

وحتى لو لم يكن "الجابرى" حذرا لما تسنى للسائق أن ينطلق بسرعة مجنونة، حتى لو أراد فبين الحين والحين كان يخفف السرعة حينما يمر بقطيع من الأغنام، أو ينتظر ريثما تمر قافلة من الجمال.

بعد ثلاث ساعات وصلنا إلى واحة مكتظة بالسكان. إنها ضواحى "حمص"، أول مدينة فى طريقنا، ويقطنها بضع عشرات الالاف من الناس.

وتجدر هنا الإشارة إلى أننى طلبت من "سعد الله الجابرى"، حينما وجه لى الدعوة للسفر إلى "حلب"، ألا يضفى على الرحلة طابع الزيارة الرسمية وما يرافقها من أبهة. وعد رئيس الوزراء بتجاوز الشكليات البروتوكولية فى "حمص" و"حماة"، ولكنه أصر على أن تقام مأدبة لدى محافظ حلب، وقد وافقته. وفى الجابرى بوعده، فقد دخلنا حمص كمسافرين عاديين، ولم نثر اهتمام أحد.

سألنى "الجابرى" بكياسة إن كنت أريد تناول الفطور. أجبت بأننى سأصبر حتى "حماة"، حيث من المقرر أن نتوقف قليلا، وسألته بدوره عن شهيته فرد ضاحكا:

- "لو انتظرت الشهية لما أكلت زبدا".

وكان هزاله البادى يوحى بأنه يكاد لا يأكل، أو إن الأكل لا ينفعه

اطلاقا. ولعله كلن يشكو من مرض مزمن.

قمنا بجولة خاطفة فى السيارة شاهدنا خلالها مسجد المدينة وانقاض قلعة قديمة، وسلكنا الطريق العام من جديد. بقى زهاء ٤٥ كيلومترا كى نصل "حماة". سرنا بموازاة نهر العاصى الدافق ثم عبرنا جسرا يقع على بعد عشرين كيلومترا من "حمص".

عند مشارف "حماة" استأذنت من مضيفىَّ وتحررت من ربطة العنق التى تخنقنى، وفتحت ياقة القميص. قال الجابرى:

-"إنه قرار حكيم فى مثل هذه الظروف"،

ولكنه لم يحذ حذوى رغم أن ياقة قميصه المنشاة بللها العرق.

اتضح فى "حماة" أن عدم احتذائه بخطوتى "الحكيمة" لم يكن اعتباطا. فقد استقبلنا عند القائمقامية قائمقام القضاء وغيره من وجهات المنطقة. لم يخبرنى رفيقا السفر بذلك، لذا فإننى، بالمقارنة معهما لم أبد فى كامل القيافة، ولكن لم تعد باليد حيلة.

أبدى المسؤولون المحليون فروض الاحترام لرئيس الوزراء ولى، وظلوا فى رفقتنا طيلة مكوثنا فى حماة.

بلغت الساعة العاشرة صباحا. تناولنا بسرعة طعام الفطور فى مطعم. وكان المسؤولون يعدون لنا فى النصف الثانى ما يشبه الاستقبال الرسمى، ولكن "الجابرى" تبادل معى نظرات ذات مغزى ورفض الضيافة بحزم. أننا نوفر الوقت لحلب وهى جديرة بذلك. وفى "حماة" اقتصرنا على جولة قصيرة فى المدينة.

أهم معالم "حماة" هى الآقنية التى شيدها عبيد "روما"، أو حتى من سبقهم. وثمة قناة مرتفعة تقوم على ركائز حجرية ضخمة تمر عبر المدينة

كلها، وهى تنقل المياه إلى البساتين والحقول فى الضواحى. ناعورات ضخمة ترفع مياه نهر العاصى إلى الأقنية، وفى الوقت ذاته تحدث صريفا يشبه نعيب الغرانيق. ورغم ضخامة الناعورة فهى ضئيلة المردود. ولم تقم "فرنسا" باستبدالها طوال ٢٥ سنة حكمت فيها "سورية"، رغم أنها (ى فرنسا) تتبجح بتكنولوجيتها الحديثة.

بين "حماة" و"حلب" ١٥٠ كيلومترا. وقد قطعنا هذه المسافة بثلاث ساعات، وذلك لتوقفنا عند قطعان الآغنام والأبل، وفى الساعة الثانية بعد الظهر دخلنا غرفنا فى أحسن فنادق "حلب". أمضيت فترة قصيرة استريح من عناء الطريق، وبعدها اتصلت بحسين تليفونيا فى غرفته، وأخبرته عن استعدادى للتجول فى المدينة. بعد خمس ساعات يحين موعد المأدبة التى يقيمها المحافظ، ولم أشأ أن امضى هذا الوقت فى الفندق ذى الجو الخانق.

لم يرافقنا الجابرى لأن لديه فى "حلب" مشاغله، والأصح شؤون الدولة التى جاء إلى هنا من أجلها. ولكن لم يكن لدىّ سبب للشعور بأننى وحيد، فقد رافقنى فى الجولة عدد من المسؤولين. وقد استقل بعض أفراد "الحاشية"، وكنت معهم، سيارة رئيس الوزراء، وركب الآخرون سيارة ثانية كانت ترافقنا كظلنا. وعند التفرج على معالم المدينة كان الجميع يخرجون من السيارتين ليشكلوا مجموعة ضخمة. وسرعان ما كان يتجمع حولنا جمهور من المارة الفضوليين، فيتعرفون علىّ وغالبا ما يقابلوننى بالتصفيق والهتاف.

"حلب" أكبر المدن السورية وأكثرها تطورا من الناحية الصناعية.

وهى، مثل "دمشق"، من أقدم مدن الشرق الأوسط، وقد نشأت قبل الميلاد بألفى سنة، وتعاقبت عليها خلال عمرها الطويل حضارات كثيرة، ترك كل منها أثره. ويغص المتحف الوطنى فى "حلب" بالمقتنيات الأثرية: من عهود الحيثيين والأشوريين والفرس والهيلينيين والرومان وكل العهود التالية. بيد أن المرء يشاهد آثار الماضى فى كل خطوة يخطوها خارج المتحف أيضا، وخاصة فى المدينة القديمة.

من أروع الآثار القلعة ذات الجدران الضخمة والأبراج والجسور والأبواب والقصور والمساجد والقاعات الجوفية والزنزانات. وتحمل بوابات القلعة تسميات رومانسية: باب الثعابين، باب الأسود الباكية، باب الأسود الضاحكة... والقلعة أيضا بمثابة متحف لمختلف الحضارات، ابتداء من الهيلينية وإنتهاء بالإسلامية. والحضارة الإسلامية ممثلة هناك بآثار عديدة، بينها مسجدان شيدا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر. من مئذنة أحد المسجدين شاهدنا "حلب" الممتدة على مساحة شاسعة والسابحة فى أشعة شمس الغروب.

فى صباح اليوم التالى أستأنفت جولاتى السياحية برفقة "الحاشية". تجولنا فى أزقة سوقين مسقوفين وزرنا المدرسة الفردوسية ذات القباب الكثيرة، وطفنا فى شوارع وساحات المدينة الجديدة، راكبين وراجلين. واستمر تجوالنا حتى حوالى الساعة الرابعة. وفى الخامسة كان علىّ أن احضر إلى المطار، ففى مساء اليوم يجب أن أقيم فى "بلودان"، "مقر إقامتى الدائم"، مأدبة غداء على شرف الحكومة السورية.

توجهنا إلى المطار مع رئيس الوزراء الذى أنجز أعماله. ودعنا المحافظ و "أفراد حاشيتى" وآخرون. شدوا على أيدينا وتمنوا لنا سفرة

سعيدة. وفى الساعة الخامسة والنصف اقلعت الطائرة القديمة من المدرج واتجهت نحو "دمشق".

بعد الثامنة بقليل من مساء اليوم دبت فى "الفندق الكبير" ببلودان حركة لم يعهدها هذا الفندق الجبلى. ووصلت إلى مدخل الفندق المضاء بالأنوار والذى تجمهر عنده نزلاء الفندق وأهالى "بلودان"، سيارات أعضاء الحكومة واحدة أثر أخرى. وكان "حسين مراش" وعدد من زملائه موظفى قسم التشريفات بوزارة الخارجية يوصلون الضيوف إلى غرفة الاستقبال المجاورة لقاعة الحفلات. وكنت أنا الداعى للحفل بوصفى رئيسا للوفد، غير أن خبرة وفدنا كانت ضئيلة إلى حد بحيث أن مساعدة قسم التشريفات كانت ضرورية للغاية.

وبفضلها سارت الأمور على أحسن ما يرام، سواء فى مرحلة التحضير أو أثناء الحفل نفسه، والذى اجتمع فيه غالبية الوزراء. وقد وصل بعضهم مع عقيلاتهم.

وأفردت أماكن الصدارة حول الطاولة، كما هو متبع، لأعلى الضيوف مقاما: "سعد الله الجابرى" "وجميل مردم بك". وبالإضافة إلى أعضاء الحكومة وجهنا الدعوة إلى "شرباتى" وعقيلته، اللذين شاركا فى إزالة السأم عنا إبان فترة "التخفى"، وإلى صديقنا القديم "نعيم انطاكى" الذى ارسى واحدة من اللبنات الأولى فى صرح العلاقات السوفيتية السورية.

وكانت الكلمات المرتجلة والانخاب أثناء المأدبة تدعو إلى تطوير هذه العلاقات، وإلى تعزيز الصداقة بين البلدين وازدهارهما. وقيلت أنخاب كثيرة أخرى، جدية وودية ضاحكة. وتمنى المتحدثون النجاح لمهمتنا المقبلة فى "لبنان"، والتى لم يكن خبرها سرا على أحد.

ابتدأ الحفل فى الساعة الثامنة والنصف وانتهى عند منتصف الليل. ورغم أن الوقت كان متأخرا فإن عددا من الضيوف آثر العودة إلى "دمشق"، ولكن الأكثرية أمضت الليلة في "بلودان". وكان ذلك يوما مشهودا "للفندق الكبير": إذ لم تقم فيه من قبل أبدا مثل هذه الحفلة الفخمة التى حضرها أعضاء الحكومة جميعا تقريبا.

يوم الجمعة الموافق ٢٨ تموز (يوليو) قام وفدنا بالجولة الأخيرة، إلى "تدمر" التى تروى عنها الأساطير. لتدمر تاريخ فريد. فهى تقع فى واحة تتوسط بادية الشام، وكأنها "أرض الحياد" بين الأمبراطوريتين المتعاديتين، الرومانية والفارسية، وكانت فى البدء بمثابة وسيط تجارى بين آسيا الغربية وآسيا الوسطى. وكانت تمر عبر ممتلكات "تدمر" قوافل لا حصر لها من وإلى البلدان الواقعة وراء دجلة والفرات، والجزيرة العربية. وأقيم فى طرق القوافل العديد من الخانات، وكل منها بمثابة "الفندق الكبير" فى زمانه. وجاب المحيط الهندى أسطول تدمر الكبير فى مقياس ذلك الزمن، وكانت السفن ترابط فى موانئ على نهر الفرات.

كانت "تدمر" تعترف شكليا بسلطة "روما"، ولكنها عمليا تتمتع بحكم ذاتى، وبالتدريج تعززت مكانتها كدولة. وبلغت تدمر أوج ازدهارها فى أواسط القرن الثالث بعد الميلاد، وخاصة على عهد "الملكة زنوبيا". وقد استغلت "زنوبيا" المصاعب الداخلية والخارجية للامبراطورية الرومانية فأعلنت استقلال "تدمر"، ثم اخضعت لحكمها بلدان الشرق الأوسط المجاورة. وقد انتهى عهد ازدهار هذه الدولة

الواحة عندما هزم الامبراطور "أورليانوس" قوات "تدمر"، وأسر الملكة الأبية. وسبى جنوده كل أراضى المملكة، ولكن الامبراطور رأف بالعاصمة ذات المنشآت المعمارية الرائعة. وتعرضت "تدمر" للدمار فيما بعد، حينما ضربها الزلزال.

شددنا الرحال إلى عاصمتها "زنوبيا" التى رويت عنها الأساطير وذاع صيتها فى العالم كله. وصلنا فجرا إلى مطار "دمشق" حيث كانت فى انتظارنا طائرة الأمس، بقيادة الطيار الفرنسى ذاته. انطلقت الطائرة من "دمشق" نحو الشمال الشرقى بموازاة الطريق البرى إلى "تدمر". تحتنا بادية مقفرة موحشة يحف بها من جهة اليمين الجبل الشرقى. وبعد ساعة تقريبا بدت لانظارنا واحة بين سلسلتين من التلال، إنها مدينة "تدمر" التى تقع فى ضواحيها بقايا المملكة الزاهرة فى يوم ما.

رحب بنا على أرض المطار الصغير كل أعيان المنطقة يتقدمهم مدير ناحية "تدمر". ولحسن الحظ لم تفرض علينا أية مراسيم، لذا بدأنا فورا جولتنا باشراف دليل فرنسى يتقن مهنته. وقد كتبت صحيفة "ماتان" الصادرة فى "بيروت" آنذاك تقول: "يبدو أن ضيوفنا السوفييت على دراية بأدق تفاصيل تاريخ "تدمر"، وبالتالى لم يكن للدليل ما يفعله". ولكن فى الواقع ترتب على الدليل أن يبذل جهدا جهيدا، إذ أننا انهكناه بأسئلتنا.

بدأنا من أهم المعالم، وأعنى انقاض معبد الشمس الهائل. وقد كان ضخما بحق، ومن الأدلة على ذلك أن قبته كانت تستند إلى ٣٩٠ عمودا، ولكن لم يبق منها سوى ثمانية. البوابة الغربية الضخمة مزدانة بتمثال نسر، وعلى السقف إشارات الأبراج الفلكية.

غادرنا معبد الشمس وسلكنا شارعا مرصوفا يربو طوله على الكيلومتر، وعلى امتداده صفان من الأعمدة التى يبلغ ارتفاع كل منها زهاء عشرة أمتار.

تجولنا بين الانقاض وتحت أشعة الشمس اللاهبة ساعات طويلة. شاهدنا قوس النصر والمسرح الرومانى والمقبرة ومعبدها . . . وبالإضافة إلى آثار العهدين الهيلينى والروماتى، شاهدنا آثارا من عهد صدر المسيحية ومن أزمان الخلافات العربية.

انتهت الجولة الممتعة للغاية فى حوالى الساعة الثانية. اصطحبنا أعيان المنطقة إلى مطعم فندق "زنوبيا" حيث قدم لنا خروف محشى، ولعله طبق ثقيل فى نهار يوليو القائظ. ولكن لم يكن ثمة خيار، فإ المطبخ لم يعد طبقا آخر المطعم مقفر الأن، فأهالى المنطقة لا يرتادونه، أما موسم السياحة - فصلا الخريف والشتاء - فلم يحل بعد. ثم أن السياحة كانت فى ضمور خلال الحرب، يضاف إلى ذلك أن الوضع السياسى داخل البلد لم يكن مستقرا.

ودعنا أعيان المنطقة ودليلنا فى المطار، وبعد خمس دقائق حلقت الطائرة، وحومت فوق معبد الشمس ثم استدارات نحو الجنوب الغربى. واستغرق طريق الإياب ساعة ونصف ساعة، لأن الطائرة ذات المحرك الصغير كانت تجد صعوبة فى التغلب على الرياح المعاكسة.

اتجهنا من مطار "دمشق" إلى الفندق "الاموى" الذى نقلت إليه امتعتنا من "بلودان" منذ الصباح. اغتسلت وبدلت ملابسى وتوجهت فى زيارتين لتوديع رئيس الوزراء ووزير الخارجية. كانت الزيارتان قصيرتين، بروتوكوليتين، تكررت خلالهما التمنيات بالتوفيق، ويبدو لى

أن التمنيات كانت من طرف "الجابرى" أكثر صدقا. ولعل "ما بدا لى" عائد إلى ذلك النفور الذى تبقى لدىّ إزاء "مردم بك".

امضينا الأمسية الآخرة بدمشق فى السينما، حيث استمتعنا بمشاهدة فيلم "جونغلى" "الدغل" البريطانى. تركنا "حسين" ليستريح ومكثنا نحن فترةطويلة فى شرفة جناحى نستنشق نسمات الليل العذبة. تحدثنا عن "تدمر" وعن "موسكو" وعن "القاهرة"، وظللنا نحسب متى سنعود إلى "بيتنا" وعوائلنا.

بعد تناول الفطور صباحا كنا جاهزين للسفر. مر على جناحى رئيس قسم التشريفات و"حسين مراش" اللذان صاحبانا حتى الحدود.

سرنا على كورنيش بردى ووصلنا إلى الطرف الجنوبى للعاصمة السورية، ثم واصلنا طريقنا بمحاذاة النهر فى الوادى. وكنا نعرف هذا الجزء من طريق دمشق - بيروت بكل دقائقه، فقد سلكناه مرات عديدة متنقلين بين بلودان ودمشق. ولأول مرة ظلت بلودان إلى يميننا، بينما واصلنا السفر نحو "بيروت".

أخيرا ابتعد الطريق عن بردى وأخذ يتعرج وسط السفوح الجبلية التى تكسوها الغابات. بدا لانظارنا مخرج مشمس هو نهاية الشعب الأخير. نحن على مشارف وادى البقاع الفسيح. ها هنا تمر الحدود بين "سورية" و"لبنان". ولكننا لا نشاهد نقطة حدود أو رجال حدود أو جمارك. ولم اعرف بوجود الحدود إلا عندما توقفت سيارتنا على قارعة الطريق وقال رئيس التشريفات مبتسما:

- ها قد أوصلناكم إلى "لبنان"، ياصاحب الفخامة! على مقربة وقفت على قارعة الطريق أيضا سيارة أخرى. اندفع من جوارها شخصان

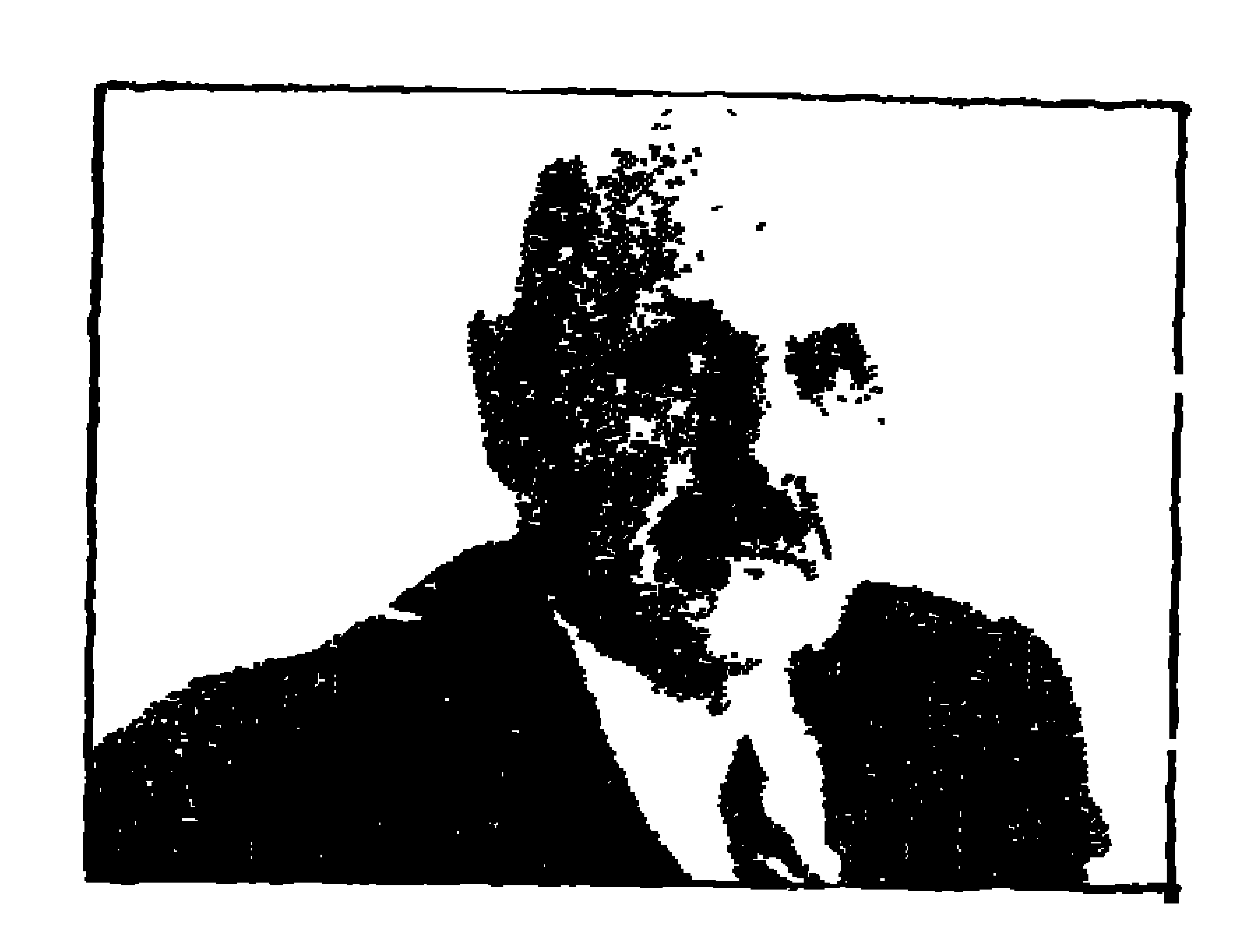
باتجاهنا وهما يلوحان مرحبين. خرجنا من السيارة فعرفنا رئيس التشريفات بهما. كان أحدهما "حليم حرفوش" مدير ديوان وزير الخارجية ومعاونة الشاب "نديم دمشقية".

شددنا بقوة على أيدى مودعينا السوريين وتبادلنا كلمات الوداع وانتقلنا إلى سيارة وزارة الخارجية اللبنانية.

وداعا، ياسورية المضيافة!

الفصل الثانى عشر

"لبنان"



في السيارة بادر مدير ديوان وزير الخارجية اللبناني قائلا:

- أرجو، ياسعادة السفير، أن تمعنوا النظر في صديقي الشاب. ألا يذكركم بأحد؟

تمليت "نديم دمشقية"، فالفيته في حوالي الثلاثين فاحم الشعر له شارب أنيق مشذب، يضع على عينيه نظارة سوداء ويرتدي بدلة بيضاء وربطة عنق أنيقة. يدل مظهره على أنه شاب نزق مستعد في أية لحظة للأقدام على مغامرة، لولا تقيده بقواعد البروتوكول. كلا، أنه لا يذكرني بأحد. قال "حرفوش" مبتسما:

- أنت مخطئ. إنه نسخة لبنانية عن "حسين مراش". ونحن نعرف أنكم في "سورية" كنتم راضين عن "رفيق الحياة" المؤقت. وهنا سوف يلازمكم "نديم" كالظل. وأنا واثق أنه سيكون أهلا للثقة.

- آمل ذلك. فقد كان السيد "مراش" حقا مرافقا ومساعدا نافعا جدا، وآسف لاضطرارنا إلى مفارقته.

- ستكف عن الأسف حالما تعرف "نديم" عن قرب. أنه شخص حرك خدوم وخبير.

احتج الشاب اللبنانى قائلا:

- لا تبالغ فى اطرائى، ياسيدى، لكيلا يشعر سعادة السفير فيما بعد بخيبة أمل.

لم يعر "حرفوش" انتباها لهذا الاحتجاج، واستطرد:

- ثم أن "نديم" لاعب تنس ممتاز. وبالتالى سيكون لديك دوما زميل فى الملعب.

- عظيم،

- أجبته وخاطبت دمشقية:

- لعلك أيضا لاعب شطرنج؟

- كلا، للأسف. ولكننى سأجد زملاء لكم.

هكذا دخل حياتنا للأسابيع المقبلة "وصى" آخر هو "نديم دمشقية". ولم يدع لدينا مبررا للتذمر والأسف فيما بعد.

اجتازت السيارة بسرعة "وادى البقاع" الممتد بين سلسلتين من الجبال. وبعد نهر الليطانى، قرب شتورة، بدأ صعودنا فى "جبل لبنان"، ومررنا بطريق متعرج بين منحدرات تطل على هاويات سحيقة يدور لها الرأس. ومن هنا يشاهد كل وادى البقاع. وإلى الغرب سلاسل الجبال التى تفصل بينها شعاب ضيقة.

خلال ربع ساعة قطعنا الطريق من المضائق الجبلية إلى مصيف "عين صوفر"، "مقر إقامتنا" الجديد فى "لبنان". و"عين صوفر" مصيف جبلى شبيه ببلودان. كان فى استقبالنا عند مدخل الفندق والذى يحمل، بالطبع، اسم "غراند هوتيل" ("الفندق الكبير")، وزير الخارجية "سليم تقلا" ورئيس قسم التشريفات فى الخارجية اللبنانية "نيقولا بطرس"

المتجهم الوجه. وكان معهما أشخاص آخرون لا اعرفهم. كما كان هناك الكثير من المتفرجين الفضوليين.

رافقني وزير الخارجية ورئيس التشريفات إلى جناحي. وخلال محادثة قصيرة تطرق "تقلا" إلى ما سبق أن تكلمنا حوله في دمشق:

- وعدتكم حينذاك ألا أدع مبررا للتذمر من التقييدات، ولسوف أفي بوعدي. وسيبذل السيدان "بطرس" و"دمشقية" كل ما في وسعهما لكيلا تشعروا بأية مضايقات. تجولوا حيثما تشاؤون وتعرفوا على من تريدون. بدون أية تقييدات! باستثناء. . . . تقييد ذاتي. مارأيكم في الاحجام عن الإدلاء بتصريحات صحفية حول سير المفاوضات؟

أجبت أنني موافق على إبقاء الصحفيين "جياعا" حتى نهاية المفاوضات.

ودعني الوزير قائلا إنه لا يريد الاثقال عليّ بأحاديث جدية، وأنه يدعوني و"دنيبروف" مساء إلى حفل يقيمه ليعرفنا برئيس مجلس الوزراء وأعضائه. وهناك سوف نتحدث في شؤون العمل.

غيرنا ملابسنا ونزلنا بمعية "نديم دمشقية" إلى مطعم الفندق حيث جلسنا إلى مائدة محجوزة لنا. لاحظ الحاضرون فورا قدومنا، ويبدو أنهم عرفونا، إذ صاروا جميعا يتهامسون ويتطلعون صوبنا. وكان أكثرهم حيوية أربعة رجال يجلسون إلى مائدة بين حاجزين، وكأنهم في مقصورة. أخذوا يلوحون بإيديهم ويلقون علينا نظرات أشبه بنظرات الكواسر. نهض أحدهم ودنا من مائدتنا واستدعى "دمشقية" بإشارة من رأسه. كلمه "نديم" بالعربية فعاد مخذولا إلى زملائه، وجلس "دمشقية" ثانية على كرسيه وعيناه تلمعان ببريق النصر.

تساءلنا بنظراتنا عن الخبر فأجاب دمشقية:

- إنهم صحفيون من "بيروت" ويريدون إجراء مقابلة، ولكن السيد الوزير افهمني. . . .

- أجل، أجل، أنا اعرف. لا تصريحات عن سير المفاوضات.

- بالضبط. ولكنهم لا يريدون السكوت عن ذلك. فهم مكلفون من صحفهم. عددهم الآن فى الفندق أربعة، وعند المساء سيكونون دستة كاملة. ولكننى سأحرص على ألا يضايقوكم.

بيد أن اعطاء مثل هذا الوعد أسهل من الايفاء به. ففى اليوم نفسه أحدثت ثغرة فى جبهة الكفاح ضد الصحفيين الذين لا يعيقهم عائق.

فى حوالى الساعة الرابعة اصطحبنى "نديم دمشقية" إلى قصر الرئاسة فى عاليه، على بعد عشرة كيلومترات من "صوفر"، إذ يقتضى البروتوكول أن اسجل اسمى فى سجل الزوار. ولم تأخذ منا السفرة والمراسيم فى قصر الرئاسة وقتا طويلا. عدنا إلى "عين صوفر" وارتدينا الملابس الرياضية، واتجهنا أنا و"نديم"، إلى ملعب التنس فى الفندق. لم يكن لدىّ فى الأيام الأخيرة متسع للتنس، لذا أخذت الآن العب بحمية. وفى أثناء اللعب طُلب "نديم" إلى التليفون. تفيأت بالأشجار وأخذت امسح عن وجهى العرق وانتظر عودة نديم.

ما كنت لاحتفظ فى ذاكرتى بهذه التفاصيل الصغيرة، لو لم تنشر صحيفة "بيروت" فى اليوم التالى ريبورتاجا بعنوان "مع الرفيق نوفيكوف فى عين صوفر". تضمن الخبر كل تفاصيل اليوم الأول لحلولى فى "لبنان"، وكل لقاءاتى وتنقلاتى، وحتى مظهرى الخارجي وشكلى بعد ساعتين من الركض فى ملعب التنس. وأخيرا تضمن الريبورتاج تصريحا

تصريحا أدليت به، عن دون قصد، إلى مراسل "بيروت"، وإن لم اتطرق إلى الموضوع الذى كان شغله الشاغل.

حصل ذلك حينما طَلب "تديم" إلى التليفون. وعلى حد ما قاله مراسل الصحيفة فإنه "انتهز فرصة غياب السيد "دمشقية"، فاقترب وحينما صار وجها لوجه مع مبعوث الرفيق "ستالين" حياه باسم صحيفة "بيروت".

وحينما عرف السفير أن صحفيا يقف أمامه قلب حاجبيه. ولكن مراسلكم عاهد السفير بأنه لن يأخذ تصريحا؛ بل حسبه أن يلازمه لحين عودة السيد "دمشقية".

لست واثقا من أننى قطيت حاجبىّ فعلا، ولكن لا شك أننى ارتبت بكلام الصحفى حول عدم رغبته فى إجراء مقابلة. فى البداية تماسك ولم يتطرق إلى الموضوع المحظور. سألنى عن سفرتى الأخيرة إلى حلب وانطباعاتى الأولى عن "لبنان". أجبت أن البلد يذكرنى بسويسرا من حيث المناخ والمناظر الجبلية الآسرة. وقد جاء فى الصحيفة أن "مراسلكم حينما سأل عما إذا كان هواء "لبنان" يضوع بالحرية والاستقلال مثل سويسرا، أجاب السفير مبتسما: "عليكم" على اللبنانيين، يتوقف ما إذا كان هواء لبنان هو هواء الحرية والاستقلال".

هكذا لف المراسل ودار لكى يصل إلى القضايا السياسية الملحة، ولكننى لم اشجعه على التمادى فى هذا المجال. وسرعان ما وصل "نديم"، وألقى نظرات غاضبة على المراسل، فسارع هذا إلى التوارى، ولكنه لم ينس أن يعرب عن شكره لما حظى به من "شرف وحظوة".
شعرت أن المخاوف تملكت "دمشقية"، فهدأته قائلا بأننا لم نتحدث فى

أى "محظور".

لم نستأنف المباراة فى تلك الأمسية، إذ كان ينبغى أن نستعد للحفل الذى يقيمه وزير الخارجية، والذى اعقبته حفلات توالت دون انقطاع تقريبا.

أقام "سليم تكلا" الحفل فى بيته الصيفى ببحمدون، على بعد عشر دقائق بالسيارة من عين صوفر. وحضر الحفل كل اعضاء مجلس الوزراء تقريبا، يتقدمهم "رياض الصلح"، وهو رجل مربوع القامة متوسطها. وقد كان الصلح رئيسا للوزراء أيضا فى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٤٣، حينما بينت السلطات الفرنسية للبنانيين نماذج من "الديمقراطية الغربية" باعتقالها الحكومة اللبنانية بكامل قوامها تقريبا. وحضر الحفل أيضا بعض زملاء الصلح السابقين فى الوزارة والسجن.

كان وجود مجلس الوزراء بكامل قوامه تقريبا فى غرفة الاستقبال مبررا لحوار ضاحك قبل بدء المأدبة. فقد خاطب أحد الوزراء "رياض الصلح" قائلا:

– ألم يحن الوقت، يا معالى رئيس الوزراء، لكى نفتتح اجتماع مجلس الوزراء.

فرد "الصلح":

– رئاسة اجتماع اليوم مسنودة لوزير الخارجية وليست لى. ما هو جدول الأعمال الذى تقترحه، يا "سليم"؟

– انتقال الجميع إلى غرفة الطعام للاحتفال بوصول الوفد السوفيتى احتفالا لائقا – وأشار "تقلا" بيده داعيا الضيوف إلى المائدة المعدة فى الغرفة المجاورة.

لن أتوقف عند الكلمات والأنخاب التى ساعدت على خلق جو ودى دافئ بين الحاضرين، بل سأنتقل إلى الحديث الذى أجريته أثر المأدبة مع رئيس الوزراء ووزير الخارجية. اختلينا فى مكتب الوزير بعد تناول الطعام، تاركين الضيوف يحتسون القهوة مع الكونياك.

بدأ "سليم تقلا" الحديث العملى:

- تعرف، ياسيادة السفير، إن الحكومة اللبنانية تابعت باهتمام مفاوضاتكم مع الحكومة السورية، وهى تحيى بحرارة نجاحها. كما تعرف أن الحكومة اللبنانية قررت أ ن تقتدى بسورية. وقد صغنا عمليا وثيقة ستوجه باسمى إلى السيد "مولوتوف".

توقف عن الكلام وكأنه يمنحنى فرصة لكى أقول شيئا، رغم أن ما قاله كان توطئة فقط على ما يبدو. اعربت عن الارتياح لان تقدما قد حصل، وأشرت إلى أن الاتصالات الأولية فى "بلودان" و"دمشق" قد لعبت دورا إيجابيا. فأكد "سليم تقلا":

- أجل، دورا كبيرا جدا. وبفضلها تمكنًا من التهيؤ مسبقا لدخول المسرح.

- تصور، أيها السيد "نوفيكوف"، - قال "رياض الصلح". - أننا نقلد أصدقائنا السوريين إلى حد كبير بحيث أن مسودة رسالتنا إلى "موسكو" ستكون مشابهة لرسالة السيد "مردم بك".

كانت نبرته ونظراته تلمح إلى أن كلماته تنطوى على مغزى خاص. قررت الانتظار ريثما يفصح رئيس الوزراء نفسه عن المغزى، وقلت بنوع من السذاجة والبساطة:

- رائع! فقد بلغت الرسالة السورية أهدافها على خير ما يرام.

- أجل، ولكن السيد "مولوتوف" لم يعر اهتماما لمبدأ هام جدا تضمنته الرسالة.

- ماذا تقصدون؟ سألت بدوري، وإن حدست ما يعنيه رئيس الوزراء اللبناني.

- أقصد أن مسألة الاستسلامات وسائر امتيازات "روسيا القيصرية". لم يتطرق إليها جواب "مولوتوف".

صدق حدسي! شبح الماضي السحيق إياه الذي كان يقض مضاجع السوريين. في "سورية" قدمت توضيحات حول الموضوع بدت لي كافية. ولكن يبدو أن عليّ تكرارها هنا أيضا. كررتها على مسمع رئيس الوزراء ووزير الخارجية بشكل شامل كامل كما فعلت في "سورية". ظلت طروحاتي الأساسية، كالسابق، تؤكد على أن المبدأ اللينيني الرافض للمعاهدات الجائرة ما برح ساري المفعول بالكامل، وقد أثبتته بشكل راسخ ممارسات اقامة العلاقات الدبلوماسية المتكافئة مع جميع البلدان، وبالتالي تنتفي الحاجة إلى التأكيد عليه من جديد. ولهذا فإن جواب "مولوتوف" لم يتطرق إلى الموضوع.

تبادل "سليم تقلا" و"رياض الصلح" نظرات، ثم قال رئيس الوزراء:

- نحن لا نشك أبدا في مصداقية اعتراف الحكومة السوفيتية بسورية كشريك متكافئ في العلاقات الدولية، رغم عدم تضمن الجواب إشارات مباشرة إلى ذلك. ونأمل أن تكون العلاقات السوفيتية اللبنانية في وضع مماثل، ورغم ذلك سنتطرق في رسالتنا إلى هذا الموضوع.

تطلع إليّ مستفهما وكأنه يتوقع مني اعتراضا فقلت:

– حينما ذكر "السيد تقلا" أن رسالته ستكون شبيهة بالرسالة السورية، هتفت "رائع!". والآن وبعد أن استمعت إلى المزيد من آرائكم، بوسعي أن أهتف ثانية "رائع!"، وأنا واثق من أن رسالتكم سيكون لها ذات المردود الايجابي الذي كان للرسالة السورية.

بهذا انتهى حديثنا العملي. ووعد "الصلح" بأن ينقل فحواه إلى رئيس الجمهورية قبل مساء الغد، واعرب عن الأمل بأنني سأبعث الرسالة إلى "موسكو" يوم الاثنين. عدنا إلى سائر الضيوف، وبعد نصف ساعة غادرنا، أنا و"دنيبروف"، المكان. وأصبح الآن بوسع الحكومة اللبنانية أن تعقد اجتماعا رسميا تاما. ولعل هذا ما حصل في تلك الأمسية.

الأحد يوم الراحة، ولكننا لم نخلد إلى الخمول. ففي النصف الأول من النهار توجهنا إلى "بعلبك"، وفي المساء تناولنا الطعام على مائدة رئيس الجمهورية "بشارة الخوري". ابلغنا الدعوة في الصباح رئيس التشريفات "نيقولا بطرس" الذي وصل ليرافقنا في جولاتنا، وبذا اضفى عليها طابعا بروتوكوليا.

كنا نعرف جزءا من الطريق الذي مررنا به، وتحديدا الجزء الممتد إلى "شتورة" في "وادي البقاع". الطرق الملتوية والالتفاف حول صخور تطل على منحدرات سحيقة عمقها كيلومتر، والمنحدر الصعب إلى الوادي، كل هذا خبرناه يوم أمس. عند "شتورة" يتفرع الطريق، فسلكنا الدرب المؤدي إلى الشمال الشرقي، إلى "بعلبك". سرنا زهاء عشرة كيلومترات بمحاذاة "نهر الليطاني" ذي المياه الفضية. حيثما ألقيت النظر وجدت

حقولا خضراء أوصفراء،وكروما وبساتين حبلى بالثمار. وعلى بعد ثلاثين كيلومترا من عين صوفر دخلنا زحلة السابحة في الجنائن، وهي مدينة تعتبر كبيرة بالمقاييس اللبنانية. إذ يزيد عدد سكانها على عشرين الفا.

المسافة بالسيارة من "زحلة" إلى "بعلبك" تستغرق زهاء نصف ساعة. انقاض "مدينة بعل" القديمة تشغل مساحة شاسعة خلف بلدة "بعلبك" الحديثة. كان "بعل" معبودا لدى الفينيقيين يعادل من حيث المقام "زيوس" عند الأغريق "وجوبيتر" لدى الرومان. وكان رمزا للشمس، ولذلك فإن "بعلبك" كانت في العهدين الهيليني والروماني تسمى هليوبوليس، أي مدينة الشمس. وباختصار فإن "بعلبك" مدينة عريقة.

بيد أنّ مواطني "بعلبك" الغيورين لم يكتفوا بالماضي التاريخي الموثّق، فقالوا إنهم ينحدرون من آدم وحواء اللذين سكنا بعد طردهما من الجنة (الزبداني المجاورة) في ضواحي مدينة بعلبك قبل أن تشيد.

وزُعم أن قابيل هو الذي شيدها، فبعد أن قتل أخاه هابيل شيد حصنا ليختفي فيه خوفا من الانتقام.

الاسطورة تبقى اسطورة، غير أن "بعلبك" تبهر الناظرين بآثار قائمة من العمارة الفينيقية وما بعدها، وإن كان الكثير منها في حاله يرثى لها. وعلى عهد المسيحية دمرت معابد "بعل" و"باخوس" و"الزهرة" التي كانت من فرائد العمارة فيما مضى. وبعد تدميرها أخذ المتعصبون الدينيون يستفيدون من الأنقاض كمواد إنشائية لبناء كنيسة مسيحية.

شاهدنا ما لم يقووا على تدميره، وما رفع الآثاريون طبقات التراب التي خلقتها القرون. معبد "بعل" هو أكبر المنشآت في عهد ما قبل المسيحية. وقد رُمّم فناؤه الفسيح والمذبح، الذي كانت تقدم عليه

القرابين، واحواض الوضوء، ولم يبق من أعمدة المعبد البالغ عددها ٥٤ ، سوى ستة، وارتفاع كل منها عشرون مترا. بيد أن معبدى "باخوس" و"الزهرة"، وهما من آثار العصر الرومانى، كانا فى حالة أفضل بكثير.

والحضارة المسيحية ممثلة هناك بالكنيسة إياها، أما الحضارة العربية فنجد أثرها فى بقايا المسجد الذى شيده فى القرن الثالث عشر "السلطان بيبرس" قاهر الصليبيين.

انتهت الجولة. بناء على طلب جمهرة من السكان المحليين تصورنا وإياهم على خلفية أعمدة معبد بعل. وغادرنا هذ المكان الفريد الذى تجتمع فيه المعابد والمساجد والمقابر والقلاع. هدفنا التالى هو مقالع رأس العين التى كانت بالنسبة للمعماريين القدامى مصدرا للمواد الانشائية. وثمة هناك ما هو أهل للاعجاب والدراسة، وخاصة فى المقلع الكبير عند مدخل بعلبك. فقد شاهدنا جلاميد حجرية هائلة صُقلت ولكنها لم تستخدم لسبب ما. احجامها تبعث على الانبهار، بل إن أحدها فريد من نوعه: فطوله ٢١ مترا وارتفاعه ٤.٢ متر وعرضه ٦.٤ متر، ويبلغ وزنه حوالى ألفى طن. ومهما ضربت اخماسا بأسداس لن تحل اللغز المحير: كيف كان الفينيقيون فى الأزمان الغابرة، وبتكنولوجيا بدائية، ينقلون هذه الجلاميد الهائلة ويستخدمونها فى البناء؟ وليس عجيبا أن تظهر فى الصحف خلال السنوات الأخيرة فرضيات تزعم أن أبناء حضارات راقية من كواكب أخرى هم الذين كانوا يعالجون هذه الجلاميد.

اختتمت الجولة فى قرية رأس العين الرائعة حيث أقام لنا وجهاؤها مأدبة فطور.

فى المساء حضرنا الحفل الذى أقامه رئيس الجمهورية على شرف

الوفد السوفيتى وكان عدد المدعوين إليه اقل مما إلى الحفل الذى أقامه وزير الخارجية. فعلاوة على "رياض الصلح" و"سليم تقلا"، دعا "بشارة الخورى" وعقيلته سبعة أشخاص فقط، وكان بينهم "نيقولا بطرس" و"نديم دمشقية" واثنان من مرافقى الرئيس. وجرت المأدبة فى إطار المراسيم مما جعلها تختلف كثيرا عن جو الألفة الذى ساد حفل "سليم تقلا". أخبرنى الوزير خلال المأدبة أن صيغة برقيته إلى "مولوتوف" قد نوقشت وأقرت على جميع المستويات يوم الأحد، وأنه سيسلمنى إياها يوم غد فى "بيروت". وعدت بأن أكون هناك فى الوقت المحدد.

سافرنا يوم الاثنين الموافق ٣١ تموز (يوليو) إلى "بيروت"، وجمعنا بين العمل والسياحة.

انطلقنا إلى "بيروت" ولم يكن طول الطريق يزيد عن ثلاثين كيلومترا. أول نقطة فى طريقنا هى عالية، مقر إقامة رئيس الجمهورية، وفى الوقت نفسه، يوجد فيها الكثير من الكازينوهات وسائر محلات التسلية غير البريئة. بعد عالية ينحدر الطريق نحو السهل الساحلى. تجولنا على مهل فى شوارع العاصمة وميادينها لتكوين انطباع عام عنها، ثم توجهنا إلى المتحف الوطنى، استقبلنا هناك مدير المتحف "موريس شهاب" واطلعنا على المعروضات النفيسة، وهى فى الغالب تعود إلى العصر الفينيقى، وإن كانت معروضات من عهود أخرى.

اقترب وقت الفطور فاتجهنا إلى فندق "نورماندى" حيث حجزت لنا وزارة الخارجية جناحا. ومن الطريف أن المخبرين الصحفيين الذين كانوا يسجلون، بدقة المحققين الجنائيين، الأحياء التى زرناها والمعالم التى تفقدناها، وكيف كان الناس يتجمعون حولنا والأسئلة التى وجهت إلينا

وأجوبتنا "الدبلوماسية اللبقة" عليها، ظلوا جاهلين تماما بالغرض الأساسى من قدومنا إلى "بيروت". وقد فاتهم أن "حليم حرفوش" مدير ديوان وزير الخارجية جاء إلى جناحنا بعد الفطور وسلمنى رسالة "سليم تقلا" إلى مفوض الشعب للشؤون الخارجية "مولوتوف".

كما أبلغنى "رياض الصلح" و"سليم تقلا" يوم السبت، كانت الوثيقة مماثلة للرسالة السورية ولكنها، طبعا، تختلف عنها فى النص. فقد ثبتت فيها مسألة الاستسلامات التى وردت وكأنها عرضية فى عبارة تشيد بالسياسة الخارجية للاتحاد السوفيتى. وقد ورد فى النص ما يلى: "إن الشعب اللبنانى الذى ناضل سنوات طويلة فى سبيل استقلاله وسيادته وحققهما لتوه بالكامل، على قناعة راسخة من أن السياسة الخارجية السوفيتية قائمة على احترام الحرية والمساواة بين جميع الشعوب، أى على المبادئ التى تتنافى معها محاولات الغزو والتسلط، وكذلك الاستسلامات والأفضليات وسائر الامتيازات التى كانت تحظى بها روسيا القيصرية".

من المستبعد أن اللبنانين - بعد التجربة السورية وتوضيحاتى - كانوا يتوقعون بجد أن تتطرق "موسكو" فى ردها إلى قضية الاستسلامات. ولكن هذه القضية كانت بالنسبة لهم من الأهمية بمكان، بحيث لم يكن بوسعهم ألا يقوموا بمحاولة للحصول على النتيجة المرجوة.

ودعنا "حليم حرفوش" وشرعنا بالعمل، إذ كان ينبغى أن نترجم الوثيقة ونعدها لا براقها إلى "موسكو". وبعد ذلك واصلنا، نحن الأربعة، جولتنا فى "بيروت".

سأوجز الآن حصيلة ما رأيته وعرفته فى العاصمة اللبنانية يوم الاثنين وفى زياراتى التالية إلى "بيروت". ومن البديهى أن قسما من انطباعاتى والمعلومات التى أوردها، يختلف اختلافا جوهريا عن تصورات زوار "بيروت" الحاليين.

تشبه "بيروت" فى مظهرها الخارجى مدن أوربا الجنوبية، باستثناء الجزء القديم منها الذى يذكر بالشرق. وتوجد هناك المساجد والأسواق الشرقية والأزقة ذات البيوت الطينية. بيد أن الملامح الأوربية غزت هذه المنطقة أيضا، فيجد المرء أبنية عصرية تجاور المبانى الشرقية القديمة. فى وسط المدينة السراى والبنوك والمتاجر الكبيرة. وفى كل شارع تقريبا مساجد وكنائس لمختلف الطوائف المسيحية. ويقيم فى "بيروت" ثلاثة بطاركة وهم بطاركة "كنيسة الروم الكاثوليك" و"الكنيسة السريانية الكاثوليكية" و"الكنيسة الأرمنية".

"بيروت" ميناء ضخم، بيد أنه كان شبه معطل آنذاك. وقبل الحرب كانت السياحة تدر عوائد كبيرة على البلد، بيد أنها فى كساد تام تقريبا الآن. يقطن المدينة أكثر مَن ٢٠٠ ألف شخص بينهم عدد كبير من الأجانب، وبالدرجة الأولى من الفرنسيين والانجليز والأمريكان. وهم موظفون فى البنوك الأجنبية والمؤسسات التجارية والبلدية ومبشرون وأساتذة فى المعاهد العليا والمدارس.

ظلت المدينة فترة طويلة مرتكزا للتوسع الفرنسى فى الشرق الأوسط. ومنذ القرن التاسع عشر مد الرأسمال الفرنسى جذورا عميقة هناك. وبعد الحرب العالمية الأولى، حينما أصبحت "سورية" و"لبنان" تحت الانتداب الفرنسى، غدت "بيروت" مقرا للمندوب السامى

الفرنسي. وفى أثناء زيارتنا كان المرء يشعر بأنها ما برحت كذلك فى بعض الجوانب. فى ساحة الشهداء (البرج) يوجد تمثال للابطال اللبنانيين الذين استشهدوا فى سبيل حرية الوطن. وفى الشوارع المجاورة لم تُرفع بعد اليافطات التى تحمل أسماء أشخاص قمعوا استقلال لبنان إرضاء للاستعمار الفرنسي، مثل "فوش" و"غورو" و"ويغان".

تفرجنا "حتى التخمة" على كل ما يستحق المشاهدة، وعدنا مساء إلى "عين صوفر" الهادئة والباردة.

لم تكن لدينا فى هذه الأمسية أية مآدب. تناولنا طعامنا فى مطعم الفندق وكنا خمسة، إذ انضم إلى مجموعتنا (ومن ضمنها "الوصى") نائب رئيس الوزراء اللبنانى "حبيب أبى شهلا" الذى كنت التقيت به فى حقل وزير الخارجية. كان رجلا مرحا ظل يحكى لنا باستمرار نكاتا كان منها فى جعبته الشئ الكثير. بين الحين والحين كان نزلاء الفندق يفدون لتحيته، وقد عرّفنا على بعضهم. وبعد أن فرغنا من تناول الطعام اقتنعنا بالبقاء فى المطعم "لمجرد الجلوس والاستماع إلى الموسيقى". ما أن وافقنا حتى صُفّت إلى مائدتنا، بإشارة من "حبيب ابى شهلا"، مائدتان اخريان شغلهما ، بسرعة مذهلة، معارفنا الجدد.

أصبحما، أنا و"دنيبروف"، وسط مائدة طويلة، محاطين بالاهتمام الذى تقاسمه معنا "حبيب ابى شهلا" الذى كان سيد المائدة. وما أن كان يلاحظ أن أحد الحاضرين بدأ يضايقنا بأسئلة محرجة حول الموضوع المحظور، حتى تتضاعف جهوده لتسلية الحاضرين، وبذا يقطع دابر "التطاولات" غير المرغوب فيها.

عدنا إلى غرفنا فى وقت متأخر، بعد أن دعانا "حبيب ابى شهلا"

إلى مأدبة غداء يقيمها تكريما لنا فى اليوم التالى فى أحد مطاعم عاليه.

صباح الأول من آب (أغسطس) ابلغنى "نديم دمشقية" أن المطران الأرثوذكسى "إيليا كرم" طلب تلفونيا أن يلتقى بى، فى ذلك اليوم إن أمكن، وفى أى وقت اختار. اجبت أن بوسعى استقباله فى الساعة الرابعة.

فى الموعد المحدد شرفنى صاحب الغبطة بزيارته، وكان هدفها الأساسى هو نقل دعوة بطريرك انطاكية "الكسندر" لزيارته فى مقر البطريركية الصيفى يوم الاربعاء أو الخميس، وترك لى تحديد الموعد.

كانت تلك الدعوة الثانية من "البطريرك الكسندر". فقد تلقيت الدعوة الأولى منه ربيعا فى "القاهرة" أثناء الحفل الذى أقامه "لطف الله". أجبت آنذاك أننى سأكون مسرورا بزيارته إذا شاءت الصدف أن اكون فى لبنان، وها أنها قد شاءت حقا. إن اللقاء بواحد من المعارف القدماء، إضافة إلى كونه ذا كلمة مسموعة بين الارثوذكس فى "سورية" و"لبنان"، كان يمكن أن يغدو نافعا لمهمة المساعى الحميدة التى نقوم بها. رجوت "المطران كرم" أن يشكر البطريرك على دعوته ويخبره أننى سأزوره يوم الاربعاء الموافق الثانى من آب (أغسطس).

فى المساء مر "حبيب ابى شهلا" فى سيارته فركبت، مع "دنيبزوف" و"نديم"، وبعد نصف ساعة كنا نشغل أماكننا على طاولة فى مطعم بعالية، ولعله أغلى مطاعم المدينة. وكانت فى انتظارنا مفاجأة هناك.

فى البداية جرى كل شئ بشكل طبيعى. نادلان خدومان سجلا بسرعة طلباتنا. على المنصة فرقة موسيقية تعزف لحن فوكستروت بطئ

انسيابى، وفى وسط القاعة أزواج الراقصين وهم يتهادون على أرضية المكان. وبغتة توقفت الموسيقى، وقبل أن يتسنى للراقصين العودة إلى موائدهم، عزفت الفرقة أغنية "كاتيوشا". أجل الأغنية الشهيرة فى تلك السنوات، والتى كانت كل مفردة فيها تولد فى نفسى شعورا هو مزيج من السعادة والأسى، إذ تذكرنى بالديار البعيدة. ساءلت نفسى: أية مصادفة سعيدة ادخلت هذه الأغنية فى ريبرتوار فرقة المطعم، وجعلتها تؤديها فور قدومنا؟ ولكن حينما شاهدت عينى "حبيب ابى شهلا" تتألقان بخبث، عرفت أنها مفاجأة موسيقية أعدها لنا.

بعد أداء الأغنية دنا قائد الفرقة من حافة الخشبة وانحنى لمائدتنا أربع مرات، انحناءة لكل منا. ضجت القاعة بالتصفيق، إذ فهم الجميع لمن عزفت الموسيقى. وبهذه الطريقة الفريدة قدم "حبيب ابى شهلا" للجمهور ضيفيه السوفييتيين.

عزفت الفرقة بعد ذلك أغنيتين روسيتين معروفتين. ومن يعلم كم من "النمر الروسية" فى جعبتها؟ أحدق بالراقصين خطر الكف عن الرقص بسبب كرم مضيفنا، وقد أخبرته بذلك. ضحك وقال: "سوف نرتب كل شئ". واشر لنديم دمشقية الذى همس فى أذن قائد الفرقة، وبدد الخطر للتو. عزفت موسيقى التانغو، وبعد فترة تعالت إيقاعات الرومبا، فعادت حياة المطعم إلى مجراها المعتاد.

توجهت يوم الاربعاء – لوحدى هذه المرة – إلى "شوير" حيق المقر الصيفى للبطريرك "الكسندر". وتقع "شوير" على سفح جبل إلى الجانب الشمالى من الوادى الذى كان بوسعنا أن نتمتع بمنظره من "عين صوفر".

كان البطريرك يسكن منزلا متواضعا تحيط به حديقة وارفة الظلال، قرب دير ارثوذكسى. استقبلنى ببشاشة فائقة تشوبها صبغة دينية، وحيانى بالروسية. ودار الحديث بيننا بالروسية فى الغالب، وعندما كان مضيفى يجد صعوبة، ينتقل إلى الفرنسية. هنأنى بحرارة على نجاح مهمتى فى سورية، وأعرب عن أمله فى أن تتكلل مهمتى فى "لبنان" بنجاح مماثل.

أثناء الفطور الذى حضره المطران "إيليا كرم" وعدد من القساوسة الآخرين، تناول الحديث مختلف المواضيع. أشار البطريرك بمرارة عميقة لم يحاول إخفاءها، إلى أنه بعد الحاق "الاسكندرونة" و"انطاكية" بتركيا، لم يعد للقبه "بطريرك انطاكية" سوى مغزى شكلى، فإن بيروت الآن أصبحت مقر إقامته الدائم. ولم يعد له عمليا أى تأثير على الرعية الارثوذكس فى "الاسكندرونة". وكما كان الحال فى "القاهرة"، فإن البطريرك اطلق لذاكرته العنان ليسترجع أيامه فى "بطرسبورغ"، ولكنه استدرك وبدأ يتحدث عن "لينينغراد" المعاصرة وصمودها الخارق وبسالة حماتها خلال ..٩ يوم من الحصار.

ادى هذا التحول فى الموضوع بنا إلى تداول حديث عام حول آفاق الحرب. واجمع الحاضرون على أنها سوف تنتهى عام ١٩٤٤، وكنت معهم فى تفاؤلهم. ففى مطلع آب (اغسطس) بدا أن لذلك التفاؤل مبررات كافية. فنتيجة الهجوم الصيفى الذى شنه الجيش الأحمر فى بيلوروسيا ومنطقة البلطيق وأوكرانيا، ثم تحرير الغالبية الساحقة من الأراضى السوفيتية التى يحتلها الالمان. وصارت المعارك تجرى على اراضى "بولونيا" و"بروسيا الشرقية". صحيح أن الجبهة الثانية فى

الغرب لم تكن قد عادت بعد بانتصارات كبيرة على الحلفاء، ولكن تباطؤ القوات الانجلو-امريكية اعتبر فى ذلك الحين ظاهرة مؤقتة ليس إلا. فمن كان يفكر آنذاك بأنهم سوف يراوحون فى مكانهم زمنا طويلا، بل ويطلبون فى مطلع عام ١٩٤٥ عونا عاجلا من الجيش الاحمر؟

عند الوداع قال "البطريرك الكسندر" أنه ورعيته لن يكفوا أبدا عن رفع الصلوات إلى الرب لينصر السلاح الروسى. اعربت له، ومن خلاله للأرثوذكس المؤمنين فى "لبنان" و"سورية"، عن الامتنان للمشاعر الطيبة حيال بلادنا وجيشها الأحمر.

فى لحظة مغادرتى وجدت أن الساحة التى تطل عليها مقر البطريركية غاصة بأهالى المنطقة. كانوا ينشدون أغانى شعبية عربية وبين حين وحين تتعالى حناجرهم بالهتاف. وعند ظهور سيارتى استقبلها الجمهور بعاصفة من الهتاف التصفيق. فتحت الباب وظللت الوّح لاهالى "شوير" بيدى حتى انعطفت السيارة ولم أعد اشاهدهم. وفى اليوم التالى كتبت صحيفة "صوت الشعب" عن "الاستقبال الحافل للسيد "نوفيكوف" من قبل أهالى "شوير" وضواحيها". واعتقد أن ظاهرة الود هذه كانت عفوية من أولها إلى أخرها. وكنت قد لاحظت شيئا مماثلا فى "بعلبك" وشوارع "بيروت".

حينما عدت إلى "غراند هوتيل" ابلغنى "دنيبروف" أنه تم استلام برقية "موسكو" الجوابية حول إقامة العلاقات الدبلوماسية مع "لبنان". وبعد ربع ساعة سلمنى "ماتفييف" نصها. كان مضمونها يكرر، بالنص تقريبا، البرقية التى أرسلت قبل عشرة أيام إلى "جميل مردم بك"، لذا لن أورد فقرات منها.

وبذا فإن رد "موسكو" الايجابى كان الخاتمة القانونية لعمل تاريخى، وأعنى إقامة العلاقات الدبلوماسية بين "الاتحاد السوفيتى" و"لبنان".

شرعنا فورا بالعمل، أنا و"دنيبروف" و"نديم دمشقية" الذى صار مؤقتا بمثابة سكرتير فنى لوفدنا. توليت ترجمة البرقية إلى الفرنسية وقام "دنيبروف" بإعداد مذكرة تشفع بها إلى وزارة الخارجية. أما "نديم" فطفق يستوضح مكان تواجد وزير الخارجية. وحينما انجزت الوثيقتان طبعهما "نديم" على الآلة الكاتبة، ثم نقلهما إلى "سليم تقلا" فى "بحمدون".

بعد حوالى ساعة ونصف اتصل "سليم تقلا" بى تلفونيا وقال بصوت فرح جذل:

- أولا، أود أن اشكركم لهذه السرعة الخارقة. حدثنا "دمشقية" كيف عملتم بانتظام لكى تنقلوا إلينا فى الوقت المناسب وثيقة بالغة الأهمية بالنسبة لنا. وقد اقتديت بقدوتكم ولم أضيع الوقت، التقيت بفخامة رئيس الجمهورية واتصلت تليفونيا بمعالى رئيس الوزراء. وقد اسعدنا جميعا أن "الاتحاد السوفيتى" يعترف باستقلالنا دون قيد أو شرط. لقد كنتم، ياسعادة السفير، على حق، على حق تماما حينما أكدتم لنا المبدئية الرفيعة للسياسة الخارجية السوفيتية. والآن، بعد أن انجز الأمر الرئيسى، نود الاحتفاء بهذه الخطوة فى احتفال مهيب كما تستحق. وكونوا على ثقة أن "بيروت"، فى هذا المجال، سوف تبز "دمشق".

كان تلميحه واضحا لا يصعب فهمه. فبسبب "التكتم" الأولى لم يتسن لوزارة الخارجية السورية أن تتهيأ كما ينبغى للمراسيم. وبالتالى

بدت باهتة. لننتظر كيف ستجرى فى "لبنان".

أظهرت الأيام التالية أن المراسيم جرت بشكل مدروس وبقدر من الأبهة يفوق بكثير ما جرى فى "دمشق".

ففى الثالث من آب (اغسطس) عملت وزارة الخارجية بكل حمية. واستقبل "سليم تقلا" صباحا فى مكتبه أعضاء لجنة الشؤون الخارجية فى مجلس النواب وأبلغهم بسير المفاوضات ونتيجتها. وقد أيدت اللجنة نشاط الوزارة، وأبلغت الصحفيين بذلك. وفى تلك الأثناء عكف قسم التشريفات على وضع برنامج الفعاليات للأيام القادمة، واستحصل موافقة الهيئات المعنية عليه، وأخيرا احاطنى علما به.

طبقا لهذا البرنامج انتقل وفدنا فى النصف الثانى من نهار اليوم التالى إلى "بيروت"، حيث أقمنا فى فندق "نورماندى". وفى الساعة السادسة مساء أرسل إلينا رئيس الجمهورية سيارته، فاقلتنا إلى ساحة الشهداء (البرج) فى وسط المدينة حيث يوجد مقر مجلس الوزراء.

بدت الساحة فسيحة وذلك لمنع السيارات والمارة من دخولها. وبدت فى حلة العيد حينما رفعت الأعلام اللبنانية والسوفيتية على جدران البيوت وأعمدة الكهرباء. وغصت الأرصفة بالجماهير التى كانت ستتدفق على الساحة لولا وجود حواجز من رجال الشرطة. واحتشد الالاف على شرفات المبانى المطلة على الساحة، أو كانوا يطلون برؤوسهم من النوافذ المشرعة. واصطفت على أرضية الساحة قلة من حرس الشرف وكانت أبواق فرقة الهوائيات العسكرية تلتمع تحت أشعة الشمس.

عندما خرجنا من السيارة قابلنا الجمهور بعاصفة من التصفيق والهتاف. استقبلنا نحن الثلاثة - أنا و"دنيبروف" ومرافقنا الدائم "تديم دمشقية" - ضباط ومدنيون رافقونا إلى حيث يصطف حرس الشرف. عزف السلامان الوطنيان اللبناني والسوفيتي، وامتثالا للأوامر ادى الجنود التحية لنا، وتفقدناهم ونحن فى طريقنا إلى مبنى مجلس الوزراء، وسط أنغام المارشات.

استقبلنا عند المدخل رئيس التشريفات "نيقولا بطرس"، ورافقنى إلى الطابق الثانى حيث مكتب رئيس الوزراء. كانت تلك زيارتى الأولى إلى رئيس الحكومة بعد إقامة العلاقات الدبلوماسية. وجدنا هناك، علاوة على "رياض الصلح"، نائبه "حبيب أبى شهلا" و"سليم تقلا". الثلاثة فى مزاج رائق. وكان الحديث وديا للغاية. سألنى "رياض الصلح" عن رأيى فى مراسيم الاستقبال فأجبت:

- تكون لدىّ انطباع أن فى لبنان عيدا وطنيا كبيرا، ولى الشرف فى حضوره.

فرد رئيس الوزراء:

- إنه حقا عيدنا الوطنى. وأنتم، ياسعادة السفير، لستم مجرد شهود عيان، بل من المشاركين بل من المشاركين الرئيسيين.

استمر اللقاء فى مكتب رئيس الوزراء زهاء نصف الساعة، وتطرقنا خلاله إلى أمور كثيرة. وبمبادرة من "حبيب ابى شهلا" تناولنا سيرة حياة "رياض الصلح". أنه شخصية فريدة ومن المناضلين القدامى فى سبيل الاستقلال الوطنى. ففى الحرب العالمية الأولى، وهو فى العشرين من عمره، حكمت عليه السلطات التركية بالاعدام ثم استبدل الحكم بالنفى.

وحكم عليه بالاعدام ثانية، من قبل سلطات الاحتلال الفرنسى هذه المرة، ولكن الحكم استبدل بالنفى من "لبنان". وبعد عودته سرا إلى الوطن اعتقله الفرنسيون من جديد ونفوه إلى القامشلى. وفى عام ١٩٤٣ أصبح أول رئيس للوزراء فى الجمهورية اللبنانية المستقلة. وهنا أضاف "رياض الصلح" ضاحكا ومتذكرا أحداث تشرين الثانى .(نوفمبر) ١٩٤٣ المأساوية: "وأول رئيس للوزراء يسجن مع كل حكومته". يمكن الآن التندر على تلك الأحداث، فمزاج الحاضرين رائق وكأن الجمهورية الفتية ذللت كل الصعاب.

بعد انتهاء الحديث استدعى المصورون إلى المكتب، فالتقطوا لنا صورا مختلفة: الأربعة جميعا، أو ثلاثة، أو "رياض الصلح" وأنا.

توجهنا برفقة "سليم تقلا" عبر الساحة الغاصة بالناس إلى وزارة الخارجية، حيث تقرر عقد مؤتمر صحفى فى مكتب الوزير. اجلسنى الوزير وراء طاولة العمل، ووقف هو أمام الصحفيين الذين غصت بهم الغرفة، وتلا عليهم بالعربية والفرنسية، نصى البرقيتين المتبادلتين بين "بيروت" و"موسكو". وعكف الصحفيون على تدوين كل كلمة فى أوراقهم. وبعد أن قدم لى الصحفيون واحدا تلو الآخر، أمطرونا، الوزير وأنا، بوابل من الأسئلة. كان بعض الأسئلة الموجهة إلىّ ينطوى على نوع من الخبث، إن لم استخدم لفظا أقوى، رغم أنه مصاغ بطريقة لبقة. وفى مثل هذه الحالات كنت أجيب تارة بإعطاء توضيحات جدية وتارة بملاحظة ساخرة. وأحيانا كان "سليم تقلا" يتدخل فى الحوار، ليقاطع معاتبا اللجوجين من "محققى محاكم التفتيش" وهو تعبير أطلقه على الصحفيين.

فى الأمسية نفسها استقبل رئيس الوزراء الصحفيين وتلا عليهم نص بيان الحكومة حول إقامة العلاقات الدبلوماسية بين "لبنان" و"الاتحاد السوفيتى"، والذى أكد على أهمية هذه الخطوة. وجاء فى البيان (مترجما إلى العربية):

"هذا واحد من أكبر الأحداث فى حياة بلدنا منذ نيله الاستقلال. إن اعتراف الاتحاد السوفيتى غير المشروط سوف يعزز استقلالنا ويجعله راسخا. ولسوف يبدد اعتراف "الاتحاد السوفيتى" بلبنان الشكوك التى عمل البعض على إثارتها لتضليل الرأى العام".

عندما قرأت فى الفندق نص البيان بدت لى العبارة الأخيرة ذات مدلولات كثيرة. واستعدت فى ذاكرتى المؤتمر الصحفى الأخير حيث كان "محققو محاكم التفتيش" يحاولون أن يحجبوا الشمس بغربال. كما تذكرت الغمز واللمز فى مقالات نشرت فى بعض الصحف أحيانا. وتحدثت تلك المقالات عن "قلق" مزعوم لدى اللبنانين بسبب "تأخر اعتراف موسكو باستقلال بلدان المشرق". وحاول مدبجو تلك المقالات التقليل من شأن اعترافنا وتضخيم دور الدول الغربية كضامن أمين لاستقلال "لبنان". ولعل رئيس الوزراء كان يقصد كتّاب هذه الاختلاقات عند حديثه عن مثيرى الشكوك. ولكن الأرجح أنه لم يكن يقصد هؤلاء فقط. فهؤلاء الصحفيون لم يكونوا، فى التحليل الأخير، سوى كتّاب مأجورين من قبل أوساط سياسية، لبنانية وأجنبية، سعت لابقاء "لبنان" تابعا للامبريالية، وعزل شعبه عن انسام التحرر الوطنى الهابة من حدود بلاد السوفيت.

نشرت فى عدد من الصحف - ليس اللبنانية فحسب، بل السورية والمصرية أيضا - مقالات غير ودية إزاء "الاتحاد السوفيتى" بعد إقامة العلاقات الدبلوماسية مع لبنان أيضا. وتشبث "مثيرو الشكوك" فى حينها بمسألة اعتبروها "نذير شؤم"، ومفادها أن برقيتى "مولوتوف" إلى "مردم بك" و"سليم تقلا" لم تتضمنا كلمة واحدة حول استسلامات وامتيازات "روسيا القيصرية". وعمدت الصحف إلى الحديث عن "موقف موسكو الغامض" واحاطته بشتى الاراجيف. فإن أحد "المثيرين للشكوك" طرح "بقلق" التساؤل الاستفزازى التالى: "ألا يعنى ذلك أن حكومة السوفيت تركت هذه المسألة جانبا لكى تعود إلى بحثها فى المستقبل؟"

بيد أن مواد الصحافة، فى غالبتها الساحقة، اعطت تقييما ايجابيا للحدث. ومن الأمثلة على ذلك افتتاحية مجلة "الصياد" فى التاسع من آب (اغسطس)، وقد جاء فيها:

"كان اعتراف روسيا باستقلال لبنان فى مركز الاهتمام طوال الأسبوع الماضى وفى مطلع الاسبوع الحالى. وقد استقبلته الصحافة وأوساط الرأى العام فى لبنان بابتهاج، وخاصة حينما علمت بمضمون البرقيات، وعرفت أنه لم ترد فيها أية تحفظات أو شروط. ولا شك أن روسيا، هذه الأمة الديمقراطية العظيمة، قد اعترفت باستقلال بلدنا بكل اخلاص وصراحة، ساعية إلى أن يتمتع شعبنا الصغير بكل حقوقه وحرياته وسيادته المطلقة".

نشرت مواد كثيرة عنى شخصيا، وكانت تطغى عليها فى الغالب نبرة الثناء، ولكنها أحيانا تقطر سما. ولكن مثل هذا التحامل كان

يجابه عادة بالردع. فبتاريخ ٤ آب (اغسطس) كتبت صحيفة "آسيا" تقول:

"كان السفير الروسى "نوفيكوف" اجتماعيا جدا فى "غراند هوتيل" بصوفر، رغم أن البعض صوره لنا شخصية غامضة، انسانا لا يزور ولا يزار. كان يتملص من المواضيع السياسية ولكنه يتحدث بكل انشراح عن سائر االشؤون: عن الحياة عموما والبشر والعلم والشعر والتاريخ. لماذا صوروه لنا مومياء، غولا؟ إنه يأكل ويشرب ويرقص ويتنزه ويلعب الشطرنج ويكسب، وينكت ويضحك. إنه ليس نفورا أو زاهدا . . . "

ولكن لنعد إلى إقامة العلاقات الدبلوماسية والاحتفالات التى أقيمت بمناسبتها. كانت المراسيم والزيارات الرسمية التى جرت يوم ٤ آب (أغسطس) مجرد فاتحة لها. ففى يوم السبت الموافق ٥ آب (أغسطس) أقامت وزارة الخارجية مأدبة افطار فى قاعة الحفلات بالوزارة على شرف الوفد السوفيتى. وفى النصف الثانى من اليوم نفسه أقام "سليم تقلا" وعقيلته "غاردن بارتى" أى حفلا فى الهواد الطلق بحديقة مدرسة الحرف والفنون، للغرض نفسه. وكان من بين الحاضرين أعضاء الحكومة يتقدمهم رئيس الوزراء، ونواب البرلمان ووجوه المجتمع والصحفيون وأعضاء السلك الدبلوماسى. ووصل من دمشق "جميل مردم بك" للمشاركة فى الحفل.

ازدانت الحديقة ذات النباتات الاستوائية الجميلة بالاعلام السوفيتية واللبنانية. وصبغت مياه الحوض المركزى فى الحديقة باللون الأحمر وعومت فيها شارات ترمز للاتحاد السوفيتى: مطرقة ومنجل ونجمة

خماسية، مما جعل الحوض، على حد تعبير المراسلين، "يتحول إلى راية خفاقة لروسيا الظافرة". وقد أستأثر هذا الديكور ذو الطابع السياسى باهتمام الحاضرين جميعا، ولم ينافسه في الاهتمام إلا الموائد العامرة بالأكل والشراب.

كما فى اليوم السابق، عزف السلامان الوطنيان اللبنانى والسوفيتى عند قدوم وفدنا. ومن هذه المراسيم التقليدية استوحى مراسل صحيفة "ريفيو دى ليبان" تأملاته الطريفة، فقد أشار إلى أن السلام السوفيتى الذى عزف كان جديدا، واستطرد قائلا: "شعر المرء بنوع من الأسف لأنه لم يكن "نشيد الأممية". فقد كان سيصبح من دواعى البهجة أن نستمع جهارا لأول مرة إلى النشيد الذى كان المعتقلون فى كل سجون أوربا يغنونه طوال عشرين سنة، النشيد الذى غناه مرارا فى سنوات الحرب المحكومون بالأعدام، حينما كانوا يواجهون جلاديهم". وليس ثمة شك فى أن هذه السطور ذات النبرة "الحمراء" الواضحة لم ترق "لمثيرى الشكوك" ومن يقفون وراءهم.

كان الأحد بالنسبة لى يوم راحة من الحفلات والمراسيم، ولكن ليس من التزاماتى كضيف على البلد. ففى ذلك اليوم منحتنى الرابطة الرياضية فى "لبنان" لقب حكم فخرى فى مباريات التنس. وعوضا عن منازلة "نديم دمشقية" فى الملعب اضطررت إلى أن امضى النصف الأول من النهار وراء طاولة التحكيم، ثم فى توزيع الجوائز على الفائزين. ولكن متابعة لعب الشباب المتدربين جيدا وذوى اللياقة العالية كانت متعة كبيرة، لذا لم آسف على الوقت المضاع.

فى النصف الثانى من النهار ابلغنى "نديم" أن لى نداء دوليا من

القدس. أخذت السماعة مستغربا، فسمعت صوت "ايرينا الكسنروفنا". اتضح أنها فرت إلى هناك هربا من حر القاهرة و "لكى تشم الهواء العذب". وهكذا عرفت لأول مرة أن "القدس" التى تكاد تكون فى طرق من الأراضى الصحراوية اللاهبة، يمكن أن تكون أيضا مصيف، إن ارتفاع ٨٠٠ متر عن مستوى سطح البحر ليس كبيرا، ولكنه يخفف من قيظ الصحراء بشكل ملحوظ.

هنأتنى "ايرينا الكسندروفنا" على نجاح مهمتى فى "سورية" و"لبنان" "التى لا يوجد هنا فى "القدس" موضوع سواها للحديث". وقالت أنها، كأمرأة روسية، تفخر لتنامى نفوذ وهيبة "روسيا" فى الشرق الأوسط. وسألتنى عن الطريق الذى سأسلكه للعودة إلى "القاهرة". واختتمت حديثها بالقول: "إذا مررتم عبر القدس فتذكروا إننى و"الأمير بطرس" سنكون سعيدين جدا برؤيتكم". شكرتها على مجاملتها ووعدت بإن ازورها وزوجها فى "القدس" التى اعتزم المرور عليها فى زيارة عمل.

يوم الاثنين الموافق ٧ آب (اغسطس) اقمت مأدبة للحكومة اللبنانية، حضرها علاوة على الوزراء، موظفو وزارة الخارجية الذين عملوا مع وفدنا باستمرار: "حليم حرفوش" و"نيقولا بطرس" و"نديم دمشقية".

وفى يوم الثلاثاء أقيمت آخر حفلة رسمية، وهى مأدبة الغداء لدى رئيس الوزراء.

كان بين الضيوف الحاضرين "نورى السعيد" الذى تولى عدة مرات رئاسة الوزارة ووزارة الخارجية فى "العراق"، والمعروف منذ زمن بعيد

بأنه صنيعه الانجليز. كان قد استقال فى حزيران (يونيو) ١٩٤٤ من رئاسة الوزارة، وهو الآن لا يشغل أى منصب رسمي. ولا اعرف ما إذا كان حينئذ يقضى فترة راحة فى "لبنان" بصفته الشخصية، أم أنه قدم خصيصا لعقد لقاء معى. ولعل الافتراض الثانى هو الأرجح، فليس من قبيل الصدف أن "رياض الصلح" عرفنا على بعضنا أثناء المأدبة، وبعدها أتاح لنا الفرصة للتحدث على انفراد.

دار حديثنا حول إقامة العلاقات بين "الاتحاد السوفيتى" وكل من "سورية" و"لبنان". ودون التصريح مباشرة برغبة الحكومة العراقية فى الاقتداء بسورية ولبنان، ألمح "نورى السعيد" إلى وجود مثل هذه الرغبة، واستفسر عن رد الفعل المحتمل من جانب "الاتحاد السوفيتى". اعربت عن رأيى بأن مبادرة عراقية من هذا القبيل سوف تحظى برد ايجابى من "موسكو"، ويمكن أن تسفر عن نتائج طيبة.

ترك الحديث مع "نورى السعيد" انطباعا لدىّ بأنه كان يجرى عملية جس نبض غير رسمية، وأن الحكومة العراقية قد قررت مبدئيا مفاتحة الحكومة السوفيتية بهذا الشأن، وأن ذلك سيتم فى المستقبل القريب. بل إننى فكرت: ألن يكون طريقى من لبنان إلى العراق؟ ولكن "بغداد" قررت، لسبب ما، العمل عبر القنوات الدبلوماسية، واختارت "طهران" مكانا للتفاوض. وفى طهران سلمت فى ٢٥ آب (اغسطس) رسالة من وزير الخارجية العراقى "أرشد العمرى" إلى "مولوتوف". وفى الثالث عشر من أيلول (سبتمبر) نشر فى "موسكو" و"بغداد" بلاغ حول إقامة العلاقات الدبلوماسية بين العراق والاتحاد السوفيتى.

عرض علينا "سليم تقلا" أن نقوم، قبل عودتنا إلى "القاهرة"،

بجولتين فى "لبنان": إلى بيت الدين جنوبا، وإلى منطقة الأرز اللبنانى الشهير شمالا.

بدأنا يوم الأربعاء جولتنا الأولى إلى "بيت الدين" الذى يبعد زهاء خمسين كيلومترا عن "عين صوفر". بعد ساعة امضيناها فى الطريق الفينا أنفسنا فى وادى جبلى ضيق حيث يوجد "بيت الدين". سفوح الجبال التى يتكون منها الوادى مغطاة بأشجار الفواكه والتوت والكروم. ويسكن الوادى والمنطقة المحيطة به "الدروز"، وهم قوم محبون للحرية اشتهروا بانتفاضاتهم ضد المستعمرين الفرنسيين.

كان "بيت الدين" فى القرن التاسع عشر عاصمة إمارة "لبنان" التى تعاقب على حكمها الأتراك ووالى "مصر" "محمد على". وهى الآن بلدة متواضعة تحيط بقصر أمير الدروز "بشير الثانى". وقد شيد القصر فى مطلع القرن التاسع عشر وهو متحف الان، ومازالت كل مرافقة فى حالة رائعة: قاعة الاحتفالات وقاعة القضاء والفناء الداخلى حيث الحدائق والحمامات، وأجنحة أبناء الأمير. وعلى القاعات والمخادع فسيفساء ملونة وتطعيم بالخزف، وهى من آثار فن الديكور الاسلامى ولها قيمة فنية كبيرة.

قمنا بجولتنا الثانية، الأطول، يومى الخميس والجمعة. وكانت المرحلة الأولى - "وادى البقاع" وضهر القضيب البالغ ارتفاعه . ٢٦٥ مترا - عبر طريق سيئ للغاية، ولكنه تحسن فيما بعد. وعلى ارتفاع . . ١٩ متر بلغنا الهدف من وراء طريقنا الشاق، حيث لا حت لنا أشجار الأرز المعمرة.

استرحنا من عناء الطريق فى فندق، وتناولنا الطعام ثم اتجهنا إلى

محمية الأرز، وهى أكبر محمية فى لبنان رغم أنها ليست كبيرة، إذ أن عدد الأشجار فيها يناهز الأربعمائة. ويبلغ ارتفاع بعضها اربعين مترا. أنها النماذج الأخيرة من أشجار كانت فيما مضى تغطى لبنان كله.

تجولنا طويلا وسط الأرز، ثم هبطنا إلى بلدة "بشرّى" حيث تقرر أن نقضى الليل. فى ضواحى "بشرّى" زرنا مقبرة الشاعر اللبنانى "جبران خليل جبران"، ومغارة كبيرة احدثتها المياه الجوفية. وكان دليل المغارة يرينا مجموعات من الحليمات السفلى يطلق عليها تسميات: "المصلى" و "سجود العذارء" و "البتول ويسوع المسيح"، والخ. . .

فى اليوم التالى توجهنا غربا صوب البحر، وعند ساحله بلغنا "البترون"، ومن هناك عرجنا جنوبا نحو "بيروت". على بعد ١٥ كيلومترا من العاصمة ارانا "نديم" ما خلفه الغزاة الذين مروا من هنا: نُصب قديمة ونقوش على الحجر أو لوحات تذكارية. فرعون مصر "رمسيس الثانى" والملك البابلى "نبوخذ نصر" والملك الأشورى "أسرحّدون" والسلطان المصرى "برقوق" والجنرال الفرنسى "غورو" والعديد غيرهم، أرادوا تخليد انتصاراتهم على الشعب الصغير الذى شاءت له الأقدار أن يقطن منطقة تتقاطع فيها الطرق الاستراتيجية فى العالم.

عبرنا نهر انطلياس وهو آخر نهير قبل بيروت، واخترقنا الضواحى الشمالية للعاصمة نافخين بين الحين والحين فى أبواق السيارة لكى يتفرق الصبية اللاهون فى الشارع، وسرعان ما توقفنا عند مدخل فندق "نورماندى".

قمت يومى السبت والأحد بزيارات مجاملة توديعية. بيد أن

أحاديثى الأخيرة مع المسؤولين اللبنانين - رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء ونائبه ووزير الخارجية - لم تكن مجرد تبادل للمجاملات دون طائل. فقد تحدثنا بصراحة تامة عن الوضع الصعب فى لبنان آنذاك. واجمع محدثىّ اللبنانيون على أن محنا عسيرة فى انتظار بلدهم. وقد شاركتهم الرأى واعربت من جديد عن أن بوسع "لبنان" الاعتماد على الدعم الودى من لدن الاتحاد السوفيتى، المدافع المبدئى عن الشعوب المستعبدة، والنصير الثابت لها فى نضالها من أجل التحرر الوطنى.

كانت وعودى قائمة على أساس راسخ، يتمثل بتجربة السياسة الخارجية السوفيتية طوال سنين. ولم أخشَ أن أبدو انسانا ينادى بحقائق قد تسرىّ عن النفس ولكن ليس ثمة فعل يسندها. فحسبنا التذكير بأن "الاتحاد السوفيتى" دافع بحماس عام ١٩٤٥ عن استقلال "سورية" و"لبنان"، كما دافع عن سائر البلدان المستعمرة وشبه المستعمرة.

فعند صياغة ميثاق هيئة الأمم المتحدة أصر "الاتحاد السوفيتى" على أن يدرج فيه بند يجعل البلدان الواقعة تحت الانتداب سابقا والمنتمية إلى هيئة الأمم المتحدة، لا تخضع لنظام الوصاية. وبذا حظيت سيادة "سورية" و"لبنان" باعتراف دولى. وفى عام ١٩٤٦، وأثناء الأزمة الخطيرة التى رفضت إبانها "بريطانيا" و"فرنسا" سحب قواتهما من "سورية" و"لبنان"، ساند "الاتحاد السوفيتى" هذين البلدين العربيين فى مجلس الأمن، ونتيجة لذلك أجليت عنهما القوات الأجنبية كافة قبل الأول من كانون الثانى (يناير) ١٩٤٧. وليس ثمة داع للاستفاضة فى الحديث عن موقف "الاتحاد السوفيتى" من البلدان العربية المدافعة عن استقلالها، فالعالم كله يعرف حقائق عن ذلك الموقف.

يوم الاثنين الموافق ١٤ آب (اغسطس) انطلقت من أمام فندق "غراند هوتيل" فى "عين صوفر" سيارتان لتقطعا دربا طويلا. كانت أولاهما سيارة رئيس الجمهورية وفيها إلى جانبى "نيقولا بطرس" و"نديم دمشقية" اللذان رافقانا حتى الحدود الفلسطينية، وركب السيارة الثانية "دنيبروف" و"ماتفييف" وسائقان لبنانيان كان عليهما أن يوصلانا فى هذه السيارة إلى "مصر".

نحن نعرف الطريق إلى "بيروت" جيدا، فلطالما سلكناه ذهابا وإيابا من "عين صوفر" إلى البحر. أما الجديد - الجديد بالنسبة لنا ولكنه غالبا ما يكون قديما جدا من الناحية التاريخية أو الميثولوجية - فقد بدأ فى الضواحى الجنوبية للعاصمة. ها هى انقاض محطة بريد رومانية قرب طريق السيارات الممتد بمحاذاة ساحل البحر الأبيض المتوسط. على مقربة منه "خان النبى يونس" حيث يقال أن الحوت قذف به فى هذا المكان بعد أيام ثلاثة أمضاها فى بطنه. ويكاد المرء يجد فى كل بقعة بهذه المناطق ما يذكر بالأساطير والماضى.

كانت أول مدينة على طريق السيارات هى "صيدا" التى تبعد زهاء ٥ كيلومترا عن "بيروت". وعمارة "صيدا" متنوعة شأن العديد من مدن المشرق. معبد مسيحى حُول إلى مسجد إسلامى. جدار المدينة يذكر بالمماليك المصريين. فى الجزيرة المواجهة لصيدا قلعة للصليبيين شيدت فوق أساس وجدران معبد فينيقى. على مقربة منها مدرسة تبشيرية أمريكية للسكان المحليين. وبالطبع ثمة الكثير من الأزقة الضيقة التى تربط بينها عقود حجرية، بيوت مشرقية وأكواخ من الطين، وأسواق

شرقية صاخبة.

بين "صيدا" و"صَور" أيضا يشاهد المرء تعاقب الآثار الفينيقية والهيلينية والرومانية وحصون وقلاع الصليبيين. وإلى الجنوب من صور تقترب سلسلة جبال "لبنان" من الساحل فتبدو وكأنها تضيق على الطريق وتجعله يتعرج. عند رأس النافورة يمر الطريق على صخرة شاهقة، وها هنا تنتهى أراضى لبنان.

ودعنا بحرارة "نيقولا بطرس" الذى لم يدخر وسعا من أجل أن تعود إقامتنا فى "لبنان" بأقصى مردود سياسى وتكون ممتعة فى نفس الوقت. وبحرارة أكبر ودعنا "نديم دمشقية" الذى صار خلال هذه الفترة صديقا حميما لنا. تمت إجراءات الحدود دون أى تسويف، وانتقل وفدنا إلى السيارة الثانية. رفع الحاجز فمرت السيارة من تحته ببطء إلى الجهة الثانية من الحدود.

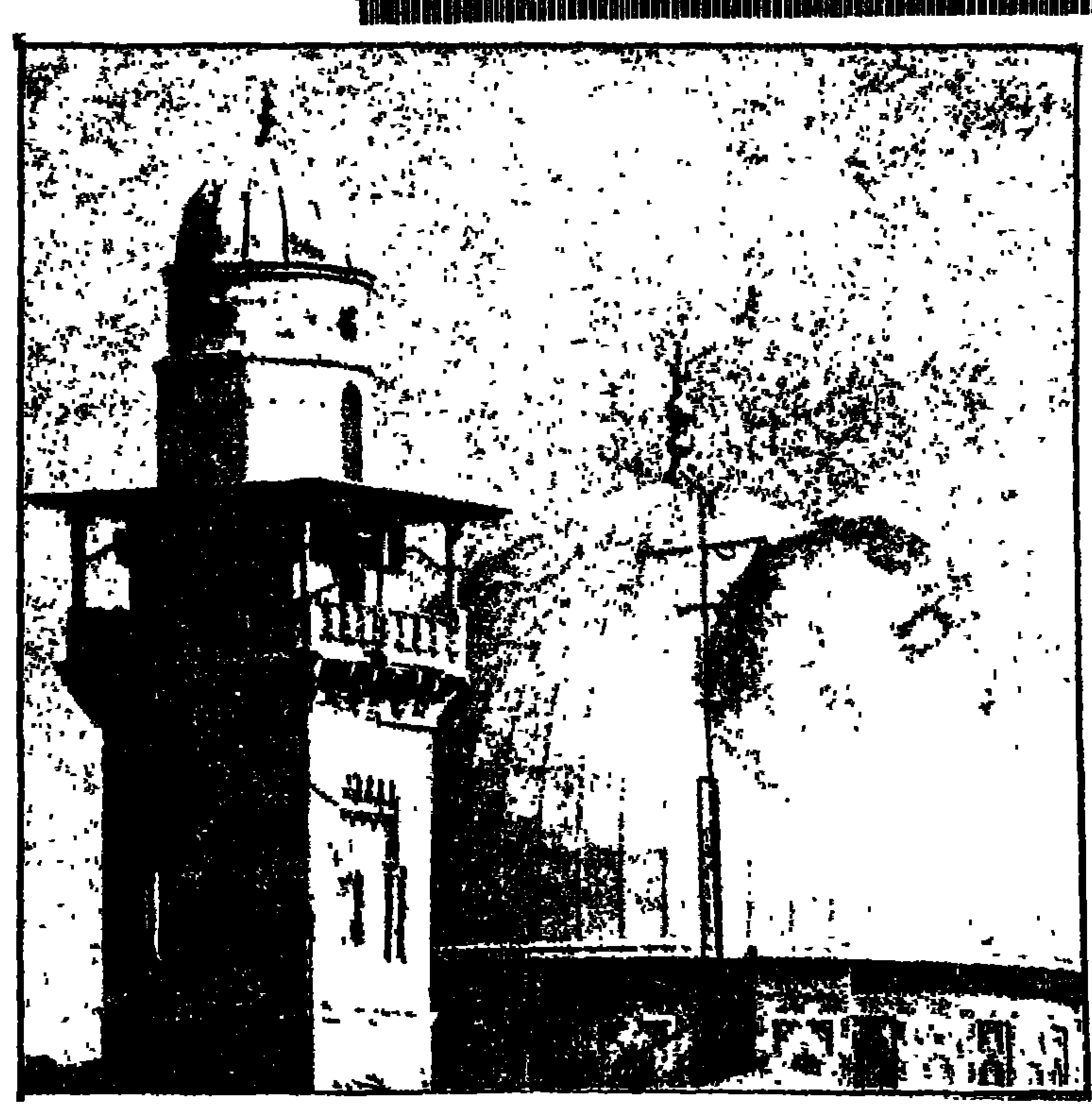
إننا فى فلسطين.



الفصل الثالث عشر

فلسطين





وضعت الحكومة اللبنانية تحت تصرفنا سيارة تناوب على قيادتها لبنانيان هما "أحمد حافظ" و"محمد كاتب"، وكلاهما في متوسط العمر. وبالطبع، استفسرنا من "الأوصياء علينا" في قسم التشريفات بوزارة الخارجية عن الشخصين اللذين أوكل إليهما أمرنا. ولكننا سمعنا تأكيدات بأن السائقين "موضع ثقة ودراية وخبرة"، الأمر الذى سرعان ما تيقنا منه. فقد كانا على دراية تامة بكل صغيرة وكبيرة فى الطريق، بحيث يمكن لهما أن يقودا السيارة معصوبى الأعين. وقد حدثنا عن المعالم التى مررنا بها وكأنهما دليلان سياحيان محنكان. كانا يتحدثان الفرنسية بطلاقة، مهذبين وخدومين. ولكنهما لم يكونا يشبهان السواق المحترفين لا بهيئتهما ولا بسلوكهما. والأرجح أنهما كانا من موظفى أحدى الدوائر الخاصة - لبنانية أو غير لبنانية. لا أعرف - وانتدبا لحمايتنا، أو لمراقبتنا. وإذا صح ذلك، فلم يكن ليزعجنا، إذ لم نعتزم القيام بأى عمل غير مشروع. أما حمايتنا من الطوارئ فهى أمر ضرورى: ففى ذلك الوقت كانت "الطوارئ" فى "فلسطين" - كما فى

المراحل التالية - ظاهرة اعتيادية تماما.

على بعد عشرين كيلو مترا تقريبا من الحدود اللبنانية ألفينا أنفسنا في مكان يشبه أوربا القرون الوسطى. أمامنا جدران قلعة متاخمة للبحر ذات بوابات ضخمة وكوات كثيرة وأبراج مراقبة. أنها "عكا" حصن الصليبيين ومرتكزهم في فلسطين خلال صراعهم الطويل من أجل تحرير "تابوت العهد". ولكنهم عمليا توشحوا بالزرود وخاضوا المعارك من أجل مصالح المدن التجارية المسيحية في حوض البحر الأبيض المتوسط، وللحصول على ضياع اقطاعية جديدة في "فلسطين".

افطرنا في "حيفا" ثم تمشينا في شوارعها لمدة نصف ساعة، وواصلنا رحلتنا نحو "القدس". وقد حدنا الطريق العمومي قاصدين الناصرة، موطن "يوسف النجار" و"مريم"، وها هنا حل "الروح القدس" في "مريم العذراء" فولدت "يسوع المسيح". وبالتالي فإن موطن المسيحية في الناصرة. للأسف أننا لم نر في فلسطين كلها بلدة مهملة متربة بائسة أكثر من "الناصرة". وبهذه المشاعر ظلت السيارة تقفز بنا في مطبات الشوارع الملتوية غير المعبدة.

عدنا مرة أخرى إلى الطريق العمومي واتجهنا جنوبا. كان الطريق محفوفا بالتلال يتلوى ويتعرج، وتعبيده في غاية السوء. وكان السائقان قد حذرانا من ذلك في "حيفا" واقترحا اتخاذ الطريق الساحلي حتى "يافا" ومن ثم الانعطاف نحو الشرق. بيد أن الرغبة كانت أقوى من اعتبارات الراحة والسرعة. اجتزنا طريقا مضنيا عبر "جنين" و"نابلس"

و"رام الله" التى لا يسكنها غير العرب.

لا قبيل حلول المساء، وقد انهكنا التعب وعفرنا ؟لم نصل "القدس" إ التراب. سرنا عبر أحياء غالبيةٌ سكانها من اليهود الشرقيين، ثم عبرنا شارع القديس بولص الذى يذكر بالشوارع الأوربية، والمؤدى إلى مركز الأعمال فى المدينة. وكان "أحمد حافظ" الذى سلم منذ أمد غير بعيد قيادة السيارة لزميله، يسمى المبانى التى لها قدر ما من الأهمية. أشار إلى حى كامل تكثر فيه الكنائس الأرثوذكسية الكبيرة والصغيرة والملاجئ والأديرة المحاطة بحدائق وارفة الظلال، وقال أنها "البيوت الروسية".

فيها شبه عجيب بحى فى مدينة روسية صغيرة نائية فى عصر ما قبل الثورة، وكأن عصا سحرية نقلته إلى هذه البقاع الجنوبية الحارة. ولكن لا طاقة بنا الآن على تفقد المكان، فبعد عناء الطريق كنا لا نرغب إلا فى مهجع نتريح فيه.

عبرنا مركز الأعمال بما فيه من حركة دائبة، وتجاوزنا مبنى البلدية والفنادق والمصارف، وخرجنا إلى درب يوليوس، وهو جادة عريضة تحف بها أشجار السرو. هنا، فى أعلى نقطة بالمدينة، يقوم فندق "الملك داوود" شامخا فى وحدته، وقد حجزت فيه لنا بيروت ثلاث غرف، لنا وللسائقين.

تجولنا فى فلسطين دونما أيه أبهة: فهنا لم يستقبلنا أحد ولم تلق كلمات الترحيب. ولهذا الأمر جانب إيجابى. إذ يتيح لنا أن نستريح

قليلا من الرسميات المتعبة، ومن ضرورة التقيد اليومى بالبروتوكول الدبلوماسى والأتيكيت. لذا كان همنا الوحيد هو أن نصل بسرعة إلى غرفتنا ونغسل طبقة الغبار اللزجة التى خلفها الطريق. إن قطع مسافة ٤٠ كيلومتر فى حر آب (اغسطس) اللاهب هنا ليس مسألة هينة!

تناولنا طعام الغداء فى مطعم الفندق، حيث احسسنا توا بالفرق بين "فلسطين" و"لبنان" فى مجال التغذية. فحتى فى أحسن فندق بالقدس يقدمون الزهيد من الطعام، علما بأن قائمة المأكولات ثابتة لا تتبدل. لم آكل فى حياتى من عصيدة الشوفان، بدون حليب أوزبدة، بالقدر الذى أكلته خلال بضعة أيام قضيتها فى" القدس"، صباحا وظهرا ومساء. ولكن كان فى ذلك بعض المنفعة بعد تخمة المآدب الفخمة فى "سورية" و"لبنان".

فى تلك الأمسية لم نرغب فى التطواف بالقدس، واكتفينا بالتفرج على المدينة من شرفة فى الطابق الرابع. شاهدنا بوضوح جزء من المدينة القديمة المحاطة بسور حجرى عال. فى يدى خريطة تفصيلية مصورة للمدينة استعنت بها لاتبين وراء السور القلعة القديمة وفيها "برج داوود" الذى تزعم الأساطير أنه شيد فى زمن الملك داوود ، وقد حول إلى ثكنات للشرطة، وإلى جانب القلعة بوابة "يافا"، وإلى الشمال مبانى البطريركية اللاتينية. سائر أحياء المدينة القديمة تمتزج فى خليط من المنشآت المتراصة، ويتعذر التمييز بينها حتى عند الاستعاذة بخريطة تفصيلية.

قصدنا أنا و"دنيبروف" صبحا "السراى" حيث أدينا زيارة عمل للمندوب السامى البريطانى. وكانت تهمنا القضايا المتعلقة بما يسمى ب"الممتلكات الروسية فى فلسطين".

لم تكن القضية جديدة علىّ، فقد توليت لأول مرة معالجتها عندما كنت رئيسا لقسم الشرق الأوسط فى مفوضية الشعب للشؤون الخارجية. عرفنا آنذاك أن الممتلكات تنقسم إلى نوعين، الأول - المدارس والمستشفيات وفنادق الحجاج وغيرها - كان قبل الثورة يعود إلى "الجمعية الفلسطينية الروسية" وهى جمعية دينية خيرية، ويدار من قبل وكيل عنها. أما القسم الثانى - المعابد والأديرة والمصليات - فيدار من قبل الكنيسة الأرثوذكسية الروسية مباشرة.

ومع افتتاح السفارة السوفيتية فى "القاهرة" بدأت معالجة هذه القضية عمليا. ففى آيار (مايو) ١٩٤٤ أوفدت السفارة إلى "القدس" السكرتير الثانى "سلطانوف" والملحق "غنيديخ" لوضع كشف باسماء المواطنين السوفيت المقيمين هناك والأشخاص الذين يرومون الحصول على الجنسية السوفيتية. كما قاما بجمع معلومات إضافية أخرى حول "الممتلكات الروسية". أما الآن فقد ترتب علينا أن نستحصل من الأدارة البريطانية معلومات قانونية واقتصادية أكثر تفصيلا لاستخدامها مستقبلا، إذا ما اقتضت الحاجة طرح الموضوع رسميا. وعلاوة على ذلك كنا نود الاطلاع على الممتلكات إياها بأنفسنا.

استقبلنا المندوب السامى ببشاشة ونفذ رغباتنا دون تسويف، وأوفد لمرافقتنا اثنين من موظفى القسم المختص فى مقر المندوب السامى. وقمنا - وإياهما بجولة استمرت طوال اليوم فى القدس وضواحيها - "عين كارم" و"الخليل" و"بيت لحم" - وتفقدنا كل ما كان يهمنا تفقده. علاوة على البرنامج الموضوع شاهدنا ديرين روسيين آخرين.

أحدثت "جولتنا التفتيشية" آنذاك الكثير من اللغط واطلقت حولها الأراجيف. ونشرت الصحف - العربية والانجليزية والأمريكية - تعليقات حولها وكأنها حدث مثير. وجرى تشويه الغرض العملى المحدود منها وتضخيمه إلى حد كبير. فقد تحدثت صحيفة مصرية عن "نوايا مبيتة" لدى الحكومة السوفيتية - وهى نوايا لا علم لأحد سوى الصحيفة بها - وقالت: "فى الأيام الأخيرة. . . . عمد السيد السفير "نوفيكوف" إلى بعث تقليد عظيم . فمنذ الآن تحتل روسيا السوفيتية فى أرض المقدس الموقع الذى تركته روسيا القيصرية شاغرا بعد اندثارها عام ١٩١٧". ولا يصعب تبين مدى ما فى هذا الزعم من بطلان وضرر. ومضت صحيفة أخرى أبعد من ذلك فنسبت إلىّ مباشرة الحديث عن "التقليد العظيم" وجعلت منه عنوانا لمقال: "السيد نوفيكوف يعلن أن التقليد الروسى على أرض المقدس سوف يبعث". وهل من ثمة داع للقول بأننى لم اصرح بشيئ من هذا القبيل، بل وما كان بوسعى أن افعل؟

التقيت مساء بايرينا الكسندروفنا فى مبنى البطريركية اليونانية حيث كانت والأمير "بطرس" يقيمان فى ثلاث غرف، فى ضيافة بطريرك

"القدس" "تيموفى". وكان من الغريب أن تشاهد "صاحبة السمو الملكى" في غرفة صغيرة ذات أثاث متواضع وفي يديها أنوال الحياكة وعليها ملابس "منزلية". استقبلتنى دون مراسيم وقدمت لى الشاى من السماور مع مربى الكرز والكعك المنزلى. وبعد فترة قصيرة انضم إلى "حفلة الشاى" الأمير "بطرس". قالت الأميرة وهى تواصل الحياكة:

- اشعر هنا براحة جسدية وروحية. لو عرفت، يا "نيكولاى فاسيليفيتش"، كم سئمت حياة المجتمع "الراقى"! حفلة أفخم من أخرى، ومجاملات زائفة مع أشخاص قد يكونون الذين يعدون لك مكائد دنيئة. أوف! شيئ مقرف! فى "القدس" اتحاشى حياة "المجتمع الراقى"! - أشاحت بيدها بازدراء وأضافت: - ثم أنه لا توجد أية حياة من هذا القبيل هنا.

لم أصدق كثيرا بأن "ايرينا الكسندروفا" شعرت بقرف مفاجئ من "حياة المجتمع الراقى". فقد بدا لى أنها تكون فى ذلك الخضم كالسمكة فى الماء، وإن قلائل يعرفون التيارات الداخلية المعقدة لتلك الحياة ويمارسون اللعبة السياسية ولعبة البلاط كما تفعل "ايرينا الكسندروفنا". ولعلها حلت ضيفة على البطريرك ليس فقط لميلها إلى "صاحب الغبطة" بل ولأغراض أخرى خفية. وفى هذه الحالة فإن كل هذا "الجو المنزلى" المنسجم تماما مع هدوء وطمأنينة مقر البطريركية لم يكن سوى برهان على حذاقتها فى التكيف مع الظروف.

تحدثنا فى أمور كثيرة، غير أن "سورية" و"لبنان" كانا فى مقام

الصدارة دوما. وقالت "ايرينا الكسندروفنا" بحماس:

- لا يخفى عليكم، بالطبع، إن الفرنسيين قد جن جنونهم لأن "موسكو" مدت يد الصداقة للسوريين واللبنانيين. ولو كنت مكان الفرنسيين لجن جنونى أيضا. وضعتم العصى فى عجلاتهم، ولسوف تركس الآن عرباتهم الشرق أوسطية.

- لا أرى ضرورة للنظر إلى الأحداث من هذه الزاوية. فقد اعترفت حكومة "ديغول" باستقلال "سورية" و"لبنان"، وبالتالى بحقهما فى دخول المعترك الدولى بشكل مستقل.

ضحكت "ايرينا الكسندروفا"، وكشفت عن فراستها قائلة:

- أرجو ألا تلعب معى الاستغماية السياسية. فنحن جميعا ندرى جيدا أن ذلك الاعتراف لم تكن له أية قيمة سابقا.

- والآن؟

- الآن، عندما رفد باعتراف الاتحاد السوفيتى، لن يكون من السهل التملص منه. ثم أن الانجليز أيضا لم ترق لهم مهمتكم فى "دمشق" و"بيروت".

- ولكن الجنرال "سبيرس" وموظفوه صافحونى بود وهنأونى بحرارة على تلك الخطوة الهامة فى تعزيز جبهة الدول الديمقراطية.

- لا يعنى ذلك سوى أن الجنرال صار دبلوماسيا محنكا، وشأن كل الدبلوماسيين أصبح بوسعه أن يظهر ما لا يضمر.

- إذن فالأجدى، فى خاتمة المطاف، ادارة اللعبة بنزاهة. وهذا ما تفعله

دبلوماسيتنا.

نقلت لى "ايرينا الكسندروفنا" دعوة البطريرك لمأدبة فطور يعتزم إقامتها تكريما لى فى اليوم التالى. رجوتها أن تبلغ البطريرك قبولى الدعوة مع الشكر.

فى اليوم التالى تفقدنا المدينة القديمة، وتطوعت الأميرة "ايرينا" والأمير "بطرس" ليكونا دليلين، فجعلانا نستغنى عن موظفى مقر المندوب السامى. . . .

وتجدر هنا الأشارة إلى أنه لا يوجد فى "القدس" عامة وفى المدينة القديمة خاصة، أى تل أو صخرة أو حجر لا يرتبط بحدث ورد ذكره فى الأسفار المسيحية والاسلامية واليهودية. وإن آثار الديانات الرئيسية الثلاث - الأسطورية والفعلية - متجاورة جنبا إلى جنب أو متراكمة فوق بعضها البعض بالمعنى الحرفى للكلمة. فمسجد عمر مقام فوق انقاض هيكل سليمان الشهير. وإلى جانبه يرتفع برج "باب الذهب" فى الجدار الخارجى للمدينة القديمة، ويزعم أن المسيح دخل القدس عبر هذا الباب قبل أسبوع من عيد الفصح، الذى صلب خلاله.

وعلى مقربة من المسجد الأقصى، يوجد فى الحى اليهودى "حائط المبكى" الذى شيد من أحجار هيكل سليمان. شاهدنا هناك عددا من الكهول المعتمرين يواجهون الحائط الذى غطته النباتات ويتمتمون بالصلوات. ثمة أمرأة تنم ملابسها عن الفقر، دفنت رأسها فى الحائط وأخذت تبكى. أستبعد أنها كانت تندب هدم الهيكل، بل الأرجح أن

مبعث حزنها أحداث أخرى تمسها شخصيا . . .

انتقلنا "من حائط المبكى" إلى السوق الذى يقطع المدينة كلها تقريبا بالطول والعرض. وقد لاحظنا مشاهدة طريفة: جدال حامي الوطيس حول صفقات زهيدة السعر بين الباعة والمشترين، مزين يحلق شعر زبونه على قارعة الطريق وثمة حمار محمل بالسلال يدفع مرفق الحلاق، "مقهى" فى الهواء الطلق - أربعة كراسى عرجاء يجلس عليها زبائن يدخنون النرجيلة، فخّار يعرض على الرصيف مصنوعاته وتكاد تطأها أقدام السابلة.

عبرنا الحى الاسلامى ثم اليهودى فى المدينة القديمة واطلعنا على الكثير من المبانى القديمة والحديثة نسبيا، ومن ضمنها كنيسة الكسندر نيفسكى فى موقع "الحفريات الروسية"، ثم اتجهنا إلى البطريركية اليونانية، بعد أن أرجأنا الاطلاع على الحى المسيحى إلى النصف الثانى من النهار.

كان الفطور لدى البطريرك "تيموفى" دسما. وقد كان طعاما غزيرا للجسد وللروح أيضا. وكانت تسمع فى البطريركية الوادعه أصوات قلقة. فالوضع فى فلسطين غير مستقر. . . .

تعرفنا خلال المأدبة على البطريرك نفسه وعلى "الارشمندريت نركيس"، القيّم على دير البطريركية. وحينما عرفت الارشمندريت بالجولة التى نعتزم القيام بها بعد الظهر، تطوع لمرافقتنا أثناء زيارة هيكل تابوت العهد. وقد تنازلت "إيرينا الكسندروفنا"، بطيب خاطر، عن هذه

المهمة له، أما الأمير "بطرس" فقد افترق عنا بعد الفطور بسبب مشاغله.

توجهنا نحن الأربعة - "ايرينا الكسندروفنا" و"الارشمندريت تركيس" و"دنيبروف" وأنا - إلى الجلجلة مشيا على الأقدام، إذ لم يكن يفصلها عن البطريركية سوى مسيرة ٢-٣ دقائق.

الجلجلة من العتبات المقدسة لدى المسيحيين من جميع الطوائف. إذ أن المسيح، وفقا لما جاء فى الأنجيل، صلب هناك. وقيل أن امبرطورة روما هيلينا، راعية المسيحية، وجدت هناك الصليب الذى صلب عليه المسيح، وقام ابنها "الامبراطور قسطنطين" بتشييد هيكل تابوت العهد فى ذلك المكان.

كنا على اطلاع بعموميات هذه المسائل. ولكن "الارشمندريت تركيس" اطلعنا بمزيد من التفصيل على تاريخ بناء الهيكل ومرفقاته وتاريخ الصراع الذى دام قرونا بين مختلف الطوائف المسيحية من أجل الهيمنة على الموقع. وفى أحوال عديدة كان الصراع يتخذ أشكالا دراماتيكية. فعلى سبيل المثال حدثت ضجة كبيرة فى الستينات من القرن التاسع عشر حينما قام الأقباط، بصورة عاجلة، ببناء مذبح قبطى خلف "تابوت العهد" وذادوا عنه رغم المقاومة الضارية التى أبدتها الطوائف المسيحية الأخرى. وادلى الكاثوليك بدلوهم فى هذه"الحرب الباردة" فقد سربوا سرا إلى المصلى اللاتينى فى الهيكل أجزاء أورغن كبير وجمعوها بالخفية هناك. ومنذ ذلك الحين يصدح الأورغن ليخل ب "دعة" الصلوات الكنسية التى تقيمها الطوائف الأخرى.

الهيكل فى حالة يرثى لها وتثير قلق المؤمنين. فقد أحدث زلزال الثلاثينات من القرن العشرين اضرارا جسيمة بالواجهة، وأقيمت دعائم معدنية لاسنادها، وهى تشوه الواجهة. وقد تصدع الكثير من الجداريات وأخذت تتساقط، وثمة شروخ فى الأجزاء الرخامية. ويبدو أن البحارة حينما يكثرون، خاصة عندما يرتاب الواحد منهم بالآخر، يكفون عن الاهتمام بالسفينة، فتغرق.

غادرنا الهيكل وسلكنا "درب الآلام" الذى يقال إن المسيح سار فيه حاملا صليبه باتجاه الجلجلة. ولكننا نسلك الطريق بالاتجاه المعاكس، من الصلبوت إلى المكان الذى أعلن فيه "بيلاطس البنطى" براءته من دم المسيح. وهناك ودعنا "الارشمندريت نركيس" الذى كان دليلنا شاكرين إياه، وودعنا "ايرينا الكسندروفنا" على أن نلتقى بها صبح الغد.

يوم الخميس الموافق ١٧ آب (اغسطس)، وهو اليوم الأخير لإقامتنا فى "القدس"، صاحبتنا "ايرينا الكسندروفنا" إلى البحر الميت، وقد قطعنا مسافة ثلاثين كيلومترا لكى نشاهد هذه الظاهرة الطبيعية الفريدة التى تحمل هذا الاسم المرعب.

خرجنا من بوابة هيرودس وسلكنا طريق اريحا الذى سرعان ما استدار نحو جبل المرافع فى الجنوب ومن سفحه الشرقى انداح أمامنا غور الاردن والبحر الميت. ولعل أنفاس هذا البحر القتالة تؤثر سلبيا فى الطبيعة المحيطة به. إذ لا تشاهد حوله سوى الصخور الجرداء وأكوام الحجارة والرمال ونادرا ما ترى الأشواك.

قبيل "أريحا"، وهى مدينة تاريخية شديدة الشبه "بالناصرة"، توقف سائقنا حافظ بغتة وقال:

- أقرأوا، أيها السادة، اليافطة المعلقة على العمود.

كانت هناك العبارة الساخرة التالية: "ها هنا يبدأ النزول إلى تحت الماء". فالغور حقا يقع فى منطقة اخفض من سطح البحر بكثير. البحر الحقيقى وليس الميت، فهذا الأخير ليس سوى بحيرة فى وقب أرضى عميق، ومياهه مشبعة بالأملاح المعدنية بنسبة ٢٥٪.

دنونا من سواحل البحر من جهة أريحا. على الساحل الرملى المقفر مقاه ومطاعم خالية من الزوار. قررنا و"دنيبروف" أن نستحم فى المياه الرصاصية اللون التى تنبعث منها روائح تزكم الأنوف. لم ترغب "ايرينا الكسندروفنا" و"احمد حافظ" مشاركتنا فى هذه "المتعة". جلسا تحت مظلة مطعم، بعيدين واحدهما عن الآخر، تمسكا بالأتيكيت. استبدلنا ملابسنا فى كابينات خاصة وخضنا فى الماء بشئ من الوجل. كان الخوض حتى الخصر سهلا، ولكن ما أن تمضى أبعد حتى تدفعك المياه المالحة إلى الأعلى. تكون محظوظا إذا لم تشرق بالمياه أو إذا لم تزكم أنفك، فلو حصل ذلك لترتبت عليه مضاعفات سيئة للمجارى الأنفية. بيد أن "ايرينا الكسندروفنا" حذرتنا من ذلك، ولتفادى المشاكل انطرحنا بحذر على صفحة الماء وسبحنا على ظهورنا. الأصح أننا لم نسبح بل كنا ننساب بخفة غير معتادة.

ولا يمكن للمرء أن يغرق فى هذا البحر إلا إذا علقت برقبته جلة.

فبدون ذلك تلفظ المياه جسده وكأنه فلينة.

بعد إن "اتخمتنا" السباحة غير المعتادة وشممنا أبخرة البحر"العطرة"، شرعنا نعود إلى الشاطئ. قمنا بحركات أكروباتيكية لكى تثبت أقامنا على القاع، وأخيرا تم ذلك لنا بدون مضاعفات، إذا لم نرشف من مياه البحر. أخذنا دوشا من الماء العذب لكى نغسل عن أجسادنا طبقة الأملاح المعدنية قبل أن تأكل بشرتنا.

كرع كل منا قنينة من عصير الليمون البارد فى المطعم، ويبدو أن العطش الشديد الذى استبد بنا هو الآخر من "افضال" البحر الميت.

طوال هذه الفترة كانت "ايرينا الكسندروفنا" تدارى سأمها بالحياكة. فليس فى جولتنا أدنى تسلية لها، إذ أنها زارت المنطقة أكثر من مرة وخبرت كل شيئ بنفسها. حتى كدليل ليس من ورائها نفع. ورغم ذلك فلقد رافقتنا، ويبدو أنها قامت بذلك هربا من رتابة الحياة فى "القدس".

ودعناها عند مبنى البطريركية فى المدينة القديمة. قلت لها "إلى لقاء قريب فى "القاهرة" دون أن يدور بخاطرى أن هذا اللقاء لن يتم إلا بعد شهر.

بعد تناول طعام الغداء فى الفندق قصدنا مقر المندوب السامى البريطانى حيث حصلنا على المواد التى طلبناها، وبذا أنجزنا الأعمال التى جئنا إلى "القدس" لقضائها. اتصلت بالقاهرة وقلت لسولود أننى سأصل إلى "الاسكندرية" يوم ١٩ آب (اغسطس)، وطلبت منه أن يكون هناك مع موظفين آخرين لكى يحيطونى علما باشغال السفارة.

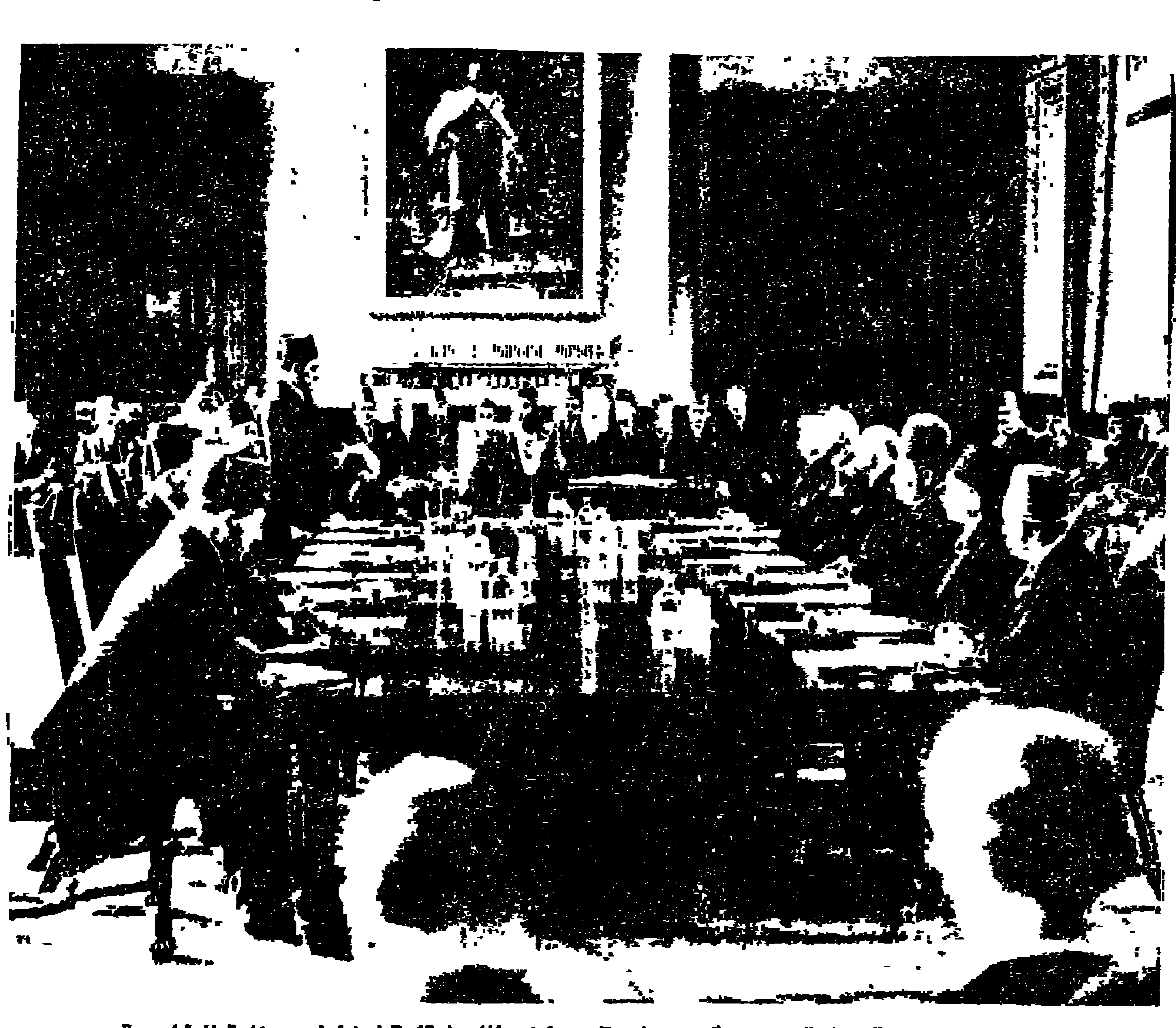
تناولنا صباحا العصيدة التى مللناها وألقينا نظرة أخيرة على الفندق الذى كان إلى ذلك الحين لا يزال سليما. إلى ذلك الحين فقط! فبعد عام سيهز فندق "الملك داوود" انفجار مدمر يودى بحياة الوزير المقيم البريطانى فى الشرق الأوسط اللورد موين. وكان وراء العملية الأرهابيون الصهاينة.

غادرنا القدس وسلكنا الطريق المار عبر بيت لحم والخليل. بعد الخليل تبدأ منطقة شبه صحراوية ثم تتحول إلى صحراء حقيقية. وفى وسط الصحراء، على بعد مائة كيلو متر من القدس، تمر بواحة "بئر السبع"، ومن هناك ينعطف الطريق باتجاه البحر الأبيض المتوسط. بعد زهاء خمسين كيلومترا وصلنا "غزة"، حيث تقول الأساطير أن شمشون الجبار استعرض قوته الخارقة فرفع بوابة المدينة من مصاريعها وهدم المعبد. و"غزة" الآن بلدة عربية صغيرة توقفنا فيها حيث تناولنا فى مطعم متواضع غداء سريعا، وواصلنا مسيرتنا. ها نحن الآن فى شبه جزيرة سيناء، وبالتالى فى الأراضى المصرية التى بدأنا منها رحلتنا قبل زهاء أربعين يوما.

الفصل الرابع عشر

الفصل الرابع عشر

العـــودة إلى مصـــر



النحاس باشا يلقي كلمة بعد توقيع معاهدة ١٩٣٦ وذلك في قاعة لوكارنو بوزارة الخارجية البريطانية . !

شبه جزيرة سيناء صحراء موحشة تكاد تكون مقفرة تماما، وذات تضاريس متنوعة. فعند ساحل البحر تكثر الكثبان الرملية، ولكن في عمق شبه الجزيرة تزداد التلال الصخرية التي تتحول في الجنوب الشرقي إلى سلسلة جبلية، ومن ضمنها جبل سيناء الذي سمي شبه الجزيرة باسمه.

بيد أننا الآن نسير بمحاذاة الساحل وموازاة خط السكك الحديد. وقد انهكتنا السفرة الطويلة في السيارة الساخنة من "القدس" إلى "العريش". ولكن أي ملاذ يمكن أن يجد المرء في هذه البلدة العربية الصغيرة على الساحل الصحراوي؟ إنها ليست "غزة". وبالطبع لا توجد فنادق في العريش. بيد أن المندوب السامي البريطاني في "القدس" وعدنا بأن السلطات العسكرية سوف توفر لنا مناما وطعاما هناك، وظل هذا أملنا الوحيد.

لم يخب الأمل، فقد تولت رعايتنا قيادة القاعدة العسكرية البريطانية في "العريش". وما أن دخلت سيارتنا البلدة حتى ألفينا أمامنا مرافق آمر القاعدة الذي رحب بنا باسم آمره، ورافقنا إلى فندق الضباط

حيث هيئت لنا ثلاث غرف.

هكذا حلت مسألة المبيت. كما أن مسألة الأكل حلت أيضا. فقد دُعِيتُ و"دنيبروف" إلى مأدبة يقيمها آمر القاعدة مساء فى نادى الضباط، وحجزت لماتفييف والسائقين مائدة فى فندق الضباط.

ثمة ساعتان حتى يحين موعد المأدبة. دوش بارد يغسل عن الأجسام التراب والتعب. أثر ذلك تجولت فى الشارع الوحيد بالعريش وغادرت حدود البلدة وصعدت كثبان الرمال وسرت متمهلا صوب الساحل، أمتع نظرى بالبحر الذى يتلامع كالنحاس تحت أشعة شمس الأصيل.

ساد جو من الألفة المأدبة التى حضرها فى النادى كل كبار الضباط. ولم نحس بأثر للعجرفة التى تنسب إلى الضباط البريطانيين. ولعل السبب يعود إلى أن عددا كبيرا من أبناء الفئات الديمقراطية قد دخلوا الجيش خلال الحرب فلم يعد سلك الضباط حكرا على "علية القوم". العلاقة معنا ودية للغاية. ومن الطبيعى أن ترفع خلال المأدبة انخاب النصر القريب، وأنخاب الجيش الأحمر الحليف والجيش البريطانى الحليف ونخب سائر الحلفاء مجتمعين.

نهضنا مع الفجر وتناولنا طعاما خفيفا وغادرنا العريش. أمامنا ٤٠٠ كيلومتر إلى "الأسكندرية" التى يجب أن نصلها اليوم.

الطريق من "العريش" يمتد نحو الجنوب، وبعد ساعة تقريبا ينعطف إلى الغرب باتجاه "قناة السويس". لا يوجد أى نبات أو أثر للحضارة، باستثناء الطريق المعبد. وعلى مشارف القناة فحسب وجدنا أول الآثار الشحيحة الدالة على وجود البشر.

هذه أول مرة أرى فيها قناة السويس، باستثناء النظرات السريعة التى

ألقيتها عليها من الطائرة فى العام الماضى.

الحركة تدب فى القناة، رغم أن كثافتها قبل الحرب كانت أكبر بالتأكيد. بين ضفتيها المنحدرتين تسير قافلة من خمس أو ست سفن. ثمة قاطرة تبحر مسرعة والدخان الكثيف يتصاعد من ماسورتها. هنا وهناك تتهادى قوارب شراعية. الأرصفة والمراسى تتزاحم عند الاسماعيلية فى الضفة الغربية.

إلى اليسار من الجسر الممتد عبر القناة تلمع مياه "بحيرة التمساح". ويقال أن التماسيح كانت موجودة فيها قبل زهاء عشر سنوات، وقد أبيدت الآن، ولعل أحدا لا يأسف على ذلك سوى علماء الحيوان.

من الجسر تطلعنا إلى "الاسماعيلية" التى بدت لنا بخضرتها قطعة من الجنة بعد صحراء سيناء. بيد أن هذه الانطباعات تغيرت عند الاقتراب من المدينة. صحيح أن الخضرة موجودة، ولكننا شاهدنا فى كل شارع، باستثناء بعض الأحياء الساحلية التى يقيها سعف النخل الوارف من أشعة الشمس، دلائل على الفقر المروع وأدقاع الناس. فهم يسكنون أكواخا شبه مهدمة مبنية من الحجر أو الطين، ويرتدون أسمالا متسخة، وعيون الأطفال العابثين فى الدروب متقيحة بسبب التراخوما.

واصلنا طريقنا باتجاه الشمال الغربى عبر دلتا النيل التى تشقها مئات من ترع الرى الصغيرة والكبيرة، وكثافة السكان هناك عالية، فما أن نغادر قرية أو موقعا حتى تبدو أمامنا ملامح بلدة جديدة. وصادفنا فى طريقنا بعض المدن، ومنها مدن كبيرة نسبيا مثل الزقازيق وطنطا ودمنهور.

ها نحن أخيرا فى "سيدى بشر" حيث توجد فيلا السفارة، وهى الشبيهة بالباخرة. توقفت السيارة عند المدخل، فكان أول من هرع إليها صغارى ومن خلفهم زوجتى. وأطل من الفيراندات سائر "ركاب الباخرة" سواء من القاطنين هنا صيفا أو من الذين استدعيتهم من القاهرة.

عرضت على السائقين الاستراحة فى الفيلا وتناول الطعام والقهوة، ولكنهما رفضا شاكرين، فقد حجزا لنفسيهما من القدس غرفة فى الفندق، وسيقصدانه ليأخذا قسطهما من الراحة. شددنا على أيديهما شاكرين وودعناهما، وقررت أن أرسل إلى وزارة الخارجية اللبنانية رسالة أؤكد فيها أنهما أديا واجباتهما الصعبة على أفضل ما يكون.

نحن أيضا بحاجة إلى راحة، ولكن هيهات! سئلنا وسألنا عن الأحوال العائلية وأمور السفارة والأنباء السياسية.

ثم هرعنا إلى البحر، وما كان علينا سوى أن نقطع الشارع ونسير عشرين مترا على رمال الساحل. حينما يكون البحر هادئا فإن المياه مقابل الفيلا ضحلة، ويجب على المرء أن يخوض مسافة غير قليلة لكى يغطس. ولحسن الحظ فإن البحر هائج اليوم. الأمواج تلاطم الساحل بصخب. وبالتالى يمكن أن نركبها أو نمرق خلالها.

قضينا الأمسية وسط رفاقنا، فقد احتشد فى غرفة الضيوف كل "ركاب" الفيلا-الباخرة. مقبض الحاكى يدار باستمرار، فقد وصلت من موسكو مؤخرا أسطوانات سوفيتية جديدة. ثمة اسطوانة بينها أسرت الجميع بموسيقاها العذبة وكلماتها المثيرة للواعج.

سمعناها ونحن نحبس أنفاسنا، منتقلين بأفكارنا إلى الوطن، إلى المواقع الخلفية للجبهة. . . . "أوراق الخريف تتساقط من الأشجار دون

حفيف، والأكورديون يعزف الفالس القديم "حلم الخريف". الأنغام تترى متأوهة، ورفاقى المقاتلون يصغون إليها مسترجعين الأيام الخوالى". ولم نخلد إلى غرفنا إلا فى هزيع متأخر.

القرب من البحر فى البلدان الحارة أمر رائع. ولكن لكل عملة، كما هو معروف، وجهين، الوجه الثانى أحيانا مزعج للغاية: فعند المساء يتشبع كل ما يمتص الماء بكميات كبيرة منه، بحيث يمكن عصره. ويبلغ الازعاج مداه حينما تندى بياضات النوم. ويحاول "المخضرمون" التخلص من هذا الازعاج بواسطة سخانات كهربائية يستخدمونها قبل النوم لتجفيف الملاءات وأغطية الوسائد، ورغم ذلك فإنهم يستيقظون صباحا فى سرير مبلل رطب، ويكونون سعداء إذا لم يصابوا بزكام. ولم تكن لدينا حتى تلك السخانات البدائية، إذ أن العثور عليها متعذر. لذا فإن ليل "الاسكندرية" لا يعنى دائما الراحة التامة. ولكننى نمت فى تلك الليلة نوما عميقا.

بعد أن نزلنا إلى البحر صباح الأحد بدأنا، بمعية عدد من "الركاب"، جولة فى المنطقة. وليس فى المدينة التى تسمى عن حق "عروس البحر الأبيض المتوسط" لروعتها وجمالها، إذ أننى فى زياراتى السابقة شاهدت الكثير من معالم الاسكندرية: متاحف الآثار اليونانية - الرومانية، ومسلة كيلوباترا والبلاجات الرائعة والشوارع والمتنزهات. فى هذه المرة كنت قد خططت للجولة بتأثير سفرتنا عبر الدلتا يوم أمس. فقد أردت أن اتعرف عن كثب على حياة الريف المصرى. ولهذا الغرض غادرنا سيدى بشر وسرنا بمحاذاة ترعة المحمودية.

توقفنا فى عدد من القرى. ويصعب على المرء أن يجد الكلمات

الكافية للتعبير عن فقرها وادقاعها. فقد طالعنا ذات المشهد تقريبا في كل كوخ طيني زرناه، وهي جميعا مكتظة بالناس. أطفال ضامرون مصابون بالكساح دامعو العيون. وفلاحون حفاة عليهم قرح البلهارسيا، وأرضية ترابية وسخة إلى أبعد الحدود، وأكوام الذباب النهم وحشرات أخرى، ذلكم هو المشهد في كل كوخ. تكاد المساكن تكون بلا أثاث، وعوضا عنها طرحات من القش هي مقاعد وأسرة في نفس الوقت. على الأرض والرفوف أوان منزلية بائسة غالبيتها من الطين المفخور. مياه الشرب تغرق من ترع الري المليئة بالنفايات، وغالبا ما تسبح فيها الفطائس. مياه هذه الترع بيئة مثالية لتكاثر الجراثيم ومصدر للبلهارسيا، هذا الداء اللعين الذي ابتلي به الريف المصري.

عدنا يتملكنا القنوط. ما شاهدناه مروع، ولكننا لم نر سوى جزء من الويلات التي تحيق بالفلاح. ولقد سمعنا وقرأنا الكثير عما لا يشاهده المرء خلال اطلاع عابر: عن الاضطهاد الاجتماعي والاستغلال البشع الذي يتعرض له الفلاح من قبل الاقطاعي والمرابي، وعن تعسف السلطات واستبدادها.

سلكنا طريقا آخر في العودة. فقبل بلوغ "سيدي بشر" عرجنا على "شارع المنتزه" الذي قادنا إلى قصر المنتزه، وهو المقر الصيفي للملك "فاروق". إنه القصر الذي دعاني الملك في كانون الأول (ديسمبر) للصيد في الضياع المحيطة به. تطلعنا من بعيد إلى مجموعة مباني القصر الفخمة. إنها أسطع صورة لقطبي المجتمع المصري: فإلى جوار أكواخ الفلاحين البائسة يقوم قصر الملك الذي يحوي في خزائنه أنفس كنوز العائلة المالكة.

كنت اعتزم منذ مدة دخول القصر "كسائح"، فهو فى غياب الملك مفتوح للزوار "المحترمين". عدت إلى الفيلا وأنا مصمم على أن أقوم بذلك فى زيارتى القادمة إلى الاسكندرية.

فى وقت متأخر من المساء عرفت من نشرة أخبار إذاعة "القاهرة" أن الأنباء الواردة من "بخارست" تفيد بأن الجيش الأحمر انتقل صباح اليوم إلى الهجوم على القطاع السوفيتى الرومانى من الجبهة. أثار الخبر فى نفسى من الفرح ذات القدر الذى أثارته طوال الصيف البلاغات المتعلقة بتقدم الجيش الأحمر على مساحات شاسعة من منطقة البلطيق حتى أوكرانيا. وفى الوقت ذاته الحت علىّ الفكرة التالية: ما هو موقف "رومانيا"؟ إن لم يكن الآن، فى هذه اللحظة الحاسمة، فمتى إذن؟.. ظلت الفكرة تشغل بالى. سأتصل فور وصولى غدا إلى القاهرة ب"الرومانيين القاهريين"، فلا يعقل ألا تكون لديهم أنباء جديدة من "بخارست"...

فى صباح الاثنين توجهت إلى القاهرة مع موظفى السفارة. ففى صيف العام الحالى كانت الاسكندرية عاصمة صيفية بشكل جزئى فقط. أما غالبية رجال الدولة فقد ظلوا فىَ القاهرة، وبالتالى فإن موقعنا هناك.

يمر الطريق الاقصر والامثل بين "الاسكندرية" و"القاهرة" عبر الصحراء الغربية (الليبية)، وهى طرف من أطراف الصحراء الكبرى. ولبلوغ الطريق الرئيسى من سيدى بشر كان ينبغى اجتياز كل المدينة الممتدة بمحاذاة الساحل لمسافة عشرين كيلومترا تقريبا، ثم الاتعطاف حول "بحيرة مريوط" المالحة. وبعد البحيرة يتجه الطريق نحو الجنوب الشرقى، ثم ينعطف شرقا عند أهرامات الجيزة.

مرّت السيارة ببطء كبير يبعث على النرفزة عبر المدينة الضخ
الحركة الكثيفة والاختناقات المرورية. ولهذا السبب حاولنا و
"كاليك" في المرات السابقة ألا نمر بالمدينة عند مجيئنا من القا
نتجاوزها لنبلغ "سيدى بشر" مباشرة، واخفقنا مرتين. فما أن ك
عن الطريق الرئيسى حتى نبدأ بالتعثر فى دروب ملتوية محفرة
جسورا صغيرة فوق الترع لا تتحمل أكثر من حمار محمل،
أدراجنا لنبحث عن سبيل أفضل وجسور أمتن، مضيعين الك
الوقت. وفى خاتمة المطاف اعترفنا بهزيمتنا ولم نعد إلى ال
العقيمة.

فى الضواحى الغربية للاسكندرية خطرت ببالى "العلمين"، فه
جدا من هنا، ولا تبعد سوى ثمانين كيلومترا. فى صيف ١٩٤٢
فيلق الدبابات بقيادة رومل كان بحاجة إلى قفزة قصيرة لتغدو
البحر الأبيض المتوسط فى متناوله. بيد أن تلك القفزة لم تتم. و
(يوليو) توقف هجوم فيلق الدبابات، وفى تشرين الثانى (نوفمبر
إلى التراجع غربا تحت ضغط القوات البريطانية، وظل يتراج
أجليت فلوله إلى "إيطاليا" عن طريق البحر.

ما الذى منع "رومل" من أن يحظى، أسوة بيوليوس قيصر
قاهر "الاسكندرية"؟ الجواب على هذا السؤال بسيط: عدم توفر
الكافية. وفيما بعد، أثر استسلام المانيا الفاشية، سجل الفيلد
"كيتل" الاعتراف التالى: "لقد ضيعنا واحدة من الفرص العظ
"العلمين". واعتقد أننا كنا فى تلك اللحظة أقرب إلى النصر مما
وقت آخر. كان ينبغى توفر النزر القليل للاستيلاء على الاس

ومواصلة الزحف على قناة السويس وفلسطين. بيد أننا لم نكن أقوياء في تلك الموقعة بسبب انشغال قواتنا، وبالدرجة الرئيسية في الحرب مع "روسيا".

أجل، إن مقاومة "ستالينغراد" البطولية، ومن ثم هجوم الجيش الأحمر المضاد، لم يتيحا لهتلر، رغم الحاح "روميل"، أن ينقل إلى مصر أبسط الامدادات، وبذا فإنهما انقذا الشرق الأوسط من الخطر المحدق. . . .

من "العامرية"، الواقعة جنوبي بحيرة مريوط، إلى "القاهرة" - أي على امتداد مسافة ۲۰۰ كيلومتر - لم نشاهد أي موقع مأهول. الطريق المعبد المصقول هو الشيئ الوحيد الذي يبدد الاحساس بالضياع وسط الصحراء. ولكنه يخلق وهما بأن واحة فيها أشجار النخيل تبدو أمامنا، بل ونتبين أحيانا معالم مبان بين الأبخرة. نحن نعرف حق المعرفة أنه سراب، ولكن ليس من السهل التخلص من الاعتقاد بأننا على وشك دخول قرية.

الساعات تمضي رتيبة لتقربنا من "القاهرة". ها قد بانت ملامح حراس العاصمة، الأهرامات العظيمة. تركناها إلى يميننا ومرقنا عبر ضواحي "الجيزة" بموازاة النيل. ها هو شارع رفعت الظليل وفيه بيتنا الفارغ في الصيف. توجهت توا إلى السفارة، فليس لديّ ما أفعله في البيت، في حين أن المشاغل في انتظاري بالسفارة. وما أن دخلت حتى انغمرت فيها

بقيت أسبوعا كاملا تقريبا في دوامة الاشغال المتراكمة والطارئة، الكبيرة والصغيرة، اعمل من الصباح الباكر حتى وقت متأخر من الليل، وأحيانا أثناء الليل أيضا. خاصة وإن أحدا لم يكن ينتظرني في البيت ويؤنبني لتماهلي في الاعتناء بصحتي.

في واحد من أيام هذا الأسبوع المشحون بالمشاغل التقيت بـ "النحاس باشا" بناء على طلبه. كنا في مكتبه بوزارة الخارجية لوحدنا، إذ أن وكيل الوزارة "صلاح الدين بك"الذى كان يشارك عادة فى أحاديثنا، تغيب هذه المرة لسبب لا أعرفه. شد رئيس الوزراء على يدى بود وقال:

– لم نتقابل منذ مدة طويلة، ياسعادة السفير، لذا ما أن عرفت بعودتكم إلى "القاهرة"، حتى رغبت فى الالتقاء بكم. لعل الطلب عليكم الآن كبير فى السلك الدبلوماسى. فأنتم معين لا ينضب للأخبار المثيرة.

رددت على الإطراء المبالغ فيه قائلا:

– لكن صحف "القاهرة" استبقت وصولى بأنبائها إن كنتم. يامعالى رئيس الوزراء، تقصدون مهمتى فى "سورية" و"لبنان".

– اقصدها بالذات، وأسارع لأكون من أوائل من يهنئكم فى مصر على النتائج التى تمخضت عنها. فى الآونة الأخيرة غالبا ما كنت أستعيد حديثنا وإياكم فى تشرين الثانى (نوفمبر) من العام الماضى، حينما تناولنا أحداث "لبنان" المأساوية. ولكن أى انعطاف ايجابى حصل فى بلدان المشرق خلال الأسابيع الأخيرة! ويجب أن أشير بقناعة راسخة إلى أن مبادئ الدبلوماسية السوفيتية متطابقة مع ممارستها العملية، وإن الحكومة المصرية تحيى بحرارة اعترافكم بسورية و"لبنان" دولتين مستقلتين. وهذا الاعتراف تأكيد ساطع على مصداقية النهج السياسى الخارجى للاتحاد السوفيتى حيال العالم العربى. ليس هناك ما يشجعنا، نحن العرب، كما يشجعنا مساندتكم لتطلعنا إلى الكيان الدولى المستقل. وهو يرسخ فينا الإيمان والثقة بأن أهدافنا القومية سوف تتحقق

مهما كانت العقبات فى طريقنا.

قلت لرئيس الوزراء أنى أتفهم تماما مشاعره، وقد أسرنى جدا الاستماع إلى تقييمه الرفيع للسياسة الخارجية للحكومة السوفيتية. وإن كلمات رئيس الوزراء هى برهان بليغ الأدلة على الثقة بهذه السياسة، والثقة المتبادلة هى أمتن خرسانه ترسخ العلاقات الودية الحقة بين البلدين.

شاعت نبرات التفاؤل فى سائر أقوال "النحاس باشا" خلال حديثنا. فحينما تطرقنا إلى الموضوع الذى لا مناص من تناوله. وأعنى انتهاء الحرب عما قريب، قال إن السلام يجب أن يؤدى إلى تحولات نحو الأفضل فى وضع مصر كدولة، وإن لحظة تحقق أمانيها الوطنية المنشودة قد دنت، كما تحدث بحماس عن آفاق توحد البلدانِ العربية الذى سيتيح لها امكانية التصدى الفعال لأى دسائس معادية.

لأول مرة أرى "النحاس باشا" فى مثل هذا المزاج الرائق. ولا شك أن مبعثه هو النهوض السياسى العام فى البلدان العربية، وخاصة "مصر"، حيث كانت تتصاعد يوما أثر يوم حركة التحرر الوطنى التى جرت تحت رايات "حزب الوفد". ودّعت رئيس الوزراء وأعربت، من صميم القلب، عن تمنياتى له وللحكومة المصرية بالنجاح فى تحقيق الأهداف الوطنية لمصر.

بعد مرور بضعة أيام قرأت فى الصحف خطاب "النحاس باشا" بمناسبة الذكرى الثامنة لتوقيع معاهدة "التحالف" البريطانية المصرية. وقد وجدت فيه ذات النبرات المتفائلة التى سمعتها منه فى أحاذيثنا الشخصية. فإن زعيم "حزب الوفد" الذى وافق عام ١٩٤٢ على التعاون

مع بريطانيا فى فترة الحرب، دون التخلى عن الأهداف النهائية للحزب، أخذ يذكر البلد الآن بأن هذه الأهداف ما برحت تدل الشعب على الطريق إلى المستقبل الحر المستقل، وقد ركز "النحاس باشا" فى خطابه على إلغاء معاهدة ١٩٣٦ الجائرة وإجلاء القوات البريطانية عن الأراضى المصرية بعد انتهاء الحرب. وقد استقبل الشعب المصرى الخطاب بالبشر والأمل، بينما قابله البريطانيون باستياء لم يبذلوا جهدا لمداراته. وصار "النحاس باشا" فى نظرهم "شخصا غير مرغوب فيه" وفق التعبير الدبلوماسى، وأصبحت أيام حكمه معدودة.

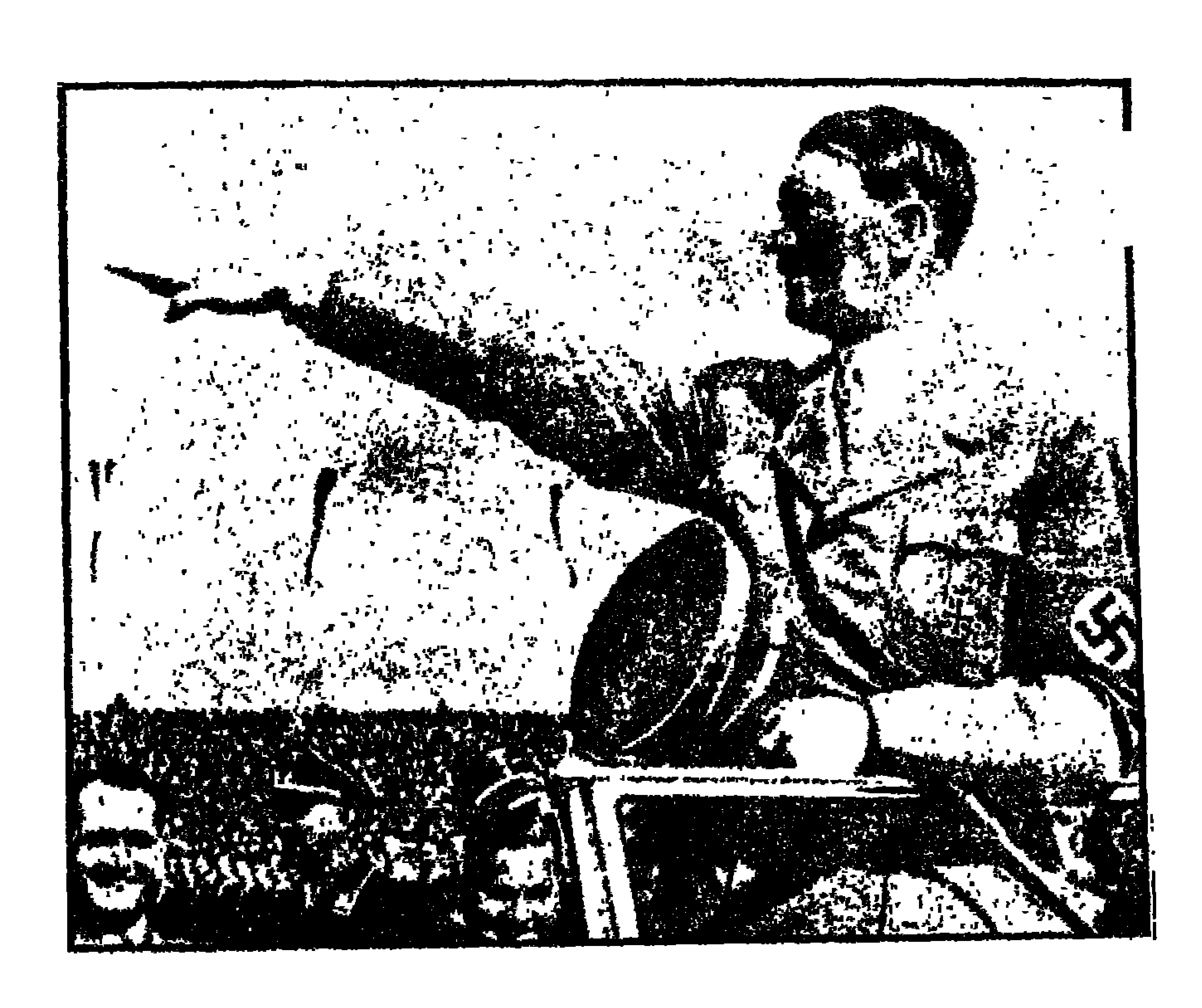
وسأتحدث فى فصل قادم عن استقالته المفاجئة.



الدبلوماسيون السوفييت وعقيلاتهم في حفل استقبال اقامه النحاس باشا - رئيس الوزراء ووزير خارجية مصر (يقف نيكولاي نوفيكوف الى يسار النحاس باشا). القاهرة في ٣ يناير ١٩٤٤

الفصل الخامس عشر

عند تقاطع الطرق



فى الحادى والعشرين من أيلول (سبتمبر) دونت فى يومياتى ما يلى:

"مضت ثلاثة آسابيع لم أدون خلالها شيئا، ولكن كم من الأحداث الهامة شهدت هذه الفترة! حررت "فرنسا" و"بلجيكا" بالكامل، وعادت حكومتاهما إلى العاصمتين. أراضى "رومانيا" كلها تقريبا تحت سيطرة الجيش الأحمر. فى ٢١ أيلول عقدت مع "رومانيا" معاهدة الصلح التى بذلتُ شخصيا جهدا كبيرا فى اعدادها فى "القاهرة" أولا، ثم هنا فى "موسكو". وخلال هذه الفترة بدأت وانتهت حرب الأيام الثلاثة مع "بلغاريا" والتى لم ترق فيها الدماء. الجيش الأحمر الآن فى "بلغاريا"، أما القوات البلغارية فتحارب ضد الجيش الالمانى. حرر الجيش الأحمر حى براغا فى "وارسو" وهو يشن هجوما على جبهة واسعة فى منطقة البلطيق. عقد الصلح يوم أمس مع "فنلنده"... الأحداث كثيرة يتعذر حصرها".

ثم أضفت: "حياتى أيضا مليئة بالأحداث". وكانت لى المبررات الكافية لمثل هذا القول.

فقد استدعيت خلال هذه الفترة إلى "موسكو" للمشاركة فى اعداد

معاهدة الصلح مع "رومانيا"، فبعد أن تفاوضت مع ممثلين عن الحكومة الرومانية فى "القاهرة". ويسرى حاليا مفعول المعاهدة التى شكلت لجنة متابعة من الحلفاء لمراقبة سير تنفيذها، وأسندت رئاستها إلى المارشال "مالينوفسكى". وأوفد المبعوث السوفيتى فى "صوفيا لافريشيّف" إلى "بخارست" كمستشار سياسى للمارشال "مالينوفسكى".

بدا أن علىَّ حزم حقائبى والتوجه إلى "القاهرة" لاستئناف مهماتى المباشرة. بيد أن خبرة العمل الدبلوماسى فى زمن الحرب علمتنى أن اتوقع تقلبات القدر فى كل لحظة. وشعرت أننى مقبل على تقلبات من هذا القبيل. وكان من المرجح أن اتجه إلى "بخارست" وليس إلى "القاهرة".

على أى أساس كان هذا الافتراض قائما؟ أولا، أننى واحد من "الرومانيين القدامى" فقد توليت ادارة الشؤون الرومانية فى مفوضية الشعب للشؤون الخارجية فى فترة ١٩٤٠-١٩٤١، وكان من المفترض أن أوفد ربيع عام ١٩٤٠ مبعوثا إلى "بخارست". وقد زرت "رومانيا" خريف عام ١٩٤٠. ثم أننى تفاوضت حول الصلح فى "القاهرة" ومن ثم فى "موسكو". كل ذلك وصل بى إلى استنتاج مفاده أننى قد أرشح لمنصب ذى صلة بشؤون "رومانيا"، كأن أنسب إلى لجنة متابعة معاهدة الصلح. وفى البداية بدد سفر "لافريشيّف" إلى "بخارست" افتراضاتى الأولى. ولكن بعد يومين من سفره استدعانى "مولوتوف" وأخبرنى أننى سأوفَد إلى "بخارست". لم استغرب من كلماته كثيرا لأننى كنت مهيأ نفسيا لها، واكتفيت بطرح السؤال التالى: "وماذا عن الرفيق "لافريشيّف"؟". أجاب "مولوتوف" باقتضاب أن "لافريشيّف" سوف

يستدعى. وبعد فترة قصيرة وضعت النقاط على الحروف. فقد عين "لافريشيف" فى منصب مماثل لدى لجنة الحلفاء للمتابعة فى "بلغاريا".

أمضيت بضعة أيام وأنا أحس بنفسى مستشارا سياسيا فى لجنة المتابعة وقمت، بناء على توجيهات مفوض الشعب، بدراسة التقارير الواردة من "بخارست" وسائر المواد المتعلقة برومانيا. ومن أقوال "مولوتوف" عرفت أن سفرى إلى "بخارست" سيتم فى غضون أيام. لم يكن ذلك مشكلة بالنسبة لى شخصيا. ولكنني طلبت من مفوض الشعب سماحا بالسفر إلى "القاهرة" لجلب عائلتى وتوديع ممثلى الحكومة المصرية، كما يقتضى العرف الدبلوماسى، بيد أن مفوض الشعب رفض طلبى.

مساء ٢٠ أيلول (سبتمبر) عُلقت مشاريعى "الرومانية" على حين غرة. فقد استدعانى مفوض الشعب إلى مكتبه فى الكرملين، واعتقدت أن هذا هو لقائى الأخير معه قبل سفرى إلى "بخارست"، وأننى سأتلقى منه تعليمات بهذا الخصوص. بيد أننى سمعت شيئا آخر تماما. فقد قال "مولوتوف" أن قيادة مفوضية الشعب درست من جديد مسألة عملى اللاحق وقررت إيفادى إلى . . . واشنطن. وقال أننى سأعين فى منصب وزير مفوض مع احتفاظى برتبة سفير. وبرر "مولوتوف" هذا القرار بأن لاندريه غروميكو، سفيرنا فى الولايات المتحدة الأمريكية، مشاغل كثيرة متصلة بتأسيس هيئة الأمم المتحدة، وبالتالى فهو بحاجة إلى مساعد كفؤ لاعانته في الأعمال اليومية للسفارة.

فى هذه المرة استغربت جدا، إذ لم أكن اتوقع أن تحدث مثل هذه التقلبات. ورغم أننى أجبت بالإيجاب على استفسار مفوض الشعب حول

موافقتي، وهو سؤال شكلي بحت، فقد كنت بحاجه إلى اعدا د نفسي مكثف لتقبل فكرة تعييني في المنصب الجديد، وما يترتب عليه من طابع ونطاق جديدين تماما في العمل ببلد مثل "الولايات المتحدة". وفي مكان ما من أعماق نفسي كان ثمة تسؤل: تُرى هل أن قرار تعيتني في "واشنطن" قطعي؟ ألن يتغير بغتة مثل قرار ترشيحي إلى "بخارست"؟

هذه وغيرها من الأفكار المماثلة وجدت صدى لها في دفتر يومياتي بتاريخ ٢١ أيلول، والذي سبق أن تطرقت إليه، فبوحي من حديثي مع مفوض الشعب كتبت أتساءل بتهكم: "إلى أين سأوفد غدا؟ إلى أية قارة وأي بلد وفي أي منصب؟ ثم هل سيسمح لي بأن اعرج على عائلتي في "القاهرة"؟ هذه هي الأسئلة التي تلح عليّ باستمرار بسبب التحولات السريعة في مصيري خلال الأيام الأخيرة، والشهور الأخيرة عموما".

حُسم واحد من هذه الأسئلة في نفس اليوم الذي دونت خلاله تلك العبارات. ففي المساء اتصلت تلفونيا بمفوض الشعب وقلت له إن اجراءات سفري إلى "واشنطن" سوف تستغرق وقتا غير قليل في مختلف المراجع، ولا أرى مبررا لاستمرار بقائي في "موسكو" دون عمل. ولذا من الأفضل أن انتظر القرار النهائي في "القاهرة" حيث الحاجة ماسة إلى العاملين. إذ يجري استدعاء "سولود"، الذي كان القائم بأعمال السفارة في فترة غيابي، وذلك لأنه عين يوم ١٤ ايلول (سبتمبر) مبعوثا في "سورية" و"لبنان" اضافة لوظيفته. استمع "مولوتوف" إلى حججي ووافق بعد تردد. لم انتظر ريثما يغير رأيه، بل اتفقت مع مديره ادارة مفوضية الشعب "خريستوموروف" على أن يؤمن سفري إلى "طهران" في اليوم التالي. أما بالنسبة لي شخصيا فلم تكن استعدادات السفر لتأخذ مني

وقتنا، فحقيبتى مهيأة، ولم يبق إلا أن اعرف إلى أين اذهب بها.

فى ٢٢ ايلول غادرت "موسكو" بالطائرة ووصلت "طهران" مساء. ومرة أخرى اضطرت إلى قضاء ثلاثة أيام فى فندق "دربند" بسبب مشاكل النقل الجوى المعتادة. وبسبب ذلك أصبحت اتردد كثيرا على سفارتنا فى "طهران"، حيث تعرفت بماكسيموف القائم بأعمال السفارة. ولعلى أثقلت عليه بزياراتى، ولكن لم يكن لدىّ شخص آخر أستعين به.

كان فى مصيبة التأخر فوائد. فأثناء توقفى فى العاصمة الإيرانية فى المرتين السابقتين لم يتسنّ لى الاطلاع على المدينة. أماهذه المرة فلدىّ وقت كاف وقد استثمرته للسياحة.

حتى ذلك الحين كانت معرفتى بطهران مبتسرة، وقد تكونت لدىّ جزئيا من خلال رواية "طهران البشعة" التى صدرت فى الاتحاد السوفيتى قبيل الحرب (وبالمناسبة فإن كاتبها "مرتضى مشفق كاظمى" عمل خلال سنوات الحرب سكرتيرا ثانيا فى السفارة الايرانية بالقاهرة. بيد أن حياة العاصمة فى العشرينات والتى وصفتها الرواية، لم تعد تشبه كثيرا حياة المدينة فى أواسط الأربعينات.

يجب الأقرار أن "طهران" بدت، بالمقارنة مع "القاهرة"، قرية كبيرة. فلم يكن فيها سوى شارعين أو ثلاثة تكثر فيها المتاجر ذات الوجهات المزينة باعتدال والمطاعم والمقاهى ذات اليافطات الزاهية. بديهى أن فى "طهران" عددا غير قليل من المنشآت المعمارية والآثار التاريخية القيمة، ولكنها لا تضاهى أبهة المبانى الحديثة فى "القاهرة"، والآثار المصرية النفيسة. ولعل انطباعاتى تأثرت بسطحية تعرفى بطهران، وهى أمر حتمى، وكذلك لكونى قد اعتدت "القاهرة" خلال أقامتى فيها،

واعتبرتها نموذجا لسائر بلدان الشرقين الأوسط والأدنى.

أخير انتهت أجازتى الاضطرارية، إذ وفر لى الأمريكان مقعدا فى طائرة نقل حربية متوجهة إلى "القاهرة" فى ٢٦ ايلول (سبتمبر). جلست فى الطائرة على مصاطب حديدية ضيقة بامتداد هيكل الطائرة. وفى الوسط كومت صناديق خشبية وحاويات فولاذية وبالات وأشياء لا يعرفها إلا الله. وقد شدت جميعا بحبال إلى حلقات على الأرضية، ولكنها لم تثبت بشكل يمنعها من الحركة حينما تتعرض الطائرة إلى مطب هوائى أو تميل إلى أحد الجانبين. وعندما كانت الأحمال تندفع نحوى أسارع إلى الهرب منها مغيرا مكانى على المقعد. وكانت مديرية النقل الأمريكية تسترشد فى نقل الركاب بمبدأ الزهد القائل: "لا مكان للراحة فى زمن الحرب". وفى تلك الرحلة خبرت العواقب العملية لهذا الشعار بالكامل.

ما أن دخلت سفارتنا فى "القاهرة" حتى سُلمت برقية وصلت للتو من "موسكو" تفيد بأن الموافقات الرسمية على تعيينى وزيرا مفوضا فى "واشنطن" قد حصلت، ولذا علىّ أن أطير مع عائلتى إلى "موسكو"، ومنها إلى موقع عملى الجديد. استغربت لأن البرقية لم تتضمن كلمة "فورا" التقليدية التى اعتدتها فى سنوات الحرب. وقد اعتبرت غيابها موافقة ضمنية من مفوض الشعب على مراعاة مقتضيات العرف الديلوماسى قبل مغادرة "مصر"، وهو ما طلبته من "مولوتوف" فى "موسكو".

كما تضمنت البرقية نصا أثار حيرتى. فلماذا، ياترى، ينبغى أن اطير

مع عائلتى إلى "واشنطن" على أطول طريق: عبر "موسكو" و"سيبيريا" كلها و"ألاسكا" و"كندا" وجزء كبير من أراضى "الولايات المتحدة"؟ ثمة طريق أقصر وأسهل بكثير، وخصوصا للعائلة، من القاهرة جوا وإلى "الدار البيضاء" ومنها إلى "واشنطن" عبر جزر الأزور.

عرضت هذه الأفكار فى برقية جوابية وطلبت الموافقة على الطريق الأقصر. وأضفت أنه إذا كانت الحاجة تستدعى حضورى إلى "موسكو" لتلقى تعليمات بصدد العمل الجديد، فبوسعى أن اتوجه إلى هناك دون اصطحاب العائلة.

فى انتظار التعليمات قمت باجراء الأشغال البروتوكولية، وفى مقدمتها زيارتى للنحاس باشا فى أواخر الشهر، حيث أخبرته أننى يجب أن أغادر "مصر" عما قريب لتعيينى في منصب جديد، كما أبلغته أن مستشار السفارة سولود سيغادر القاهرة فى مطلع تشرين الأول (اكتوبر) لتعيينه مبعوثا فى "سورية" و"لبنان". أعرب رئيس الوزراء، الذى استقبلنى بحضور وكيل الخارجية "صلاح الدين بك"، عن أسفه لرحيل دبلوماسيَيْن سوفيتيين دفعة واحدة، وأثنى كثيرا على عملنا فى مجال تطوير العلاقات الودية بين "مصر" و"الاتحاد السوفيتى".

أعقب ذلك حديث تناولنا فيه الأحداث الدولية الأخيرة: الصلح مع "رومانيا" و"فنلنده"، وخروج "بلغاريا" من الكتلة الهتلرية، ودخول الجيش الأحمر والقوات الانجلو-أمريكية أراضى "المانيا". واعتبر "النحاس باشا" هذه الأحداث نجاحا عظيما للائتلاف المعادى للهتلرية، وأضاف أن الحكومة المصرية تستعد، فى ضوء تلك الأحداث، لمراجعة موقفها من الحرب فى أوربا، ويأمل أنه لن يطول انتظار "قرار بهذا الخصوص"

(ولكن القرار لم يتخذ فى الواقع إلا فى شباط (فبراير) ١٩٤٥، حينما أعلنت الحكومة المصرية أن "مصر" فى حالة حرب مع المانيا).

استفسرت من رئيس الوزراء عن سير أعمال مؤتمر الدول العربية فى "الاسكندرية" الذى يعقده بدعوة من الحكومة المصرية. قال إن المرحلة الأولى من المؤتمر فتحت أفاقا جيدة لعقد اتفاقية أساسها المشروع المصرى، ولم يخض فى تفاصيل المشروع، ولكننى كنت أعرف من الأنباء التى تسربت إلى الصحف ومن مصادر أخرى، أن مشروع "سورية الكبرى" الذى حاولت الدبلوماسية البريطانية تمريره يمكن اعتباره مقبورا، وإن "مصر" طرحت بدلا عنه فكرة تأسيس جامعة الدول العربية. وخلافا لمشروع "سورية الكبرى" لم ينص المشروع المصرى على تخلى أى من البلدان العربية عن استقلالها الوطنى لصالح بلد منها.

وكان لثقة "النحاس باشا" بنجاح المؤتمر ما يبررها. ففى السابع من تشرين الأول (اكتوبر) وقع ممثلو "مصر" و"سورية" و"لبنان" و"العراق" ما يسمى ببروتوكول "الاسكندرية" (انضمت إليه "العربية السعودية" فى آذار (مارس) ١٩٤٥) حول تأسيس جامعة الدول العربية.

فى اليوم الذى أعقب زيارتى للنحاس باشا نشرت صحف "القاهرة" نبأ بصدد قرب مغادرتى مصر. وكانت نبرة المواد التى نشرت، وهى متشابهة المضمون عموما، ودية تماما. وسأورد مقطعا من مقال نشر فى صحيفة "بورس إجيبسيان".

"....ابتداء من ٢٣ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٤٣ كان الدبلوماسى المحترم "توفيكوف" والسيدة عقيلته أول ممثلين رسميين عن "الاتحاد السوفيتى" فى بلدنا. وقد تمكنا ببشاشتهما ولباقتهما من خلق

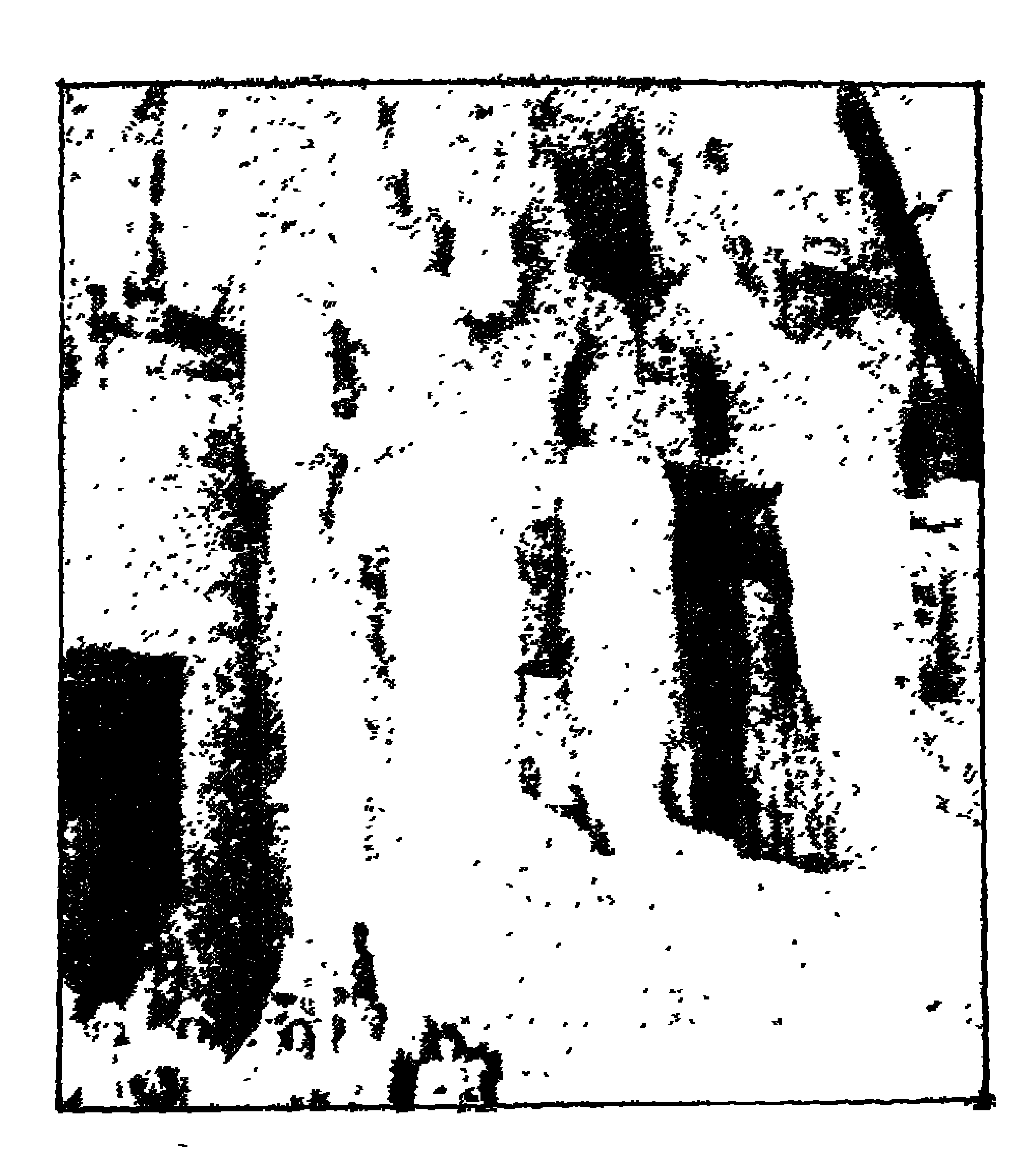
جو ملائم جدا للبعثة السوفيتية، وبذا زاد من الهيبة العظيمة التى يحظى بها بلدهما عن حق بيننا. منذ زمن "ستالينغراد" وسائر الانتصارات المجيدة على المعتدين النازيين".

طوال الأسبوع الأول من شهر تشرين الأول عقدت لقاءات مع زملائى فى السلك الدبلوماسى وكبار المسؤولين المصريين الذين ينص البروتوكول على توديعهم رسميا. وتوفيرا للوقت لم اقتصر على التوديع الفردى، بل كنت أقوم بتوديعات جماعية. ففى السابع من تشرين الأول (اكتوبر) أقامت السفارة حفلا استمر خمس ساعات فى شقتى حضره الوزراء ووجوه المجتمع والدبلوماسيين.

وقد حظيت ختاما باهتمام "الملك فاروق" و"النحاس باشا". فإن الملك دعانى وزوجتى لزيارة الأقصر قبيل المغادرة، أما رئيس الوزراء فقد دعانا إلى مأدبة غداء وداعية فى وزارة الخارجية، على أن تجرى فى ١٢ تشرين الأول، أى يوم عودتنا من "الأقصر". ومن البديهى أننى قبلت الدعوتين.

الفصل السادس عشر

"الأقصر"



توجهت وزوجتى إلى "الأقصر" مساء الثامن من تشرين الأول (أكتوبر) فى عربة صالون بالقطار الريع خصصت لنا. وللأسف فأن فخفخة العربة وحتى المروحة السقفية فيها لم تنسيانا الجو الخانق. وقد كانت النوافذ محكمة الاغلاق، وهو إجراء وقائي لا بد منه حينما يسير القطار بمحاذاة النيل الذى تحف به صحراء رملية من الجانبين. ورغم ذلك، فقد غطت طبقة كثيفة من الغبار مخمل الأثاث والبساط المفروش على الخوان، وكنا نحس به على وجوهنا وفى أفواهنا.

لم يجلب لنا الليل الراحة والبرودة، وعوضا عن النوم كنا نتقلب باضطراب على الكنبتين الوثيرتين. وساءت الأحوال عند الصباح، ومع اقترابنا من "الأقصر". وتجدر الأشارة إلي أن موسم السياحة فى الوجه القبلى لا يبدأ إلا فى تشرين الثانى (نوفمبر) وذلك بسبب الجو القائظ. ولكن لم يكن أمامنا خيار، ولم يتبق لنا سوى القبول بارعاجات الجو في تشرين الأول.

رافقنا في الطريق "منير بك" وهو موظف فى قسم التشريفات بوزارة الخارجية، رجل مهذب وخدوم. وقد رتب لنا فى المساء عشاء مترفا،

ولكننا لم نأبه به، فإن الحر والجو الخانق افقدنا الشهية. غير أننا ظللنا نشرب المرطبات بلا انقطاع، مساء وليلا وصباحا، ثم دفعنا ثمن ذلك عرقا تصبب منا.

نظم لنا فى محطة الأقصر استقبال فخم بوصفنا ضيوف الملك، وكان هناك وفد كامل يضم ممثلين عن السلطات المحلية، وجمهور غفير لا ادرى كيف عرف بقدومنا. قدم لنا "منير بك" المستقبلين فردا فردا، ثم اصطحبنا إلى "وينتر بالاس" على ضفاف النيل. وقد بدا لنا أن فى اسم الفندق نوعا من السخرية. فبالرغم من المروحة السقفية ظلت تدور بلا انقطاع، كان الجو فى الغرفة منذ الصباح حارا ورطبا يذكر بغرفة البخار فى الحمام التركى.

وعندما استرجع الآن ذكرياتى عن تلك المشاعر المزعجة التى شعرت بها كأى شمالى، افكر بإعجاب بجلد شماليين آخرين، من المهندسين والفنيين والعمال السوفيت، الذين عملوا بتفان فى الستينات لمساعدة الشعب المصرى فى بناء السد العالي فى "أسوان" التى تقع إلى الجنوب من "الأقصر". وأنا ادرك جيدا المصاعب التى واجهوها حينما امضوا هناك شهورا وسنين، وليس أياما، لا فى جولة مثلنا، بل كانوا منهمكين فى العمل الدؤوب.

بعد أن استقر بنا المقام فى الغرفة وأخذنا حماما وتهيأنا للقيام بجولة قصيرة فى المدينة، داهمنى "منير بك" بخبر وقع علىّ وقع الصاعقة. فقد ذكر أن راديو "القاهرة" أذاع أن "النحاس باشا" استلم يوم أمس فى "الاسكندرية"، حيث كان يستعد للاحتفال بنجاح مؤتمر الدول العربية، أمرا ملكيا بإقالته من منصب رئيس الوزراء.

وجال فى خاطرى أن هذه الخطوة تدل على أن "الملك فاروق" يشعر بمتانة موقعه، إن كان قد قرر الإطاحة بحكومة الوفد، وبالتالى تصفية الحساب مع عدوه السياسى اللدود. بيد أن أقدام الملك على هذه الخطوة الجريئة يعنى، على أقل تقدير، أن الانجليز لا يعترضون عليها، إذ أنهم كانوا يراهنون على "حزب الوفد" خلال السنوات الأخيرة. أم لعله تواطؤ مباشر مع الملك؟ إن كان الجواب بالإيجاب، فما هى، يا ترى، الشروط؟

يبدو أن وزارة الخارجية البريطانية لم تغفر للنحاس باشا خطابه الجرئ فى آب (اغسطس)، و "نصحت" "فاروق" باسناد رئاسة الحكومة إلى شخص ذى ميول بريطانية صريحة. لمن ستسند رئاسة الحكومة؟ تركت هذه التخمينات والتساؤلات أثرها على مزاجى أثناء الجولة. واعتقد أننى كنت سارحا ولم اسمع إلا شذرات مما قال الدليل عن تاريخ طيبة ذات المائة باب التى شيدت الأقصر المعاصرة فى موقعها.

فى النصف الثانى من النهار تفقدنا معبد "الإله آمون رع" الذى مازال قائما وفى حالة لا بأس بها، وهو عبارة عن مجموعة ضخمة من المبانى والأعمدة والنُّصُب والتماثيل. بيد أن أطرف الجولات ما برحت فى انتظارنا.

تناولنا الطعام مساء فى شرفة الفندق المطلة على النيل. تعلقت انظارى بالجانب الآخر من النهر، حيث تقوم سلسلة من الهضاب تحجب الأفق. وعند سفوحها "وادى الملوك" حيث توجد مقبرة ملوك مصر القديمة.

توجهنا صباحا إلى هناك على متن باخرة قديمة يتصاعد من ماسورتها دخان كثيف. كانت تطلق أصواتا كحشرجة المصاب بالربو، واحتاجت إلى

وقت طويل لكى تعبر مياه النيل ذات اللون البنى الفاتح، فالنهر العظيم يغدو عريضا جدا في تشرين الأول (اكتوبر) حينما يصل منسوب مياهه إلى الحد الأقصى.

قمنا بجولة فى غاية المتعة، اطلعنا على عدد من المدافن الملكية التى توحى بالهيبة والحزن، ونزلنا إلى أجوافها، وزرنا الكثير من المعابد والمصليات. إن مقبرة طيبة متحف هائل لعمارة وفنون تلك الأزمان الغابرة التى كانت إبانها شعوب أوربا تحبو بوجل على السلالم الدنيا للحضارة. ومن بين كل ما شاهدناه ترك أبلغ الأثر فى نفوسنا ضريح الملكة "حتشبسوت" ذو الطبقات الثلاث من الأعمدة، والذى يبدو وكأنه قد نما من بين الصخور المحيطة به. عمارة فريدة فى غاية الروعة والجمال!

فى صباح اليوم التالى ركبنا سيارة مكشوفة اتجهت بنا نحو "الكرنك"، وهى بلدة صغيرة قرب الأقصر. خلفت السيارة عاصفة من الغبار، وهى تنعطف من خلف السيارة عاصفة من الغبار، وهى تنعطف من الكورنيش إلى الشارع الرئيسى الممتد حتى الضواحى الشمالية للمدينة. وقد مرت السيارة بجوار سوق تدافعت منه قوافل الحمير والبغال المحملة. ونفخ السائق فى بوق السيارة ولكن الصوت ضاع وسط ضجيج الناس ونهيق الحمير. وأخيرا خلفنا ساحة السوق وراءنا وخرجنا إلى ظهر المدينة.

هناك انداح أمامنا مجددا نهر النيل تمخر عبابه زوارق البضائع ذات الأشرعة البيضاء المائلة. وكان أحد الزوارق بدون أشرعة ربط بحبال يجرها أربعة فلاحين. وكان المراكبى، وهو صاحب الزورق على ما يبدو، يستحثهم بصوته المجلجل. ومن النهر صعدت نساء مصريات بملابسهن

السوداء وهن يحملن جرار الماء الفخارية على رؤوسهن. وبين الحين والحين كنا نمر إلى جوار محاريث تجرها جواميس سوداء تكاد رؤوسها الضخمة تلامس الأرض من فرط التعب.

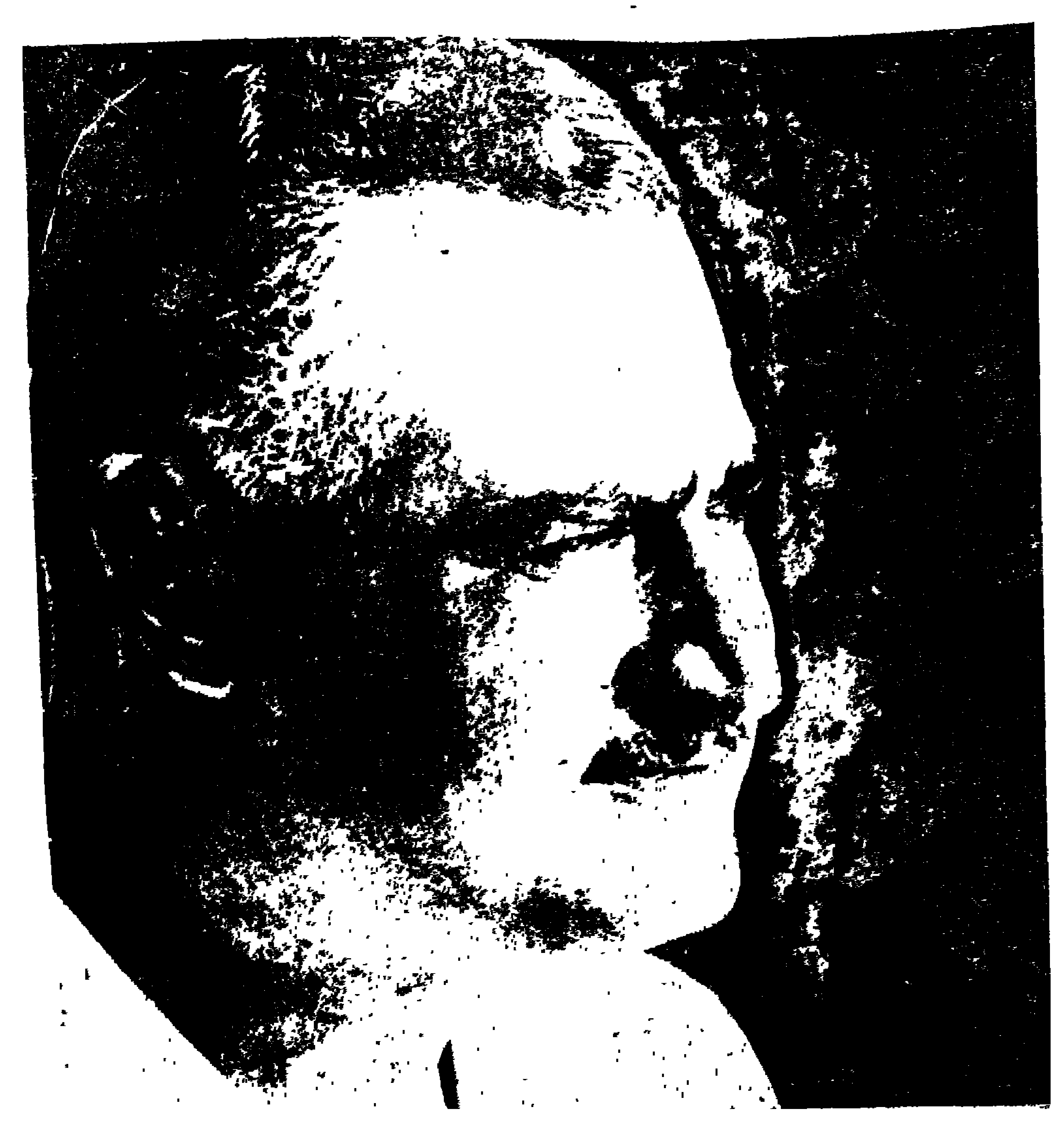
هذه المشاهد ذكرتني بجدارية في "معبد الملكة حتشبسوت": عبيد يجرون سفينة محملة في النيل بدا وكأن الفنان القديم المجهول لم يرسم مشهدا من حياة المصريين القدماء، بل صورة للواقع المؤسي في الأربعينات من القرن العشرين. . . ولكم كان الشبه كبيرا!

بعد مسيرة نصف ساعة مررنا خلالها بجوار أكواخ الطين المحاطة بالنخيل في "الكرنك"، وصلت سيارتنا إلى طريق الكباش، وتوقفت عند انقاض معبد إله الشمس "آمون رع"، كبير آلهة مصر القديمة. المبنى هائل الأبعاد بحيث أن الإنسان يتضاءل أمامه ويغدو كنملة. وأكثر ما يذهل المرء قاعة الأعمدة الضخمة التي يذكر الدليل أن عددها كان يبلغ ١٣٤ عمودا، ارتفاع كل منها ٤٦ مترا. وبشعور من العزة الوطنية قال الدليل المصري الشاب أن هذه القاعة يمكن أن تتسع لكنيسة نوتردام كلها.

منذ أمد بعيد لم يعد لقبة المعبد وجود. ورغم ذلك فإن أشعة الشمس التي لم تبلغ السمت كانت تلقي ظلالا باهتة من خلال الأعمدة. وسط المعبد شبه معتم مما يضفي نوعا من الغموض الرومانسي عليه. ودار في خاطري: ترى كيف كان يبدو المعبد أثناء وجود القبة الحجرية الهائلة التي لا تترك من منفذ لأشعة الشمس، سوى الكوات الجانبية الصغيرة؟ بديهي أن الجو في الداخل كان آنذاك كئيبا وموحشا. فمثل هذه المعابد يجب أن توحي للناس بأنهم تافهون إزاء القوة الإلهيه الخارجية الخارقة، وتحضهم على الانصياع لمن يجسد هذه القوة في الأرض، من فراعنة وكهان. . . .

الفصل السابع عشر

عوضا عن الخاتمة



عند عودتى من الأقصر إلى القاهرة كنت محيطا بالتغيرات الحكومية. فمن خلال الصحف أطلعت على نص المرسوم الملكى المؤرخ فى ٨ تشرين الأول (اكتوبر) حول إقالة حكومة "النحاس باشا". وسأورده كنموذج للرياء السياسى، وكخليط من الديماغوجية المفرطة والتحامل الشخصى المسموم، المغلف بصياغات بروتوكولية مترفة-مهذبة:

"عزيزى مصطفى النحاس باشا!

رغبة منا فى أن يدير بلادنا مجلس وزراء ديمقراطى قادر على أن يخدم الوطن بشرف، ويطبق أحكام الدستور حرفيا، ويعدل بين المصريين فى الحقوق والواجبات، وكذلك يوفر لجميع فئات السكان الطعام والكساء، قررنا إعفاءكم من منصبكم. وإذ نوجه إليكم هذا المرسوم، نعرب عن الامتنان لكم ولزملائكم لما أديتم من خدمات أثناء النهوض بواجبكم.

"الملك فاروق الأول"(×).

عهد فاروق بمهمة تشكيل الحكومة "الديمقراطية" الجديدة إلى زعيم الحزب السعدى "أحمد ماهر باشا" (ابن عم "على ماهر باشا" الذى

استأجرنا فيلّته)، وضم إلى الحكومة ألدّ أعداء "النحاس باشا" السياسيين. وأسندت وزارة الخارجية إلى زعيم آخر من زعماء الحزب السعدى هو "محمود النقراشي باشا".

فى الثانى عشر من تشرين الأول (اكتوبر) وصل بنا القطار إلى "القاهرة"، فاتجهت فورا إلى السفارة حيث وجدت على مكتبى بطاقة دعوة لمأدبة توديعية تقيمها وزارة الخارجية، غير أن الدعوة كانت الآن من "النقراشي باشا" وعقيلته. كان ذلك اليوم الأخير لأقامتى فى "مصر". فقد أطلعت السفارة صباحا على برقية مقتضبة تأمرنى بالتوجه فورا إلى "موسكو"، لوحدى أى بدون عائلتى. ومن الواضح أن هذه البرقية كانت تعنى موافقة مفوضية الشعب للشؤون الخارجية على الاقتراح الذى تقدمت به قبل أسبوع. لذا دونت فى يومياتى بتاريخ ١٢ تشرين الأول: "سأغادر فى الساعة السادسة والنصف من صباح الغد إلى "طهران" جوا، ومنها إلى "موسكو"، حيث يجب أن اتلقى تعليمات بشأن عملى الجديد، وبعد ذلك أتوجه إلى "واشنطن" عبر "القاهرة!".

لم أصب في تخميناتى. إذ لم تقدر لى العودة إلى "القاهرة"، ثم أن سفرتى لم تكن إلى "واشنطن"..

.

مضى زهاء أربع وعشرين ساعة على عودتى من "الأقصر"، مرت كلها في عمل متواصل. فمنذ الصباح انشغلت بالأمور الجارية، تضاف إليها مراجعة سلطات النقل الجوى البريطانية والأمريكية طالبا توفير مكان على أقرب طائرة متجهة إلى "طهران". وفى آخر النهار سويت الأشغال كلها تقريبا، ووضعت فى جيبى تذكرة السفر على متن طائرة

"بريطانية" ستقلع صباح اليوم التالى.

فى المساء حضرت المأدبة التوديعية فى وزارة الخارجية، والتى سادها جو مهيب، ودى عموما. ولكن من الواضح أنه كانت تعوزها مسحة من الألفة التى سادت كل لقاءاتى "بالنحاس باشا". ساءلت نفسى، وأنا اسمع الأنخاب الودية، عن السبب فى ذلك. أتراه يكمن فى أنها المرة الأولى، والأخيرة طبعا، التى التقى فيها بوزير الخارجية الجديد ومعاونيه؟ أم لأن تغيرات سياسية ذات طابع رجعى واضح قد جرت في الأوساط الحكومية بمصر؟ وأخيرا توصلت إلى استنتاج بأن السبب يعود إلى العاملين الأول والثانى، ولا شك أن الثانى كان أوضح وأقوى.

استمرت المأدبة حتى الساعة الحادية عشرة مساء تقريبا. وعندما وصلت البيت لم يتبق لدىّ سوى ساعات قلائل لارتب أمورى العائلية واجمع حقيبتى، وأتوجه فى الغبش إلى السيارة المستعدة لنقلى إلى المطار. اقلعت الطائرة فى الوقت المحدد ووصلنا "طهران" بعد الظهر، وهناك جنيت الثمار المرة لهذه العجلة، إذ أمضيت دون جدوى ثلاثة أيام فى فندق "دربند"، وصارت هذه الفترة كالضريبة المفروضة على المسافر. واصلت الطريق فى السادس عشر من تشرين الأول (اكتوبر) ووصلت مساء اليوم نفسه إلى "موسكو" التى عبقت فيها أنفاس الصباح الباردة، التي تذكر بقرب حلول الشتاء.

فى الختام سأتحدث بإيجاز عن الوضع السياسى بمصر فى لحظة مغادرتى لها.

لماذا نُحّى حزب الوفد المتمتع بأغلبية ساحقة فى البرلمان، عن السلطة

بمثل هذه السهولة؟

أشرت آنفا إلى أن "الوفد"، رغم كل تردده وعدم ثباته على المبادئ وغير ذلك من النواقص، كان أفضل من أى حزب آخر فى تعبيره ودفاعه عن مصالح حركة التحرر الوطنى التى أخذ نطاقها يتسع مجددا عام ١٩٤٤. بيد أن نواقص جدية اعتورت نشاط الوفد فى فترة ١٩٤٢-١٩٤٤، وأخذت تنال شيئا فشيئا من سمعته. وكان بطش "النحاس باشا" لا يطاول العناصر الموالية للفاشية فقط، بل وكذلك القادة اليمينيين المتنفذين داخل "حزب الوفد"، والذين ردوا له الصاع صاعين. فإن الأمين العام للحزب "مكرم عبيد" الذى فصل من الوفد عام ١٩٤٢، أصدر عام ١٩٤٤ "الكتاب الأسود" الذى فضح فيه تجاوزات كبار المسؤولين الوفديين. وكان للكتاب صدى سلبى هائل داخل البلد، لم يخفف منه اعتقال "مكرم عبيد". ولكن تدهور الوضع الغذائى الذى عانت الجماهير الواسعة منه الأمرين، قوض سمعة الوفد أكثر مما فعلت فضائح "الكتاب الأسود".

كما تغير موقف الانجليز من "النحاس باشا". فأن خطابه الشهير فى آب (اغسطس) أثار غضب الحكومة البريطانية التى رأت أن "الوفد"، بعد أن لعب دورا إيجابيا فى المرحلة السابقة من الحرب، يمكن أن يصبح الآن عائقا يحول دون إبقاء مصر بلدا شبه مستعمر. واستغلت الدبلوماسية البريطانية مشاكل "الوفد السياسية"، فتمكنت دون عناء من إيجاد لغة مشتركة مع "الملك فاروق"، الذى كان يخشى أن ترتقى حركة التحرر الوطنى المتصاعدة إلى ثورة ديمقراطية مناوئة للإقطاع. وهكذا شهدت مصر اصطفافا جديدا للقوى السياسية ترتبت عليه إقالة

الحكومة الوفدية.

أخذت "فاروق" نشوة الانتصار على "الوفد" وتوهّم، على ما يبدو، أن الأمور سائرة نحو تعزيز حكمه الاستبدادي. ولكنه في الواقع كان يجلس على برميل بارود. فإن أساليب حكمه التعسفية وتمرغه فى درك الفساد، كانت تهز دعائم الحكم الاقطاعى المتزعزعة أصلا فى البلد. وقد أشسار المؤرخ المصرى "عبد الرحمن الرافعى" فى كَتابه عن "مقدمات ثورة يوليو عام ١٩٥٢" إلى أن نمط حياة "فاروق" كان بحد ذاته إيذانا بأفول نجمه، فقد كان يجمع فى شخصه كل رذائل سابقيه من الحكام. . .

شهدت مصر فى السنوات الأولى التى أعقبت الحرب نهوضا جبارا في حركة التحرر الوطنى، سرعان ما تمخضت عنه ثورة يوليو ١٩٥٢ التى تزعمها "الضباط الأحرار". وفى السادس والعشرين من يوليو تنازل "فاروق" عن العرش ونفى إلى الخارج، فدشنت مصر العريقة عهدا جديدا من عهود تطورها.

الأهالى

فلاديمير فينوجرادوف

ترجمة: حمدى عبد الحافظ

حقبة غامضة من التاريخ المصرى

(من أوراق سفير الاتحاد السوفيتى السابق فى القاهرة) .

مجلة زناميا (العلم) عدد دسمبر ١٩٨٨

فلاديمير فينوجرادوف



تعريف

- ولد في "أوكرانيا" سنة ١٩٢١، وعاش طفولته في لينينجراد، وشارك في الحرب العالمية الثانية.
- تخصص في التكنولوجيا الكيماوية، ثم درس الاقتصاد، وعمل نائبا للملحق التجاري السوفيتي في لندن عام ١٩٤٨.
- في سنة ١٩٦٢ عين سفيراً للاتحاد السوفيتي في اليابان.
- عمل نائبا لوزير الخارجية السوفيتي، لشئون الشرقين الأوسط والأدنى منذ عام ١٩٦٧ إلى عام ١٩٧٠.
- عقب وفاة الرئيس عبد الناصر، وبسبب الأهمية الخاصة للعلاقات المصرية السوفيتية آنذاك، عينته حكومته سفيراً لها بالقاهرة، وظل يشغل هذا المنصب حتى عام ١٩٧٤.
- خلال عامي ١٩٧٣ و١٩٧٤، انتدبته حكومته، بالأضافة إلى عمله ليكون رئيساً مناوباً لمؤتمر جنيف الدولي للسلام في الشرق الأوسط.
- عمل سفيراً في طهران بين عامي ١٩٧٧، و١٩٨٢، وشهد التطورات الخطيرة التي انتهت بالثورة الايرانية ثم اندلاع الحرب بين بغداد وطهران.
- يعمل الأن وزيراً لخارجية جمهورية روسيا الاتحادية كبرى جمهوريات الاتحاد السوفيتي، وظلت قضايا الشرق الأوسط، أحد جوانب نشاطه الرئيسية.

مقدمة :

المنفردة .. والمتكافئة

واجهت كثرة من البلدان - التي انتزعت استقلالها حديثا - فترات تقدم وتعثر، واندفعت الى طريق أهدافها بسرعة وتوقفت فيه بنفس السرعة أيضا، بل وحدث في بعضها انتكاسات وراحت فى سبات عميق. وكان العامل الحاسم فى كل هذه الظواهر مدى صلابة السياسة الداخلية لهذا النظام أو ذاك، كما كان - تأثير القوى الخارجية علي من كان يقبض على زمام الأمور فى هذا البلد أو ذاك أحد العوامل المؤثرة على مدى اندفاع أو تعثر حركه البلدان المستقله حديثا فى طريق اهدافها.

لقد مرت العلاقات السوفيتية المصرية بمراحل مختلفة ارتبطت ارتباطا مباشرا بالتغييرات الداخلية التى

شهدتها "مصر" أكبر بلدان منطقة الشرق العربي.

كان قد تم تعييني في سنوات ١٩٧٠-١٩٧٤ لشغل منصب سفير الاتحاد السوفيتي في القاهرة. وفي عام ١٩٧٣- ١٩٧٤ كنت ممثلا لبلادي في مؤتمر جنيف الدولي الخاص بالشرق الأوسط . في تلك السنوات تكشفت بشكل واضح، جهود ومحاولات السياسة الأمريكية للعودة إلى منطقة الشرق الأوسط مستغلة في ذلك الوضع الداخلي المعقد في مصر بعد وفاة "جمال عبدالناصر". وكشفت تصرفات وأعمال السادة الأمريكان حينذاك، عن استعدادهم لاتباع كل الوسائل التي تحقق، مصلحتهم دون أن يبالوا بما يقترفونه من خرق لتعهداتهم والتزاماتهم.

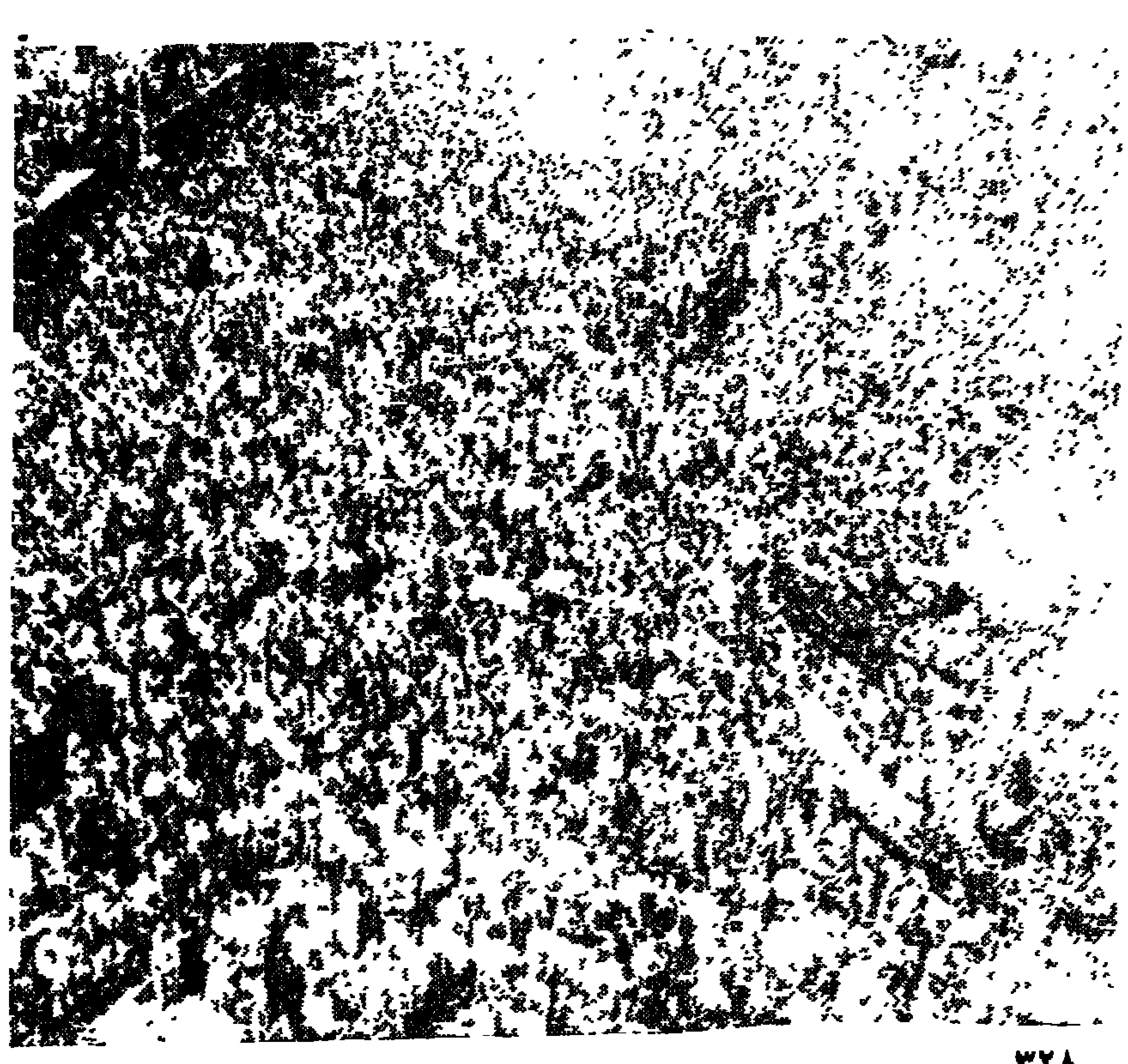
لقد قدم "السادات" - الذي أصبح رئيسا لمصر بعد الموت المفاجيء لـ "جمال عبد الناصر" خدمات جليلة ومساعدات ضخمة للأمريكيين ولسياستهم في منطقة الشرق الأوسط.

ظلت منطقة الشرق الأوسط واحدة من أكثر مناطق العالم سخونة. ويمكن القول بأن تسوية هذا النزاع الدامى تتطلب الوسائل السياسية السليمة التى تضمن لشعوب جميع دول المنطقة السلام والحياة الآمنة، وتلك واحدة من أكثر مهام المجتمع الدولى الحاحا فى الوقت الراهن.

ومنذ زمن بعيد نبذ المجتمع الدولى فكرة الحلول المنفردة لهذا النزاع، والرامية إلى فرض الشروط غير المتكافئة علي الدول العربية وهو الهدف الذى دفع أصحابه الى استبعاد مشاركة الاتحاد السوفيتى فيه، ودفع الاتحاد السوفيتي إلى معارضته طالما لن يحقق سلام وطيد فى المنطقة. وتكتسب دلالتها هنا نداءات الجمعية العامة للأمم المتحدة بضرورة تسوية النزاع فى منطقة الشرق الأوسط عن طريق مؤتمر دولى تحضره -علاوة على مصر واسرائيل- جميع أطراف النزاع، وكذلك الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة وباقى الدول الأعضاء فى مجلس الأمن الدولى.

الفصل الأول

رحيل عبد الناصر



كانت أمسية باردة عندما عدت من وزارة الخارجية الى المنزل مساء التاسع والعشرين من سبتمبر عام ١٩٧٠. استقبلتنى زوجتى قائلة:

"- منذ دقائق مضت اتصلوا بك هاتفيا من وزارة الخارجية ويرجون الاتصال بهم على وجه السرعة ودون ابطاء".

كنت حينذاك أعمل رئيسا لقسم الشرق الأوسط والأدنى. كانت المسألة العاجلة التى من أجلها اتصلوا بى تتعلق بوصول خبر وفاة "جمال عبد الناصر" من السفير فوق العادة للاتحاد السوفيتى في القاهرة "فلاديمير بورفيرفيتس" إلى مكتب مساعد أول وزارة الخارجية السوفيتى "فاسيلى فاسيلتفتس كوزنيتسوف". كان "عبد الناصر" يشغل آنذاك - بجوار منصب الرئيس - منصب رئيس الوزراء كان زعيما حقاً للشعب المصرى والعالم العربى كما كان صديقا وفيا للاتحاد السوفيتى.

كان قد سبق هذه اللحظات العصيبة - لحظة الوفاة - إستدعاء السفير السوفيتى إلى مقر رئيس الجمهورية، وهناك - حيث الهرج الشديد فى البداية - لم يلتفت إليه أحد وبعد لحظات أخطروه بأنه "لاحاجة لوجودة" فعاد إلى مبنى السفارة حيث علم بوفاة "عبد الناصر".

طوال نهار هذا اليوم رافق الرئيس المصرى الزعماء العرب إلى مطار

القاهرة لوداعهم بعد المؤتمر الناجح الذى عقد فى القاهرة للتوفيق بين الأخوة المتقاتلين - الفلسطينين والسوريين من جانب - والأردن من الجانب الآخر. وهناك فى المطار شعر عبد الناصر بارهاق شديد.

لم أصدق ماتناقلته الأخبار عن هذه الوفاة المفاجئة. تذكرت لقاءاتى مع "عبد الناصر" فى موسكو وفى القاهرة: كان يشع منه الحزم والثقة والقوة، حريصا على أن يتجنب كل مايمكن أن يعكر جو المحادثات، وكان مضيافا كريما.

استقبلنى "عبد الناصر" فى منزله مرتين. وتحدثنا عن مختلف وجهات النظر حول النزاع العربى الاسرائيلى. كانت مصر - حينذاك - تخوض ماأطلق عليه "حرب الاستنزاف" - حيث أخذت مدفعيتها في غرب القناة تقصف المواقع الاسرائيلية التى شيدتها قوات الاحتلال فى شبه جزيرة سيناء، وبصورة خاصة علي الضفة الشرقية لقناة السويس. كما شن رجال "الصاعقة" المصريين عدداً من الغارات الناجحة فى أعماق الأراضى المحتلة. ورداً على هذه الغارات بدأت القوات الجوية الاسرائيلية بشن هجمات شرسة على المدن والقرى المصرية وقصفها بالقنابل. كانت مصر - حينذاك تعانى من نقص فى وسائل الدفاع الجوى التى كان قد بُدىء فى تركيبها بمساعدة الاتحاد السوفيتى.

ومع أن الهجمات العسكرية التى شنتها مصر آنذاك قد أقلقت مضاجع قوات الاحتلال، الا أنها لم تحقق نتائج هائلة. وكان الغرض منها هو لفت نظر العالم أجمع إلى الظلم الواقع بحق العرب والمتمثل فى إحتلال أراضيهم من قبل الاسرائيليين في أعقاب حرب "الأيام الستة عام ١٩٦٧". ردت اسرائيل على حرب الاستنزاف بتطبيق تكتيك نشر

"الرعب" فارتكبت فظائع وجرائم بشعة راح ضحيتها الكثيرون من السكان المدنيين.

كان عبد الناصر – رغم الرمانسية الثورية التى غالبا مايتحلى بها قادة جميع الثورات التقدمية المنتصرة– زعيماً واقعيا. تحدث مرة قائلا.

– أن تبادل النيران عبر قناة السويس لن يجدى نفعا وأننا على استعداد لوقفها إذا كف الاسرائيليون عن هجماتهم وغاراتهم الجوية، لكن فى حالة رفضهم فأن شعبنا على أتم الاستعداد للتضحية ثمنا للنصر.

لم يتقبل عبد الناصر – فى الحال – فكرة السلام مع اسرائيل اذا تخلت عن احتلالها للأراضى العربية، إذ سيطرت عليه هو وغيره من القادة العرب – الذين لم يقروا بوجود اسرائيل ولم يعترفوا بقرار الأمم المتحدة عام ١٩٤٧ حول تقسيم فلسطين إلى دولتين واحدة يهودية والأخرى عربية – فكرة إزالة دولة اسرائيل . ولهذا كان أملى فى موافقة "جمال عبد الناصر" علي فكرة إحلال السلام بين العرب وإسرائيل – بعد انسحابها من الأراضى المحتلة – معدوما .

جرت بينى وبين "عبد الناصر" فى فبراير عام ١٩٧٠ محادثات حامية، وساق كل منا مالديه من حجج وأدلة.من جهته حاول "عبد الناصر" أن يتحسس موقفنا ويجس نبضنا قائلا:

– إن جوهر مايسمى بالصراع العربى الاسرائيلى ماهو إلاّ انعكاس مباشر للصراع الاقليمى الدائر بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى.

وكان جوابى عليه:

– لا ، ليس صحيحا ، ياسيادة الرئيس، وأنتم تعرفون جيدا هذه

المسألة. إنه نزاع بين الأمة العربية التقدمية التى تناضل من أجل استقلالها الوطنى، وبين الامبريالية العالمية وخدمها المخلصين - فى الوضع الحالى - حكام اسرائيل، ولهذا فنحن - فى الواقع - نقف بجوار القضية العربية العادلة، ونساندها فى مواجهة من يقف خلف إسرائيل - الولايات المتحدة الأمريكية.

عندئذ انفجر عبد الناصر ضاحكا وقال لى:

- إنك على قدر من الجرأة والشجاعة، فلم يقدم أحد على مجادلتى. واذا أردنا الحديث بجدية فإن الشعب المصرى بطبيعته شعب مسالم، ونحن على إستعداد للحديث عن السلام مع إسرائيل، إذا انسحبت من الأراضى العربية التى احتلتها، وعلى استعداد للسير في جميع الطرق السياسية من أجل الوصول الى هذا الهدف. لسنا متعطشين إلى الدماء كما يصورنا أعداءنا.

فى صيف عام ١٩٧٠، كانت زيارة "عبد الناصر" الأخيرة الى "موسكو" حيث جاء للعلاج. وقد اذهلتنى ملامح وجهه الأسمر التى تشى بالمرض.. وكنت - حينذاك - مكلفا بمرافقته لإجراء المحادثات فى الكرملين. وفى الطريق الى الكرملين كان "عبد الناصر" مولعا بالحديث فى كثر من الموضوعات العامة. وهو يتطلع إلى شوارع موسكو عبر زجاج النافذه.. وقد قال لى ذات مرة:

ـ "عشقت فى أيام شبابى الأولى لعبة الباسكت (كرة السلة) وكنت محبا للسينما ورؤية الأفلام، أما الآن فقد طلقت كل هذا .

كان رجلا واضحا وصادقا وصريحا حتى فى محادثاته الرسمية، وكان مخلصاً لايميل الى التآمر وكان يحلو له أن يسخر من المناورات

الدبلوماسية، واصفاً هؤلاء المناورين بـ "الدبلوماسي ذو السروال المخطط الذي يدور في حلقة مفرغة. "وأثناء هذه الزيارة أنجز الطياران السوفيتان". "نيكولاييف" و"ف. سيفاستيانوف" تحليقهما الفضائي. وحضر "عبدالناصر" حفل تكريمهما في "الكرملين" ومنحهما وسام "قلادة النيل". كانت مشاعر "عبد الناصر" تجاه الشعب السوفيتي لاتفيض بالاحترام فحسب، بل والدفء أيضا. كان يعرف جيدا مايقوم به رجالنا في الظروف غير العادية التي كانت مصر تمر بها سواء في القوات المسلحة أو في مجال الصناعة والتعمير والبناء.

وكانت الأخبار التي ترد عن مصرع بعض المستشارين السوفيت على إثر الغارات الاسرائيلية على مواقع القوات المسلحة المصرية. تهزه من الأعماق. وذات مرة حدثني "عبدالناصر" قائلا بحزن:

– انني أعرف الكثيرين من شهدائكم معرفة شخصية.

على أنني لم استسلم لذكرياتي "عن عبد الناصر"، شغلني الجانب السياسي لخبر وفاة قائد أكبر دولة عربية، والرجل ووضع أقدام شعبه على طريق الاستقلال والتطور وارتبطت باسمه العديد من التحولات التقدمية لصالح الكادحين. أنشأ "عبد الناصر" منظمة جماهيرية سياسية "الاتحاد الاشتراكي العربي" وفكر في انشاء حزب باسم "طليعة الاشتراكيين". وكان على قناعة راسخة – في نضاله لما فيه مصلحة شعبه ومن أجل استقلال بلاده – بضرورة تعزيز وتوطيد علاقات الصداقة مع الشعب السوفيتي والدولة السوفيتية.

لقد تم طرد الامبريالية الأمريكية من منطقة الشرق الأوسط بتأثير مباشر من المد الثوري التقدمي لمصر أيام "عبد الناصر"، وشرعت العديد

من بلدان المنطقة فى النضال من أجل استقلالها وأصبحت الشعوب هى سيدة الموقف فى بلادها، تحل قضاياها باستقلالية كاملة وبعيدا عن الاستشارات الخارجية، كما باتت تحدد بنفسها مصيرها التى تختاره. وأصبح "عبدالناصر" واحدا من مؤسسى "حركة عدم الانحياز" وحاز على سمعه دولية رفيعة.

فى الثلاثين من سبتمبر ١٩٧٠ أقلعت طائرة خاصة تحمل الوفد السوفيتى الذى شكّل برئاسة عضو المكتب السياسى ورئيس مجلس الوزراء "الكسى كوسيجين" للمشاركة فى تشييع جنازة "عبد الناصر"، ضمّ الوفد إلى جانب "كوسيجين" أنا - بوصفى مساعدا لوزير الخارجية السوفيتية- ، ورئيس الأركان العامة مارشال الاتحاد السوفيتى "زاخاروف". ورئيس مجموعة المستشارين السوفيت العاملين فى مصر - الرائد "أوكونيف" - والقائم بالأعمال فى السفارة السوفيتية فى القاهرة "بولياكوف".

في صباح اليوم نفسه كان قد صدر قرار تعيينى سفيرا للاتحاد السوفيتى لدى الجمهورية العربية المتحدة (هكذا كانت تسمى مصر أنذاك) خلفا للسفير السوفيتى الاسبق "س.أ. فيناجردوف"، والذى كان قد توفي منذ شهر مضى، وظل منصبه شاغرا حتى تلك اللحظات.

هبطت الطائرة "أ.ل. - ٨٦" التى تقل الوفد السوفيتى فى مطار القاهرة، وكان فى استقبالنا "أنور السادات"- "نائب رئيس الجمهورية أنذاك)- ووزير الحربية الفريق "محمد فوزى"، الأمين العام للاتحاد الاشتراكى آنذاك.

ربّت "كوسيجين" على أكتاف المصريين الباكيين، الذين كانوا فى استقبالنا عند سلم الطائرة، وانطلقت بنا السيارات لاتعرف الى أين. وسأل بعضنا:

- إلى أين؟.

كان الجواب:

- وراء الجميع.

انطلقت السيارات تتبع بعضها الأخرى- وما أن خرجنا من المطار حتى خُيل لنا أن القاهرة قد خرجت الى الشوارع عن بكرة أبيها. وانتابت الناس حالة من الهستريا الشديدة فراح بعضهم يدق على جدران الأتوبيسات وعربات الترام. واستغرق البعض الآخر فى صراخ هستيرى رافعين أيديهم صوب السماء.

فى المساء التقى "كوسيجين" بالسادات، وقدم له عزاء الشعب السوفيتى فى وفاة القائد المصرى "جمال عبد الناصر"، وعند عودته سألنا

- ماذا تعنى كلمة "لاتتركنا وحدنا" و"سايبْنا لمين"؟

ذهبت - بعدئذ - الى وزير الخارجية "محمود رياض". وبعدها الى رئيس تحرير "الأهرام" - وكان يشغل فى الوقت نفسه منصب وزير الارشاد القومى- "محمد حسنين هيكل" - الصحفى المصرى المشهور الذى أعرفه منذ زمن بعيد. كان "محمود رياض" يصيح باكيا:

- ماذا تبقى لنا بعد عبد الناصر؟

أجبت قائلا:

- التعاليم والحزب والرفاق؟ يجب أن تتوقعوا وتحذروا نشاط

المعارضين لعبد الناصر، وأن تثبتوا أنكم ناصريون بحق؟

لكن "هيكل" قاطعني قائلا والدموع في عينيه:

- لا أصدق أن"عبدالناصر" قد مات. إنه من المفيد جدا وصولك مبكرا. وقد كنتَ من الأصدقاء المقربين إليه، فقد حكى لي عنك منذ فترة وجيزة، وكان يتمنى أن يتم تعيينك في منصب السفير في القاهرة.

واستمر الحديث فيما بعد عن قرار تعييني سفيرا للاتحاد السوفيتي في العاصمة المصرية.

* * *

تدفقت الوفود التي جاءت لتشارك في تشييع جنازة "عبد الناصر"، وكانت تضم كثيرين من رؤساء الدول ورؤساء الوزراء، والشخصيات العالمية السياسية والاجتماعية. وانهالت علينا طلبات الغالبية العظمى من المشاركين في الجنازة، لإجراء محادثات مع رئيس الوزراء "كوسيجين".

أخطرني "كوسيجين" - فيما بعد - بموافقة "السادات" على ترشيحي سفيرا للاتحاد السوفيتي بالقاهرة. وقد طلب منه "السادات" أن تتم لقاءات دورية منتظمة بيني وبينه يوم الاثنين من كل أسبوع.

وهكذا تسنى لي بوصفي سفيراً جديداً للاتحاد السوفيتي، حضوَر جميع اللقاءات التي عقدت بين "كوسيجين" ورؤساء الوفود الأجنبية أثناء فترة وجوده بالقاهرة. كان أهم ما يقلق القاده العرب الذين احتشدوا في القاهرة للمشاركة في جنازة "عبد الناصر" هو ضرورة أن تحتفظ مصر بدورها الطليعي، وأن تظل رائدة للعالم العربي وكان من رأيهم أنه يجب على المصريين أن يختاروا من هو أقدر على مواصلة هذه المهمة،

والاستمرار فى خط "عبد الناصر" وبهذا يمكن للراية العربية أن تظل مرفوعة عالية وخفّاقة، طالما هى بأيدى مصر.

وكان ملفتا للنظر- بالنسبة لى- أن أحداً من القادة العرب الذين اجتمع بهم "كوسيجين"، لم يأت يذكر "السادات" فى قائمة المرشحين لمنصب الرئيس، بل كان واضحا أنه خارج نطاق الحصر.

ادعى السادات بأحقيته- فى المقام الأول- فى منصب الرئيس. وكذلك "حسين الشافعى"، وقد اعتمدا على أنهما من القيادات السابقة التى شاركت فى صنع الثوره، وكانا معروفين بميول اسلامية واضحة، وعلي الجانب الآخر كان يقف، "على صبرى" من معسكر "اليسار". كما ذُكرت أسماء أخرى، مثل الشخصية الدبلوماسية المحنكة "الدكتور محمود فوزى"، وأيضا الشخصية البرجوازية ذات الميول المحافظة "زكريا محى الدين".. وآخرين.

وكان "عبد الناصر"، قد أجرى - قبل وفاته بفترة وجيزة- تعديلاً وزارياً، قيل أنه كان من تقاليد حكمه، إذ لم يكن يرغب فى لقاء أى مسئول فى منصبه مدّة طويلة". وهكذا جاء "السادات" "من الظل - حيث عاش طويلاً- ليشغل منصب نائب الرئيس قبل عام من وفاة "عبد الناصر" ولم يكن "السادات" من هؤلاء الساسة ذوى الخبرة العريضة، كان مجرد واحد من أعضاء منظمة "الضباط الأحرار" التى قادها "جمال عبد الناصر" ودبرت انقلاب عام ١٩٥٢ لتطيح بالحكم الملكى فى مصر، وهو الانقلاب الذى ايده الشعب المصرى، وبات يعرف بثورة ٢٣ يوليو، إلاّ أن كل من كان على معرفة جيدة بالسادات، كان يعرف أنه ظل دائما مادة للسخرية بين زملائه الضباط خاصة حيث كان يحاول أن يعوض ثقافته

المتواضعة بالمبالغة فى اظهار تدينه.

كان الاتفاق على مرشح لمنصب الرئيس أمراً بالغ الحساسية، والخطورة وعلى مستوى عال من الجدية، خاصة فى ظروف بلد مثل مصر، حيث يلعب الدور الحاسم فى الاختيار، سمعة القائد ومكانته. وهذه المسألة تفوق نظيرتها فى البلدان الغربية حيث يتمتع الرئيس فى بلاد مثل مصر بحقوق وسلطات واسعة. ولما كان واضحاً واضحا إنه لم يكن هناك أحد يمكن أن يسد الفراغ الذى تركه غياب "جمال عبد الناصر"، أو يتمتع بما كان يتمتع به من هيبه، فقد طالت اجتماعات ومناقشات الشخصيات السياسة المصرية بحثا عن الرئيس القادم. ولهذا - وكما أخطرونا - تم الاتفاق فيما بينهم على أنه لاحاجة هناك لاختيار رئيس دائم، ويمكن الاكتفاء بتعيين نائب الرئيس - "أنور السادات" - رئيسا مؤقتا لحين البت فى الموضوع مرة أخرى. وسمعنا أن هذا الحل العملى، قد قدمه "د. عزيز صدقى"، - وزير الصناعة- باعتباره حلاً وسطاً يؤدى إلى تأجيل الصراع حول الخلافة إلى وقت لاحق .

وفى لقائى مع "السادات" أكد لى نبأ الوصول إلى هذا الحل التوفيقى باختياره لمنصب الرئيس. على أن يشغل منصب رئيس الوزراء - الذى كان "عبد الناصر" يشغله أيضا، - "الدكتور محمود فوزى" (ارضاء للبراجوازية المصرية). على أن يشغل كل من "على صبرى" (كتلة اليسار) و"حسين الشافعى" (الكتلة الاسلامية) منصب "نائب الرئيس" وبذلك يتم تراضى جميع الأطراف المتنافسة على الخلافة.

* * *

.. منذ الصباح الباكر تتسلل أشعة الشمس المشرقة الى سماء مصر، ولاتغرب إلاً فى ساعة متأخرة تمد البلاد بالطاقة والدفء والحيوية.

الأول من أكتوبر - يوم تشييع جنازة الزعيم "عبد الناصر".

كانت ترتيبات الجنازة، تقضى بأن تقوم طائرة هليوكوبتر، بنقل الجثمان من "قصر القبة"، إلى جزيرة الزمالك على النيل حيث مقر مجلس قيادة الثورة، لتبدأ الجنازة من هناك.

وكان على الموكب الجنائزى أن يأخذ طريقه عبر الجسر الذى يربط الجزيرة، بالقاهرة، الى الضفة اليمنى لنهر النيل، ثم يتوجه إلى الجزء الشرقى للمدينة حيث أختير مكان الدفن، فى أحد المساجد الجديدة القريبة من المكان الذى عاش فيه "عبد الناصر".

إن ماشاهدته القاهرة فى الأيام القليلة الماضية - أى منذ لحظة الوفاة - من زحام وحزن، لايقارن أطلاقا بالجو العام الذى سادها يوم الدفن. لقد اندفعت كتل متراصة ومتلاحمة من الجماهير الحزينة الباكية. ولم يكن يسمع الا النحيب والبكاء والصراخ، والأصوات المتحشرجة. ولم يقتصر الأمر على سكان القاهرة البالغ عددهم ثمانية ملايين، بل ازدحمت القطارات والأتوبيسات وعربات النقل بالجماهير المتدفقة من المدن والقرى والمحافظات الأخرى تجاه العاصمة، تقذف إليها بمزيد من الملايين البشرية.

انتشرت على طول المنطقة المحيطة بسفارتنا فى القاهرة، قوات البوليس المزوة بالدروع الواقية والعصى لحمايتها فى حال اندفاع الجماهير اليها، وتساءلت بين نفسى:

- لماذا كل هذه الاجراءات، من سيفكر بالاعتداء عليها؟

كان قد تم تخصيص الجسر القريب من السفارة السوفيتية لمر
الوفود الأجنبية، لكن حشود الجماهير اندفعت اليه بكل قوتها ، تر
العبور والمشاركة. ولم تفلح فى مواجهتها صرخات البوليس، ولاح
عصيهم. فتخطت الجماهير، كل الحواجز، عاقدة العزم على مرافقة الزء
حتى مثواه الأخير.

جاء "هيكل" - الذي كان مكلفا بمرافقتنا - وفى صحبته عدد ،
المعاونين، وقد ظلّوا وقتا طويلا يجرون الاتصالات التليفونية لتسه
عبورنا من الضفة الغربية لنهر النيل حيث تقع سفارتنا، عبر ك
الجماهير المندفعة، ولكننا عجزنا عن الوصول الى ضفه النيل، ثم
الجسر الذى كان يربط بين الضفتين، كان قد رفع لايقاف تدفق الجماه
من ضفه النيل اليسرى، وأخيراً أرسلوا لنا قارباً بخارياً خاصا. حم
عبر النيل إلى المبنى الذى سيبدأ منه الموكب الجنائزى، حيث تم تخصيص
حجرة خاصة بنا. وظل "السادات" و"على صبرى" معنا طوال الو
تقريبا.

وعرجت على غرفتنا ، "وفود عديده ، لتحيى "كوسيجين" أو تتع
به، وكان من بين الذين جاءوا لهذا الغرض، رئيس سوريا أنذا
"الأتاسى، ورئيس قبرص "مكاريوس" ، ورئيس السودان "نميرى" ، ورئ
الجزائر "بومدين" ، ورؤساء وزارات كل من تركيا وايران. وبارتفاع ص
محركات الطائرة الهليكوبتر التى كانت تحمل الجثمان، دُعينا إلى الة
الداخلى حيث يوجد به عده موائد مستطيلة عليها مجموعة من الأء
المصرية، ويتوسطها النعش تميل عليه بانحناءة شديدة مجموعة باكية
المصريين، ويحاول بعض العسكرين ازاحتهم الى الخلف وابعادهم عنه ،

جدوى.

فى هذا الجو العصيب حاول آخرون اصدار أوامر، لكن ذلك كان مستحيلاً.

وبعد برهة دُعيت الوفود الأجنبية للخروج الى الشارع، والاصطفاف هناك فى مقدمة الموكب، وخلف عربه المدفع التى وُضع عليها الجثمان، وكان واضحاً أن النظام لن يظلل الجنازة إذ كان الجنود ينتحبون، والجو يزداد اضطرابا. وفى ظل هذه الفوضى، حاول كل وفد بطريقته أن يجد لنفسه موضع قدم، وأن يشق طريقا وسط الجموع المحتشدة. وكان وفدنا فى المقدمة، حيث تسبقه مجموعة من الجنود الباكية يرافقون الخيول الستة التى تجر عربة النعش. كان الجو العام عصيبا اذ لم يكن أحد قد تقبل حقيقة أن "عبدالناصر" قد مات، أو متوقعاً.

وتحت أشعة الشمس الحارقة اكتظ الجميع وهم يتصببون عرقا وتتصاعد على دقات خطواتهم الثقيلة المتباطئة حلقات لامتناهية من الأتربة. كان من المقرر أن تسير الوفود الأجنبية خلف عربة النعش. لكن اتضح أن ذلك أمر عديم الجدوى. كنا نحاول أن نشق طريقنا بصعوبة بالغة. وقذفت الأمواج المتلاحقة من البشر "بكوسيجين" الى الأمام بعيدا عنا. وأحاطت بى حلقات بشرية لا تنتهى. ووقع بصرى على وجوه، أفزعها المنظر العام، كان منهم "ديميرل"، ورئيس وزراء ايران، ورئيس وزراء أفغانستان، الذين قذفت بهم الأمواج البشرية بعيداً عن وفودهم. عندئذ توقفتُ عن الحركة رافعاً يدى بمحاذاة صدرى، ومثبّتاً اقدامى بالأرض جيدا، غير ملق بالاً للزحام أو الصدام، فتشكلت أمامى مساحة خالية لابأس بها، إحتمى فيها رؤساء الوزراء الثلاثة.

كان الموكب يتقدم بعشوائية شديدة للغاية، فهذا يسير فى اتجاه، وغيره فى اتجاه آخر، وثالث يندفع إلى الأمام، ورابع إلى الخلف، وهكذا.

يعلو الصياح والبكاء.

ومرة أخرى نتوقف لنرى مجموعة باكية تسير خلفها مجموعة أخرى تحمل على كرسى كبير "السادات" وقد تدلى ذراعاه، وفقد وعيه، وأغلق عينيه.

ابتعدت عن رفاقى، بعد أن جرفنى الزحام، ولم يجبنى أحد، عندما رأيت الذين يحملون "السادات" يدخلون به إلى مبنى مجلس قيادة الثورة، فتساءلت عما حدث للرئيس الجديد. وبدا أن التقدم الى الأمام لم يعد مجديا، فقد فرقت الجموع الباكية أعضاء الوفود، ومازال هناك خلف الجسر مايزيد عن مليون آخر من البشر، سوف ينضمون إلى الموكب..

عندئذ نصحوا الوفود الأجنبية بعدم التقدم خوفا على حياتهم. أحطت "كوسيجين" بما حدث لـ "السادات" فاندهش وطلب "كولوكولوف" مدير قسم البروتوكولات استجلاء الأمر. وألمح لنا بعض المصريين بأن "على صبرى" قد أصابته حالة هستيرية عندما أتوا بنعش "جمال عبد الناصر"، ولما اكتشف "السادات" غياب نائبه، ساءت حالته هو الآخر. (!!).

رجونا بشدة أن نعود.

وأمام إصرارنا تم السماح "كوسيجين" فقط بالاقتراب، إلى حيث يرقد "السادات" ونائبه "على صبرى" فى غرفة واحدة، يختلس كل منهما النظر إلى الآخر، ويئنان بصوت مسموع، توقفا عنه لكى يتوجها بالشكر للمسئول السوفيتى على سؤاله عنهما.

* * *

فى اليوم التالى - ٢ - أكتوبر - نظمت القيادة المصرية لقاء عمل مثمر مع الوفد السوفيتى، أسجل فقط بعض لقطات منه فمن ناحية أكدَّ الجانب السوفيتى، علي أن خطنا الثابت، من أجل تطوير التعاون المتعدد الجوانب مع مصر سيظل دون تغيير، وأننا نود أن تظل علاقتنا بمصر، كما كانت أيام "عبد الناصر" راسخة وقوية وصريحة وواضحة. وعبّر "كوسيجين" عن قناعتة وثقته فى قدرة القيادة المصرية الجديدة على أن تُخَيِّب ظن أعداء مصر ومايروجونه من أفكار حول الفراغ الفكرى والقيادى الذى تركه رحيل "عبدالناصر".

وفى معرض ردّه على كلمة "كوسيجين" أكد "السادات" مراراً على أن "عبد الناصر" هو صديقه وأخيه ومعلمه، وأن الصداقة مع الاتحاد السوفيتى - باعتبارها أحد مآثر "عبد الناصر" - سوف تتعزز أكثر فأكثر. كما تم التطرق خلال هذه المباحثات إلى العديد من القضايا الأخرى ذات الطابع العملى المتعلقة بالمساعدة السوفيتية فى تقليل بعض الصعوبات المحددة.

وفى اليوم التالى غادر الوفد السوفيتى القاهرة متوجها إلى "موسكو". وقبل الصعود إلى سُلّم الطائرة وبينما نحن نجلس فى قاعة كبار الزوار انتظاراً للموعد المحدد همس لى "كوسيجين":

- أنه ليس من السهل عليك العمل فى مثل هذه الظروف، فمازال المستقبل غير واضح بصورة كافية، عليك تتحلى بالحكمة، وأن تخبرنا أولاً بأول بمجريات الأمور، فنحن هنا أزاء مرحلة انتقالية، مع تمنياتى لك بالنجاح والتوفيق. -

وشد على يدي. صافحته متسائلا:

- هل يعني هذا أنني لن أسافر معك الآن إلى موسكو

- إلى موسكو؟..

هكذا سألني "كوسيجين" بدهشه وأضاف مازحا:

- لقد كُلّفت بحملك الى القاهرة وتقدمك الى القيادة المصرية الجديدة التى وافقت دون ابطاء على قبول أوراق ترشيحك سفيراً فى القاهرة ولهذا فان سفرك الى موسكو الآن غير ذى معنى.

- هنا أبديت اعتراضى قائلا:

كما تعلمون فقد جئت إلى القاهرة على عجل، وحتى طبقا للبرتوكول الديلوماسى لن يكون هذا شيئا طيبا من وجهة النظر السياسية.

ومن جديد أعاد "كوسيجين" السؤال.

- ليس طيبا من وجهة النظر السياسية ؟ لماذا؟

فأجبت قائلا:

- بهذه الصورة يبدو وكأنك القيت بالسفير الجديد على "عنق المصريين". وربما كان هذا أمر غير طيب. لقد حصلتم على موافقة الحكومة على تعيينى سفيرا لبلادنا فى القاهرة، لذا سوف أعود معكم إلى موسكو وبعد ثلاثة أو أربعة أيام سأغادرها مرة ثانية الى القاهرة حاملا معى أوراق تعيينى، فالشعب المصرى كما تعرفون - شعب شرقى، وتعود على الرسميات فضلا عن أن الطريقة التى تم تعيينى بها ربما تثير دهشة سفراء الدول الأخرى..

أعرب كوسيجين عن قناعته بوجهة نظرى قائلا:

- حسنا، فهمت الآن أسباب اعتراضك وأوافقك عليها تماما، يجب

التحدث تليفونيا مع رئاستك المباشرة حول هذه المسألة وسوف أشرح لهم موقفك وأدعمه.

بعد برهة، وعلى أثر مكالمة تليفونية مع "موسكو" عاد "كوسيجين" قائلا:

- فلنغادر القاهرة سويا الى موسكو.

تركت رحلتى إلى "القاهرة" للمشاركة فى تشييع جنازة "عبدالناصر" بعض الانطباعات المُبْهمة والقلقة، إذ تحدثت القيادات المصرية - بارتباك وتردد - عن مستقبل البلاد وتوجهاتها السياسية وكانت مشاعرهم التى لاتتسمم بالاحترام المطلوب تجاه الرئيس الجديد، غير خافيه. ولم يكن هناك مفر أمامنا من مدّ يد العون للقيادة الجديدة لهذا البلد الصديق فى تسويه مشاكله .

الفصل الثانى

سفير فى وجه الزوابع





فى الثالث عشر من أكتوبر عدت - بصحبة زوجتى - إلى القاهرة بصفتى الرسمية هذه المرة، باعتبارى سفيرا مفوضا فوق العادة لبلادى فى الجمهورية العربية المتحدة. وفى المطار كان فى استقبالى أصدقائى ومعارفى العاملين فى السفارة ومن بينهم المستشار "فلاديمير بولياكوف" والمستشار "فاديم كبريبتشنكو" و"الكسندر تيتيرين" و"نيكولاى راينسكى" و"الكسندرأولوف" و"بافل أكابوف" والأدميرال "نيكولاى ايفيليف" - خيرة الرفاق المتخصصين الأكفاء وجنبا الى جنب مع الدبلوماسيين الشبان أمثال "يورى كابرالوف" و"فافا جوليتدادى" و"روبرت توردييف" شكلنا طاقم السفارة الذى حمل على عاتقه عبء العمل فى ظروف السنوات الصعبة اللاحقة، عندما أدار "السادات" ظهره للنهج الناصري فى السياسية الداخلية والخارجية على السواء.

بدأ "السادات" فى المماطلة فى تسليم أوراق اعتمادى، وطبقا للبروتوكولات الدبلوماسية غير المدونة كلما تم الاسراع فى ذلك كلما كان أفضل، إذ يعنى هذا أنه لا يوجد أية تحفظ علي شخص السفير من قبَل الدولة المستضيفة.

لكن "السادات" قدم اشارة أخرى.

وفى أكثر من مرة حاول كل من نائب الرئيس ووزير الخارجية إقناعى بعدم الاهتمام بهذه المسألة، إذ لا قيمة لها، وطلبا منى التصرف بوصفى السفير فوق العادة لبلادى فى القاهرة، لكن كثيراً مادار بخلدى ضرورة وضع الأمور في تصابها الصحيح. وعندما التقيت صدفة بـ "على صبرى" - نائب الرئيس فى المطار، تحدثت إليه بصورة مباشرة فى هذا الأمر قائلا:

- أننى حتى الآن عاجز عن القيام بمهام منصبى، طالما لم يتم تسليم أوراق اعتمادي طبقا لقرار حكومة بلادى الذى ووقعه رئيس مجلس السوفييت الأعلى لاتحاد الجمهوريات السوفيتية.

فى اليوم التالى مباشرة أخطرونى بأن "السادات" مستعد لتسلم أوراق اعتمادى.

جرت مراسيم تقديم الأوراق بصورة مبسطة للغاية. ولم يتم التقيد حتى بتبادل الكلمات، كما يحدث عادة. لكننا وجدنا فى انتظارنا فى قاعة قصر القبة- المقر الرسمى لرئيس الجمهورية- عدسات التليفزيون والاذاعة. وانتهزت هذه الفرصة لكي أعبر عن سعادتى بالمستوى الذى بلغته علاقات الأخوة والصداقة بين البلدين، وعن مشاعر الموده والدفء التى يكنها شعبنا تجاه الشعب المصرى، كما عبرت عن أملى فى أن تستمر علاقات التعاون فى تطورها المطرد. وأكدت استعداد بلادنا لتقديم العون والمساندة المتنوعة الجوانب للقيادة المصرية الجديدة. ورداً على كلماتى هذه تحدث "السادات" معبرا عن مشاعر الصداقة تجاه بلادنا، وفى إثناء الحديث الذى أعقب تسليم لأوراق اعتمادى، عبر

"السادات" عن أمله فى اضطراد التعاون بيننا، وعقد لقاءات منتظمة تجمعنا معاً.

بعد انتهاء مراسيم الاحتفال توجهت مباشرة وبنفس الملابس التى كنت ارتديها إلى قبر "عبد الناصر" - حيث سبقنى إلى هناك جميع العاملين فى السفارة السوفيتية فى القاهرة. ووضعنا أكليلا من الزهور مكتوبا عليه بالروسية والعربية:

[إلى "جمال عبد الناصر" من سفارة الاتحاد السوفيتى فى الجمهورية العربية المتحدة].

ومن جديد احتشدت الصحافة وعدسات التليفزيون وتجمع الكثير من سكان المنطقة القريبة يتابعون هذا المشهد.

مازالت انجازات الحضارة المصرية القديمة تثير الدهشة والاعجاب حتى يومنا هذا. ومازالت أثارها باقية تتحدى الزمن - فى عظمتها وشموخها - لقد كُتب الكثير من المؤلفات عن هذا الإبداع البشرى الخارق ويوما بعد يوم يزداد عدد هذه المؤلفات، جرياً وراء أسرارها الخالدة.

إننى لا أود هنا الاستطراد فى كتابة انطباعاتى ومشاعرى تجاه هذه الآثار الخالدة، لكن بودّى فقط الإشارة إلى مسألة أذهشتنى كثيرا، هى أن المصريين المعاصرين لايشعرون بكونهم خلفاء وورثة هذا الماضى العظيم، وإن كان كثيرون منهم يعتزون بانتمائهم لهذا البلد الذى صنع معجزات مازالت تحوز إعجاب العالم أجمع. وأيضا يقال أن العرب فى مصر هم أجانب ودخلاء. إنه لشىء مدهش أيضا اعتزاز المصريين وخاصة البسطاء منهم بأنهم أسياد وطنهم ومالكيه، أن هذا الاعتزاز يتبدى

واضحا فى كل صغيرة وكبيرة - فى التصرفات وفى الأحاديث الصريحة والودية وكرم الضيافة والبعد عن الغطرسة والتفاؤل والعزة والكرامة والذكاء وغيرها من طباع المصرى وعادته.

وربما لم تكن عبثا تلك الطُرفة الشائعة التى تقول أن السبب الرئيسى لهزيمة "نابليون بونابرت" فى مصر هو وابل النكات والسخرية التى واجهه بهما الشعب المصرى، بل إن "السادات" قد أصبح هدفا للنكات اللاذعة والساخرة، بمجرد إذاعة خطابه الأول الذى ألقاه عقب توليه منصب رئيس الجمهورية، كان من بينها نكته تقول أنه: بعد موت "عبدالناصر" استقل "أنور السادات" سيارته،وعند مفترق طرق سأله سائق السيارة.

- إلى أين نتجه يمينا أم يسارا؟

أبدى السادات انزعاجه قائلا:

- وإلى أين كان يتجه عبد الناصر عادة؟.

أجابه السائق: جهة اليسار.

عندئذ تنهد السادات قائلا:

- حسنا فلتضىء إشارة الدوران ناحية "اليسار" بينما تحرك ناحية "اليمين".

أن الشعب المصرى شعب مخلص وفى، ومن ثمّ فلا عجب أن يبدى المصريون مشاعر الصداقة والحب تجاه الشعب السوفيتى، وبصورة خاصة تجاه الخبراء والمستشارين الكادحين الذين عملوا جنبا الى جنب مع أبناء الشعب المصرى فى التعمير والانشاء، هناك فى "أسوان" أثناء بناء السد العالى ومحطة توليد الكهرباء، أو فى "حلوان" وعند بناء مجمع الألومنيوم،وفى العديد من المصانع وفى المشروعات الزراعية وفى القوات

المسلحة المصرية.

* * *

يبدو "سد أسوان" - من على الطائرة صغير أونصف دائرى عند مقارنته بالمساحة الشاسعة من الصحراء الحارقة التى تحيط به بلونها الأصفر. لقد تم الاحتفال رسميا بانتهاء أعمال بناء السد العالى ومحطة أسوان الكهربائية التى تنتج نصف الطاقة الكهربائية فى القارة الأفريقية كلها آنذاك في فبراير ١٩٧١، وارتفعت عليهما عالية خفاقة رايات مصر. كما وضعت فى مداخلها اللوحات واللافتات. وشارك فى الاحتفال أيضا كوكبه ضخمة من الفنانين والفنانات لقد حاولت الولايات المتحدة الأمريكية وألمانيا الغربية خنق هذا المشروع الجبار. وهاهو اليوم ينفذ بالمساعدة السوفيتية النزيهة. لقد أقبل "عبدالناصر" على التعاون معنا بحماسة منقطعة النظير. وهذه هى "أسوان" قمة هذا التعاون، وخير شاهد على نتائجه. إذ لم يكن هذا الاقبال من قبيل الحكمة الاقتصادية والحزم فحسب، بل كان أيضا موقفا سياسيا.

تم إفتتاح السد العالى ومحطة أسوان الكهرومائية بعد تولى "السادات" منصب الرئيس، ولم تشر اللوحة التى وضعت علي النصب التذكاري الذى أقيم عند مدخل كل منهما آية إشارة إلى دور السوفييت فى تشييدهما لامن قريب أو بعيد. فقط كتب عليهما العبارة التالية: "بارادة الله وبمساعدة أصدقائنا قمنا ببناء السد العالى حيث افتتحه الرئيس محمد أنور السادات". "دون ذكر لمن هم هؤلاء الأصدقاء الذين

ألقيت مهمة البحث عنهم وعن جنسيتهم" لأمواج الشلالات الهادرة. وهو أمر حزّ - وما يزال - فى نفوسنا، رغم الحماس الشديد الذى استقبل به المصريون العاملون فى بناء السد، الخبراء السوفيت أثناء حفل الافتتاح، لأنهم أدركوا جيدا قيمة هذا العمل الجبار الذى مدهم بمصدر لا يكف عن العطاء للطاقة الكهربائية وللضوء فى المنازل، ووقاهم خطر الجفاف والفيضانات، وأمن لهم مصدراً جباراً للثروة السمكية من "بحيرة ناصر" وفتح أمامهم فرص العمل والمهن المختلفة.

وقد حظى بنفس الاستقبال الحماسى الخبراء السوفيت الذين شاركوا المصريين فى إنشاء ترسانة بناء السفن بالاسكندرية، عندما حضروا الاحتفال بتدشين أول سفينة صيد تم تصنيعها فى الترسانة بمساعدة الاتحاد السوفيتى، عندئذ تسلق المواطنون والعاملون بالترسانة أبراج الأوناش على خطاطيفها. وفى الساحة التى جرى فيها الاحتفال - وطبقا للعادة الشعبية القديمة فى مصر أتوا بعجل وذبحوه ولطخ الحاضرون أكفافهم بدمائه الساخنة ابتهاجا بهذا الحدث الكبير.

* * *

أول المهام التى يقوم بها عادة أى سفير جديد هى إقامة الروابط والعلاقات للتعرف على الشخصيات القيادية ورؤساء البعثات الدبلوماسية فى البلد الذى يتولى تمثيل بلاده فيه. وهو ما يعنى سيلا جارفاً من الزيارت، يعقبها بطبيعة الحال - رد الطرف الآخر بزيارة مشابهة وهلم جرا، وهى مسؤلية ليست سهلة، ولا تترك وقتا للفراغ ولا تحتمل التأجيل، فهناك دائماً جديدا من الأمور والقضايا تظهر كل يوم.

ولما كان يعمل فى مصر آلاف من رجالنا من مختلف التخصصات والمهن، لهذا كانت البعثة السوفيتية فى مصر واحدة من أكبر بعثات الاتحاد السوفيتى فى الخارج - فخلافا للدبلوماسيين كان هناك الكثير من أعضاء البعثة التجارية ومهندسى البناء والمهندسين الزراعيين والخبراء العسكريين، وراقصى البالية والجيولوجيين والطلاب الذين يدرسون العلوم الاسلامية بجامعة الأزهر والأطباء والمدرسين وبرادى المعادن وخبراء البترول والبحاره وأساتذة الجامعات والصحفيين ولاعبى السيرك والمدربين الرياضيين .. والخ... وكانت لدى كل منهم مشاكله الكبيرة والصغيرة وكلهم فى احتياج للمشورة والمساعدة.

تعرفت بسهولة وسرعة على مجمل الشخصيات القيادية فى مصر، من أمثال نائبى الرئيس "على صبرى" و"حسين الشافعى"، ورئيس الوزراء "دكتور محمد فوزى" ورئيس مجلس الأمة "لبيب شقير"، وسكرتير اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى العربى ووزير الداخلية. "شعرواى جمعة"، ووزير رئاسة الجمهورية "سامى شرف" وآخرين. وكانوا جميعاً من المقربين "لعبدالناصر" فى سنوات حكمه الأخيرة. وكثيرا ما أرسلهم إلى موسكو لإجراء المباحثات بشأن هذه القضية أو تلك. تمت الروابط بيننا بسلاسة، وسادها جو ودّى وعملى، ومع ذلك كان هذا غير كاف لفهم الوضع كاملا فى مصر، حيث تتوقف أشياء كثيرة وجوهرية على شخص الرئيس. وبالمناسبة أكد "السادات" مرارا "لكوسيجين" ولى بأنه لا تغيير فى العلاقات بين البلدين بل وأكثر من ذلك، يجب تعزيزها فى المستقبل أيضا.

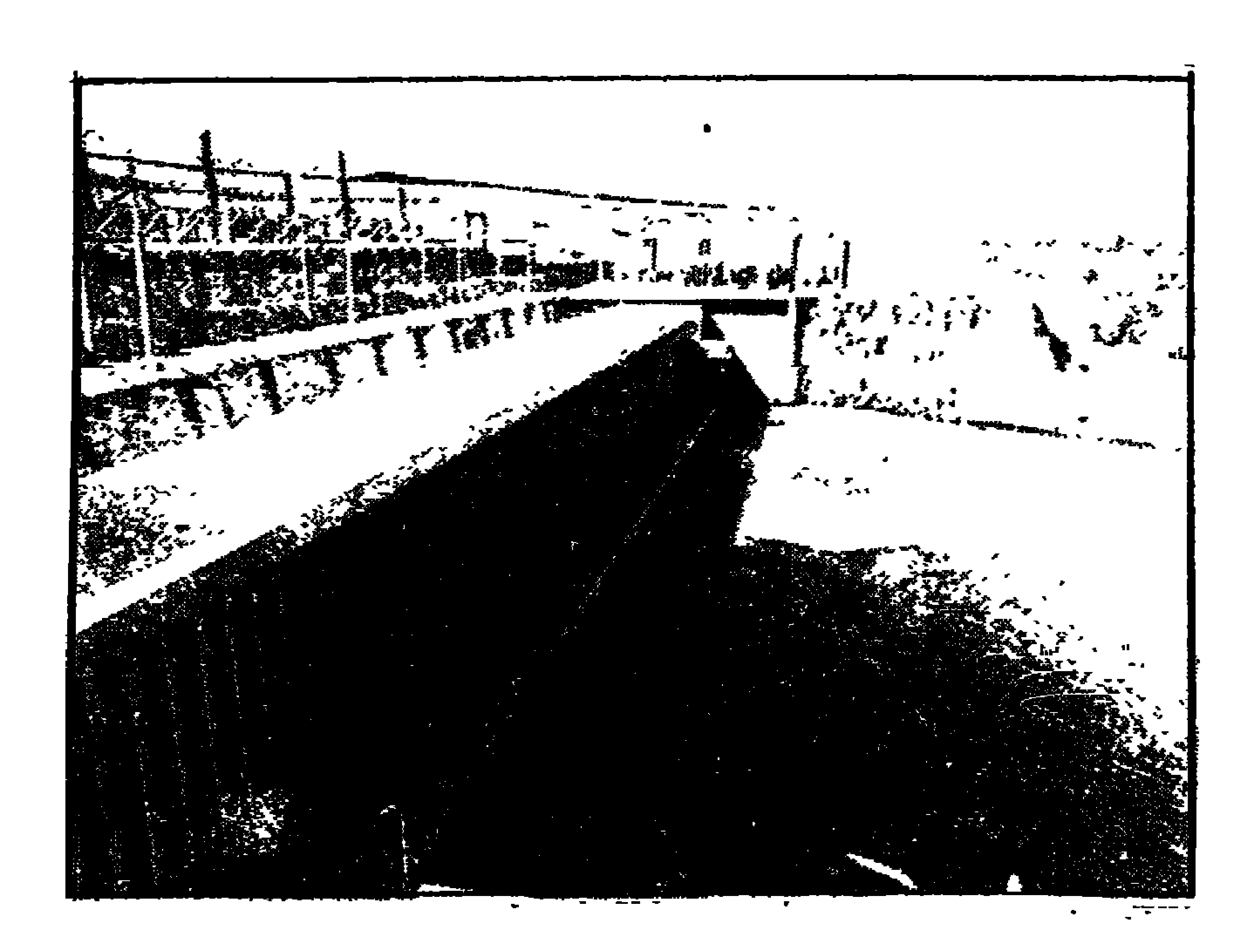
لكن - وفى لمح البصر - وبسرعة تغير الرئيس الجديد ولم يعد هناك

وجود للصراحة والثقة والإخلاص وهى الصفات التى تميز بها "جمال عبدالناصر" وحل محلهم الشك والتذمر وعدم الرضى التى أبداها "السادات" فى كل مناسبة أو بدونها.

وكان هذا أمرا غريبا، ظل لفترة من الزمن، مبهما وغامضا ويبحث عن تفسير: فمن ناحيته لم يغير الاتحاد السوفيتى من مواقفه وسياسته المساندة لمصر ولقضاياها الخارجية والداخلية.

ألم يكن هذا الغموض يعنى حدوث تغيير فى سياسة الرئيس الجديد؟. لم يكن الجواب على هذا التساؤل سهلا. وكانت صعوبته تتمثل قبل كل شىء فى أن الغالبية العظمى من القيادات السياسية – التى ظلت فى مواقعها بعد موت "عبدالناصر" – مازالت متمسكة بصداقتها للاتحاد السوفيتى. ومع هذا لم يكن قد مر شهرين أو ثلاثة على وفاة "عبدالناصر" حتى بدأت بعض هذه الشخصيات – وللحقيقة فإن عددهم لم يكن كبيرا – فى ترديد أقاويل "السادات" غير الصحيحة وغير الأمينة بحق الاتحاد السوفيتى، وخاصة فيما يتعلق بالمسائل العسكرية.

وفجأة ظهرت فى جريدة ما، مقالة "لمتخصص مجهول" عن عيوب الأسلحة والأجهزة السوفيتية وأنطلاقا من المستوى التكتيكى المتدنى لهذه الأجهزة "وصل كاتب المقالة إلى استنتاج مفاده أن حالة اللا حرب واللا سلم" مع اسرائيل هى فى صالح الاتحاد السوفيتى وحده. لقد هدفت الحملة المنظمة إلى بذر روح الشك وعدم الثقة لدى المصريين فى قواتهم المسلحة، وأيضا إهالة الغبار على أصدقائهم.ولم يدرك الشعب المصرى وحده فحسب – بل وأعدائه أيضا– مدى قيمة المساعدة الجبارة التى أبدتها بلادنا من أجل تعزيز القدرة الدفاعية لمصر والنهوض باقتصادها.



الفصل الثالث

خلافات الخلفاء





لم يعد خافيا على أحد الخلاف الذى نشب بين السادات وبين الجزء الأكبر من القيادات السياسية داخل الحكومة وداخل الاتحاد الاشتراكى العربى - المنظمة الجماهيرية الحزبية الوحيدة فى مصر آنذاك والتى كانت تلعب دورا أيدلوجيا تقدميا والتى أراد "السادات" أن يغير من وظيفتها ومهماتها. فإذا كان حلم "عبدالناصر" أن يتحول "الاتحاد الاشتراكى العربى" إلى حزب "لطليعة الاشتراكيين" فقد سعى السادات إلى حله، وخلق العقبات أمامه بعد أن اتضح له صعوبة سيطرته عليه وتوجيهه لقيادة لجنته التنفيذية العليا التى كانت تدار بصورة جماعية منذ أيام عبدالناصر. أن خير مثال على ذلك السخرية التى قابلت بها اللجنة التنفيذية العليا الفكرة المستعجلة التى طرحها "أنور السادات" حول الوحدة الفيدرالية بين مصر وسوريا وليبيا - بقيادة مصر - والتى لم يتشاور فيها مع أحد من قيادات البلد.

تسنى لى حضور اثنين من المؤتمرات الأخيرة التى عقدها الاتحاد الاشتراكى العربى، اكتشفت فيما بعد أن المسافة بينهما كانت بعيدة.

كان الأول فى شهر نوفمبر عام ١٩٧٠ - وفيه جرى اعادة انتخاب

أعضاء اللجنة التنفيذية العليا بالتشكيل نفسه الذى كانت عليه قبل وفاة "عبدالناصر". لقد امتلأت قاعة جامعة القاهرة غن بكرة أبيها بممثلى الشعب المصرى فى أزيائهم البسيطة يفيض منهم الشعور بالثقة والحرية فى جو عبقه دخان السجاير المتصاعد بلا انقطاع فوق الموائد ليرسم منها صورة فنية يعجز عن اخراجها أكبر المخرجين وأكثرهم كفاءة، وجاء تشكيل المؤتمر تعبيرا دقيقا عن ممثلى الشعب المصرى المتقدم على خطى الاستقلال والذى ربما لم يكن قد حدد بعد بصورة قاطعة ما العمل؟. لكن وبما أنه قد أصبح سيد بلاده فقطعا هو فى الطريق الصحيح.

أما المؤتمر الثانى فقد حضرته فى يوليو ١٩٧١ وكان مؤتمرا آخر بكل معنى الكلمة. امتلأت القاعة نفسها بالمعتدين بأنفسهم من أصحاب الملابس المهندمة وكان نادرا أن تكتشف بينهم واحداً فى ملابسه الوطنية وملامحه البسيطة، وعزفت كلمات المتحدثين كلها تقريبا – فى هذا اليوم نغمة واحدة، هى تمجيد السادات وتأييد سياسته وخلت مَن أى معنى له قيمة، مع إن المؤتمر كان مكلفا باقرار "برنامج العمل الوطنى" وهو بيان أجاد صياغته "محمد عبدالسلام الزيات" و "عزيز صدقى" وكانا من قادة الاتحاد الاشتراكى آنذاك.

ألقى "السادات" الخطاب الرئيسى فى المؤتمر وغلبت عليه الصورة الاستعراضية وكثيرا ما كان يلقى بالأوراق التى بين يديه جانبا، وبدا واضحا أنه ليس بمقدوره أن يتظاهر بالحماس لما ورد فى البرنامج، ولذلك لجأ إلى الصمت متظاهرا بالاستغراق فى تصفح الأوراق التى سقطت على الأرض من فوق المنصة وظل يقلبها بين يديه، بشكل يعكس سخريته

وتهكمه عليه. وكان معروفا أن السادات لم يكن راضيا عن مثل هذا البرنامج الذى كان يهدف إلى تعزيز قدرة القطاع العام ووضعه فى الاقتصاد المصرى وكذلك اجراء العديد من التحولات التقدمية الأخرى.
وأخيرا تمتم السادات قائلا :
- طالما مشروع البرنامج الآن فى يدى الأعضاء فلا داعى لأن أتحدث عنه(١١).

ومع هذا فقد تم استبدال البرنامج بآخر مختلف عنه تماما. أعلن عنه السادات ومساعديه باعتباره حلاً لجميع المشاكل هو برنامج "الانفتاح" أمام رأس المال الأجنبى والمحلى.

والأن نعود إلى أحداث نهاية عام ١٩٧٠ وبداية عام ١٩٧١.

وفى الأيام الأولى- التى أعقبت تولى السادات منصب الرئيس - تفجرت الخلافات بينه وبين هؤلاء الذين يتقلدون المناصب القيادية منذ أيام "عبدالناصر" ومنهم أمناء الاتحاد الاشتراكى العربى في القاهرة وفي العديد من المدن المصرية الكبرى، ورغم أن هذه المجموعة لم تكن متجانسة وينقصها التنظيم الجيد ألا أنها كانت بمثابة سد لا يستهان به أمام محاولات "السادات" الرامية إلى إحداث مايروق له من تغيير والتى استوجبت تشكك كثيرين حوله فى سياسته التى كان الغموض يلفها.

وكان على رأس هؤلاء المتشككين "على صبرى" نائب الرئيس، و"شعراوى جمعه" وزير الداخلية وأمين التنظيم بالاتحاد الاشتراكى، والفريق "محمد فوزى" وزير الحربية، "ولبيب شقير" رئيس مجلس الأمة، "وضياء الدين داود" أمين الدعوة والفكر بالاتحاد الاشتراكى، و"سامى شرف" وزير شئون رياسة الجمهورية، و"محمد فائق" وزير الإعلام.

كان "على صبرى" يمثل خطرا كبيرا على السادات بحكم تفوقه كثيرا عليه فى العلوم والمعرفة واتساع الأفق السياسى، لذا أقدم السادات فى الثامن والعشرين من مارس عام ١٩٧١ على ازاحته من منصبه بقرار جمهورى دونما أية مقدمات مسبقة(١). قبل اتخاذ هذا القرار كان السادات قد أحاطنى علما بعزمه على إزاحة "على صبرى" من منصب نائب الرئيس في محاولة لمعرفة رد الفعل السوفيتى - عندئذ قلت له

- انه من الصعب التعليق على ما سمعته من سيادة الرئيس "ووددت فقط لو ذكرتكم بالأمنيات الطيبة التى أبداها كوسيجين منذ ما يقل عن نصف عام مضى للقيادات المصرية أثناء تشييع جنازة المرحوم عبدالناصر عندما تحدث عن ضرورة التضافر والتلاحم وتفادى الانشقاق فى القيادة لمواجهة تحديات المرحلة المقبلة.

عندئذ بادرنى "السادات" قائلا:

- أننى أحدثكم الآن عن قرار تم اتخاذه بالفعل".

لم يكن "السادات" يبدى أدنى اهتماما بالقضايا الداخلية وقضايا التنمية الزراعية والصناعية والمواصلات ورفاهية السكان وتطوير الثقافة، الخ ... وركز كل جهوده للصراع مع اسرائيل ولقضايا السياسة الخارجية الأخرى.

ولأنه يعتبر نفسه واحدا من العسكريين المتخصصين، استغل معلوماته المشوهة فى التعامل مع جنرالاته. ورغم اقتراحاتى المتعددة، بأن عليه أن يستقبل كبير المستشارين العسكريين السوفييت إلا أنه لم يفعل ذلك مرة واحده، وهو أمر لا يخلو من دلاله.

ولم يكن الخلاف بين "السادات" والقيادات المصرية الأخرى مقصورا

على القضايا الداخلية بقدر ما كان متعلقا أيضا بقضايا السياسة الخارجية أيضا. ففى أعقاب تقلد "السادات" منصب الرئيس بفترة وجيزه، أعلن بصورة منفردة ودون التشاور مع القيادات المصرية، شعاره المشهور "ليكن عام ٧١ عاماً للحسم" أى تحرير الأراضى المصرية التى احتلتها اسرائيل عام ١٩٦٧ قبل نهايته. لقد أراد "السادات" من وراء شعاره "التهويل"، واستخدامه لابتزاز الجانب السوفيتى قائلا:

-بعد أن وضعنا نصب أعيننا هذا الشعار فأنه يجب على الاتحاد السوفيتى أن يساعدنا فى انجازه ووضعه موضع التنفيذ.

"وكان رد الجانب السوفيتى":

-أننا أصدقاء لمصر - ومن هذا المنطلق نود أن نعرف بكل دقة الخطط المحددة الموضوعة "لعام الحسم" ومدى مستوى وأمن القوات المسلحة المصرية الخ ... كان رد "السادات" على هذا مختصرا وغير مرض حيث قال:

- "مجرد شعار سياسى، أما باقى القضايا الأخرى فهى من اختصاص العسكريين المحترفين.

وكان تعليق "هيكل" الذى قاله لى:

- لم يحدث فى التاريخ - حتى يومنا هذا - أن قامت دولة بإخطار دولة أخرى بأنها سوف تشن عليها الحرب هذا العام، فأما أن هذا ليس من قبيل الجد وأما أنه جريمة متكاملة الأركان.

ولم يأخذ المصريون - عموما - هذا الشعار مأخذ الجد، وكأنه دخل من أذن وخرج من الأخرى.

وجاء الموقف من الولايات المتحدة الأمريكية ليكون أكثر تقاط

الخلاف حدةً بين القيادات المصرية فقد تم أثناء حكم الرئيس "عبدالناصر" طرد الامبريالية الأمريكية من منطقة الشرق الأوسط، بينما لم يعد الآن خافيا على أحد الاتصالات التى يجريها السادات مع المسئولين الأمريكان دونما التشاور مع القيادات المصرية الأخرى، لقد تمت هذه الاتصالات بترتيب كوادر المخابرات المركزية الأمريكية المتنكرين فى صورة دبلوماسيين يعملون داخل قسم "رعاية المصالح الأمريكية" بالسفارة الأسبانية التى أوكل لها رعاية المصالح الأمريكية فى مصر بعد قطع العلاقات الدبلوماسية بين البلدين. وكان قد تم انزال العلم الأمريكى من فوق السفارة الأمريكية - بعد قطع العلاقات - ورفع عليها العلم الأسبانى، بينما ظلت مجموعة الأمريكان تقوم بعملها بصورة عادية فالذى تغير فقط هو اللافته إذ أصبحوا تابعين شكليا - للسفارة الأسبانية.

لكن فى وقتنا الحاضر لم يعد من الممكن التكتم طويلا. لذلك تسرب خبر هذه الاتصالات وبدأ بعض القيادات المصرية تتحدث إلينا بانزعاج عن امكانية ظهور الأمريكيين فى منطقة الشرق الأوسط مرة ثانية، وقد أزعجهم أكثر خبر زيادة "روجرز" المقبلة إلى مصر، ولعلهم كان يخشون أن تكون هذه "المبادرة" أولى ثمار الانقلاب السياسى الذى يخطط "السادات" لاحداثه بعد موت "عبدالناصر".

وكنت - أثناء أحاديثى مع "السادات" - أحدثه عن لقاءاتى مع القيادات المصرية الأخرى وكان كثيرا ما يعلق فى عجلة

- أننى أعرف منهم أيضا - أخبرونى بوجهة نظرهم هذه.

ولادراكى بوقوع شقاق بين القيادة المصرية، بدأت التعامل بحذر

شديد وذات مرة – في مارس أو أبريل ١٩٧١ – وبعد انتهاء محادثاتي مع السادات سألته بشكل عرضي:

–هل يمكنكم أن تذكروا لي من هم أفضل معاونيكم وأكثرهم محلا لثقتهم حتى يمكنني التعامل معهم بصراحة كاملة في شأن العلاقات بين بلدينا.

رد "السادات" قائلا:

– محمد فوزي وشعرواي جمعه وسامي شرف (وفي وقت سابق كثيرا ما يذكر علي صبري ضمن اصدقائه المقربين).

وباهتمام شديد توجه لي سائلا

– لماذا ياسيادة السفير تعنيكم هذه المسألة؟

وكان جوابي عليه.

– ببساطة أود أن أثق فيمن أتعامل معهم.

وبالمناسبة قام السادات – في هذه الفترة بإرسال كل من "علي صبري" و"محمد فوزي" و"سامي شرف" و"شعراوي جمعه" إلى موسكو لإجراء العديد من المحادثات الهامة وفي كل مرة كان الجانب السوفيتي يعبر لهم عن كامل ثقته بوصفهم أصدقاء مخلصين.

* * *

..... عندما وصل روجرز إلى القاهرة استقبله "السادات" وتعمد أن يجري معه محادثات منفردة وهو ما لفت النظر خاصة بعد أن ترك "السادات" وزير الخارجية "محمود رياض" جالساً في غرفة مجاورة ما يقرب من ساعتين كاملتين. في انتظار إنتهاء الجلسة المنفردة بين الاثنين.

وغادر "روجرز" القاهرة متوجها مباشرة إلى تل أبيب، بينما وصل منها إلى القاهرة مساعديه "سيسكو" و"ستيرنر" وقد أجرى "السادات" معهما أحاديث مطولة على انفراد، "وأشيع أن روجر" قد قال:

- لا أيمكن طلب المزيد التنازلات من مصر بعد أن إستمعت إلى المقترحات المصرية التى قدمها أنور السادات لحل النزاع فى الشرق الأوسط.

ولأن "السادات" كان يدرك أن "اللعب" مع الأمريكان لا يمكن أن يتم خلسة فى مثل هذه المنطقة الملتهبة، فقد راح فى جميع مباحثاته معى يصر على ضرورة ابلاغ موسكو برغبته فى توقيع اتفاقية صداقة بين البلدين. (هذه الفكرة التى راودت عبدالناصر فى أخريات أيامه) وكان يعلم جيدا أنه من الصعب جدا فى ظل التعقيد الشديد الذى تشهده المنطقة أن توافق "موسكو" على طلبه هذا، وأغلب الظن أنه كان يقدم اقتراحه هذا ويلح عليه ليحصل على رفض صريح من الجانب السوفيتى فربما كان فى احتياج لمثل هذا الرفض لسبب ما.

فى وقت متأخر من ليلة الحادى عشر من مايو عام ١٩٧١، ذهبت إلى السادات فى مقر اقامته بالجيزة على شاطئ النيل بالقرب من السفارة السوفيتية فى القاهرة. هناك جلسنا فى الحديقة بينما كانت تلهو حولنا مجموعة من كلاب "السادات" المحببة تجرى وتركض وتتلمس مقاعدنا برؤسها وألسنتها وبكسل واضح كان "السادات يقوم بأبعادها عنا. باختصار جلسنا فى هذه الليلة تناقش العديد من القضايا التقليدية بيننا وقبل نهاية اللقاء سألت "السادات" مرة أخرى عن الأصدقاء المؤتمنين وكان جوابه

- يمكنك - مثلى تماما - أن تثق بمحمد فوزى وشعرواى جمعه وسامى شرف.

وأكرر مرة أخرى أن هذا الحديث قد جرى فى وقت متأخر من ليلة ١١ مايو ١٩٧١.

فى الثالث عشر من مايو وطبقا لاتفاقنا مع السفير الألمانى الشرقى "ماريان بيرباخ" تم تنظيم حفلة مشتركة لكلا السفارتين فى القاهرة. واستضافت سفارة ألمانيا الديمقراطية الحفل، وأبدع الرفاق الألمان فى أعداده وكان شيقا للغاية لكن لم يسعنى اطلاقا الاستمتاع به، إذ كنت أشعر بأن حدث هاما على وشك الوقوع فى مصر وإن لم تكتمل ملامحه أمام عينى بصورة واضحة.

فى منتصف الحفل تلقى السفير الألمانى مكالمة تليفونية، وبعد عودته دنا منى قائلا:

- حدثنى سائقى عن سماعه للراديو، حيث أذاعوا نبأ استقالة أمين اللجنة التنفيذية للاتحاد الاشتراكى العربى ووزير الداخلية "شعرواى جمعه".

عندئذ كررت متسائلا

- استقالة؟ وبأية مبررات؟.

لم يكن السفير الألمانى يعرف وقتها أكثر من ذلك، ولم يذع الراديو أى شيء بخصوص هذه المسألة، إذن ربما هو استقال وربما طلبوا الاستقالة منه، بل وربما يكون السائق قد أخطأ السمع؟

كان هذا بالقطع خبرا شديد الخطورة وعلى الفور غادرت الحفل رغم عدم انتهاء فقرات برنامجه، وفى السفارة وجدت زملائى فى انتظارى،

وربما كان خطأ شديد لو ظللت مكانى فى الحفل فى هذا المساء الحافل بالمفاجآت.

رغم وصولى إلى السفارة فى وقت متأخر، إلا أن الكثيرين من رفاقنا كانوا هناك فى انتظارى فقد استمعوا إلى ما أذاعه الراديو عن استقالة "شعرواى جمعه"، والآن يواصل الراديو بث الموسيقى والأغانى الوطنية فقط - أنها الاشارة الأولى لشىء هام يوشك على الوقوع.

وبالفعل توالت بعدها الأخبار الجديدة، فبعد أن قبل "السادات" استقالة "شعراوى جمعه" قدم كل من وزير الحربية "محمد فوزى" ورئيس مجلس الأمة "د. لبيب شقير" "سامى شرف" ووزير الأعلام "محمد فائق" وسكرتيرى اللجنة التنفيذية للاتحاد الاشتراكى العربى وآخرين غيرهم استقالاتهم، وعلى الفور قبلها "السادات" وتم تعيين اللواء "محمد أحمد صادق" وزيرا للحربية وممدوح سالم (محافظ الاسكندرية أنذاك) وزيرا للداخلية. ورويدا رويدا بدأ الموقف يتضح إذا هدفت الاستقالة الجماعية إلى الضغط على "السادات" كى يتشاور مع القيادات المصرية، ولا ينفرد بقراراته وما حدث بعد ذلك يصعب تصوره إذ عاد "المتآمرون" - كما أطلقوا عليه فيما بعد - إلى منازلهم وألقوا بأجسادهم للراحة والنوم، إنها لم تكن اطلاقا محاولة انقلابية، فالانقلابات لا تتم بهذه الصورة.

لقد كان "السادات" نفسه مندهشا إذ بقبوله استقالة "شعرواى جمعه" يبدو وكأنه قد استحثهم إلى الاستقالة الجماعية، بضربة واحدة "تخلص من خصومه دفعة واحدة وها هو بسرعة يعين قيادتين جديدتين للقوتين الضاربتين فى البلد واللتين فى أيديهما مفتاح السر: الجيش والبوليس، أن هذا يعنى أنه كانت لديه ترشيحات جاهزة ومعدّة مسبقا عندئذ لم

يسعنى إلا أن أتذكر كلماته التى قالها منذ يومين فقط لا أكثر

- يمكنك أن تثق بصورة كاملة - مثلى تماما - فى "شعراوى جمعه" و"محمد فوزى" و"سامى شرف" - أنهم من أكثر المقربين لى"

إذن فلماذا حرص على أن يقول لى هذه الكلمات وهل كان وراء هذا الحرص سر ما؟

بعد إلقاء القبض على "المتآمرين" - وهى الصفة التى كان يتحتم على الجميع وصفهم بها - بيوم واحد، استقبلنى "السادات" فى قصر "الطاهرة". وخلافا لعبدالناصر كان "السادات" يستقبل السفراء فى أماكن كثيرة ومتعددة، ويخيل لى أنه لم يكن يقيم فى مكان واحد لأكثر من يوم، فكثيرا ما استقبلنى فى منزله الخاص فى القاهرة وفى قصر الطاهرة، وفى المقر الرسمى لرئاسة الجمهورية المواجه لمنزله وكان فى الأصل متحفا، قبل أن يأمر "السادات" بضمه لبيته، وفى مقره بهليوبوليس، وفى حلوان، وفى الاسكندرية، وفى المعمورة وبرج العرب، وفى منزله الريفى فى مسقط رأسه وفى مقر الاتحاد الاشتراكى العربى. الخ.

وفى المقابل لم يمتلك "عبدالناصر" مسكنا خاصا به. وعاش هو وأسرته حياة متواضعة فى أحد الأبنية التابعة للقوات المسلحة، بينما استغل "السادات" منصبه واشترى بثمن زهيد بيتا أنيقا على شاطئ النيل وزينه باللوحات والصور وأثثه بأثاث فاخر ينم عن عدم رهافة -ذوقه- وأغلق جزءا كبيرا من الكورنيش أمام عبور المواطنين.

كان الارهاق يبدو واضحا على وجه "السادات" طوال اللقاء، وتجمعت هالات سوداء بارزة حول مقلتيه وكان كثيرا ما يتصبب عرقا لأقل

مجهود يبذله. كانت "تبريراته" كلها غير مقنعة ومفضوحة، إذ كان كثيرا ما يردد:

- إن تصرفات "على صبرى" وبعض الشخصيات القيادية الأخرى فى حكومته أدت إلى تقويض هيبة السلطة وشكلت خرقا فظا لحقوقه.

وضرب مثالا على ذلك بمقاومة الاتحاد الاشتراكى العربى لهدف تحقيق الوحدة العربية (بين مصر وسوريا وليبيا). وشرع فى ترديد الرواية الجوفاء التى اجهدت كلمة الصحافة الرسمية نفسها للترويج لها، وخلاصتها، إن شابا غير معروف له، حمل إليه بعض أشرطة تسجيل لمكالمات تليفونية أجراها هو، وأخرى أجراها "على صبرى" "وشعراوى جمعه" و"محمد فوزى" مع آخرين، ومنها علم "بالنوايا العدوانية" لهؤلاء واستطرد قائلا:

- عندما قبلت استقالة هؤلاء حالوا بينى وبين دخول مبنى الاذاعة والتليفزيون حتى يمنعونى من مخاطبة الشعب بخصوص هذه المسألة.

وكان "السادات" مقتنعا بضرورة ألاّ تؤثر الخلافات بين القيادة المصرية بصورة سلبية على علاقات مصر بالاتحاد السوفيتى. وحاول أن يوحى بأن هذه العلاقات ستظل عل ما يرام، كما سخر للهدف ذاته العديد من المقالات الصحفية التى أبدت تركيزا شديدا على ما سمته محادثات "السادات" مع السفير السوفيتى فى ذلك اليوم.

وفى محاولة لكسب تعاطف الشعب جرى الترويج لأنباء عن واحدة من أخطر الجرائم التى ارتكبها "المتآمرون" ألا وهى التصنت وتسجيل المكالمات التليفونية "لآلاف مؤلفة" من المواطنين، وقام التليفزيون المصرى بعرض المشهد التالى:

السادات ووزير الدخلية الجديد يقومان فى مظاهرة استعراضية بالقاء هذه التسجيلات فى كومة مشتعلة من النيران وسط فناء وزارة الداخلية.

قابل المصريون هذا التصرف بالضحك والسخرية وتساءل البعض لماذا يتم حرق مثل هذه الأشرطة المستوردة غالية الثمن إذ يمكن - إذ كان هذا هو الهدف - إزالة ما تم تسجيله عليها بسهولة ومن ناحية أخرى فهى دليل مادى على كل "الجرائم" المنسوبة إلى المتآمرين وأعلن "السادات" أيامها أن التصنت على المكالمات الهاتفية، أمر مناف للقانون، ولكن فى الحالات التى تقتضيها ضرورات أمن الدولة.

بعد شهرين على هذه الأحداث، التقيت صدفة على البلاج فى مدينة الاسكندرية بالصحفى المصرى المعروف "محمد حسنين هيكل". وجرى حديث بيننا حول أحداث الساعة. كان "هيكل" غير متعاطف مع "المتآمرين" وبدرجة أو بأخرى كان "السادات" يثق فيه، وكان "هيكل" يرى ذلك ايضا.، حدثنى "هيكل" عن ما قاله "السادات" حول اتصالاتى وعلاقتى "بالمتآمرين". وأثار فضولى جدا أن "هيكل" لم يكمل حديثه هذا للنهاية، وبدا متردداً فى ابلاغى بالتفاصيل وفى معرض ردى عليه قلت:

- أن ما حدث بينى وبينهم هو مجرد لقاءات عمل، فقد كانوا يشغلون مناصب قيادية رفيعة، بل إن السادات نفسه كثيراً ما طلب منى مناقشة هذا الأمر أو ذاك مع هذه الشخصية أو تلك ولفترة قليلة مضت، كان يرسلهم الى "موسكو" بتكليف منه لمناقشة أكثر القضايا أهمية.

وأضفت الى ذلك قائلا بأننى فى كل مرة كنت أبلغ "السادات" نفسه بلقاءات العمل التى أعقدها مع هؤلاء. بل أننى سألت "السادات" - فى

مارس وأبريل، وحتى قبل وقوع الأحداث بيومين فقط، عن أكثر المقربين اليه الذين يمكنني التعامل معهم بصراحة تامة، وفى كل مرة كان "السادات" يذكر لى أسماء أبطال "المؤامرة" الآن ممن هم خلف القضبان الحديدية فى السجن. وختمت حديثى متسائلا:

– لماذا اذن كان يصر على جوابه هذا؟

لم يجب "هيكل" على سؤالى الأخير، هذا، لكنه استطرد قائلا، بأن "السادات" قد أسمعه شريط تسجيل لمحادثه تمت بينى وبين "سامى شرف" – فى ٩ مايو ١٩٧١ – انفجرت ضاحكا بينما اقترح على "هيكل" الحضور إلى مكتبه حتى يرينى الشريط. ورفضت عرض "هيكل" لأننى لم أرد أن أغوص فى هذه القصة، ولم أبد حتى مجرد اهتمامى بها، لثقتى المطلقة فى أن مثل هذه التسجيلات خالية مما يمكن أن يمثل إدانة للسفير السوفيتى. وعلى كل أردت التحقق من "هيكل" فسألته:

– عن ماذا دار الحديث؟

قال "هيكل".

– قال "سامى شرف" لك، أن مواقف الرئيس لم تعد مفهومة، وأنه عازم على التفاهم مع الأمريكان، ولم يعد معروفا ما سوف يقدم بعد ساعة أو ساعتين، وأخيرا سألك: ما العمل الآن معه؟

ولاحظت أن "هيكل" قد ذكر كلمات "سامى شرف" بدقة مغالى فيها، عندئذ سألته:

– وماذا كان ردى عليه؟

ابتسم "هيكل" قائلا:

– كان ردك أن هذه ليست قضيتك، وقلت لسامى شرف: "السادات"

هو رئيسكم ويجب الالتفاف حوله وتعضيده للحفاظ على وحدة الارادة داخل القيادة السياسية فى البلاد.

- وأضاف "هيكل" قائلاً أن "السادات" بعد أن استمع إلى هذه الفقرة من التسجيل ضرب كفا بكف - طبقا للعادة العربية قائلا:

- ياسلام أفلت السفير بينما كان على شفاه الحفرة.

سألت هيكل.

- ماذا تعنى كلمة "أفلت" وماذا كان الرئيس يتصور أن تكون اجابتى على هذا السؤال؟.

"قال هيكل":

- وربما كان الرئيس يأمل فى سماع حديث آخر غير الذى استمع اليه..

وباختصار كان السادات تواقا الى الزج بالاتحاد السوفيتى والربط بينه وبين المتآمرين

* * *

كان "عبد الناصر" شخصية مقربة الى شعبه وحاز على تأييد واسع بين أبناء الشعب المصرى - الشيء الذى عجز "السادات" عن تحقيقه، فقد قامت ثورة يوليو بقيادة "عبد الناصر" بتحقيق الكثير من المنجزات لصالح الكادحين فقامت بالإصلاح الزراعى وأرست مجانية التعليم والضمان الاجتماعى وسنت قوانين العمل الخ.

لكنه لم يتمكن من القضاء على عدم المساواة الاجتماعية. وكما هو معروف، فان الغالبية العظمى من الشعب المصري يسودها الأمية،

والأمى- طبقا للتعريف اللينينى- هو خارج السياسة. وهكذا ظلت الجماهير الشعبية بعيدة عن المشاركة الفعالة في المتغيرات الجارية، وفى المحصلة كان موقفها سلبيا تجاه ما يحدث - وكان هذا يعنى قبل كل شيء أن الثورة - تتقدم الى الأمام، وأن السلطة ستعود- بوسيلة أو بأخرى الى الأقوى- والأقوى - كما كان وكما ظل - هى البرجوازية التى عبر "السادات" عن مصالحها تعبيرا أميناً.

لم يحرك الشعب ساكنا تجاه الاتهامات الموجهة لأنصار "عبد الناصر"، والتى وصلت الى حد مطالبة النيابة أثناء المحاكمة باعدامهم جميعا، وأخيرا صدرت الأحكام بالأشغال الشاقة علي البعض، وبالسجن لمدد طويلة للأخرين وظل كثير من المصريين لا يعرفون حقيقة وجوهر الخلاف بين "السادات" والمجموعة القيادية الأخرى ولم يعرفوا حقيقة نواياه فى الاتجاه الى الأمريكان والتعاون معهم والاتصالات السرية، التى كان يخفيها..






الفصل الرابع

من المعاهدة

إلى طرد الخبراء



ضاعف الأمريكان ضغوطهم على "السادات" من أجل تهيئة المناخ لقوى اليمين داخل المجتمع المصرى، وبصورة مشتركة عملت هاتان القوتان- اليمين المصرى والأمريكان- على الاسراع بفك أواصر الصداقة المصرية السوفيتية وخلق جو معاد للسوفييت فى الشارع المصرى، وبدأت عملية نشر منظمة للشائعات والأكاذيب والافتراءات بحق بلدنا.

ورغم الحملة الظالمة التى شنها "السادات" وبعض الصحف المصرية بحق الاتحاد السوفيتى ظل الشعب المصرى يكن مشاعر طيبة تجاه بلدنا وشعبنا، ولم يكن يتعاطف كثيرا مع هذه الافتراءات. وظلت الغالبية العظمى من الجماهير المصرية عازفة تماما عن سماع هذا العزف النشاز. إذ لم يكن بالسهل خداع الشعب المصرى صاحب الحضارة العريقة والمحب للعمل والمخلص لكل من يقدم له يد العون والمساعدة. انه ينفر بشدة من الغوغائية ومحاولات الخداع. ورغم الأمية الواسعة الانتشار فى صفوفه الا أنه قد أدرك جيدا أن الشعب السوفيتى والدولة السوفيتية وقفا بجانبه فى أوقات الشدة. وعلى الدوام ظلت فى مخيلة المصريين تلك المقارنة العادلة بين سلوك الانجليز- أثناء احتلالهم لمصر- وبين سلوك

المواطن السوفيتى سواء كان فى المصنع أو فى الحقل أو كان مستشاراً عسكريا يقاتل جنبا إلى جنب مع الجنود على خط الجبهة أو فى الأعماق، حيث عاشوا أوقات عصيبة. وكان المنطق يستوجب أن يأخذ السادات هذه الحقيقة فى الحسبان وأن يعيرها اهتماما، وهذا يفسر ما حفلت به تصريحاته أيامها من كلمات طيبة بحق الاتحاد السوفيتى والحاحه الدعائى على توقيع اتفاقية الصداقة والتعاون بين البلدين، والحاحه على ضروره زيارة القيادات السوفيتية رفيعة المستوى الي مصر.

وكان توقيع مثل هذه الاتفاقية فى مصلحة شعبى كلا البلدين، إذ كان يدعم علاقات الصداقة والتعاون بينهما، ولذلك فإن مجرد الحديث عنها قد هز من الأعماق خصوم مصر فى الداخل والخارج. ولما رد الاتحاد السوفيتى بالايجاب على مقترحات "السادات" بشأن توقيع هذه الاتفاقية، ووافق الجانب السوفيتى أثناء المفاوضات التى جرت بشأن هذ المسألة في القاهرة - على جميع النصوص التى قدمها الجانب المصرى، وتم التوقيع عليها فى السابع والعشرين من مايو عام ١٩٧١، ولما "السادات" قد ادعى فيما بعد أن المعاهدة قد فرضت عليه، وأن نصوصها لم تتضمن ملاحظات الوفد المصرى ولم تأخذ باقتراحات المفاوضين المصريين الذين وقعوها، فقد وجدت من واجبى كشاهد عيان - أن أؤكد الحقيقة السابقه.

على أن توقيع المعاهدة أحدث اضطرابا شديدا داخل الأوساط الأمريكية. وفى الحال طار إلى القاهرة المبعوث الأمريكى "سترنر". ومن جهته طمأن "السادات" هذا الموظف الصغير بعدم حدوث تغيرات فيما كان قد عقد العزم عليه مما كان قد أحاط به علما وزير الخارجية

الأمريكى. ومع هذا قد دب الفتور لفترة من الزمن- فى العلاقات المصرية الأمريكية.

وكان "السادات" فى أمس الحاجة الى حدث مايثبت به ولاءه للولايات المتحدة الأمريكية وكان هذا الحدث هو وجود مجموعة من الخبراء العسكريين السوفييت، الذين جاءوا لى مصر بطلب من "عبد الناصر" وبعض القيادات المصرية (منهم السادات) لتدريب الجنود المصريين، وحماية سماء مصر إبان فترة اعداد أطقم الصواريخ المصرية، وعلى عكس ما أدعى بعد ذلك، فإن السادات لم يحاول زيارة بطاريات الصواريخ المضادة للطائرات المدفونة فى الأرض ولا السفن الحربية السروفيتية، التى كانت تزور مصر.

وقد تسنى لى مرارا التواجد على ظهر السفن الحربية السوفيتية التى كانت ترسو فى ميناء الاسكندرية وأتذكر جيدا الضجة التى أثارتها الزيارة الودية التى قامت بها مجموعة من السفن الحربية السوفيتية كانت تضم الطراد "فارياج" السفن المضادة للغواصات "كومونة باريس" و"تشرفونيا أوكرانيا" والغواصة الذرية، حينما رست بالقرب من رصيف الركاب بالميناء حيث كانت ترسو هناك مجموعة من السفن الأجنبية المحملة بالسياح، الذين شرعوا فى تصويرها بحماس وحمية حتى أن صوت الكاميرات كان شبيه بصوت طلقات رشاش.

ومع أن هذ الزيارة تمت تلبية لطلب من "السادات"، فقد رفض الذهاب الى الاسكندرية لاستقبالها وساق لذلك "حجة بروتوكولية" مفادها أن رئيس الدولة لايصح له الصعود على سطح سفينة حربية لدولة أخرى فى غيبة رئيس هذه الدولة، وأناب عنه وزير الحربية. وحقيقة الأمر أن

"السادات" لم يكن يرغب فى اغضاب الأمريكان اذا أقدم على هذا العمل بينما كان يحاول اجراء اتصالات معهم، وكان قد حضر قبل ذلك بقليل عرضاً جوياً ظهر منه تفوق القوات الجوية المصرية على نظيرتها الاسرائيلية، فأخذ تطباعاً بأن ذلك قد يسىء الى علاقاته مع الأمريكين.

وهكذا قرر "السادات" الاساءة الى التعاون العسكرى مع الاتحاد السوفيتى وظهرت سلسلة كبيرة من الممارسات العدوانية تجاه بلدنا، بهدف اهالة التراب على كفاءة العسكريين السوفييت الذين أنجزوا مهماتهم فى ظروف عصيبة.

ومنذ بداية سبتمبر عام ١٩٧١ نشطت المخابرات بصورة لم يسبق لها مثيل ضد القوات المسلحة المصرية، وبدأ عملاؤها يتحركون بحرية أوسع، وانتهى الأمر بالقضية التى عرفت بأسم "قضية راندوبولو" - وهو مواطن مصرى يعمل مقاولاً فى تشييد بعض المنشآت العسكرية. وقد ذكر "هيكل" في كتابه "الطريق الى رمضان"، أن التى جندته، هى موظفة أمريكية تدعى "سفاين" كان تعمل ضمن أعضاء بعثه رعاية المصالح الأمريكية. واعتقلت المخابرات المصرية وقوات مكافحة التجسس "سفاين" و"راندوبولو"، ولفتت نظرنا بأن الخبراء العسكريين السوفييت ينقصهم الحذر ويفتقدون إلى الحيطة. وأن المعلومات التى وصلت إلى المخابرات الأمريكية قد وصلت إلى الاسرائيلين أيضا. ومن ناحيتنا نفينا بشدة مثل هذا الكلام المضحك، وأكدنا على أن مهمة مكافحة النشاط التجسسى داخل القوات المسلحة المصرية تقع على عاتق مصر وحدها. لقد قرأت باهتمام شديد ماكتبه "هيكل" فى كتابه بخصوص هذه المسألة،

فبعد أن تكشفت أبعاد هذه القضية كتب "يوجين تروني" - رئيس مجموعة المخابرات المركزية المتواجدة فى مصر - بصراحة الى رئيس المخابرات المصرية الفريق أحمد اسماعيل قائلا :

"أود أن أؤكد لكم بأن المعلومات التى حصلنا عليها لم تصل البتة إلى الاسرائيليين ولم يحصلوا على شىء منها اطلاقا، أنها فقط تهمنا لما فيه مصلحة الولايات المتحدة، بل وربما يمكن القول بأنها أيضا كانت لصالح مصر إذ بواسطتها يمكن للادارة الأمريكية أن ترد على المبالغات الاسرائيلية بشأن الأسلحة التى يقدمها الاتحاد السوفيتى لكم، وبالتالى يمكن النظر فى طلباتها من الأسلحة الأمريكية على ضوء حقيقة المعونه السوفيتيه لمصر، وأضاف رجل المخابرات الأمريكى " أننى أود التأكيد مرة أخرى أن مصر لم تكن هى المعنية من وراء هذه العملية التجسسية، وكما تعلمون فأن المجابهة بيننا وبين السوفيت على أشدها ونحن نتجسس عليهم وهم أيضا يتجسسون علينا".

وفى رأى "هيكل" أن السادات قرر أطلاق سراح الجاسوسة الأمريكية للحفاظ على قناة الاتصال تلك: السادات المخابرات المصرية - المخابرات المركزية الأمريكية - مجلس الأمن القومى الأمريكى وكيسنجر.

وفى بداية عام ١٩٧٢ وأثناء مغادرة مجموعة من الخبراء العسكريين السوفييت لمطار القاهرة متوجهة الى موسكو، وتعرضت لتفتيش مهين من سلطات المطار بحجة البحث عن ذهب - كما قال موظفو المطار. بالقطع فأن مثل هذا الكلام عار تماما من الصحة، بدليل أنهم لم يعثروا عل قطعة واحدة من الذهب مع أحد منهم. وعلى الفور قررنا أن يكون ردنا حازما بما فيه مخاطبة الرئيس بهذا الشأن.

في مساء ذات اليوم وبينما أنا فى منزل "عزيز صدقى" - رئيس الوزراء - تحدث "السادات" معى تليفونيا معربا عن استياءه مما حدث قائلا:

- إنه لشيء يدعو للخجل، أن يحدث هذا مع المواطنين السوفييت، وأن تكافئهم مصر على عملهم وما بذلوه من جهد بهذه الطريقة.

ورجا أن ننسى هذه الحادثة، وبمعنى آخر اعتذر عما حدث.

وبعد فترة وجيزة وفى حديث لمجلة "النيوزويك" الأمريكية، اشتكى "السادات" قائلا أنه يدفع للاتحاد السوفيتى مبالغ طائلة وبالعملة الصعبة، كأجور للمستشارين العسكريين العاملين فى الجيش المصرى. ولما كان هذا بعيدا عن الواقع تماما فقد ألمحت فى أحد لقاءاتى به لحديثه الصحفى هذا، قائلا بمزاح:

- لقد ذهل المستشارين السوفيت لعدم حصولهم على العملة الصعبة حتى الآن.

امتعض السادات من هذا القول وأضاف.

- أنه مجرد كلام جرائد.

ومع اقراره بعدم صحة الواقعة فإنه لم يوافق على نفيها أوتكذيبها بصورة رسمية. أعلن "اسماعيل فهمى" - نائب وزير الخارجية الجديد- مراراً فى الصحافة، بأن الاتحاد السوفيتى حليف غير مخلص ولايركن اليه وأنه لن يذهب مع مصر "حتي النهاية" (أية نهاية؟!). وكثيرا ما عبر "مراد غالب" وزير الخارجية والسفير المصرى الأسبق فى موسكو - عن استيائه من مثل هذه التصريحات، بل أنه سعى لعزل "اسماعيل فهمى" عن منصبه، وفى وقت لاحق تم عزل "مراد غالب" نفسه وتعيين

"اسماعيل فهمى" بدلا منه وزيراً للخارجية.

فى يونية عام ١٩٧٢ جرى لقاء القمة السوفييتى الأمريكى بين "برجينيف" و"نيكسون" .

وفى أعقاب هذا اللقاء أصبح "السادات" فى حالة عصبية للغاية. فلم يكن يحبذ اطلاقا أن يحدث أى تقارب (أمريكى -سوفيتى) بشأن النزاع فى الشرق الأوسط، لأنه كان قد ربط مستقبله بالأمريكيين، وحدهم، وكان يرى أن هذا التقارب قد يفسد خططه التى يسعى لتنفيذها. ولاحساسنا بحالة التوتر التى عاشها "السادات" آنذاك، اقترحنا أن يحضر الى القاهرة أحد الرفاق الذين شاركوا فى محادثات القمة السوفيتية الأمريكية عن قرب، ليعلم القيادة المصرية بما دار فيها، فربما كانت قد أثارت بعض التساؤلات لدى المصريين.

وقد وضعت هذه الزيارة السادات فى موقف صعب للغاية.

كان البيان الختامى لقمة موسكو قد أغفل الاشارة الى جوهر التسوية فى الشرق الأوسط ومع ذلك وردت به عبارة مفادها ضرورة الحيلولة دون تدفق وتراكم الأسلحة فى منطقة الشرق الأوسط. وبسبب هذه العبارة أقام "السادات" الدنيا ولم يقعدها، مدللا بها على أن الاتحاد السوفيتى لا يلبى طلبات مصر من الأسلحة بينما تغرق الولايات المتحدة اسرائيل بكل جديد فى فنون الحرب.

ومن وقت لآخر كنت أتلقى اتصالات تليفونيه من مكتب رئيس الجمهورية تستعلم عن وجود أخبار من موسكو بشأن ما جرى فى القمة: ولما لم تكن قد وصلتنا بعد مثل هذه المعلومات كان ردنا: "نحن فى

الانتظار"، وعلمنا أن الرئيس "نيسكون" أرسل رسالة الى "السادات" بشأن خلاصة محادثات القمة السوفيتية - الأمريكية في موسكو، ألمحت الى أن هناك أمكانية للوصول إلى اتفاق مع الروس بشأن قضايا السياسة الدولية (وكأنهم يقولون له: أنظر أننا يمكننا التفاهم مع الروس). ولم تتضمن الرسالة كلمة واحدة عما كان يهم "السادات"، أى عن الشرق الأوسط. وهو ما كان يعنى أحدَ أمرين، أما أن الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة لايوليان هذه المسألة أية أهمية، وأما أنهما قد اتفقا فى الخفاء ولايريدا الحديث عن ذلك.

ويجب الاقرار هنا بأن الأمريكين لعبوا بذكاء ودقة على الجانب النفسى لدى "السادات"، وكان هذا فى غير مصلحتنا، ورغما عن ارادتى تذكرت هذه الفكاهة "عمود التليفون ماهو الا شجرة صنوبر مسواه جيدا".

ويمثل المشاعر غير الطيبة، استقبلنى "السادات" وبضجر واضح استمع لحديثى الذى شرحت فيه كيف طرحنا مسألة التسوية فى الشرق الأوسط مع "نيسكون"، مع بعض الاضافات المتعلقة ببعض المعلومات الهامة بالنسبة له. لكنه على مايبدو - كان مجروح المشاعر لتأخر وصول المعلومات من موسكو، وعدم ابداء الاهتمام الواجب بالأمر، وكان قد انتهى أخيراً الى مبرر يمكن الاستناد إليه لمخاطبة السوفييت بلهجه صارمة، ولهذا طلب منى دون حتى المقدمات الواجبة فى مثل هذه الحالات وهياج، أن أبلغ موسكو فوراً ودون أيه اضافات من عندى، رفضه واستغناءه عن الخبراء العسكريين السوفيت فى مصر.

ولم يتفوه بكلمة شكر واحدة.

ولم يتعرض بالشرح لأسباب هذا القرار الذى يمكن أن يؤدى الى عواقب سياسية ليست هينة.

واكتفى فقط بتوجيه انتقادات وملاحظات لاذعة وحادة بحق العسكريين السوفيت. وأثناء الحوار حاولت مرارا أن أجره الى الحديث عما هو جوهرى، لكنه لم يكن راغبا فى أى حوار جاد.

وأخيرا ذكرت له أن الخبراء السوفييت قدموا الى مصر لهدف واحد هو مساعدتها على البناء وتعزيز قدرتها العسكرية، وأنهم جاءوا بعد رجاءات متكررة من "عبد الناصر" ومنه هو فيما بعد. وأنهم لم يأتوا هنا من أجل ماذكرة "السادات" عنهم. ولهذا لن أبلغهم بهذ الكلمات الجارحة. ولما استمر هو من جديد فى التشهير بخبرائنا قلت له إذا كان هذا هو رأيه الأخير فسوف احترم رغبته وأبلغ موسكو بما حدث.

حكى لى "هيكل" - فى وقت لاحق - أنه بعد خروجى من عند "السادات" قام باستدعائه هو ورئيس الوزراء "عزيز صدقى"، ووزير الحربية "صادق" وأبلغهم بقراره المتقدم فصاح هيكل قائلا:

- لماذا فعلت هذا؟ هل تدرك أثار هذا بالنسبة للجيش؟ وبالنسبة للبلد؟

وقال "هيكل" أنه شعر بالخجل، لاقدام "السادات" على هذه الفعله اذ أن "عبد الناصر" -لمرات كثيرة فى وجود "السادات" شخصيا - طلب من القيادة السوفيتية ارسال الخبراء العسكريين لمساعدة قواتنا المسلحة،فاذا هو اليوم يتخلى بمفرده، عما ظل "عبدالناصر" يلح عليه.

وبالطبع لم نكن نعرف حينذاك ما كتبه "هيكل" فى كتابه "الطريق الى رمضان" عن الرسالة السرية التى أرسلها الرئيس الأمريكى

"نيسكون" الى "السادات" بعد قراره الاستغناء عن الخبراء السوفيت قائلا له:

- يمكنكم الآن أن تنعموا بالهدوء وتفعلوا ما يحلو لكم،

- ومع هذا لم ينسى "نيكسون" أن يذكره بأن واشنطن تقبض على مفتاح حل قضية الشرق الأوسط. وليس عبثا أن يكتب "كيسنجر" فى مذكراته حول قرار "السادات" بطرد الخبراء الروس قائلا:

- "لقد حصلنا منه على كل شيىء، دون أى مقابل، ولم نعطى له شيئا علي الأطلاق".

غادر الخبراء والتكنولوجيين السوفييت القاهرة. وقد ودعهم الضباط والجنود المصريون فى وحداتهم بالبكاء قائلين: أنهم يشعرون بالعار لقرار السادات هذا.

كانت قضية الصراع العربى- الاسرائيلى وبالأحرى استرجاع الأراضى العربية التى احتلتها اسرائيل بما فيها الأراضى المصرية - وضمان حقوق الشعب الفلسطينى، لب السياسة الخارجية والداخلية فى مصر. وشكلت مسألة اعادة الحقوق العربية واحدة من أهم العقائد السياسة فى الأوساط العربية. لذا قام "عبد الناصر" بتعزيز قدرة الاقتصاد المصرى واعادة بناء القوات المسلحة المصرية بمساعدة الاتحاد السوفيتى، وأتخذ العديد من الخطوات السياسية الضخمة المؤثرة على الساحة الدولية واكتسب أصدقاء كثيرون فى العالم أجمع.

ولم يكن من المتصور أن تكون مسألة ازالة أثار العدوان بعيدة عن المضاربة والمزايدة فى صراع "السادات" فى الداخل فى مواجهة خصومه. أما فيما يتعلق بالسياسة الخارجية، فقد أخذت هذه المزايدة شكل

محاولات الضغط إما على الاتحاد السوفيتي: لالقاء مسئولية تعقيد الوضع في المنطقة على عاتقه، ومن ثم التمادي في طلب المساعدات المميزة. أو الضغط على الأمريكان بالتلميح لهم، إلى استعداده إلى تغيير النهج السياسي لمصر وعرض نفسه كحليف لهم.

وفيما بعد فكرنا طويلاً في قرار "السادات" بالاستغناء عن خبراتنا.. وفي المبررات التي دفعته لاتخاذ هذه الخطوة التي أضعفت مصر سياسياً وعسكريا، إذ أن وجود العسكريين السوفييت، دعم قدرة الجيش المصري على الصمود إلى أن بلغ المستوى، المطلوب في الإعداد، كما حال دون غارات الاسرائليين الجويه على المراكز الحربية المصرية، وعلى المناطق المسكونة.

وقد قال لي السفير البريطاني في مصر، بصراحة أذهلتني، تعليقا على قرار "السادات" بشأن طرد العسكريين السوفييت.

– لقد كنا نسعى من قبل، إلى التوصل الى تسوية لازمة الشرق الأرسط، لأن مثل هذه التسوية ستكون السبب لاخراج العسكريين السوفييت من مصر.. والأن لم يعد لدينا حافز للاهتمام بتسوية المشكله.

وهكذا تخلى "السادات" عن ورقه ضغط قوية، كانت في يد العرب، تمهد السبيل أمامهم للتوصل الى تسوية عادلة للمشكلة.

ولابد أنه كانت لديه خطط معينة للتعامل مع الولايات المتحدة، وإلا أخذ يلمح إليها بتصرفاته وكأنه يقول: إنني على استعداد معكم.. وهو ما تجاوبت معه الولايات المتحدة، التي أسرعت بمحاولة الايحاء بأنها صانع السلام أو سمساره النزيه في الشرق الأوسط.

كان "السادات" - شأن "عبد الناصر" - يدرك جيدا أن تسوية النزاع في منطقة الشرق الأوسط بدون مشاركة مصر - أكبر دول المنطقة وأقدرها من حيث الامكانيات والتجهيزات المسلحة - أمرا غير ممكنا - وفي الوقت نفسه كانت العديد من الدول العربية مقتنعة بصعوبة التسوية السياسية السلمية لهذا النزاع، طالما تستند اسرائيل في مخططاتها العدوانية على الولايات المتحدة، التي تقدم للمحتلين معونات ومساعدات سخية. وهكذا لم يكن هناك أمل في استرجاع الأراضي العربية سوى الاعتماد على القوة، وكان هذا أمرا مشروعا. وفي المحصلة اتسعت أكثر فأكثر الممارسات العدوانية للمحتلين، لكن بدون قوه مصر كان من الصعب على الدول العربية الأخرى مواجهة اسرائيل بالقوة.

وهكذا، وبدون شك أدرك السادات أنه من السهل على أسرائيل أن تعيد لمصر أراضيها- سيناء - مقابل السلام. لكن من الصعب عليها الموافقة على حقوق الفلسطينيين واعادة الضفة الغربية لنهر الأردن والتخلي عن هضبة الجولان السورية، والانسحاب من الأراضي اللبنانية التي احتلتها مؤخرا. وعلى امتداد عمر الصراع العربي الاسرائيلي كان بمقدور مصر أن تسترد أراضيها المحتلة نظير الصلح المنفرد مع اسرائيل. لكن هذا كان يعني التفرط وخيانة المصالح العربية المشتركة والحقوق الفلسطينية على وجه الخصوص. كان "عبد الناصر" يرفض باستمرار مثل هذه "الامكانية" بل لعلها لم تدر بخلده على الاطلاق، بينما قرر خليفته استغلالها. كان المطلوب هو اكتشاف وسيلة تكفل ظهوراً أمريكيا منطقياً علي مسرح الشرق الأوسط، وكان العائق الرئيسي أمام تعزيز الروابط المصرية- الأمريكية، هو تنامي العلاقات المصرية- السوفيتية،

لذلك لم يدخر "السادات" وسعا للاساءة إلى هذه العلاقات وإضعافها، رغم أن هذا أدى الى إضعاف مصر ذاتها وإضعاف الجبهة العربية.

وعلى امتداد الفترة منذ وفاة "عبد الناصر" فى أواخر عام ١٩٧٠ وحتى أواخر عام ١٩٧٣، تعطى الأرقام التالية، دلاله على مدى وثوق العلاقات المصرية السوفيتية، رغم مسعى "السادات" لتوتير الجو، إذ زارت الاتحاد السوفيي، ثمانية وفود مصريه على مستوى عال، رأس "السادات" بنفسه ثلاثة منها، وزارت مصر سبعة وفود سوفيتية، على مستوى عال، بينما طرت أنا خلال تلك الفترة بين القاهرة وموسكو، اثنتا عشر مرة.

.... وبعد طرد الخبراء العسكريين السوفيت من مصر بهذا الشكل الذى يدل على التحدى كثيرا ما طرح على السؤال التالى.

- ألم يكن واضحاً منذ البداية النهج الملتو الذى سلكه السادات؟. ألم يلاحظ أحد عدم صراحته وإخلاصه؟.

بالطبع فأن كثيرا من "التفاصيل" الهامة بدأت تتكشف ولم تظهر بصورة متكاملة الا فى وقت متأخر. ومع هذا فإن تصوراتنا عن الخط الجديد للقيادة المصرية كانت صحيحة. لكننا لانبنى سياستنا اعتمادا على هذه الشخصية أو تلك، بل على أساس القضية الرئيسية التى نعمل لأجلها.. صحيح أننا نضع فى اعتباراتنا طباع الشخصية، لكن فى إطار القضية. وقد كان الخط الأساسى لنا فى نزاع الشرق الأوسط ولايزال متمثلا فى الوصول الى السلام العادل لكل دول المنطقة، وذلك بالانسحاب من جميع الأراضى العربية التى تحتلها اسرائيل، وضمان الحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى، بما فيها حقه فى انشاء دولته

المستقلة. وأيضا ضمان الوجود الآمن لكل شعوب المنطقة بما فيها الشعب الأسرائيلى.

* * *

كما ذكرت من قبل، أعلن السادات - فى بداية حكمه - "أن عام ١٩٧١ سيكون هو عام الحسم" ومع هذا لم يفسر لنا كيف ومتى وبأى الوسائل وعلى أية أسس سيكون هذا "الحسم". وفى وقت لاحق اضطرت الدوائر المقربة من "السادات" إلى اعادة شرح معنى "الحسم" باعتباره عام حسم القرار، وليس تنفيذه، وهو مجرد لعب بالالفاظ، وبعد انتهاء هذا العام بدأ الحديث عن عام ١٩٧٢، بنفس النغمة أى بوصفه - ايضا - بأنه "عام الحسم" وعندما انتهى دون حسم، - ألقى السادات باللوم على الاتحاد السوفيتى الذى ماطل فى تقديم ماوعد به مصر، وانشغل بتقديم المعونه العسكرية للهند فى حربها ضد باكستان.

وأخيرا جاء عام ٩١٧٣ ليشهد تطورا كبيرا فى علاقات "السادات" واتصالاته بالأمريكان فى الخفاء.

تمثلت الخطة الأمريكية في الضغط على مصر - أو بالأحرى على الرئيس المصرى لاقناعه بأن الأمريكين هم القادرون وحدهم على دفع عجلة التسوية في الشرق الأوسط أو بمعنى آخر التأثير على موقف اسرائيل، لكن هذا لن يتم مجانا وكان الثمن: تقليص - وفيما بعد القضاء الكامل - على "الوجود السوفيتى" فى منطقة الشرق الأوسط، وفى مصر بالدرجة الأولى، فاذا خرج السوفيت من مصر فسوف تُقْدم اسرائيل على السلام معها وطبقا تراه القاهرة من شروط. وبالقطع كانت

هذه الفكرة مجرد تضليل روج له السادات فى مصر.

وفى نهاية صيف عام ١٩٧٣ طار "حافظ اسماعيل" - مساعد الرئيس لشئون الأمن القومى الى واشنطن لمقابلة "كيسنجر" وللتمويه على هذا اللقاء زار "حافظ اسماعيل" كل من موسكو ولندن وعلى مايبدو أنهم قد أعدوا شيئا ما.

سبق هذه الرحلة- وبالتحديد قبل بداية مابو- أن قام "السادات" بتركيز جميع السلطات بين يديه فبجانب منصب الرئيس ذو الصلاحيات الواسعة، شغل أيضا منصب رئيس الوزراء، والقائد العام للقوات المسلحة المصرية، ورئيس الاتحاد الاشتراكى العربى، والرئيس الأسمى لاتحاد الجمهوريات العربية.

وعلى كل حال ظل المصريون محتفظين بروابطهم بنا ، وعلاقاتهم معنا ، وأن كانت بصورة غير فعالة، وبالقطع كانت علاقات ينقصها الصدق والاخلاص.

الفصل الخامس

أيام الحرب



وبعد عودتى من الاجازة فى ٢٢ سبتمبر قمت بزيارة "السادات" وأبلغونى هذه المرة بأنه سوف يستقبلنى فى استراحه برج العرب- الواقعة فى وسط الصحراء غرب مدينة الاسكندرية.

وهناك فى الساحة المحيطة بالاستراحة، كانت تقف مجموعة من السيارات وكما بدت أرقامها عرفت أنها من النوع الذى يخصص لتحركات كبار الزوار الاجانب والشخصيات الحكومية رفيعة المستوى، فيما بعد عرفنا أن "السادات" كان يستقبل فى ذلك الوقت "نلسون روكلفر" وبعض الأمريكيين الآخرين.

بعد أن دخلنا الاستراحة، رافقنا بعض رجال الحراسة إلى أحد الصالونات، وبعد أن مضى أكثر من ٢٠ دقيقة على الموعد المحدد للقاء، قلت لأحد أفراد الحراسة:

- إذا كان الرئيس مشغولا للغاية اليوم فليحدد لنا موعدا آخر.

وعلى أثر هذه المحادثة ذهب ضابط الحراسة الى مكان ما، ثم عاد ليقول لنا أن "السادات" شرع فى التفرغ للقائنا، وبالفعل لم تمر لحظات حتى خرج الأمريكيين من باب آخر حتى لانلتقى بهم.

كان واضحا أن "السادات" مازال تحت تأثير انطباعات اللقاء، ولفترة طويلة لم يستطيع التركيز وجمع أفكاره، وأخيرا بدأ في التقاط كلماته قائلا:

- إن الوضع فيما يتعلق بالتسوية في الشرق الأوسط لم يعد يطاق، ماذا يحدث لو انفجر الموقف؟ ومن يستطيع أن يستعبد احتمالا مثل هذا؟

ربما كان "السادات" قد قرر بدء العمليات العسكرية- وتلك هي الوسيلة الأخيرة في السياسة، لكن نتائجها وفي الغالبية العظمى من الحالات، لايمكن تخمينها، فكل طرف واثق في أن النصر سيكون حليفه، وعلى كل حال فإن المنتصر لن يكون سوى واحد من الطرفين بينما تحيق الهزيمة بالطرف الآخر وغالبا مايكون البادىء بالحرب.

وفي الثالث من أكتوبر كنت في زيارة للسادات في منزله الخاص بالقرب من سفارتنا بالقاهرة وفي هذا اللقاء، تحدث معي عن الاستفزازات الاسرائيلية المتواصلة وأشار إلى أن هناك احتمالا بالرد العسكري المصري عليها، وبعدها - على حد تعبيره "يكون مايكون"، وردا على سؤال مي عما إذا كان هناك خطط معده، لذلك، وعن التوقيت المحتمل أن يبدأ فيه الرد العسكري على هذه الاستفزازات، أجاب "السادات" بأنه عند الضرورة سيبلغنا عن كل شيىء وفي "الوقت المناسب" ومرة ثانية لم يقل شيئا محددا لكنه طلب مني ألا أغادر القاهرة، وأن أتواجد حيث يمكن الوصول إلى تليفونيا.

وفي اليوم التالي أبلغته بقرار موسكو بترحيل أسر العاملين السوفيت من مصر وطلبت المساعدة في ذلك، فوافق.

وفى وقت قياسى قصير رحلنا مايقرب من ٢٧٠٠ من المواطنين السوفيت مابين طفل وامرأة الى موسكو، فضلاً عن ما يقرب من ألف من أبناء وزوجات العاملين فى السفارة السوفيتية، ومن البلدان الاشتراكية الأخرى. تم تسفيرهم الى الاسكندرية حيث غادروها على متن السفن السوفيتية، أو خلال الليل على رحلات جوية خاصة من مطار القاهرة.

وكان قد تم تشكيل فريق للاخلاء فى السفارة بحيث لايثير انتباه أحد.

ولم نعد نركن الى النوم أكثر من ساعتين أو ثلاثة فى اليوم. أننى لن أنسى مطلقا ماقام به في هذه الأثناء كل من المستشار الاقتصادى "لوباتين" والممثل التجارى "لوباتشيف" والمستشار "أكوبوف" والسكرتير الأول "يودين".

فى السادس من أكتوبر دعانى "السادات" إلى قصر الطاهرة وأخبرنى بأن الموقف فى تطور مستمر، وأن الاسرائيليين يبالغون فى استفزازاتهم، ويمكن أن نتوقع حدث ما "بعد أربع ساعات. وأعرب عن رغبته فى أن يكون السفير السوفيتى بالقرب منه فى هذا الوقت بالذات. وأضاف بعد فترة صمت .

- لكن هذا أمر غير ممكن اذ يجب عليك أن تكون فى السفارة و أن تكون على اتصال دائم بموسكو.

ورغم أن "السادات" راوغ فى تقديم معلومات محددة، ولم يجب على أى سؤال، الا أنه كان من الواضح أن العمليات العسكرية كانت قد بدأت بالفعل، وأدركت أن هذا هو شكل ابلاغنا بما يجرى، وأن هذا هو "الوقت المناسب" الذى اختاره السادات للابلاغ.. فما جدواه، والعمليات

العسكرية قد بدأت بالفعل، فأين هى وعوده بالتشاور معنا؟

من ناحيتى عدت بسرعة إلى السفارة حيث انتصف النهار، وبعد أن فرغت من ابلاغ موسكو بما ابلغنى به السادات. تناولت بعض الطعام، استعداداً لما سيواجهنى.. وفى الساعة الثانية بعد الظهر تقريبا رن جرس التليفون العادى، طلبت من السكرتيرة "فافى جوليزاد" أن ترد على الطالب. لكن أتضح أنه "السادات". تشككت فى الأمر فكيف بالرئيس يتصل بالتليفون العادى؟. وتناولت سماعة التليفون واذ بى أسمع صوت "السادات" مبتهجاً:

– سيادة السفير.. أننا الآن على الضفة الشرقية للقناه، وقد ارتفعت عالياً فى سمائها الاعلام المصرية.. لقد عبرنا القناة.

وهكذا بدأت حرب أكتوبر التى تركت تأثيراً كبيراً على مجريات الوضع فى الشرق الأوسط.. ولا تتسع هذه الذكريات، للإفاضة فى الحديث عن حرب أكتوبر ١٩٧٣، التى تستحق وضعاً منفرداً وتحليلاً منفصلاً. لذلك سأكتفى بذكر الأمور المهمة، التى توضح حقيقة الأحداث التى جرت اثناءها.. أو توضح الحقائق التى شوهت فيما بعد على يد "السادات" والأمريكيين..

تواصلت لقاءاتنا – أنا و"السادات"– خلال شهرى أكتوبر ونوفمبر حيث كنا نلتقى أكثر من مرة كل أسبوع، كما تحادثنا طويلا عبر التليفون. وبأمر من "السادات" تم تركيب تليفون خاص مغلق بيننا من نوع "بى. بى. أكس" كما تواصل الاتصال بينى وبين موسكو عبر خطوط الهاتف والراديو. وقمنا باخفاء الأنوار عن طريق طلاء الزجاج بلون قاتم

حتى لايصبح مبنى السفارة عرضه للقصف بالقنابل، كما تم تخزين احتياط كاف من المواد الغذائية والمياه ومصادر احتياطية من الطاقة والضوء والشموع والكبريت والمهمات الطبية والاسعافية والأدوية، وبمساعدة من تبقى من النساء نظمنا حياة جماعية كاملة فى مبنى السفارة. وباختصار يمكن القول أننا لزمنا أماكننا طوال هذه الفترة ولم نكن نخلد الى النوم الا ساعات قليلة.

في الأيام الأولى للحرب، جرت المعارك بنجاح لصالح المصريين، ففى خلال عدة ساعات تمكنوا من عبور قناة السويس على طول امتدادها وتمركزت قواتهم فى الضفة الشرقية منها. وكانت الخطة تقوم على أساس أن تتم هذه الخطوة فى يوم كامل وأن تصل خسائر اقتحام خط بارليف إلى ٣٣٪ منالقوات المسلحة التى شاركت بصورة مباشرة فى عملية اللاقتحام، لكن الخسائر تراوحت بين ١٠-١٥٪. ولم ينجح الهجوم المضاد التي شنته القوات الاسرائيلية ردا على العملية المصرية الجريئة. وبدا أن قدرتهم على المقاومة ليست كبيرة، وشكلت الصواريخ المضادة للطائرات التى نصبها المصريون حاجزا منيعا تهاوت عليه طلعات الطيران الاسرائيلى. وعلى الأرض أظهرت الصواريخ المضادة للدبابات التى كانت ببحوزة المصريين كفاءة عالية ودقة متناهية في اصابة الهدف ولهذا خسرت اسرائيل أعداداً هائلة من الدبابات. كما أثبتت الأسلحة والمعدات الأتوماتيكية الخفيفة والمعدات ذات الحركة الذاتية التى كانت بأيدى القوات المسلحة المصرية كفاءتها فى ظروف حرب تجرى فى الصحراء المكشوفة.

كان "السادات" فى هذه اللحظات منتشياً ومبهوراً بالأداء الجيد

للسلاح وفى جميع لقاءاتنا وجه عبارات شكر وامتنان حارة للاتحاد السوفيتي. وذات مرة قال:

- سيأتي الوقت وأتحدث باستفاضة عن المساعدة العظيمة التي قدمها لنا الأخوة السوفيت.

ولم يكن هذا النجاح يتعلق فقط بالمستوى التكتيكى للاسلحة السوفيتية التى أثبتت تفوقها على ماكان بيد الاسرائيليين من أسلحة أمريكية، بل كان يتعلق أيضا بالدور الهام الذى لعبه المستشارون لعسكريون والمتخصصون السوفيت فى رفع مستوى الكفاءة لدى الجنود والضباط المصريين، والنهوض به من نقطة الصفر بعد خسائره الفادحة فى حرب ١٩٦٧، وهو التدريب الذى تم تحت شعار "التدريب الشاق يجعل المعركة سهلة".

وهكذا بدأ المصريون الحرب بنجاح منقطع النظير، لكن حدث شيىء ما أربك صفوفهم. وهنا تثار الأسئلة التالية:

لماذا لم تلاحظ المخابرات وأجهزة الاستطلاع الاسرائيلية ذات الكفاءة العالية -ولانقول هنا المخابرات الأمريكية وأجهزة استطلاعاتها المتطورة- تمركز القوات المسلحة المصرية بالقرب من قناة السويس؟

** هل كانت العمليات العسكرية التى شنتها القوات المسلحة المصرية والسورية مفاجئة تماما للاسرائيليين؟

** لماذا كانت القوات الأساسية الأسرائيلية متمركزة ناحية الشمال- بالقرب من الحدود السورية - برغم أن القوة الرئيسية العربية - أى القوات المسلحة المصرية - كانت ترابط ناحية الجنوب؟

** لماذا لم يوافق السادات على طلب "الملك حسين" بالمشاركة فى الحرب، رغم أنه كان بامكان القوات المسلحة الأردنية أن تقطع الطريق أمام الاسرائيليين وقواتهم المتجهة من الشمال - من الجبهة السورية- الى الجنوب- الى الجبهة المصرية؟

** لماذا لم تبد القوات الاسرائيلية المرابطة شرق القناة مقاومة فعالة فى مواجهة الهجوم المصرى بل صدرت لها الأوامر بالانسحاب حسبما يقدر القادة المحليين؟

** كيف يمكن تفسير مانشرته وكالة أنباء الشرق الأوسط المصرية فى الثانى من أكتوبر- أى قبل المعركة بأقل من أربعة أيام - عن حالة التأهب القصوى فى الجيشين الثانى والثالث المصريين؟. وهل يعقل أن أجهزة الاستطلاع الاسرائيلية لم تعر هذا الأمر اهتماما. وأنها لم ترقب أيضا عملية ترحيل النساء والأطفال الأجانب من مصر بأعداد كبيرة؟

حتى وقتنا هذا، هناك العديد من الأسئلة التى تبحث عن اجابات فيما يتعلق "بحرب أكتوبر" ١٩٧٣ وليس خاليا من المعنى، إن كثيرين من الباحثين قد طرحوا سؤالاً يقول:

** ألم يكن قد تم التخطيط" مسبقا لحجم وبُعد العمليات العسكرية بين الطرفين؟ إذا كان الجواب بالايجاب فإن النتائج السياسية النهائية التى انتهت بها الحرب، وماحدث فى السنوات التالية لها - احباط مؤتمر جنيف الدولى الخاص بالشرق الأوسط واستبداله بكامب ديفيد الخ. - تصبح كلها أكثر يسراً على الفهم.

.... فى الوقت ذاته أيضا شنت القوات السورية هجومها الناجح واستردت مرتفعات الجولان من المحتلين. بينما كانت القوات المصرية

تتقدم عبر سيناء. لكن حدث أن توقفت فجأة. ومن هنا تمكن الاسرائيليون من حشد قواتهم مرة أخرى على الجبهة السورية، وأعادوا مرة أخرى احتلال "هضبة الجولان"، وبعد تحريرها بفترة وجيزة. وتقدموا باتجاه دمشق. وشنوا الغارات الجوية المركزة على الكثير من المدن والموانى السورية. وهكذا أوقف الجيش المصرى عملياته القتالية رغم أنه بات واضحا أن جوهر المناورة الاستراتيجية الاسرائيلية هو تقسيم الخصم الى جزئين، بالأنفراد بسوريا أولاً، ثم الأنفراد بمصر ثانيا.. وكان منطقيا من الناحية العسكرية أن يواصل المصريون التقدم، اذ كان من الصعب جدا على اسرائيل أن تعيد الامساك بزمام المبادرة، لوجرت الحرب بصورة فعلية على الجبهتين المصرية والسورية.

وردا على سؤالى عن الخطط العامة للعمليات الحربية أجاب "السادات" بكدر:"

- اننا لاننوى البتة الجرى عبر سيناء. أن هدفنا الرئيسى ليس استرجاع الأرض وإنما أيضا إلحاق أكبر خسارة عسكرية ممكنة بين القوات الاسرائيلية ولهذا فأننا ننتظر قدوم الجزء الرئيسى منها فننقض عليه ونحطمه.

أنه بالقطع منطق عسكرى غريب، بعد أن أوشك المصريون على الاقتراب من ممرى "الجدى" و"متلا" وأصبح الطريق مفتوحا وممهدا إليها. ومن المعروف عسكريا أن من يضع يديه على هذين الممرين يضع يديه على سيناء بالكامل.

وفى التاسع والعاشر من أكتوبر بدأت القوات السورية فى التراجع ولم تحرك القوات المصرية ساكنا، فهكذا كانت السياسة، ورسخ فى

الأذهان انطباع بأنها قد "نفذت" ماكلفت به فعلا وتوقفت، اذ لم تكن هناك خطط عسكرية لأبعد من ذلك، وفى المقابل كانت الخطط السياسية لما هو بعد ذلك معدة وجاهزة.

منذ الأيام الأولى للعمليات العسكرية، صاحبتها أنشطه عاصفه فى هيئة الأمم المتحدة، وفى عواصم الغالبية العظمى من بلدان العالم. كان الوفد الأمريكى فى مجلس ألأمن الدولى قد أعد مشروعا لقرار يقضى بالوقف الفورى لاطلاق النار، وعودة الجيوش المتحاربة إلى مواقع السادس من أكتوبر. وكان واضحا أن الأمريكان أنفسهم يدركون عدم واقعية مثل هذا القرار لأن تنفيذ العرب له يعنى موافقتهم على استمرار احتلال اسرائيل لأراضيهم. ذلك أن جيوشهم لم تكن قد فعلت سوى تحرير جزء من أراضيهم المحتلة، ولم تتقدم لاحتلال أراضى الغير. ولهذا كان من المنطقى أن يرفض هذا المشروع. وكما اتضح فيما بعد - وطبقا لاعترافات "كيسنجر" في مذكراته حول هذه المسألة - فان الجانب الأمريكى كان يسعى من وراء طرحه لهذا القرار أن يكسب الوقت فقط لصالح اسرائيل حتى يتمكن من إمدادها بالمعدات العسكرية، ويعطيها الوقت اللازم لها لكى تتمكن من تحسين موقفها العسكرى. وفى هيئة الأمم الممتحة نوقش مشروع قرار بضرورة وقف اطلاق النار وبقاء الجيوش المتحاربة فى مواقعها الحالية - لحظة صدور القرار - على أن تلتزم الاطراف بتنفيذ جميع قرارات الأمم المتحدة السابقة والخاصة بضرورة انسحاب اسرائيل من الأراضى العربية المحتلة. وكان صدور مثل هذا القرار - فى هذه اللحظة التى استطعت فيها سوريا أن تستعيد جميع أراضيها المحتلة وبعد أن تقدمت القوات المصرية مايزيد عن ١٢-١٥

كيلومتر داخل سيناء، هو فى مصلحة العرب بل إن وقف العمليات العسكرية فى هذه المواقع، وبهذا الشرط، كان من شأنه أن يوفر فرصاً جديدة لتسوية مجمل النزاع العربى الاسرائيلى، وفق مبادىء عادلة.

وقد جوبه هذا الاقتراح بمعارضة نشطة من الولايات المتحدة، ومصر، ولفت تطابق الموقفين النظر لغرابته. إذ لو كانت القوات المصرية تواصل التقدم فى سيناء، لكان موقف مصر في هيئة الأمم مفهوماً، أما موقف الولايات المتحدة فى معارضة أى قرار بوقف اطلاق النار فى المواقع الراهنة، فقد كان له مبرراته المفهومه، إذ كانت تواصل إمدادتها العسكرية لاسرائيل بنشاط، كانت تنتظر هجوما اسرائيليا مضاداً واسع النطاق يحسن وضع حليفتها.

فلماذا لم توافق مصر على هذا المشروع؟!!

فى أحادثى المتكررة آنذاك مع "السادات"، كان يخصص وقتاً طويلاً لمناقشة قرار مجلس الأمن الذى يكون أكثر ملاءمة لكل من مصر وسوريا.. وقد تردد السادات طويلاً، وظل يماطل وينتظر، وهناك سكون على الجبهة المصرية، بينما وجهت اسرائيل آلتها العسكرية كلها ضد سوريا.. والسادات يرد بعصبية: .

- إذا كانت سورية عاجزة عن الهجوم، فلتأخذ موقف الدفاع، أو تشن حرباً شعبيه، فلديها أرض واسعه..

وبدا وأن الوضع علي الجبهة السورية لايهمة بقليل أو بكثير.. وظل ينتظر، حتى بعد أن شرع الاسرائيليين فى قصف المعابر المصرية على القناة..



الفصل السادس

الثغرة .. فى التسوية



في السادس عشر من أكتوبر وردت أخبار غير متوقعة، إذ عبرت خمس أو ست دبابات اسرائيلية الي الضفة الغربية لقناة السويس. وقبل هذا اليوم بأسبوع كامل وعندما، اتضحت معالم، خط الجبهة الشرقية- لفتنا نظر القيادات المصرية بوجود فاصل ضعيف. (من حيث الاستحكامات العسكرية) بين قطاعات الجيش، وأنه فاصل مفتوح أمام أية هجمات اسرائيلية يمكنهم من خلاله أحداث ثغرة. وفى تلك الأثناء لم يكن هناك وجود للخبراء العسكريين السوفيت داخل القوات المسلحة المصرية، وردا على تساؤلنا عن هذا الفاصل أجاب المسئولون العسكريون المصريون بصورة مقتضبة "أنه من متطلبات تنظيم القتال". وهكذا تسللت الدبابات الاسرائيلية فى جنح الظلام، وعبرت الى الشاطىء الغربى للقناة وبالتحديد من خلال هذا الفاصل. وفى أعقاب هذا شرح لنا "السادات" الموقف قائلا:

- إن هذه الدبابات ماهى إلا "مجموعة" تخريبية انتحارية وأنه سيتم القضاء عليها لامحالة، فهى مجرد مناورة سياسيةوحركة تليفزيونية يقوم بها الاسرائيليون.

وفى مساء السادس عشر من أكتوبر طار "كوسيجين" إلى القاهرة للتشاور مع "السادات". وبينما كنا في انتظاره فى مطار القاهرة سألت مساعد الرئيس لشئون الأمن القومى السيد "حافظ اسماعيل" عن الدبابات الاسرائيلية التى تسللت غرب القناة فأجاب بأنها "شيء سيء" ومع هذا يتعامل معها العسكريون وأنه لاداعى للقلق.

وكما اتضح فيما بعد وفى حقيقة الأمر لم يفعل العسكريون شيئا اذ لم تصدر أوامر من أعلى بالقضاء على الثغرة.

وهكذا بدأ الموقف على كلا الجبهتين يميل لغير صالح العرب وأصبح المصريون- حتى وأن أرادوا - لا يستطيعون تقديم أية مساعدة للسوريين تمكنهم من صدّ هجوم الاسرائيليين ومنع تقدمهم تجاه دمشق بعد أن أصبحوا علي مقربة منها، وكان منعهم من مواصله الهجوم،امراً صعباً.

كانت زيارة كوسيجين لمصر- هذه المرة- سرا، لكن السلطات المصرية تعمدت أن تكتب على التأشيرات التى منحتها لنا لدخول المطار الدولى الذى كانت تسيطر عليه القوات الجوية- عبارة "بمناسبة زيارة رئيس وزراء الاتحاد السوفيتى لمصرا" ووضعوا فى مقدمة السيارة المخصصة له العلم المصرى والعلم السوفيتى، كما رافقتها الدراجات النارية.

فى الطريق من المطار شاهد "كوسيجين" القاهرة أيام الحرب، ولاحظ التغطية غير الجيدة للنوافذ ومصادر الاضاءة ومجموعة من الشباب المتسكع التى ربما لاتعلم شيئا- حسب تصوارتى- عن الأوضاع المرتبطة بالحرب. كانت الحرب بالنسبة لجماعات ليست قليلة من المصريين تجرى فى مكان ماهناك بعيدا بالقرب من القناة ويقوم بها العسكريون، لكن قليلين هم الذين يعرفون شيئا عن أهدافها، ولم تكن أسماء أبطال الحرب

تذاع، بل وتم التكتم حتى على أسماء الشهداء (رغم أن عددهم كان كثيرا). ولم يكن هناك تنويه فى الأذاعة والتليفزيون عن موقف الاتحاد السوفيتى. وابلغنى "السادات" أن كل هذا لايذاع عن قصد قائلا:

- أنه من دواعى الأمن.

تحادث "السادات" و"كوسيجين" على انفراد، وفى حضور السفير السوفيتى ومساعد الرئيس للأمن القومى، وتبادلا الأراء. عبر السادات "ظاهريا" - عن مشاعر الود والصداقة للضيف السوفيتى، لكنه أصر بعناد على نفى حدوث أى تغيرات سلبية فى ساحة المعارك، كما طلب بعض "الضمانات المرتبطة بحالة استمرار العمليات الحربية الاسرائيلية ونزول قوات اسرائيلية على الضفة الغربية لقناة السويس". ومرة أخرى وصف "الثغرة" بأنها غير ذات موضوع، وأنها مجرد "مناورة سياسية".

وبعد مناقشات مستفيضة وطويلة هدفها استيضاح الموقف السياسى لمصر، أعلن "السادات" أنه ربما يوافق على وقف اطلاق النار اذا قبلت اسرائيل تنفيذ قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ الصادر فى ٢٣ نوفمبر عام ١٩٦٧ والقاضى بانسحاب القوات الاسرائيلية من الأراضى العربية المحتلة. واقترح "السادات"- من قبيل الضمان- تشكيل قوة انتشار مشتركة من القوات السوفيتية والأمريكية للفصل بين المتحاربين، إلى أن يتم الانسحاب الاسرائيلى. وأن يعقد مؤتمر دولى لتسوية مشكله الشرق الأوسط.

بعد مغادرة كوسيجين القاهرة، توالت الأخبار المزعجة من الجبهة اذ تزايد عدد الدبابات الاسرائيلية التى عبرت القناة- وتمركزت فى الضفة الغربية منها- إلى مابين ٣٠٠ و ٤٠٠ دبابة، ثم ارتفع العدد الى مايزيد عن

. ١٥ دبابة، واستولوا على مطار عسكرى ميدانى ونشروا بنجاح رؤوس جسورهم وخاصة الى الجنوب ودمروا واحدة من أهم نقاط شبكة الدفاع الجوى التى تربط بين الدفاع عن القاهرة والجيش المرابط على الضفة الشرقية للقناة، ولم يواجهوا خلال عملياتهم هذه بمقاومة تذكر.

وفى مقابلتى مع "السادات" التى جرت يومى ١٩ و٢٠ من أكتوبر سألته كثيراً وبإلحاح عن طبيعة وحجم "الثغرة"، لكنه فى كل مرة يرد بجواب واحد: أنها لاتساوى شيئا. ومع ذلك كان الاسرائيليون قد بدأوا فى بناء جسر ترابى عبر القناة، ومن خلاله- ودون أية عوائق أو مقاومة ما- دفعوا بأعداد جديدة من قواتهم المسلحة وتشهد الصور الجوية التى التقطت خلال هذه العملية بهذه الواقعة. كان سؤالى الدائم: كيف يفكر الرئيس؟ وماذا ينوى أن يتخذ من اجراءات لمنع تدهور الموقف؟ لكن "السادات" تملص من ابداء رأى واضح فى هذه المسألة قائلا مرة أخرى:

- أن الثغرة التى فتحها الاسرائيليون لاتعنى شيئا من وجه النظر العسكرية، إن مغزاها سياسى فقط ولامبرر لقلق أصدقائنا السوفييت، فالقيادة العسكرية المصرية، تتخذ اللازم!

وبمتابعة إجابات "السادات" الغامضة، أخذت تتضح لنا أكثر فأكثر، أن لديه نوايا لايريد البوح بها، وكان تناقض مواقفه الغامضة، مع المنطق الطبيعى، فى المسائل العسكرية، والسياسية، مؤشر على أنه لايرغب فى التمسك بالمواقف السياسية المصرية المعلنه، وكان ذلك يوحى بأن هناك تغييراً كبيراً فى السياسة المصرية، طالما أن الرئيس قد ضحى فى سبيل أحداثه بحياة ألوف الجنود والضباط المصريين.

... فى الساعة الواحدة و٤٥ دقيقة من ليلة الحادى والعشرين من

أكتوبر انتشلني من غفوتي رنين جرس التليفون. وكان "السادات" هو المتحدث. طلب مني على الفور التوجه اليه في قصر الطاهرة.

وفي شوارع القاهرة المظلمة صادفتنا طوابير من السيارات العسكرية، بينما مرقت، تحت ضوء القمر، سيارات الاسعاف التي تحمل جرحى الجبهة.

وعندما وصلت إلى القصر الغارق في الظلام، اصطحبني بعض الحراس ليس الى أحد قاعات الاستقبال كما هي العادة، لكن إلى إحدى شرفات الطابق الأول. ولم تكن هناك أضاءة على الإطلاق بينما تساقط ضوء القمر على الأجزاء التي لاتحجبها الأشجار. هناك وجدت "السادات" جالساً وراء منضدة صغيرة بالقرب من السلالم المرمرية. وبجواره وزير الانتاج السيد "عبد الفتاح عبد الله" ممسكا بدفتر، وجاهزا لتسجيل المحادثات، كما كان أيضا بجواره مساعدة لشئون الأمن القومي السيد "حافظ اسماعيل" الذي كان يدخن بعصبية.

لم يكن "السادات" يهتم بالشكل أبدا، إذ جلس ببدلته العسكرية وقد فتح جاكتتها، وكانت ملامح وجهه تنم عن هدوء تام وثقة. وبدأ حديثه معي بالانجليزية قائلا.

- وفي منتصف هذه الليلة دعاني العسكريون إلى القيادة، وشرحوا لي الموقف وعلى الفور دعوتك إلى هذا اللقاء.

توقف "السادات" للحظة ثم أكمل حديثه قائلا:

- انني أستطيع أن أحارب الاسرائيليين، وألحق الهزيمة بهم، لكن ليس بمقدوري أن ألحق الهزيمة بالولايات المتحدة الأمريكية".

وكما كان يحدث باستمرار عندما يتكلم "السادات" بالانجليزية، بدأ

الحديث ببعض الكلمات والتعبيرات السهلة والمفهومة، وبعدها بدأ يتحدث بشكل عاطفى، قال هذه المرة.

- لا يمكننى التغلب على هذا التيار الجارف من الدبابات والطائرات التى تمد بها الولايات المتحدة اسرائيل عبر جسرها الجوى والبحري. فكم دمرنا منها ومع ذلك فهى سيل لا ينقطع، ففى الأمس فقط دمرنا ما يزيد عن ٢٠٠ دبابة، لكن وفى الحال ظهر بدلا منهم وأكثر. أننى لن أستطيع اطلاقا مواجهة الولايات المتحدة الأمريكية"

وبعد لحظات من التوقف سحب فيها أنفاسا من غليونه استطرد "السادات" قائلا:

- لهذا أرجوكم أن تبلغوا موسكو بأقصى سرعة طلبى بضرورة العمل على وقف اطلاق النار فورا، فأنتم لديكم اتصالات بالولايات المتحدة الأمريكية، ومرة أخرى أرجوكم العمل بأقصى سرعة "ممكنة".

يا لها من نهاية مباغتة. تحدثت قائلا:

- فهمت ما طلبتموه، لكننى أود أن أكرر الاستفهام لأتلقى تأكيدا، فهل طلبتم العمل بأقصى سرعة ممكنة لوقف اطلاق انار مع بقاء القوات المتحاربة فى مواقعها الحالية".

أومأ "السادات" بالإيجاب، لكننى أردت أيضا أن أدقق المسألة، فتوجهت له بالسؤال التالى

- لكن كيف يمكن معالجة مسألة القوات الاسرائيلية التى تسللت - عبر الثغرة - إلى غرب القناة، هل ستبقى هى الأخرى فى مواقعها هناك؟.

أجاب السادات:

- رغم أنه يمكن اعتبارها "متسللة"، إلا أنه لم يعد هناك خيار آخر.

خرجت من قصر "الطاهرة"، وتوجهت مباشرة وعلى وجه السرعة إلى السفارة السوفيتية لإبلاغ موسكو بطلب "السادات". وبعد ساعتين عدت مرة أخرى إلى قصر "الطاهرة" لمزيد من الاستفسار عن موقف مصر النهائي وبعض التفصيلات الأخرى، فإذا بي أجد أن "السادات" قد راح في نوم عميق. وبعد الحاح شديد مني استجابوا - على مضض - لطلبي وأيقظوه من النوم. استقبلني "السادات: - هذه المرة - في غرفة مجاورة لغرفة نومه وقد جاء إليّ بالروب ويبدو إنه تناوله على عجل فوق بيجامة نومه. وألقى بجسده على المقعد. وكانت ملامح وجهه متوردة وعيناه صافيتان لم تفارقه الإبتسامة. ولم يكن على ملامحه ما يشي بإدراكه بالأحداث المأساوية، أو بالساعات الخطيرة التي نمر بها الآن، أو بإحساسه بأن هناك من يواجهون الموت في هذه اللحظة. وباختصار كان شكله يوحي وكأن الحرب قد انتهت بالنسبة له.

بعد مفاوضات أمريكية سوفيتية شاقة، حاول الامريكان اطالتها لاتاحة مزيد من الوقت أمام القوات الاسرائيلية للتوغل في أعماق الأراضي المصرية لكي تصبح مصر في موقف أكثر ضعفا وتعقيدا - اتخذ مجلس الأمن الدولي يوم الثاني والعشرين من أكتوبر قراره رقم ٣٣٨ القاضي بوقف النار في خلال مدة لا تتجاوز ١٢ ساعة. وكان "كيسنجر" قد اقترح أن تكون هذه المدة ٤٨ ساعة وأمام الرفض الشديد - من الجانب السوفيتي - عدلها إلى ٢٤ ساعة، وأمام اصرارنا على موقفنا قبل الجانب الأمريكي أخيرا اقتراحنا بأن تكون ١٢ ساعة فقط).

ولم تنقطع الاتصالات بيننا وبين السادات طوال فترة هذه المفاوضات

وجرت الاتصالات بصورة فعالة ومنتظمة، وقد أبدى "السادات" موافقته التامة على نتائجها.

أننى أجد نفسى مضطرا لكتابة كل هذه التفاصيل، إذ أنه فى وقت لاحق بدأ "السادات" وبعض المقربين إليه ينشرون افتراءاتهم على الاتحاد السوفيتى وموقفه من حرب أكتوبر. وبدأوا يرددون أن "الاتحاد السوفيتى" لم يقدم لمصر المساعدة المطلوبة فى هذه الحرب. ومارس عليها ضغوطه لقبول وقف اطلاق النار بهدف حرمانها من "الانتصار" الذى كان مضمونا إثر عملياتها العسكرية الناجحة.

مرة أخرى أكرر أن مثل هذا الكلام هو تلفيق وأكاذيب لا أساس لها من الصحة.

فقد ساندنا مصر، رغم أن "السادات" لم يتشاور معنا فى مسألة العمليات الحربية التى بدأها فى أكتوبر، ولم نُحط علما حتى بموعد بدايتها. ومع هذا وقف الاتحاد السوفيتى بجوار مصر وأيد موقفها العادل وحقها فى تحرير أراضيها المحتلة. كما قدم لها المساعدات العاجلة والمتنوعة (ويذكر القاهريون جيدا طائرات النقل السوفيتية التى كانت تحلق فى سماء القاهرة بمعدل كل نصف ساعة رغم اغلاق مطار القاهرة)

ومع ذلك فقد ادعى "السادات" فى وقت لاحق بأنه لم يحصل على شيئ طوال فترة الحرب من موسكو سوى حقيبة واحدة من قطع الغيار.

إنه على العكس تماما، كانت مشاوراتنا مع الرئيس مستمرة فيما يتعلق بالقضايا السياسية ذات الصلة المباشرة بالنزاع، وعندما طلب منا العمل على وقف اطلاق النار بذلنا كل ما فى وسعنا لتحقيق هذا الطلب، مسخرين كل امكاناتنا ومكانتنا الدولية.

والآن فلنعد إلى القرار ٣٣٨ الداعى لوقف اطلاق النار.

رفضت اسرائيل - طبقا لنصائح الأمريكان - قبوله والتعامل معه. واستمرت فى التقدم عبر الضفة الغربية للقناة. وحاصرت وعزلت الجيش الثالث المصرى - الذى يزيد تعداده عن الأربعين ألفا - فى الضفة الشرقية. وازداد الموقف بشقيه العسكرى والسياسى تعقيدا وألقت اسرائيل القرار أدراج الرياح.

كان اتفاقنا فى الأيام التى تلت يوم الثانى والعشرين أن تستمر الاتصالات التليفونية بينى وبين "السادات" وأيضا عبر المراسلات العاجلة.

لكن فى اليوم التالى مباشرة - أى فى الثالث والعشرين من أكتوبر - توجه لى "السادات" مرتين (عبر التليفون) بطلب رسمى لتدخل القوات المسلحة السوفيتية فى القتال حتى تجبر اسرائيل على قبول قرار وقف اطلاق النار.

وأدت المفاوضات التى جرت بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى - آنذاك - إلى صدور قرار آخر عن مجلس الأمن الدولى تحت رقم ٣٣٩ يطالب بالوقف الفورى لاطلاق النار والعودة إلى خطوط يوم ٢٢ أكتوبر.

ومرة أخرى رفضت اسرائيل القرار الجديد. ودفعت بجزء كبير من قواتها إلى حدود مدينة السويس. واتصل بى "السادات" فى هذا اليوم أيضا قائلا:

- أننى مرة أخرى أتوجه بطلب رسمى بضرورة ارسال قوات سوفيتية أو مراقبين سوفيت على أن يصلوا مساء هذا اليوم.

كما توجه بنفس النداء إلى "نيكسون". وأذاع راديو القاهرة كلا

النداثيين الموجهين لكل من الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية".

وكما عرف في وقت لاحق - مما كتب بهذا الصدد - فإن الأمريكيين كثيرا ما تملصوا من إعطاء إجابات محددة واضحة تساهم فى إنجاح المحادثات الجارية بينهم وبين موسكو. ويوما بيوم كان "السادات" يبدى أكثر فأكثر تعجله لصدور القرار وأخذ يعدد أكاذيبهم وخداعهم. كانت كلماته تعكس احساسه بأنهم قد "خلوا" به فى شيئ ما، أو كأنهم أرادوا أن "يعاقبوه" على العمليات العسكرية الناجحة للغاية التى قام بها الجيش المصرى.

ومرة ثالثة وبعد أن حاصرت القوات المسلحة الاسرائيلية مدينة السويس - هذا الميناء الهام - بصورة كاملة، طلب "السادات" بصورة عاجلة من الاتحاد السوفيتى أن يرسل قواته المسلحة إلى المنطقة، بالاشتراك مع الأمريكان وفى حالة رفض الأمريكان التدخل طلب أن يعمل الاتحاد السوفيتى بصورة منفردة.

كان الوضع حرجا للغاية. ولهذا أعلنت القيادة السوفيتية بصورة قاطعة وحادة عن عزمها فى تنفيذ ما طلبه منها "السادات" بإرسال القوات السوفيتية إلى المنطقة إذا استمرت الولايات المتحدة فى مراوغتها وإذا واصلت القوات الاسرائيلية عملياتها العسكرية. أدركت واشنطن وتل أبيب حدية الاعلان السوفيتى وعلى إثر ذلك توقف الهجوم الاسرائيلى فى الحال، وتوقفت جميع العمليات العسكرية والاسرائيلية الأخرى. وهكذا ومرة أخرى يقدم الاتحاد السوفيتى خدمة لا تقدر بثمن لمصر وهكذا وضعت حرب أكتوبر أوزارها.

أرادت الولايات المتحدة الأمريكية أن تستر فعلتها فأعلنت حالة الاستنفار العام فى قواعدها العسكرية دون اخطار أو موافقة الدول التى تنتشر فيها هذه القواعد. وإذا كان من الواجب أن نعطى للسادات حقه فأنه قد أدرك أبعاد هذه الخطوة الأمريكية التظاهرية. وفى لقائى به يوم ٢٥ أكتوبر، سخر منها واصفاً إياها بمحاولة فاشلة "للتهويل". وقليلون - سواء فى مصر أو فى غيرها من الدول - هم الذين أخذوا هذه الخطوة مأخذ الجد. وإذا تحدثنا على ضوء الحقائق، فلا صحة اطلاقا لتلك الواقعة التى حكاها "كيسنجر" فى مذكراته عن "الاستنفار الأمريكى" الذى ألجم السوفيت، وحال دون قدومهم إلى المنطقة. وفى إحدى المرات المتكررة التى جاء فيها "كيسنجر" إلى القاهرة سألته :

- ماهو المبرر الذى دفع الولايات المتحدة لإعلان حالة الاستنفار فى قواعدها البحرية خارج حدودها؟. ألم تلاحظوا أن هذا "الاستنفار" لم يُخف أحداً فى العالم.

أجاب كيسنجر:

- أنه مجرد قرار خانت "نيكسون" فيه أعصابه".

الفصل السابع

دبلوماسية الوجهين



وفى السابع والعشرين من إكتوبر أخطرنى "حافظ اسماعيل" بأنه استلم رسالة من كيسنجر" يدعوه فيها لزيارة الولايات المتحدة واجراء محادثات معه. وبهذه الصورة بدأت الولايات المتحدة - بشكل علنى ومكشوف - تعرض استعدادها للقيام بدور الوسيط بين مصر واسرائيل.. وبدون شك كان الهدف من ابلاغى مثل هذه المعلومات هو معرفة رد الفعل السوفيتى عليها، وفى معرض ردى عليها ذكرت:

- إذا كنتم فى المستقبل ستتخلون عن الاعتماد على الاتفاق السوفيتى - الأمريكى بضمان وقف اطلاق النار، فإن من شأن ذلك أن يضعف من موقفكم، إذ أن الولايات المتحدة قد تقدمت بتعهداتها لنا وليس لكم. ومن شأن هذا أن يغريها على التنصل منها.

ولسبب ما ظل "حافظ اسماعيل" يردد أنه من الضرورى الحيلولة دون الولايات المتحدة وبين لعب دور الوسيط بين مصر و اسرائيل.

فى تلك الأثناء أرسل "السادات"، "أسماعيل فهمى" على عجل إلى واشنطن، بعد أن عينه بنفس العجلة قائما بأعمال وزير الخارجية. بينما لم يكن قد عاد من واشنطن أيضا وزير الخارجية (محمد حسن الزيات).

وهكذا أصبح لمصر وزيرين للخارجية فى آن واحد وفى عاصمة واحدة هى - واشنطن وهى واقعة لم أسمع لها مثيلاً فى تاريخ العمل الدبلوماسى. ولعل السادات بسبب اندماجه فى "دبلوماسية الوجهين" لم يجد الوقت للاهتمام بأمور فرعية مثل وجود وزيرين للخارجية فى وقت واحد.

... فى الأيام الأولى من شهر نوفمبر، غادر نائب أول وزير الخارجية السوفييتى "كورنتيسوف" موسكو متوجها للقاهرة للتشاور مع القيادات المصرية بشأن انعقاد المؤتمر الدولى بالشرق الأوسط، وفى تلك الأثناء أكد "السادات" أكثر من مرة على ضرورة أن تنسق مصر مواقفها مع الاتحاد السوفيتى، وأن ينشطا فى هذا الاتجاه بصورة محورية، كما أكد على رغبة مصر فى مشاركة ممثلى الدولتين العظمتين فى كافة مستويات المفاوضات. وهكذا تحمس "السادات" بلسانه لـ "التنسيق مع الاتحاد السوفيتى" بينما ظلت محادثات "اسماعيل فهمى" فى واشنطن فى طى الكتمان ولم يعلن عنها شيئا.

وفجأة ودون سابق انذار يذاع نبأ زيارة كيسنجر إلى مصر ويصل إليها يوم ٧ نوفمبر ١٩٧٣، ويلتقى مع "السادات" على انفراد مرتين، وفى مساء اليوم ذاته يذيع راديو القاهرة نبأ التوصل إلى اتفاقية لإعادة العلاقات الدبلوماسية بين البلدين - مصر والولايات المتحدة الأمريكية.

فهى هذه محصلة الحرب؟.

دعا "فهمى" إلى حفل غداء تكريما لوزير الخارجية الأمريكى حضره معظم أعضاء الحكومة المصرية، كما وجهت الدعوة لسفراء كل من الاتحاد السوفيتى وأسبانيا (التى كانت ترعى مصالح الولايات المتحدة فى آنذاك) وبريطانيا وفرنسا وأيضا "محمد حسنين هيكل". ورغم أن

الأمريكيين قد أبلغوني برغبة "كيسنجر" في الحديث معى إلا أنه لم تكن لدى الرغبة اطلاقا فى الذهاب إلى هذا الحفل. وأقولها بكل صراحة وبلا تكلف أنه قد غلب على تصرفات المصريين - آنذاك - طابع عدائى تجاهنا بما فيها وزير الخارجية "فهمى".

ومع ذلك قبلت الدعوة، ولكنني وصلت إلى حفل الغداء متأخرا، بل كنت آخر من حضره. وعندما دخلت إلى القاعة المتوسطة حيث يقف الضيوف بجوار الجدران وبأيديهم كئوس الويسكى الدافئة. كان "كيسنجر" يتوسطها حيث وقف يتبادل الحديث مع السفير الأسبانى. عندما تم تقديمى إلى الحاضرين دبّت الحيوية والانتعاش "بكيسنجر" وبعد عدة عبارات توحيبية وودية قصيرة، سألنى عن تقديرى للوضع فى منطقة الشرق الأوسط.

وفى معرض ردى قلت : رغم قرار وقف اطلاق النار السارى مفعوله الآن، إلا أن الوضع فى هذه المنطقة معقد وغير مستقر وينذر بالتفجر بين لحظة وأخرى، لذا من الواجب اتخاذ جميع الاجراءات القصيرة والطويلة الأمد لضمان استقراره. أنه يجب الآن أن تعود اسرائيل إلى رشدها وتتخلى عن غطرستها وتكف عن ادعائها الغبى بأن أحداً لا يعرف ولا يمكن أن يعرف أين كانت تقف القوات المتحاربة يوم ٢٢ أكتوبر. إنها يجب أن تنسحب بجيوشها إلى حيث كانت هناك يوم ٢٢ أكتوبر تنفيذا لقرارى مجلس الدولى رقم ٣٣٨ أو ٣٣٩. أن هذه الحدود يمكن تحديدها بدقة على الخريطة، وعندما تنسحب الجيوش الاسرائيلية إلى الخلف تنتهى معها مشكلة امدادات الجيش الثالث المصرى والسويس - ويندرج كل هذا تحت بند الاجراءات العاجلة، أما عن الخطة بعيدة المدى فقد

لاحت الآن فرصة ثمينة لتكثيف الجهود من أجل التسوية الشاملة لمشكلة الشرق الأوسط من جميع جوانبها.

أعرب "كيسنجر" عن اهتمامه بحديثى متسائلا:

- لماذا تعتبرون أن الوقت الآن -بالتحديد - مناسبا وأن الظروف مهيئة لبلوغ التسوية الشاملة فى المنطقة؟.

ومن ناحيتى عددت له الأسباب والظروف:

١ - لقد أدركت إسرائيل أن مقولة جيشها الذى لا يهزم "هى مجرد خرافة ويمكن الحاق الهزيمة به".

٢ - أدراك العرب بأنهم أقوياء يمكن أن يكون فرصة سانحة لهم للإقدام على إجراء المفاوضات السياسية.

٣ - أن الوحدة العربية - التى كانت قبل الحرب مفتقدة - قد استعادت فتوتها وأكبر دليل على ذلك هو قرار الدول العربية بمنع تصدير البترول إلى الولايات المتحدة وحلفائها.

٤ - الرأى العام العالمى الآن يقف إلى جانب العرب ولا يوجد أحد يتهمهم بشن "العدوان" على اسرائيل، رغم أنهم الذين بدأوا بالعمليات الحربية الواسعة النطاق.

٥ - الطابع الحالى للعلاقات السوفيتية الأمريكية - وبرغم الخلافات المعروفة - يمكن أن يتيح مناقشة أية قضايا ويسمح بالتعاون فيما بينهما.

وختمت تحليلى قائلا:

- هى هى العوامل التى تجعل الوقت الراهن مناسبا لتسوية شاملة للنزاع، ومع ذلك يهمنى التأكيد على الطابع المؤقت لبعضها إذ يمكن لها

أن تتحلل أو تتغير بمرور الوقت، ولهذا لا يجب إطلاقا تضييع الوقت وإضاعة هذه الفرصة.

استمع "كيسنجر" لحديثى باهتمام شديد، وأبدى موافقته على الكثير مما ذكرت باستثناء "مغزى قرار حظر تصدير البترول إلى الولايات المتحدة". وحول امكانية نشوب حرب جديدة فى المنطقة أقر "كيسنجر" بامكانية تفاديها، إذا كف الاتحاد السوفيتى عن البحث عن مغانم له، وكف عن التحريض الذى يمارسه فى هذه المنطقة.

رددت عليه بحدّة قائلا:

- لسنا نحن الذين نبحث عن مغانم ونمارس التحريض - أن هذا ليس من شيمتنا فالولايات المتحدة هى التى تقف وراء المعتدى، ونحن نساند قضية عادلة .. ونقف معها بوضوح.

وأسرع "اسماعيل فهمى" يدعونا إلى الغذاء..

وعندما افترقنا - بعد انتهاء حفل الغذاء - حدثنى "كيسنجر" قائلا:

- فى وقت سابق سمعت أن للاتحاد السوفيتى سفيرا شابا فى القاهرة، لكنه يرفض التعاون مع "هيرمان أيلتس" - السفير الأمريكى الذى عينته واشنطن فى القاهرة.

عندئذ قلت مازحا:

- إننى مستعد للتعاون حتى مع "لورانس أرافيسكى " شرط ألا يكون هناك اعتراض من الجانب الامريكى.

فى اليوم التالى نشرت الصحف المصرية بعض عناصر الاتفاق الذى جرى بين "كيسنجر" و"السادات" - وبصورة خاصة حول ما يتعلق بانسحاب القوات الاسرائيلية إلى مواقع ٢٢ أكتوبر فى اطار "اتفاقية

شاملة" حول فك الاشتباك بين القوات، ولم يكن فى هذا جديد، إلا شىء واحد، فبدلا من الانسحاب غير المشروط، كان الاتفاق على محادثات ومفاوضات لا يعلم إلا الله مداها، وضمن اتفاقية جديدة "للفصل بين القوات". باختصار دخلت المفاوضات فى طريق ملتو لا يعرف له نهاية، وسَحَبت معها أيضا التسوية إلى نفس الطريق.

ولم يهتم المصريون بإبلاغنا بشىء عن هذه التطورات. وبعد أربعة أيام التقى بى وزير الخارجية المصري وقدم لى ورقة تحتوى على ما نشرته الصحافة فى الأيام الماضية وبعد أن تطلعت فى الورقة قلت له دون مواربة:

- إننى ومنذ عدة أيام قد علمت بكل ما تحتويه ورقتكم".

اهتاج "فهمى" غضبا ولم يعلق على كلامى.

وكانت قد بدأت بالفعل الاستعدادات لعقد المؤتمر الدولى للشرق الأوسط. وهكذا بدأت المفاوضات الصعبة بين موسكو وواشنطن والقاهرة ودمشق وتل أبيب، ونشأت ضرورة الاتصال والتفاهم ليس مع "فهمى" فحسب، بل أيضا مع السفير الأمريكى الجديد "هيرمان ايلتس" الذى قدم على عجل إلى القاهرة.

وفى ديسمبر اتصل بى "هيومان ايلتس" السفير الأمريكى فى القاهرة قائلا:

سيصل "كيسنجر" فى زيارة لمصر ويود اللقاء بك والحديث معك، وافقت على الاقتراح الأمريكى إلا أن السفير الأمريكى عاد يقول:

- أن "كيسنجر" يود أن يلتقى بك فى المطار سواء عند وصوله أو لدى مغادرته القاهرة.

كانت بالنسبة لى لعبة مكشوفة، إذ كان مفضوحا أن وزير الخارجية الأمريكى يريد أن يظهر للعالم أجمع أن سفير الاتحاد السوفيتى فى القاهرة قد استقبله أو ودعه فى المطار.

ولهذا لم أتردد فى الرد قائلا:

– أن مثل هذا اللقاء – فى المطار – لا يناسبنى لا شكلا ولا موضوعا. فلا يمكن لنا أن نجرى فى المطار محادثات جادة. ثم ما دخل السفير السوفيتى بزيارة يقوم بها "كيسنجر" لمصر بدعوة من حكومتها، حتى ينتظره أو يودعه فى المطار؟

اضطرب "ايلتس" ثم تدارك قائلا:

– لم يكن القصد اطلاقا كما ذكرتم، ومع هذا فأننى سوف اتصل به ونتفق على مكان آخر.

بعد عدة ساعات عاود السفير الأمريكى الاتصال وأبلغنى أن "كيسنجر" يقترح اللقاء فى مقر اقامته بفندق هيلتون، لكن فى وقت متأخر بعد منتصف الليل. وافقت على هذا الاقتراح، إذ أنه لا فرق لدى الدبلوماسيين بين ساعات اليوم المختلفة.

فى هذه الأثناء كانت الصحافة ووسائل الأعلام المصرية والغربية تكيل المديح والتهانى لكيسنجر على "نجاحاته" حتى وصلت إلى مقارنته بميترنيخ مما أثلج صدره وجعله يشعر بالبهجة والاغتباط. كان واضحا أن عقد لقاء بينه وبين السفير السوفيتى، هو أمر مهم له من قبيل استكمال الشكل والايحاء بأنه ثمة "عمل مشترك".

.. فى لقائى معه – لم يتخل عن عادته الدبلوماسيه المرة (قرض إصبعه بأسنانه) – ولم يذكر "كيسنجر" شيئا عن محادثاته مع القيادة

المصرية، وغاص فى حديث عام حول ضرورة العمل المشترك فى منطقة الشرق الأوسط طبقا للاتفاق الذى جرى بيننا.

انتظرت حتى توقف "كيسنجر" عن الكلام ليمسح اصبعه ... فسألته:

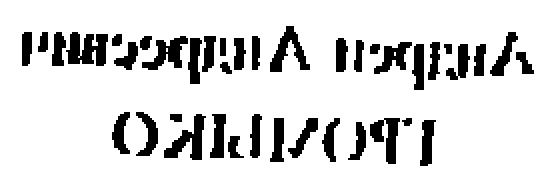
- كيف يمكن الجمع بين ما تقولون، وبين ما حدث فعلا ... لقد تم استبدال القرارين ٣٣٨ و ٣٣٩ اللذين صدرا بعد مشاورات سوفيتيه أمريكية، باتفاقية الكيلو ١٠١، التى وضعت فى يد اسرائيل كل أوراق الحل .. فأين كان هذا التعاون مع الاتحاد السوفيتى الذى تتحدثون عنه عندما وقعتم اتفاقية الكيلو ١٠١؟! .. ثم ما هى هذه الاتفاقية؟

تبادل "كيسنجر" النظر مع مساعده "سيسكو" الذى كان حاضرا، ثم قال مراوغا:

- كل هذا من ابتكار "سيسكو" .. وهو الذى عليه أن يجيب على سؤالك، فأنا لا أفقه فى هذه الأمور شيئا.

وضيق "سيسكو" عينيه اغتباطا!





Андрей Андреевич
ГРОМЫКО



الفصل الثامن

ألاعيب جنيف



شهدت الأيام التى أعقبت زيارة "كيسنجر" إلى القاهرة نشاطا مكثفا للاعداد لمؤتمر جنيف الدولى بشأن الشرق الأوسط، الذى كان من المقرر أن يشارك فى رئاسته ممثلون عن الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى. هذا وقد تم تعيينى رئيسا مناوبا عن الجانب السوفيتى.

ولم يكن عقد المؤتمر الدولى بالقضية الهينة. إذا بدأت تظهر الأسئلة المتنوعة حول موضوعات المفاوضات فى المؤتمر وعن المشاركين به، وعن نظام ادارته، وجدول اعماله وتوقيتاتها. كان الاقتراح بعقد المؤتمر الدولى قد تم الاتفاق عليه بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى وبمشاركة السكرتير العام للامم المتحدة. وبعدئذ تم اخطار القاهرة بما توصلنا إليه للحصول على موافقتها عليه. وكان من المفترض أن يقوم سفير كل من الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة بعرض موقفهما المشترك أمام وزير الخارجية المصرى، وأن يضعا المسألة أمامه بوصفها محصلة الاتفاق بين الدولتين العظيمتين.

وحدث فى مرات عديدة أن أبلغ الجانب الأمريكى القيادة المصرية، بالرأى الأمريكى الدولى، الذى نكون عادة قد اعترضنا عليه، واتفقنا

معهم على تعديله ليكون متسقا مع وجهة النظر العربية، ولكنه رغم ذلك كان يقدم للقيادة المصرية باعتباره وجهة النظر المشتركة، فكان المصريون يثورون، ويتقدمون للأمريكان بمطالبهم، فيتظاهروا بأنهم "اقنعونا" بقبولها، وكان علينا أن تضفح هذه الألاعيب الأمريكية، وكان مما أثار استياءنا، تعاون وزير الخارجية المصرى مع الأمريكيين بشكل مفضوح فى مسائل الاعداد للمؤتمر، وكانت مداهناته لهم بلا حدود، رغم أن الزمن الذى كان الاشتباك العسكرى جاريا، لم يكن قد ابتعد بعد. وبعدما عاد من "واشنطن" علق على جدران منزله صورة كبيرة له مع "نيكسون"، التقطت لهما أثناء اللقاء الذى جرى بينهما فى واشنطون، فبدا أمرا غريبا، أن تعلق صورة الرجل الذى كان يخطط قبل أسابيع لهزيمة الجيش المصرى، على جدران منزل وزير الخارجية.

ظهر التغير الذى حدث فى الموقف المصرى بوضوح عندما بدأ الحديث عن مشاركة الفلسطينيين فى المؤتمر الدولى إذ المعروف أن القضية الفلسطينية ومصير الشعب العربى الفلسطينى المحروم من وطنه هما لب المشكلة فى الشرق الأوسط، وكان العرب يرددون كثيروا قولا بليغا هو "أنه لا حرب بدون مصر ولا سلام بدون الفلسطينيين". لهذا كان موقف الاتحاد السوفيتى المبدئى والثابت، هو الاصرار على ضرورة اشراك الفلسطينيين فى المؤتمر. عارضت "اسرائيل" - التى تتمسك دائما بمقولة" ليس هناك شعب فلسطينى - الفكرة منذ البداية وساندتها فى موقفها هذا الولايات المتحدة الأمريكية.

ولم تكن الدول العربية قد أخذت قرارها - "والذى اتخذته فى اعقاب هذه الأحداث - باعتبار منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعى

الوحيد للشعب الفلسطينى - ولهذا جاءت الوثيقة التى تمخضت عن المباحثات بضرورة اشراك ممثلى الشعب الفلسطينى فى وقت لاحق، فى المؤتمر. ومن جانبها وافقت مصر على ذلك، إلا أنها سرعان ما عادت - تحت ضغط الولايات المتحدة الأمريكية- تقترح صيغة أخرى حول المشاركة الفلسطينية تنص على أن تتم مناقشة تحديد وقت مشاركة الفلسطينيين فى أعمال المؤتمر، فى جلسات انعقاده الأولى. قد علمنا فى وقت لاحق أنه كان قد تم الاتفاق بين المصريين الأمريكيين على هذه المسألة.

وذات يوم دعانى "فهمى" للقاء، وعندما وصلت إليه وجدت السفير الأمريكى "ايلتس" يجلس بجواره. وكان هذا أمراً بعيدا عن اللياقة، إذ لم يخبرنى بأنى سأجد معه أحدا، ولم يحصل على موافقتى على هذه المحادثات الثلاثية، محادثات الأمر الواقع. مدّ "فهمى" لى يده بورقة دون عليها نص ما مكتوبا بالآله الكاتبة (كان واضحا أنه تمت كتابته فى السفارة الأمريكية) وقال:

هذه هى الصيغة المصرية الجديدة والتى وافقت عليها الولايات المتحدة الأمريكية.

تناولت الورقة فإذا بها تقول أن مسألة المشاركة الفلسطينية فى المؤتمر سوف تترك مناقشتها لجلسات المؤتمر الدولى. إلى هذا الحد لا جديد (وفى وقت لاحق ظهرت صيغة أخرى لم يأت فيها بذكر الفلسطينيين اطلاقا كان نصها التالى: "تترك مسألة مشاركة ممثلى دول المنطقة لمناقشتها فى جلسات المؤتمر الأولى".

بعد انتهائى من قراءة الورقة قلت:

- أن الصيغة الجديدة غيّرت جوهر القضية، إذ كانت الصيغه السابقة تتحدث بصيغة الجزم عن مشاركة الفلسطينين، أما هذه الصيغه، فهى تجعل موضوع مشاركتهم قابلاً للمفاوضة بين بقية أطراف المؤتمر ولهذا لا يمكن موافقتى عليها.

وأضفت قائلا:

- قبل كل شيء يهمنى أن أعرف موقف الفلسطينيين أنفسهم من هذه المسألة".

بعصبية واضحة أكد "فهمى" أنه شخصيا قد أخذ موافقة الفلسطينيين على هذه الصيغة، وكذلك وافق عليها باقى الأطراف المشاركة فى المؤتمر. كانت هذه هى آخر المشاكل التى من أجلها تأخرت الدعوة الرسمية للدول المشاركة فى المؤتمر، وفى وقت لاحق ذكر لى الفلسطينيون أنهم لم يعطوا أحدا من الجانب المصرى مثل هذه الموافقة).

كان قد تم الاتفاق على افتتاح المؤتمر فى ٢١ ديسمبر عام ١٩٧٣ فى قصر الأمم بجنيف.

عشية مغادرتى القاهرة اعلنت "سوريا" أنها لن تشارك فى المؤتمر، واتخذ الجانب السورى هذا الموقف، وأعلنه عقب زيارة "كيسنجر" إلى دمشق.

أعرب فهمى عن دهشته لهذا الموقف المفاجئ. لماذا إذن حدث هذا؟ أننى أتذكر كيف قص "كيسنجر" أكثر من مرة - بصورة هزلية ساخرة - كيف أعلنه الرئيس السورى "حافظ الأسد" بمقاطعة بلاده للمؤتمر فجأه، ودون ابداء الأسباب. هذا ولم يعلن كيسنجر نفسه موقفه من هذا القرار، لكل وعلى كل حال يلُم السوريين على ذلك.

في ١٩ ديسمبر ١٩٧٣ غادرت طائرة مصر للطيران القاهرة متجهة إلى جنيف تقل أعضاء الوفد المصرى المشارك فى المؤتمر برئاسة "فهمى". وقد قبلت دعوتهم للسفر على نفس الطائرة. كما كان بيننا العديد من الصحفيين ورجال الإذاعة.

ما أن هبطت طائرة مصر للطيران أرض المطار حتى أصابنا الذهول لكثرة الاستحكامات الأمنية الصارمة، إذ كانت الدوريات العسكرية ورجال البوليس يطوفون أرض المطار وبأيديهم الرشاشات، كما شاركتهم أيضا بعض المدرعات الخ..

وفى هذا اليوم طار إلى "جنيف" كل من "جروميكو" - وزير الخارجية السوفيتى -"وكورت فالدهايم" - سكرتير عام الأمم المتحدة "وكيسنجر" - وزير الخارجية الأمريكى - "وأبا أيبان" - وزير الخارجية الاسرائيلى - ورئيس وزراء الأردن "زيد الرفاعى".

فى المساء التقيت و"كيسنجر" حيث عرض على خطته قائلا:

- "فى ٣١ ديسمبر ستجرى أنتخابات الكنيست الاسرائيلى، ولهذا وقبل تشكيل الحكومة الاسرائيلية الجديدة سيكون من الصعب على الوفد الاسرائيلى المشاركة الفعالة فى أعمال المؤتمر. لذا يمكن اعتبار أن جلسة اليوم (٢١ ديسمبر) هى مجرد افتتاح المؤتمر، وغدا يغادر الجميع "جنيف" على أن يلتقى هنا (فى جنيف) فى السابع من يناير ممثلى كل من الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة - "فينوجرادوف" و"بانكير" - ثم يعود المؤتمر لمناقشة جدول أعماله فى الخامس عشر من يناير.

هنا اعترض "جروميكو" قائلا:

- إننا جئنا إلى هنا للعمل وليس للاحتفال، وإذا كان من الصعب أن

تبدأ الجلسات العامة، فلتكن الاجتماعات على مستوى مجموعات العمل".

ومع هذا لو يوافق "كيسنجر" على العرض السوفيتى.

وهكذا جاء اليوم التاريخى - ٢١ ديسمبر - حيث اجتمع خلف المائدة ممثلوا المؤتمر الدولى الهام الذى كانت تحدونا الرغبة العارمة فى أن يطل من خلاله السلام على منطقة الشرق الأوسط، إذ كان الوضع مهيأ لبلوغ هذا الهدف، فأخيرا - ولأول مرة - يجلس العرب والاسرائيليون جنبا إلى جنب خلف مائدة المفاوضات، ورغم ما يمكن أن يكون لدى الطرفين من وجهات نظر متباينة.

لكن، وعلى ما يبدو، كان هناك من لا يرغب فى السلام العادل فى هذه المنطقة الملتهبة.

قبل افتتاح جلسات المؤتمر كان قد تم الاتفاق مع السكرتير العام على الكيفية التى يوزع بها المشاركين على المقاعد، وكان هناك اقتراحان:

الأول أن يتم الجلوس طبقا للحروف الأبجدية. فى المنتصف يجلس السكرتير العام للأمم المتحدة. وعلى يمينه يجلس الوفد السوفيتى، وعلى يساره الوفد الأمريكى، وبجواره "سوريا" ثم "اسرائيل" ثم "الأردن" ثم "مصر".

أما الاقتراح الثانى فهو سياسى أكثر منه أى شيئ آخر، ويتلخص فى أن تأتى مقاعد الوفد الاسرائيلى بجوار الوفد الأمريكى وبعده الأردنى ثم السورى ثم المصرى.

اكتظ "قصر الأمم" بالكاميرات وأجهزة التسجيل وعدسات التليفزيون والاذاعات العالمية، كما طاف الصحفيون بجميع أركانه بحثا

- إن الولايات المتحدة ترجو بشدة من الوفد السوفيتى أن يتبادل المقاعد مع الوفد الأمريكى - أن هذا الترتيب الأخير يجعل من أحد الجوانب اسرائيلية بحتة (الولايات المتحدة واسرائيل).

بصوت مسموع - وكأنه أراد أن يسمعه الجميع - تحدث "جروميكو" مازحا:

- أننى أطلب من سيادة السكرتير العام للامم المتحدة تسجيل رفض الوفد الأمريكى الجلوس بجوار الاسرائيليين.

وانفجر الجميع ضاحكين ثم أكمل "جروميكو" حديثه:

- أننا جئنا هنا للعمل وليس للعب، وبالنسبة لنا - نحن الوفد السوفيتى يمكننا الجلوس فى أى مكان".

هنا تنفس "فالدهايم" الصعداء إذ انتهت مشكلة كادت تهدد المؤتمر قبل أن يبدأ.

توجهنا إلى قاعة المؤتمر للمفاوضات. تحدث "فالدهايم" الذى بلغ فى هذا اليوم عامه الخامس والخمسين- قائلا:

- إنها مصادفة فريدة ويوم تاريخى ذلك الذى نضع فيه أقدامنا على بداية طريق السلام فى منطقة الشرق الأوسط".

بعد الافتتاح الترحيبى من قبل "فالدهايم"، تحدث "جروميكو" عارضا الموقف السوفيتى وشمل حديثه تقديرا موضوعيا للوضع فى منطقة الشرق الأوسط، وعبر عن الأمل فى بلوغ الحل العادل للمشاكل المتراكمة، لقد ترك حديث وزير الخارجية السوفيتى انطباعا حيا وصادقا عن استعداد الاتحاد السوفيتى العمل بإخلاص والتعاون مع الجميع لنشل المنطقة من حروبها المتعاقبة وإحلال السلام الدائم على أراضيها.

وكان قليلون هم الذين استحسنوا حديث "كيسنجر" الذى مزجه ببعض الأمثلة اليهودية والعربية والذى تحدث فيه عن خطوط عامة.

كما اتسمت بطابع عام كلمات "اسماعيل فهمى" و"آبا أيبان" اللذين نشبت بينهما معركة كلامية حامية الوطيس - فقد أراد "فهمى" أن يلعب بمشاعر الجماهير فى معرض رده "على إيبان".

وفى اليوم التالى عقد المؤتمر جلسه مغلقة حيث كان قد تم الاتفاق على تشكيل لجنة عمل عسكرية مهمتها العاجلة فك الاشتباك بين القوات المصرية والاسرائيلية.

جاء "كيسنجر" - برفقته السفير الأمريكى وممثل بلاده فى مؤتمر جنيف "بيكر" - إلى مقر اقامتنا. كان "بيكر" طويل القامة نحيفا، تعدى عمره آنذاك الثمانين عاما. توجه "كيسنجر" بسؤاله إلى "جروميكو " قائلا":

- هل تعرفون لماذا تم تعيين "بيكر" رئيسا لوفد بلادنا فى مؤتمر جنيف؟

ثم أجاب هو نفسه:

- لم يحدث أن أنهى "بيكر" أية مفاوضات شارك فيها قبل ثمانية سنوات".

ثم ضحك من الأعماق.

كان "بيكر" - بصورة شكلية - رئيس وفد بلاده فى المفاوضات الأمريكية - البنمية والتى استمرت أعواما طويلة حول مستقبل قناة بنما، وحول حقوق الأمريكان فى هذا البلد. وقد اذهلتنى تلميحات "كيسنجر" هذه فى الأيام الأولى للمؤتمر.

واستكمل" كيسنجر" حديثه قائلا:

- وهكذا سيظل "فينوجرادوف" فى جنيف؟.

رد عليه "جروميكو" قائلا:

- نعم سيبقى، طالما اتفقنا على أن تستمر جلسات المؤتمر.

أضاف "كيسنجر" قائلا :

- إن لبيكر أولاد وأحفاد لابد من مشاركته لهم أعياد فى ميلادهم، ولهذا فهو مضطر للسفر إلى الولايات المتحدة لمدة يومين أو ثلاثة على أكثر تقدير. وسيعود يوم ٢٦ أو ٢٧ ديسمبر إلى جنيف.

وهكذا - إلى يومنا هذا - لم أر "بيكر" ولم يوف بوعده!!..

فى صباح اليوم التالى دعانا "بيكر" إلى مائدة الافطار فى الوقت نفسه الذى بدأ فيه موظف الخارجية الأمريكى "استرتر" بحذر شديد - يطور "تصورات" حول إمكانية سير المؤتمر" أكد على أن المصريين غير راغبين فى أن تشارك وفود المراقبين (الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة) أو ممثليهما فى أعمال الللجنة العسكرية، ولهذا يجب العمل فى "الكواليس".

وبحذر شديد قال "بيكر":

- هل هناك إمكانية لفترة راحة طويلة حتى تهدأ النفوس الثائرة"؟.

وبمعنى آخر كان هذا يعنى :

هل نحن السوفيت موافقون على إرجاء المفاوضات عاما وراء عام؟. وهل نحن موافقون على أن يستبدل الطابع الدولى للمؤتمر بحلول ثنائية بين الدول العربية واسرائيل فى جنيف، بدون مشاركة ممثلى الاتحاد السوفيتى (فقط)، إذ أن الأمريكيين كانوا موجودين باستمرار فى هذه

الكواليس؟ وهكذا رأينا موقف الوفد المصرى على حقيقته وبهذه الصورة تشوهت تماما مجمل فكرة التسوية عبر المؤتمر الدولى.

فى المساء التقى "جروميكو" بوزير الخارجية المصرى، وانطلاقا من معلوماتنا ومحادثاتنا مع "بيكر" واستير" سأله بصورة مباشرة عن رأيه فيما يخص الأعمال اللاحقة للمؤتمر - وبصورة خاصة - عن تصوره لدور المراقبين

ذكرتنا أقوال "فهمى" واجاباته بألاعيب الأطفال: "نعم" أو "لا". لا تقولون - أسود أو أبيض. وعلى امتداد ما يزيد عن نصف الساعة تملص "فهمى" من أية إجابات محددة. وكثيرا ما وجه اللوم للمترجمين على نقل أفكاره بصورة غير دقيقة. وهكذا تأكدنا تآمر المصريين مع الأمريكين.

وبعد يوم آخر - وبالتحديد بعد مغادرة "جروميكو" لجنيف - صار كل شىء واضحا ومكشوفا، فقد جاءنى "استيرنر" وعرض على كتيب به بعض الملاحظات : وأشار إلى الصيغة الجديدة التى أدخلها المصرين "لا نعارض مشاركة الاتحاد السوفيتى". وأضاف بعصبية.

- انظروا ماذا سجل المصريون"أنهم لا يعارضون المشاركة السوفيتية" ولم يقولوا : "نحن مع المشاركة السوفيتية".

وبعد أن انتهى من تعليقاته على "الصيغة المصرية" انهلت عليه توبيخا وتقريعا".

سألت مساعد وزير الخارجية المصرى - "محمد رياض" عما إذا كان صحيحا ما ذكره لى "استيرنر"، فأنفجر صائحا :

- الأمريكيون محتالون، أما "استيرنر" فهو استفزازى بطبعه".

وفى المساء دعانى "فهمى" إلى مائدة العشاء مبديا حفاوة مصطنعه. وبالتدريج بدأ يعرض فكرته بوضوح: إن الاتحاد السوفيتي - فى رأيه - ليس مضطرا إلى اللهاث للمشاركة فى المفاوضات، ولن يحدث تقدم فى أية قضية ما دون موافقته. هكذا إذن هو الأمر، بينما أكد فى لقائه مع "جروميكو" على أشياء أخرى مختلفة تماما.

أجبته بأن لدى انا الآخر قيادتى التى يجب الرجوع إليها. ولدينا أفكارنا ومفاهيمنا. فعبرت عن أساى لتجاهل الحكومة المصرية، لدعمنا لكثير من القضايا التى تعود بالنفع ليس على المصريين وعلى الفلسطينيين فحسب، بل وعلى كل العرب.

هكذا صارت الأمور. ولم تتزحزح المفاوضات داخل لجنة العمل العسكرية عن جمودها. وفى وقت لاحق انتقل الأمريكيون والاسرئيليون بها بعيدا عن جنيف، ولم يبق هناك سوى وفدنا، وقبل مغادرتنا مقر اقامتنا جاء الوفد الاسرائيلى برئاسة "ايفرون" ليودعنا. وتحدثوا معنا عن اهتمام الشعب الاسرائيلى الشديد بالمؤتمر خاصة فى يومه الأول، وقالوا أن الاسرائليين لم يغادروا مقاعدهم أمام شاشات التليفزيون، وأن عيونهم قد اتسعت دهشة عندما استمعوا لعرض "جروميكو" للموقف السوفيتى - وأدركوا أنه موقف فعال وعادل، وأضاف "ايفرون".

- حاولنا اقناع شعبنا بضرورة السعى وراء السلام الدائم طالما الفرصة سانحة لتحقيقه، وكان رد شعبنا فى وقت لاحق أن السلام فى الشرق الأوسط بدون المشاركة السوفيتية بعيد المنال.

وفى نهاية اللقاء سألنى "ايفرون" قائلا:

- هل يعرف المصريون أن الاتحاد السوفيتى وحده هو الذى أنقذهم من

الهزيمة وبالذات فى الأيام الأخيرة من الحرب؟.

هزنى هذا التساؤل من الأعماق، إذ كان يعنى أن الاسرائيليين يقدرون - بصورة صحيحة - الظرف والدور الذى لعبته بلادنا فى هذه الحرب، كما يقدرون موقفنا الحاسم.

لم يعد "بيكر" إلى جنيف، كما كان متفقا عليه فى ٢٦ ديسمبر، بل عاد بعدها بشهر تقريبا فى ٢١ يناير ١٩٧٤ حيث مكث هناك عده أيام. ثم طار بعدها معلنا أنه لن يعود قبل منتصف فبراير: ها هو الصدق على الطريقة الأمريكية يفتضح!

وفى وقت لاحق - وخارج اطار المؤتمر - وقعت "مصر" و"اسرائيل" اتفاقية الفصل بين القوات. ومن هنا بدأ التحضير للاتفاقيات المنفردة بين مصر واسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية.

وهكذا تنكرت مصر لقضية الحرب المشتركة، ولحليفها السابق - "سوريا" ونفضت أيديها تماما من القضية الفلسطينية. ومما فيه مصلحة الشعب الفلسطينى، أننى أتذكر جيدا ما نشرته الصحافة من بيانات فلسطينية كان جوهرها: إن المصريين يقدمون المساعدة للولايات المتحدة حتى تتسلل من جديد إلى منطقة الشرق الأوسط.

* * *

مضت الأيام وغادرت الوفود جميعها جنيف ولم تكن هناك أشياء مثيرة. وجرت الاجتماعات بصورة روتينية فى "قصر الأمم"، كما جرت على نفس الشاكلة اجتماعات "اللجان" و"مجموعات العمل" ذات التسميات الطويلة و،المهام المختصرة. ناقش المجتمعون كل شيء عدا

قضية الشرق الأوسط، مما ترك انطباعا بأن ما جرى هو مجرد سخافات مضيعة للوقت. وشرع "كيسنجر" - الابن المخلص للدبلوماسية الأمريكية- في رحلاته المكوكية من القدس إلى القاهرة ثم إلى واشنطن، ومن جديد إلى "القدس" ومنها إلى "القاهرة" - وأحيانا "دمشق" وعمان، وأخذ يلح على مصر واسرائيل على تقديم بعض "التنازلات" ليثبت أن هناك امكانية للتوصل إلى سلام متفرد بينهما، حتى مع اغفال الحقوق الفلسطينية وعن عدم تخلى اسرائيل عن أراضى الشعب الفلسطينى المحتلة.

وهكذا ظللنا نحن فى "جنيف"، بينما يحضر إليها "بيكر" مرة كل شهر لاجراء محادثات لا قيمة لها، بل أنه لم يكن فى مرات كثيرة يتفوه بكلمة واحدة أو يعلن رأيه ويكتفى بقوله:

- هذه مناقشات هامة للغاية وسوف أبلغ بها وزير خارجيتنا".

وإلى هنا ينتهى اللقاء.

رفضت "موسكو بالمرة السماح لنا بمغادرة "جنيف"، والانصراف إلى أعمالنا. وفى مرات كثيرة لم ترد على الاطلاق على الحاحنا على السماح لنا السفر. وكان القادمون من الوطن يحثوننا على "ضبط النفس" والاستمرار فى شرح أبعاد الموقف لكل الوفود الدبلوماسية المعتمدة فى العاصمة السويسرية - سواء كانت عربية أو أوروبية غربية. ولم يعد بيننا وبين الوفد الأمريكى أية اتصالات إذ اصطحب "كيسنجر" جزء منه فى جولاته المكوكية فى الشرق الأوسط، وسافر الجزء الآخر إلى بلاده.

وعندما كنا نستفهم عبر المفوضية الأمريكية الدائمة فى جنيف، عن الوفد الأمريكى كانوا يردون قائلين:

- ليس لدينا هنا فى جنيف متخصصين فى قضية الشرق الأوسط.

ومع هذا فرض علينا نحن أن نستكمل العمل مع الوفد الأمريكى الذى كان حاضرا وغائبا فى الوقت نفسه.

ونحن فى جنيف جاءنا الخبر التالى: نظرا لتعيين "فينوجرادوف" رئيسا للوفد السوفيتى وممثلا لبلاده فى مؤتمر جنيف الدولى الخاص بالشرق الأوسط تقرر اعفاءه من مهام منصبه كسفير للاتحاد السوفيتى فى القاهرة.

وأخيرا حصلت على موافقة موسكو على مغادرة جنيف متجها إلى القاهرة لإنهاء أعمال بعثتى هناك وللوداع أيضا.

* * *

وبعد عودتى إلى القاهرة تحدث معى أقرب المقربين إلى "السادات" بدفء وود. لكنهم كانوا قد أعلنوا انحيازهم. ورصوا صفوفهم- دونما أدنى اعتراض - خلف "السادات" ولسان حالهم يقول: لا لأية مؤتمرات دولية. وأن ما كان يجب عمله سيتم بمساعدة الأمريكيين، حفظهم الرب ورعاهم. ولم تحرك الغالبية العظمى من القيادات السياسية المصرية من ذوى السمعة، ساكنا إزاء أعمال وتصرفات "السادات" ووزير خارجيته "فهمى" وكل من سلم مصير البلاد، وجعلها تحت رحمة الأمريكين والاسرائيليين، لقد بهرهم الوضع الجديد لمصر فى العالم، فقبلوه، حتى لو كان الثمن الابتعاد عن الاتحاد السوفيتى، بل وحتى القطيعة معه.

وتحدث معى بعض الأصدقاء من القاهريين المطلعين على بواطن الأمور قائلين أن الأمريكيين قد أقنعوا "السادات" أنه بمجرد أن يقبل

شروطهم، وأن يعقد صلحا منفردا مع إسرائيل - أى عندما تنفض مصر يديها من القضية العربية المشتركة، ومن حقوق الشعب الفلسطينى المشروعة - فسوف تحل مصر محل اسرائيل فى الاستراتيجية الأمريكية فى منطقة الشرق الأوسط ،ويرجح أن "السادات" قد صدق هذه الأكذوبة، وتوهم أن اعتماد مصر - أكبر دولة فى المنطقة وأكثرها تأثيرا - على الأمريكيين سوف يعنى تدفق ملايين، بل وبلايين الدولارات.

لم نكن نستقبل معلوماتنا عن مصر بعقولنا بل بقلوبنا. وخاصة هؤلاء الذين لم يتعاملوا مع ما كنا نرسله من القاهرة من انذارات مبكرة حول التغيرات التدريجية التى يشهدها نهج القيادة المصرية الجديدة بعد وفاة "عبدالناصر". ولم يكن الانقلاب المفاجئ فى السياسة المصرية أمرا سارا لكنه كان الواقع وكان لابد من التعامل معه والتفكير الجاد فيه.

وفجأة وفى ذروة معمعة الزاياراتا المكوكية، صدرت الأوامر بضرورة العودة إلى "جنيف". إذ وعد "بانكير" بالسفر إلى هناك فى خلال أيام.

وعلى عجل نظمنا حفل استقبال كبير وكانت دهشتى أكبر عندما حضرت جميع الشخصيات السياسية الكبرى فى مصر الاحتفال حتى تولد لدي الانطباع بأنها مظاهرة للاعتذار عن سلوك وتصرفات الرئيس ازاء الاتحاد السوفيتى وسفيره فى القاهرة.

وهكذا توجهت على عجل - عبر موسكو - إلى "جنيف".

ولم يحضر "بانكير" فى الوقت المحدد. بل جاء متأخرا ما يقرب ٢٠ يوماً. ومرة أخرى لم يثمر اللقاء معه ولم تسفر عنه نتائج معينة. ولم تقدم خلاله فكرة ما أو اقتراحا محدداً. ومن هنا كانت دهشتى لقبول رجل فى مثل سنه (٨٠ عاما) القيام بهذا الدور الهزلى. وعلى المستوى

الانسانى، شعرنا بالتعاطف مع "بانكير". فى هذه المرة دعاه "بانكير" الوفد السوفيتى للغداء فى أحد أغلى مطاعم "جنيف" على شاطئ الجزيرة.

على مائدة الغداء تبادلنا كلمات طيبة. لكنه كان مفهوما لكلا الطرفين أنه لقاءنا الأخير - سواء بوصفنا مشاركين فى المؤتمر أو بصفتنا الشخصية. وفى وقت لاحق قرأت فى مذكرات "كيسنجر" كيف تفنن - أثناء رحلاته المكوكية إلى الشرق الأوسط - فى إطالة فترة انتظار الوفد السوفييتى فى جنيف.

ومع هذا أقر بأننى كنت شاهد عيان على ما أقسم به وزير الخارجية الأمريكى "كيسنجر" فى لقاءاته بجروميكو حول ساعة عودة الوفد الأمريكى واستئناف المؤتمر لأعماله.

هكذا بات مفهومها أن "حرب أكتوبر" لم يتم التخطيط لها بوصفها خطوة نحو تحرير الأراضى العربية المحتلة وإحلال السلام العادل وإعادة الحقوق المسلوبة، بل كانت بمثابة وسيلة للتغلغل الأمريكى فى المنطقة، كما مثلت النوعية الجيدة من الأسلحة والتجهيز العالى للقوات المسلحة المصرية وروحها المعنوية المرتفعة مفاجأة حتى للسادات نفسه، وبالتالى استطاع الجيش المصرى أن يلحق الهزيمة بالاسرائيليين - وعلى الأغلب - أنه خرج عن الإطار المتفق عليه مع القيادة السياسية للبلاد ، ويمكن القول أن الأمريكيين أنفسهم كانوا فى احتياج إلى "هزيمة" محكومة، ومعروف أبعادها لإسرائيل، حتى يظهروا بمظهر "المنقذ" لها، وفى نفس الوقت كانوا فى حاجة إلى وضع مصرى حرج حتى يتمكنوا من لعب نفس الدور، فيظهروا بمظهر "المنقذ" لمصر. لقد حقق تسلل القوات الاسرائيلية

إلى غرب القناة ومرابطتها على بعد مائة كيلو متر من القاهرة هذا الهدف المزدوج، إذ كان بمثابة عقاب لمصر على فاعلية قواتها المسلحة "الزائدة عن الحاجة" وهكذا راح ضحية هذه اللعبة السياسية حياة آلاف من البشر.

كان نداء المؤتمر الدولى للسلام فى الشرق الأوسط بمثابة انتصار كبير لكل القوى المحبة للسلام فى العالم، وللدبلوماسية السوفيتية على وجه الخصوص، وعلى إثره ارتفعت السمعة الدولية للاتحاد السوفيتنى.

لقد هيأت "حرب أكتوبر" الظروف الملائمة، كما أوجدت فرصا واقعية لتحقيق السلام العادل والدائم والمضمون لكل دول المنطقة، عندئذ لن تظل هذه المنطقة بالنسبة للنخططات الامبريالية موضوعا الاستغلال السياسى والاقتصادى والعسكرى، ولهذا لم يعجب مثل هذا السلام الأمريكيين.

لقد حاولت الولايات المتحدة بمعاونة "السادات وتنكرها لجميع تعهداتها السابقة، أن تعيد المؤتمر الدولى إلى حظيرة خططها ومآربها الخاصة، لكن الموقف السوفيتى أفشل كل هذه المحاولات وقطع عليها الطريق. ثم أدت معاهدة الصلح المنفرد – أو كما يسمونها معاهدة كامب ديفيد – "الابن الشرعى للسياسة الأمريكية، إلى مقتل السادات ذاته.

وكما هو الحال مع الظواهر الطبيعية، إذ يحمل القديم بداخله عناصر الجديد الذى يحل محله، فإن الشعب المصرى الذى شعر بالنتائج الوخيمة التى جرها على البلاد نهج التبعية للأمريكيين سواء فى مجال الاقتصاد الداخلى أو فى علاقات مصر مع أشقائها العرب، أنه قادر على تجميع قواه والعودة إلى الطريق الصحيح – طريق الوجود المستقل الذى يقود

إلى التقدم - كما إن أبناء مصر المخلصين كانوا على ثقة مطلقة فى هذا أيضا.

خـــــاتمة

الروسى .. من تانى!



كنت قد قررت أن أتوقف عند هذا الحد فى كتابة أوراقى هذه عن فترة من أهم الفترات التى تركت تأثيرا حادا على الأوضاع فى مصر، لكن حدث أن أتيح لى السفر مرة أخرى إلى هذا البلد العربى الكبير وذلك فى ديسمبر عام ١٩٨٧ بصفتى رئيسا لمجلس الادارة المركزى لجمعية الصداقة السوفيتية المصرية، وبدعوة من رئيس جميعة الصداقة السوفيتية المصرية والشخصية الحكومية ووزير الدولة للشئون الخارجية "بطرس غالى".

كثيرا ما تطلعت لزيارتى لمصر وكأن هناك شيئ ما يجذبنى إليها - فكم من القوة والأعصاب والصحة أنفقت هناك لكى تظل علاقتنا بهذا البلد وبشعبها طيبة وودية وصادقة. كم أمضيت فيها من أوقات طيبة، وأيضا أوقات عصيبة، خاصة عندما بدأت قيادتها تلقى بأطنان من الافتراءات والأكاذيب بحق بلادنا.

فبعد "كامب ديفيد" أغلقت السلطات المصرية المراكز الثقافية السوفيتية فى القاهرة وفى الاسكندرية.

كما تم طرد جميع المتخصصين الفنيين السوفيت من محطة توليد

الكهرباء بأسوان، ومن المصانع الأخرى التى تم تشييدها بمساعدة الاتحاد السوفيتى، وأوقف بناء المساكن المخصصة للعاملين السوفيت.

وأغلقت القنصلية السوفيتية العامة فى الاسكندرية وكذلك فى بورسعيد.

كما تقلص إلى حد كبير عدد العاملين فى السفارة السوفيتية بالقاهرة.

وفى وقت لاحق طلبت السلطات المصرية مغادرة السفير السوفيتى للقاهرة، وحظرت أنشطة جميعة الصداقة المصرية السوفيتية فى القاهرة.

وامتلأت صفحات الجرائد والمجلات بالافتراءات التى لفقها واخترعها الأمريكيون والعديد من المصادر الغربية الأخرى ضد بلادنا.

وانجرت مصر إلى معسكر العداء للسوفيت.

لكن لابد للشمس أن تبدد الظلمات.

فبعد النهاية الدراماتيكية للسادات، بدأت الرغبة فى ضرورة عودة العلاقات بين مصر والاتحاد السوفيتى تظهر تدريجيا.

استمرت زيارتى للقاهرة أسبوعا تقابلت فيه مع العديد مع الشخصيات المصرية، وأيضا مع العديد من أصدقائى ومعارفى القدامى. وشعرت فى الحال أن البلد قد التفتت إلى الماضى ماذا جرى فيه؟ وبدأت تفكر إلى أين وكيف السير فى المستقبل. إنها الآن تقارن الحاضر بالماضى غير البعيد الذى كنت أنا واحد من شهود العيان عليه ..

فى ذروة الصداقة بين القيادة المصرية والولايات المتحدة الأمريكية، حلقت فى سماء الاسكندرية الصافية حاملات الطائرات الأمريكية تعرض فى مظاهرة صاخبة "امكاناتها وقذفت الفانتوم" الجارحة بآلاف من

البحارة الأمريكان فى زيهم الأبيض والأزرق، لحظتها صفق السذج من الشعب المصرى صائحين:

- "الدولارات وصلت - الدولارات وصلت ".

وبدا لهم أن المستقبل بات مضمونا.

وعندما استقبل "السادات" الرئيس الأمريكى "نيكسون" لم تكن هناك حدود للبهجة والسعادة:

"أمريكا معنا" ولهذا بدا "كيسنجر: فى الصور - التى التقطت لهما - سعيدا للغاية وضاحكا من أعماق قلبه. لقد طلب "كيسنجر" - هو والرئيس المصرى والرئيس الأمريكى وزوجاتهم - الاستمتاع بوصلة "رقص شرقيى" قامت بها الراقصة المصرية المشهورة "سهير زكى" وغنى الجميع على ألحانها وإيقاع "هزات وسطها".

- أمريكا معنا - أمريكا معنا"،

أما عن الأراضى العربية المحتلة، فهى مسألة تخص الفلسطينين وحدهم ولا تعنينا فى شيئ. نعم، من تكون الآن اسرائيل؟ إن مصر هى الأهم الآن على رقعة الشطرنج فى الشرق الأوسط بالنسبة للولايات المتحدة.

... ثم نرت الأيام، وانقضى وقت الابتهاج، وهلك السادات بصورة دراماتيكية، فماذا عن مصر؟

لقد قطعت الدول العربية العلاقات معها، ووصلت الديون الخارجية إلى حد لا سابق له، وعلى ضفاف نهر النيل الهادئة شيد رأس المال الأجنبى العديد من الفنادق للأجانب ورجال الأعمال، وعلى الجدران تنتشر شعارات وملصقات الأصوليين الاسلاميين.

كانت المبانى المنتشرة على شاطئ الاسكندرية بطرازها المعمارى المميز تثير الاعتزاز دائما، أما الآن فقد عمّتها الفوضى وتساقطت منها قطع كاملة من النقوش التى كانت تزينها. أما المعانى فإن بعضها لم يعد صالحا، وتحول البعض الآخر إلى أنقاض. إنها لوحة حزينة وموحشة ألقى بها الأهمال إلى هذه المدينة الجميلة، وتكتظ المحلات والبوتيكات بالبضائع لكن المشترون قلة - وعندما شاهدنى البائع صاح:

- الروسى؟ تانى؟ .."إنه لشىء طيب.."

لقد ورث "حسنى مبارك" - الرئيس المصرى الجديد، وضابط القوات الجوية السابق - عن سلفه "السادات" مشاكل جمه، لكنه يدرك أبعادها ويتحدث عنها بصراحة، وهكذا حدثنى عنها أثناء اللقاء معه قائلا :

- إنه من الواجب تطوير قطاع الصناعة المصرى وتحديثه، ومن المفيد أيضا التعاون مع الاتحاد السوفيتى، كما أنه من المهم انعقاد مؤتمر دولى لتسوية الوضع فى الشرق الأوسط، مع ضرورة المشاركة الفعالة فيه من جنب الاتحاد السوفيتى.

ومن جديد استأنفت جميعة الصداقة السوفيتية المصرية أعمالها ونشاطاتها، وانتعشت التجارة بين البلدين، ولاحت امكانيات وأشكال جديدة للتعاون بيننا. لقد أعادت الدول العربية علاقاتها الدبلوماسية بمصر، لقد شعرت خلال ندوة "المائدة المستديرة" التى عقدت فى مبنى أكير جرائد الشرق الأوسط .. "الأهرام" بمدى الاهتمام الزائد تجاه ما يحدث فى الاتحاد السوفيتى وتجاه البريسترويكا والمبادرات السلمية السوفيتية.

شعرت آنذاك، وفى غيرها من اللقاءات التى تمت فى أماكن متعددة،

بمدى الرضى بقرار تحسين العلاقات مع الاتحاد السوفيتى. إن المصريين يودون فهم الاتحاد السوفيتي والتعاون معه. ربما كان هذا بسبب عودة اسم "جمال عبدالناصر" إلى الشارع المصرى من جديد.

إن بسطاء الشعب المصرى يدركون جيدا ماذا قدم لمصر التعاون مع الاتحاد السوفيتى، وهذا هو "السد العالى" الذى وقى مصر من الجفاف والفيضانات مرات كثيرة، بالإضافة إلى كونه مصدرا رخيصا للطاقة الكهربائية التى تُشغِّل مجمع الألومنيوم بنجع حمادى، والذى شيد أيضا بالمساعدة السوفيتية وكذلك الضوء والطاقة التى يمد بها قرى ومدن مصر من أقصاها إلى أقصاها، وأيضا "مجمع الحديد والصلب" "بحلوان" أنه واحد من القلاع الشامخة للتعاون السوفيتى المصرى.

باختصار تمتلك مصر قاعدتها الصناعية التى يمكن تطويرها والسير بها إلى الأمام - لقد ذكر كثيرون من المصريين الذين التقيت بهم - بامتنان كبير - العديد من المشروعات الهامة التى كانت ثمرة التعاون بين البلدين، وبالطبع فقد تذكر جميع من التقيت بهم من رئيس الدولة وحتى أصغر ضابط الدور الحاسم للمساعدة السوفيتية فى تحقيق النصر فى حرب أكتوبر التحريرية عام ١٩٧٣.

وماذا عن الولايات المتحدة الأمريكية؟

لقد خجل كل من تحدثوا معى أن يقولوا شيئا عن "التعاون" معها. نعم أننى لا أبالغ فإن هذا له أسبابه، فإذا كان الكثيرون قد أدركوا جوهر المساعدة السوفيتية النزيهة ودورها فى توطيد استقلال البلاد، فعلى العكس تماما كانت المساعدة الأمريكية الرامية إلى ربط مصر بها، وضمان تبعيتها لها. إنهم يدركون أن ما جاءت به سنوات السبعينات

على مصر ليس بالأمر السهل.

كنت سعيدا للغاية بزيارتي للقاهرة في ديسمبر عام ١٩٨٧، وكان من دواعي سعادتي إدراكي أن ما قدمته بلادنا وخبراؤنا من مجهود طيب في هذا البلد لن يطويه النسيان، ذلك إن الشعب المصري يقدره عاليا، وهذا يعني أن هناك مستقبل مشرق للعلاقات السوفيتية المصرية.

كتاب **الأهالى** أول أبريل ١٩٩٠

الإسلام والعرش

الدين والدولة فى السعودية

مؤلف هذا الكتاب فلسطينى الأصل، يعمل أستاذاً للعلوم السياسية بمركز دراسات العالم النامى بجامعة ماكجيل بكندا.
والكتاب يتناول بالدراسة والتحليل طبيعة السلطة فى واحدة من أهم الدول العربية والإسلامية ومن أكثرها تأثيراً فى مجريات السياسة العربية الراهنة وهى المملكة العربية السعودية. وذلك من خلال معلومات دقيقة وموثقة حول تركيبة النخبة الحاكمة من الأسرة السعودية، والعلماء، وحول التيارات السياسية المعارضة للحكم.. وحول طبيعة الصلة بين الدين والدولة.

ترجمة : سيد زهران

صدر من
كتاب الأهالى

١- خالد محيى الدين: مستقبل الديمقراطية فى مصر

- إطلالة على التاريخ وتحليل للواقع واستشراف للمستقبل، لا يروى من تاريخ الديمقراطية المصرية إلا تلك الخطوط العريضة التى تمكن قارئه من الإمساك بمفاتيح مشكلة الديمقراطية فى مصر قبل ثورة يوليو وأثناءها.

(١٢٣ صفحة - صدر فى مارس ١٩٨٤ - نفد)

٢ - د. محمد أحمد خلف الله: الأسس القرآنية للتقدم

- دراسة تنطلق من رؤية تقول إن القرآن الكريم هو الكتاب الذى أنزله الله على نبيه ليبلغه للناس، بلاغاً مضمونه هو مطالبة المجتمع أولا - وقبل كل شيئ - بإحداث تغييرات جذرية، فى الآراء والمعتقدات وفى التقاليد والعادات والقيم.

(١٤٤ صفحة - صدر فى يونيو ١٩٨٤ - الثمن ٥٠ قرشا)

٣-د.إبراهيم العيسوى: فى إصلاح ما أفسده الانفتاح

- استعاض لما أفسدته سياسة الانفتاح الاقتصادى فى مجالات الاقتصاد والاجتماع والسياسة وتناول لعدد مختار من المشكلات ذات الطابع الاقتصادى بمنظور مجتمعى متكامل وشامل ويعنى بتقديم بعض الحلول التى يمكن تنفيذها دون تغير جذرى، لكنه لا يهمل قضية التغيير الاجتماعى المطلوب على المدى الأبعد.

٤ - د. سعيد إسماعيل على:"محنة التعليم فى مصر"

- استعراض للمشكلات التى يعانى منها التعليم المصرى، مما يعوقه عن أن يكون أداة فعالة فى تطوير المجتمع وتقدمه ويدق ناقوس الخطر ليستحث همم الجميع سعياً وراء تجاوز المحنة التى يمر بها التعليم

المصرى.

(٢٦٤ صفحة - صدر فى نوفمبر ١٩٨٤ - الثمن جنيه واحد)

٥ - فريق من خبراء الاقتصاد بالتجمع: دعم الأغنياء ودعم الفقراء

- النص الكامل للتقرير الذى رفعه التجمع للرئيس مبارك حول رأى الحزب فى مشكلة الدعم، وهو معالجة موضوعية رصينة اشترك فى إعدادها كوكبة من ألمع العقول الاقتصادية فى مصر، هم الدكاترة "إبراهيم سعدالدين" و"ابراهيم العيسوى" و"إسماعيل صبرى عبدالله" و"جودة عبدالخالق" و"فؤاد مرسى" و"محمود عبدالفضيل".

(١٦٨ صفحة- صدر فى إبريل ١٩٨٥- الثمن ٥٠ قرشا)

٦ - فيليب جلاب: هل نهدم السد العالى؟

- مواجهة صريحة للحملة التى استهدفت اتهام السد العالى، بإنه سبب كل كوارث مصر، وتحليل لأهادف تلك الحملة، التى اكتشف أصحابها فيما بعد، وبخجل قليل أن السد العالى هو الذى حمى مصر من الجفاف والتصحر.

(١٤٤ صفحة - صدر فى يونيو ١٩٨٥ - الثمن ٥٠ قرشل)

٧-ديفيد لاندز/ترجمة وتقديم د. عبدالعظيم أنيس: بنوك وباشوات

- واحد من أخطر الكتب الأمريكية، التى تعتمد على وثائق عثر عليها مؤلفه فى أرشيف سرى، تكشف جانبا خطيرا من قصة النهب الأوروبى لثروة مصر فى عهد أسرة محمد على، والوصول بها إلى مرحلة الخراب ثم الاحتلال، قدم له المترجم، بدراسة بعنوان "الخراب، الحديث لمصر المحروسة".

(٣١٦ صفحة - صدر فى أغسطس ١٩٨٥ - الثمن ١٢٥ قرشا)

٨ - فريق من المتخصصين فى السياسة الدولية: محاكمة ريجان

- مختارات من الأبحاث التى قدمها فريق من المتخصصين فى الشئون الدولية ينتمون لجنسيات شتى، إلى محاكمة أدارتها منظمة

التقدم العالمى، حول جرائم عهد ريجان، ترجمها وقدّم لها "بيومى قنديل" وراجعها وعلق عليها "محمد سيد أحمد".

(٢٢٤ صفحة - صدر فى أكتوبر ١٩٨٥ - الثمن جنيه واحد).

٩ - د. سعيد إسماعيل على: إنهم يخربون التعليم

- يستكمل المؤلف فى هذا الكتاب دراسة عدد آخر من مشكلات التعليم فى مصر التى ناقش بعضها فى كتابه "محنة التعليم فى مصر من خلال نظرة مجتمعية تربط التعليم عضويا بالبنية الأساسية للمجتمع.

(٢٦٨ صفحة - صدر فى يناير ١٩٨٦ - الثمن جنيه واحد)

١٠ - ثلاثة مؤلفين إسرائيليين: حدث فى كامب ديفيد

- يروى هذا الكتاب القصة السرية لمبادرة السلام الساداتية على لسان ثلاثة من الصحفيين الإسرائيليين الذين أتيح لهم أن يطلعوا على كثير من أدرار ما جرى بين السادات ومعاونيه، وبين الطفين الأمريكى والإسرائيلى فى مفاوضات كامب ديفيد.

- والمؤلفين الثلاثة هم: "ايتان هابر" - المراسل العسكرى لصحيفة "يديعوت احرونوت" و"زيف شيف" - المحلل العسكرى لصحيفة "هاأرتس" و"ايهود يعارى" - رئيس الشئون العربية فى التليفزيون الإسرائيلى، وقد وثق مترجم الكتاب "إبراهيم منصور" الرواية الإسرائيلية فقارنها بما كتبه اثنان من وزراء خارجية مصر، هما "إسماعيل فهمى" و"محمد إبراهيم كامل" ...٣,٠٠ مسئولين أمريكيين هم: "جيمى كارتر" و"وليام كوانت" و"بريزنسكى" ومسئولان إسرائيليان هما: "موشى ديان"، "ايرزفايتسمان".

(٧٥٢ صفحة - صدر فى يوليو ١٩٨٦ - نفد)

١١ - لطفى الخولى: مدرسة السادات السياسية واليسار المصرى

- توصيف وتحليل للخلاف الجذرى بين رؤية السادات السياسية رؤية

فصائل اليسار المصرى، للقضايا الرئيسية التى تتعلق بمستقبل الشعب والوطن والأمة، يستند الكتاب إلى مجموعة لقاءات جمعت بين المؤلف والسادات خلال العام ١٩٧٤ وما قبله، وهو يعتبر نبوءة مبكرة لما آل إليه حال السادات وانتهى بفاجعة المنصة.

(٣٢٠ صفحة – صدر فى نوفمبر ١٩٨٦ – نفد)

١٢ – محمد إبراهيم كامل : السلام الضائع فى كامب ديفيد

– أخطر المذكرات السياسية التى صدرت فى التاريخ العربى المعاصر وتكشف جانبا من أسرار المفاوضات التى انتهت بتوقيع اتفاقيات كامب ديفيد، وأدت إلى خروج مصر من المواجهة مع العدو الصهيونى

– وتكمن قيمة هذه المذكرات فى أن صاحبها استقال من منصبه كوزير للخارجية المصرية بعد تسعة شهور فقط. قدم للطبعة المصرية فتحى رضوان.

(٦٦٤ صفحة – صدر فى يناير ١٩٨٧ – الثمن خمسة جنيهات).

١٣ – بهجت: حكومة وأهالى وخلافه

– مختارات من رسوم الكاريكاتير التى ينشرا على صفحات الأهالى فنان الكاريكاتير اللامع "بهجت عثمان" وعالجت ثنائية "حكومة وأهالى" الشهيرة. قدم لها "صلاح عيسى" بدراسة عن نشء وتطور فن الكاريكاتير فى مصر ..

(١٦٠ صفحة – طباعة فاخرة – لونان – صدر فى مارس ١٩٨٧ – الثمن ٣٥٠ قرشا).

١٤ – خليل عبد الكريم: لتطبيق الشريعة لا للحكم

– يناقش المؤلف – وهو أحد كتاب اليسار الإسلامى اللامعين – فى هذا الكتاب التفسير الشائع على ألسنة المطالبين بتطبيق الشريعة للآيات التى يستندون إليها فى هذه المطالبة، كما يناقش مطلبهم بتطبيق الحدود الإسلامية فورا، وفى ظل الظروف الاجتماعية التى

...

تسود المجتمعات الإسلامية الآن ..

(١٢٨ صفحة – صدر فى مايو ١٩٨٧ – الثمن ٥٠ قرشا).

١٥ – د. غالى شكرى: الثورة المضادة فى مصر

– تحليل علمي، ومتابعة دقيقة للجذور الاقتصادية والاجتماعية التى بذرت ببذور الثورة المضادة فى مصر، وأدت إلى نضوج ثمارها من خلال رؤية تقول إن انقلاب السادات فى مايو ١٩٧١ كان نتاجا طبيعيا لأخطاء وتشوهات فى الرؤية والممارسة وقعت فيها الحقبة الناصرية، التى زحفت الثورة المضادة على إنجازاتها وسلطتها.

(٥٣٦ صفحة – صدر فى سبتمبر ١٩٨٧ – الثمن خمسة جنيهات)

١٦– من كتّاب وفنانى "الأهالى" : لهذا نعارض مبارك

– يتضمن هذا الكتاب ٩٤ مقالا وعشرات الرسوم الكاريكاتورية التى نشرت على صفحات جريدة الأهالى بين مايو ١٩٨٢ وأكتوبر ١٩٨٧، وتناولت حوارا أو اختلافا أو معارضة لممارسات وأقوال، كان طرفها الثانى هو الرئيس مبارك، وهو تسجيل أمين لتطور موقف حزب التجمع من إدارة الرئيس مبارك.

(٥١٢ صفحة – صدر فى أكتوبر ١٩٨٧ – الثمن ثلاثة جنيهات).

١٧ – كامل زهيرى: النيل فى خطر

– صرخة وطنية تحذر من مخطط إسرائيلى يريد تحويل مياه النيل عبر سيناء صحراء النقب، وتنبه إلى الحلم الصهيونى القديم (١٩٠٣) الذى أصبح مشروعا جديدا (١٩٨٠) يقدم تفاصيل المشروعين عبر حقائق ووثائق وقد أضاف إليها كبرى المعارك بين عامى ١٨٧٩ و ١٩٨٠ دفاعا عن النيل ضد الأطماع الصهيونية (٢٨٠ صفحة – صدر فى يناير ١٩٨٩ – الثمن ٣ جنيهات).

١٨ – محمد عبد السلام الزيات : السادات . . القناع والحقيقة

– كان محمد عبدالسلام الزيّات فى بؤرة الأحداث إلى جانب السادات.

لكن عندما اكتشف الناس الخديعة، كان "الزيات" أول المخدوعين. فانبرى يعارض السادات، حتى أصدر كتابه "مصر إلى أين؟". فأمر السادات بمصادرة الكتاب.

وملاحقة الكاتب، حتى أودعه السجن ضمن حملة سبتمبر ١٩٨١. وخرج "الزيات" من السجن وقد عقد العزم على أن يزيح القناع عن وجه السادات نفسه ولولا ذلك ما كان هذا الكتاب، فجاء شيئا متميزا.

(٣٦٣ صفحة – صدر فى فبراير ١٩٨٩ – الثمن ٣,٥ جنيه).

١٩ – د. إبراهيم سعد الدين: أزمة النظام الاشتراكى

يطرح الكتاب بعض الملاحظات ول بعض القضايا الأساسية للإدارة السياسية للمجتمعات الاشتراكية وينتهى بخاتمة تتضمن تلخيصا لأهم الدروس التى يمكن أن تخرج بها الحركة التقدمية العربية من الوعى والمعرفة والإلمام بتجارب من سبقوها بما فيها من إيجابيات، وسلبيات ويدعو إلى مناقشة وحوار ما جاء من آراء لتصويبها وتصحيحها.

(٢٠٤ صفحة – صدر فى مارس ١٩٨٩ – الثمن ٢,٥ جنيه).

٢٠ – د.فؤاد مرسى: نظرة ثانية إلى القومية العربية

يقدم الكتاب العالم العربى فى أزمته المستحكمة. وهى أزمة بمعنى معين هو أن أغلبها جرى ويجرى فى هذا العالم منذ هزيمة ١٩٦٧ يعارض حركة التاريخ. فالقومية العربية حركة تاريخية تعبر فى الواقع عن حتمية تاريخية موضوعية هى حتمية انتصار حركة التحرر الوطنى العربية، لكن هذه الحتمية التاريخية لا تصنع نفسها بنفسها، وإنما تحتاج لنضال البشر الواعى كى تتحقق.

(١١٨ صفحة – صدر فى إبريل ١٩٨٩ – الثمن جنيه ونصف).

٢١ – د. إبراهيم العيسوى (تحرير) خطة التنمية الحكومية – الأحلام والواقع والبديل الجاد

انتهت فى ٣٠ يونيو ١٩٨٧ الخطة الخمسية الأولى، وبدأت خطة

خمسية جديدة تنتهى فى ١٩٩٢ - وتقوم خطة التنمية الحكومية على استراتيجية غير مكتوبة، هى استراتيجية استمرار التبعية

من هنا كان التقرير الذى أعده أثنا عشر خبيراً من خبراء التجمع (وهو محور هذا الكتاب) عن الخطتين الخمسيتين، يقدم بديلاً يساعد على اجتياز الأزمة الاقتصادية الراهنة، ووضع أسس لانطلاقة اقتصادية واجتماعية، تحقق التطلعات المشروعة للجماهير، وينتهى بتقدير لخطط الحكومة وسياساتها.

٢٢ - د.لطيفة الزيات: نجيب محفوظ: الصورة والمثال

تقدم هذا الكتاب عن روائى عظيم هو نجيب محفوظ، ناقدة من أبرز وأهم نقاده، وهى الدكتور لطيفة الزيات أستاذ النقد الأدبى بكلية البنات جامعة عين شمس.

ويضم الكتاب مجموعة المقالات التى اندرجت فى التراث النقدى كأعمال لا يستغنى عنها أى دارس أو قارئ متعمق لنجيب محفوظ، وهى اللص والكلاب، الطريق، الشحاذ، والشكل الروائى عند نجيب محفوظ من اللص والكلاب إلى ميرامار . وفى كل من هذه المقالات تركز الناقدة على نص من النصوص بهدف إلقاء الضوء على عالم نجيب محفوظ فى مكتمله، وتبدأ من الجانب التقنى لتنتهى بتحديد العالم الفكرى والفلسفى الذى يصدر عنه النص.

فهرس

الكتـــاب الثانـــى

حقبة غامضة من تاريخ مصر (ص. ٣٢٥ - ص . ٤٥٠)

صدر من كتاب " الأهالى "

سقط سهوا كلام الصور وبيانه كالآتي

● ● ● ●

رقم الايداع ٣٠٧٤ / ٩٠

هـذا الكـتـاب

يضم هذا الكتاب بين غلافه كتابين ، وتضطرم بين دفتيه عشرات الحوادث ، وعشرات الأبطال ..

ومعظم أبطاله أسماء لامعة ، لعبت أدواراً مؤثرة ، فى تاريخ مصر ، وفى التاريخ العربى ، وفى تاريخ العالم ..

ومن النوع الأول هناك : « مصطفى النحاس » و « الملك فاروق » و « مكرم عبيد » و « طه حسين » و « محمود فهمى النقراشى » و « اللورد كيلرن » و « أنور السادات » و « جمال عبد الناصر » و « شعراوى جمعة » و « الفريق محمد فوزى » و « سامى شرف » و « اسماعيل فهمى » و ..

ومن النوع الثانى هناك : « رياض الصلح » و « بشارة الخورى » و « شكرى القوتلى » و « فيليب تقلا » و « نورى السعيد » ..

ومن النوع الثالث هناك : « ستالين » و « مولوتوف » و « كوسيجين » و « نيكسون » و « كيسنجر » و « روزفلت » و « تشرشل » ..

وهناك عشرات غير هؤلاء .. وهؤلاء .

وكل واحد من هذين الكتابين الفه سفير للاتحاد السوفيتى فى مصر ، وضمنه مذكراته وذكرياته عن فترة عمل بها ، وكانت بالمصادفة فترة حرب ..

كان الأول سفيراً لموسكو فى القاهرة ، خلال الفترة الفاصلة فى تاريخ الحرب العالمية الثانية .. وكان الثانى سفيرا لها خلال حرب أكتوبر ١٩٧٣ ..

وخلال الأعوام الثلاثين التى فصلت بين الحربين .. تغيرت مصر ، وتغير الوطن العربى ، وتغير العالم : إنهار النظام الملكى ليحل محله النظام الناصرى .. وكانت خطى الانقلاب على توجهات ثورة ٢٣ يوليو قد بدأت ..

ولأنه كتاب يتعلق بنا نحن المصريين والعرب ، أكثر مما يتعلق بالاتحاد السوفيتى .. فقد نشرناه .. ٠

« كتاب الأهالى »